جامعة العلوم الإسلامية العالمية

كلية الدراسات العليا

قسم اللغة العربية وآدابها

الدرس اللغوي في سورة المائدة: دراسة نصية لسانية

إعداد

نسيبة خميس جاسم " المحمد الجبر"

إشراف

أ.د عودة خليل أبو عودة

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات درجة دكتوراه في الدراسات اللغوية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية

تاريخ المناقشة: عمان، الأحد ٢٠١٥/٥/٢٤م

قرار لجنة المناقشة

الدرس اللغوي في سورة المائدة: دراسة نصية لسانية

Linguistic Studies in Surat "Al Mae'dah" (lingual text study)

إعداد

نسيبة خميس جاسم المحمد الجبر

إشراف

أ.د عودة خليل أبو عودة

نوقشت هذه الأطروحة وأجيزت بتاريخ: ٢٤/٥/٢٠١٥م

أعضاء لجنة المناقشة:

الدكتور	الجامعة	التوقيع
أ.د عودة أبو عودة (مشرفًا ورئيسًا)	جامعة العلوم الإسلامية العالمية	....
أ.د عبد الرزاق السعدي (عضوًا)	جامعة العلوم الإسلامية العالمية	....
د. ناصر إبراهيم النعيمي (عضوًا)	جامعة العلوم الإسلامية العالمية	....
أ.د محمد حسن عواد (عضوًا)	الجامعة الأردنية	....

The World Islamic Science & Education University (WISE)

Faculty of Graduate Students

Department of Arabic Language and Literature

Linguistic Studies in Surat "Al Mae'dah"
(lingual text study)

By

Nusiaba KH. J. "Almohammad AlJaber"

Adviser

Prof. Audeh Khalil Abu Audeh

"A Dissertation submitted in partial fulfillment of the requirement for the degree of Doctor of Philosophy in Linguistic Studies at the World Islamic Sciences and Education University"

The World Islamic Sciences and Education University

Debate Place & Date: Amman, Sunday 24/5/2015

تفويض

أنا الطالبة: نسيبة خميس جاسم " المحمد الجبر"، أفوض جامعة العلوم الإسلامية العالمية بتزويد نسخ من رسالتي الموسومة "سورة المائدة، دراسة نصية لسانية" للمكتبات، أو المؤسسات، أو الهيئات، أو الأشخاص عند طلبها.

اسم الطالبة: نسيبة خميس جاسم " المحمد الجبر".

التوقيع:...

التاريخ:..

الإهداء

إلى الأم الحنون والأب الغالي؛ اللّذَيْن أنارا دربي بسراج العلم والإيمان، وغرسا في قلبي جذور الصبر والسلوان، فكانت تضحياتهما كبيرة، وكان البرّ بهما من أعظم القربات إلى الله سبحانه وتعالى.

إلى أساطين العلم ونوابغه، من أنارت علومهم الدنيا، وخطّت مثابرتهم الطريق لطلاب العلم من بعدهم، من كان صدقهم وإخلاصهم في العلم منارة لمن بعدهم، إنّهم علماؤنا الأجلاء في علوم التفسير واللغة، ننهل من علمهم و نسير على خطاهم، وأنّى لنا أن ندرك يسيرًا مما وصلوا إليه، ننسب أنفسنا إلى علمهم ولسنا منهم.

إلى من أنار لي الدرب، إليك يا من أعطيتني الكثير من دروب العلم والمعرفة؛ إلى أستاذي الدكتور عودة أبو عودة.

إلى زوجي العزيز الذي ساندني حتى أواصل مسيرتي العلميّة، وأضاء في دربي مشاعل الأمل والعطاء، وكان لي نعم العون والسند، أسامة.

إلى الرياحين التي عبق بها بستان حياتي، إخوتي وأخواتي.

إلى ولدي وفلذة كبدي الذي أضاء لي نور الحياة عبد الرحمن.

إلى رفاق الدرب وأحباب القلب الذين شاركوني أجمل أيام حياتي على مقاعد الدراسة.

إلى كل من وقف إلى جانب في مشواري الدراسي أهدي ثمرة جهدي المتواضع.

شكر وتقدير

اللهم لك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه ، ملءَ السمواتِ وملءَ الأرضِ ، وملءَ ما شئتَ من شيء بعدُ ، أهلَ الثناءِ والمجدِ ، أحقُّ ما قال العبدُ ، وكلُّنا لك عبدٌ ، أشكرك ربي على نعمك التي لا تعدُّ ، وآلائك التي لا تحدُّ ، أحمدك ربي وأشكرك على أن يسرت لي إتمامَ هذا البحثِ على الوجه الذي أرجو أن ترضى به عني .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة؛ الذي تفضّل مأجورًا مشكورًا بالإشراف على هذه الرسالة، وتكرّم عليّ بِوَقْتِهِ، وجُهده، وتوجيهاته، وملاحظاته، ونصائحه التي استفدت منها كثيرًا حتى استوت هذه الأطروحة على هذا الوجه، وأدعو الله أن يجعل عِلمه في ميزان حسناته، ويجزيَه عني أفضل الجزاء، وخير الثواب، وأن ينفع به طلبة العلم والعلماء على حد سواء، ويطيل في عمره، ويحسن عاقبته، وأقدم شكري إلى أساتذتي في كلية الدراسات العليا، الذين وهبوني حب العلم والبحث الجادّ.

وأتقدم بجزيل الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة على قراءتهم لرسالتي، وتوجيهاتهم التي تسعى لإخراج الرسالة في أحسن صورة؛ من خلال إسهامهم بتقييم هذه الرسالة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس الموضوعات	هـ
ملخص الأطروحة باللغة العربية	ط
ملخص الأطروحة باللغة الإنجليزية	ي
المقدمة	١
الفصل الأول: مقدمات ضرورية في موضوعات الرسالة	٧
المبحث الأول: مقدمة في نحو النص	٨
المطلب الأول: الدراسات اللغوية القديمة	٨
المطلب الثاني: من نحو الجملة إلى نحو النص	١٠
المطلب الثالث: مفهوم النص	١٢
١. مفهوم النص لغة عند العرب	١٢
٢. مفهوم النص لغة عند الغرب	١٤
٣. مفهوم النص اصطلاحًا	١٥
المطلب الرابع: بين النص والخطاب	١٧
المطلب الخامس: المعايير النصية السبعة	١٨
أولا: السبك	١٨
أ- السبك النحوي	١٨
١- الإحالة	١٩
٢- الاستبدال	١٩
٣- الحذف	٢٠
٤- الربط	٢١
ب- السبك المعجمي	٢٢
١- التكرار	٢٢

٢- التضام المعجمي	٢٣
ثانيا: الحبك	٢٤
ثالثا: القصدية	٢٦
رابعا: الإعلامية	٢٧
خامسا: التقبلية	٢٩
سادسا: المقامية	٣٠
سابعًا: التناص	٣٢
المطلب السادس: تعريف نحو النص	٣٥
المبحث الثاني: التعريف بسورة المائدة	٣٦
أولاً: التعريف بالآية والسورة	٣٦
ثانيًا: توقيفية أسماء سور القرآن وترتيبها	٣٩
ثالثا: التعريف بالسورة	٣٩
١. آياتها	٣٩
٢. نزولها	٣٩
٣. فضائلها	٤٠
٤. أسماؤها	٤١
٥. حقيقتها	٤٢
٦. ما تنفرد به السورة	٤٣
٧. موضوعاتها ومقاصدها	٤٣
الفصل الثاني: المناسبات وأثرها في ترابط النصّ القرآني	٤٦
تمهيد	٤٧
المبحث الأول: المناسبة بين اسم السورة ومضمونها	٤٨
المبحث الثاني: المناسبة بين الآيات	٥١
المبحث الثالث: المناسبة بين أول السورة وآخرها	١٠٩
١. الوفاء بالعقود	١١٠
٢. أحكام الحلال والحرام	١١١
٣. تحريم الصيد وتحليله	١١٣
٤. المواثيق	١١٤

٥. التناسب بين آيتين: (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ) وامتداداته في السورة وعلاقته بقوله تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ)	١١٥
٦. الشعائر	١١٨
٧. الأنصاب والأزلام والميسر	١١٩
٨. الشهادة لله بالقسط	١١٩
٩. النعمة	١٢٠
١٠. المسيح عيسى عليه السلام وموقف اليهود والنصارى منه	١٢٢
١١. دعوة أهل الكتاب للإيمان	١٢٣
١٢. الحكم لله عز وجل	١٢٤
١٣. تبليغ الرسول ﷺ	١٢٥
المبحث الرابع: المناسبة بين أقسام السورة	١٢٦
١. القسم الأول: مواثيق المسلمين	١٢٦
٢. القسم الثاني: مواثيق بني إسرائيل	١٢٧
٣. القسم الثالث: أحكام تشريعية	١٢٨
٤. القسم الرابع: كشف خفايا اليهود للنبي ﷺ	١٢٩
٥. القسم الخامس: تحذير المسلمين من موالاة اليهود	١٢٩
٦. القسم السادس: موقف اليهود من أوامر الله عز وجل	١٣٠
٧. القسم السابع: تشريعات إسلامية	١٣١
٨. الخاتمة: مشاهد من يوم القيامة	١٣٣
المبحث الخامس: المناسبة بين ما قبلها وما بعدها من السور	١٣٤
أولا: علاقة سورة المائدة مع ما قبلها وما بعدها من السور	١٣٤
ثانيًا: علاقة سورة المائدة بسورة النساء	١٣٨
ثالثًا: علاقة سورة المائدة بسورة الأنعام	١٤١
رابعًا: علاقة سورة المائدة بسورتي الممتحنة والحجرات	١٤٣

الفصل الثالث: ألوان الخطاب في سورة المائدة وخصائصه	١٤٦
تمهيد	١٤٧
المبحث الأول: خطاب الله ﷻ للأنبياء	١٤٨
أولا: خطاب الله ﷻ للرسول ﷺ	١٤٨
ثانيًا: خطاب الله ﷻ لموسى عليه السلام	١٦٦
ثالثا: خطاب الله ﷻ لعيسى عليه السلام	١٦٦
المبحث الثاني: خطاب الله ﷻ للأقوام	١٦٧
أولا: خطاب الله ﷻ للمؤمنين	١٦٧
ثانيًا: خطاب الله ﷻ لبني إسرائيل	٢٣٩
ثالثا: خطاب الله ﷻ للنصارى	٢٦٣
رابعًا: خطاب الله ﷻ لأهل الكتاب	٢٧٩
المبحث الثالث: خطاب الأقوام	٢٩١
أولا: خطاب الأقوام لأنبيائهم	٢٩١
ثانيًا: خطاب الأقوام بعضهم لبعض	٢٩٢
المبحث الرابع: الخطاب القصصي	٢٩٤
أولا: قصة موسى عليه السلام مع قومه	٢٩٤
ثانيًا: قصة ابني آدم عليه السلام	٣٠٤
ثالثا: قصة عيسى عليه السلام	٣١١
الخاتمة	٣٤٥
المصادر والمراجع	٣٤٧

الملخص

الدرس اللغوي في سورة المائدة: دراسة نصيّة لسانيّة

إعداد

نسيبة خميس جاسم " المحمد الجبر"

إشراف

أ.د عودة خليل أبو عودة

تاريخ المناقشة: عمان، الأحد ٢٠١٥/٥/٢٤م

تكونت هذه الدراسة الموسومة بـ : الدّرس اللّغوي في سورة المائدة، دراسة نصيّة لسانيّة من مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة.

ذكرتُ في المقدمة السبب الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع، وبيّنتُ أهميّة هذه الدراسة ومنهجها، وعرضت الدراسات السابقة لها.

وفي الفصل الأوّل الذي تكون من مبحثين أولهما: مقدمة في نحو النص؛ تحدثتُ فيه عن الدراسات اللغوية السابقة لنحو النص، ثم بيّنت كيفية انتقال الدراسة اللغوية من نحو الجملة إلى نحو النص، وبينتُ مفهوم النصّ والفرق بينه وبين الخطاب، وعرضتُ المعايير النصيّة السبعة، وتوصلتُ من خلال ذلك إلى تعريف نحو النصّ، وفي كل ذلك كنت أعرض الدراسات العربية والغربية مبيّنة أسبقيّة العرب في هذا المضمار، وشواهد النصوص في هذا الباب.

أما المبحث الثاني فكان بعنوان: التعريف بسورة المائدة، فعرّفتُ معنى الآية والسورة لغة واصطلاحًا، وتحدثتُ عن توقيفيّة أسماء سور القرآن، ثم عرّفتُ بسورة المائدة من حيث عدد آياتها، ونزولها، وفضائلها، وأسماؤها، وما انفردت به من ظواهر، ومن ثمّ موضوعاتها ومقاصدها.

أما الفصل الثاني: فقد تناول الحديث عن المناسبات وأثرها في ترابط النصّ القرآنيّ، فدرست المناسبة بين اسم السورة ومضمونها، ثم المناسبة بين الآيات، ثم المناسبة بين أول السورة وآخرها، ثم المناسبة بين مقاطع السورة، ثم المناسبة بين السورة مع ما قبلها وما بعدها من السور.

أما الفصل الثالث: فقد تناول ألوان الخطاب في السورة وخصائصه، وقسّمته لعدة مباحث الأول هو: خطاب الله تعالى لأنبيائه، والثاني: خطاب الله تعالى للأقوام من المؤمنين، وبني إسرائيل، والنصارى، وخطابه لكليهما معًا، بعنوان خطاب أهل الكتاب، والثالث: خطاب الأقوام لأنبيائهم، ولبعضهم، وأفردت الخطاب القصصي بالمبحث الرابع، إذ احتوت السورة على ثلاث قصص، هي: قصة موسى عليه السلام مع قومه، وقصة أبني آدم عليه السلام، وقصة عيسى عليه السلام، عُرضت في مشهدين من مشاهد يوم القيامة، وآخر مع قومه حين طلبوا منه المائدة.

وفي كل مبحث من المباحث السابقة ربطت آيات السورة بعضها ببعض لرسم الموضوع كاملاً من خلال العلاقات القائمة بين الآيات والتراكيب، وعرضت لما هو متشابه معها من آيات القرآن في سور أخرى مع بيان ميزة كل سياق منها، إذ القرآن نص واحد لا يقبل التجزئة، وجميع سياقاته يكمل بعضها الآخر. وبينت في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

Abstract

Linguistic Studies in Surat "Al Mae'dah"

(lingual text study)

By

Nusiaba KH. J. "Almohammad AlJaber"

Advisor

Prof. Audeh khalil Abu Abu Audeh

Debate Place & Date: Amman, sunday 24/5/2015

The "Linguistic lesson in Surat Al Mae'dah, Script Linguistic Study" is a study that discuses many issues related to Surat Al Mae'dah including the linguistic sides of the Surah. The study consists of an introduction, three chapters, and a conclusion.

In the introduction of this study. I illustrated the reason behind selecting this topic demonstrating the importance of this study and its approach, and mentioned the previous studies.

The first chapter of the study consists of two sections, the first is an introduction to text syntax where I explained the pre-linguistic syntax studies, then I explained how was the linguistic studies turned form sentence syntax to text syntax explaining the text concept and how it differs from speech.

I also exhibited the seven standards and came out with the text syntax definition. In all these stages, I was demonstrating the Arabic and western studies, proving the seniority of Arabs in this field and their examples in this lesson.

In the second chapter ,entitled as informing about Surat Al Mae'dah, I defined the meaning of "Ayah" and "Surah" in lingo and as an idiom. I also illustrated the limitation of naming Quran Surah to God, then I specified it's (Ayah) Numbers, its revealing time and occasion, virtues, names, the features it distinguished by, and its subjects and aims.

I handled the events and its consequences in the Quran text thread. I studied the harmony relation between the Surah and its content, between verses' (Ayah), between the Surah preface and it's end, between the divisions (parts) of the Surah, and between it and the previous and next Surah.

The third chapter handled the speech types and characteristics. It was divided to several topics. The first is God's speech to his prophets. The second is his speech to the faithful, the children of Israel, Christians, and to both of them (the children of Israel and Christians) under the title of God's speech to the people of the book. The third is the nation's speech to their prophets and among themselves.

While I assigned the forth topic for the stories telling, as it consisted three stories, Moses story, the two children of Adam, and Jesus stories in two

scenes of the last day, another with his nation when they asked a table spread of food from heaven.

In each one of the above topics, I illustrated the link between each Ayah and the others of the same Surah to form a comprehensive picture for the whole subject through the existed relation between Ayahs and structures, I presented similar Ayahs from other Surah taking into consideration the attribute of each one with its context. As Quran is an undividable text, each context is a complimentary of the others. Finally, I demonstrated the outcomes of the study in its conclusion.

المقدمة

هذه الرسالة الموسومة بـ : " الدرس اللغوي في سورة المائدة، دراسة نصيّة لسانيّة"، تحاول أنْ تعالج سورة المائدة معالجة نصيّة من خلال ربط الآيات بعضها ببعض، وربط مواضيع السورة بعضها ببعض، وكذلك ربط السورة في سياقها مع ما يسبقها وما يلحقها من السور، مع إبراز الأصول المتّبعة في نحو النص حديثًا، بالإضافة إلى طريقة القدماء في الدراسة من خلال مباحث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والإضمار والإظهار، والوصل والفصل، حيث يُراعى في ذلك كله مقتضى الحال.

ورغم كثرة تطرق الباحثين لموضوع نحو النص وتطبيقاته على مختلف النصوص العربية؛ إلا أنّهم مما اطلعت عليه لم يكن مدروسًا من خلال ربطه بغيره من النصوص، أو بدراسة جزئياته مفصلة ومرتبطة بالدلالة.

ولما كان مصدر هذه الدراسة القرآن الكريم الذي يقوم على انسجام لغوي بلغ الغاية في الإعجاز البياني؛ فقد احتوت سورة المائدة على أنواع متعددة من الخطاب، فورد خطاب الله تعالى للمؤمنين كما ورد فيها الخطاب لليهود والنصارى، وهي من آخر سور القرآن نزولاً، وفيها توجيهات كثيرة للمسلمين فيما عليهم أن يتخلّقوا به، وكيف يكون تعاملهم مع أهل الكتاب؛ إذ بيّنت الآيات دقائق مواقفهم، ودخائل نفوسهم، وأسرار شخصياتهم.

فموضوع بهذا القدر من الأهمية جديرٌ بأنْ تتناوله الدراسات اللغوية الحديثة؛ لنستشرف بعض أسرار إعجاز القرآن الكريم، ونقف متدبرين أسلوبه وبلاغته التي أعجزت أرباب الفصاحة والبيان عن الإتيان بمثله، وهو النموذج الذي نسعى للوصول إليه في كتاباتنا الأدبية.

أهداف الدراسة:

تناولت دراسات كثيرة كتاب الله - عز وجل – بالوصف، والتحليل، والتفسير قديمًا وحديثًا، وتنوّعت مناهج العلماء في تفسيره وتأويله، والبشر مختلفون في عقولهم، وعلومهم، وقوة فهمهم واستنباطهم، وهذاالأمر اقتضته حكمة الله تعالى، فتعددت أنواع التفاسير، فمنها التفسير الموضوعي أو التحليلي أو البياني مع الاهتمام بالمناسبة بين الآيات والسور، وجميعها لم تبلغ غايتها ولم توف القرآن حقّه، وإنْ كانت كثيرة، فهي لم تدرك أسرار القرآن ووجوه إعجازه كلها، ورأيت أنّ تطور علوم اللغة حديثًا فتح آفاقًا جديدة للبحث؛ تحفز الباحث على خوض غمارها، ليتمكن من خدمة كتاب الله تعالى، والرد على الطاعنين فيه، عن طريق عرض التراث العربي الإسلامي بصورة

جديدة تتوافق مع المفاهيم المعاصرة من خلال الإفادة من الدراسات اللسانيّة الحديثة في مجال نظريّة السياق، وعلم النص، وتحليل الخطاب، بالقدر الذي يقتضيه البحث، مع مراعاة مناسبة ذلك لطبيعة النصّ القرآنيّ، وإنْ كانت هذه المعالجات موجودة في ثنايا التفاسير المعروفة في مواضع كثيرة، لكنها لم توظف بالشكل العلمي المنهجي المتعارف عليه في العصر الحاضر.

أهمية الدراسة:

- يعد هذا العمل خدمة لكتاب الله عز وجل، وقد كان القرآن الكريم وما زال موضع العناية الأول عند العلماء والأدباء واللغويين والنحويين وغيرهم.
- خدمة للغة العربية التي من خلالها يتم فهم مراد الله تعالى في كتابه، وبدراستها نصل إلى فهم إعجازه.
- إنّ نحو النص نال حظًا كبيرًا من الدراسة، لكن تطبيقه عمليًا لم ينل حظًا من الدراسة عند كثير من الدارسين على الرغم من أهمية الموضوع، فلم أعثر على كتاب أو رسالة اختصت بتطبيق نحو النص بهذه الطريقة في التحليل، والتركيز على إبراز اتصال السورة بما يسبقها وما يليها من السور، وكذلك اتصال الآيات بعضها ببعض، ومن ثم التركيز على أهم وسائل الترابط النحوي والدلالي في الآيات، وفي السورة مع غيرها من سور القرآن الأخرى؛ ومن الدراسات التي أبرزت بعض هذه الجوانب ما درسه الباحث محمد العجل في رسالته الموسومة بـ : آية الكرسي دراسة لسانيّة نصيّة، والباحثة آمال فراش في رسالتها الموسومة بـ : نحو القرآن، والرسالتان بإشراف الدكتور: عودة أبو عودة، ومن الدراسات ما اشتمل على الرموز التي تُذهب المعنى والدلالة، ناهيك عن البلاغة والإعجاز البيانيّ في اختيار الألفاظ والمفردات، والتراكيب؛ مما يجعل النص القرآني كغيره من النصوص؛ لا يُراعى كونه كتابًا سماويًا؛ وُضع كل حرف فيه لِغرضٍ مقصود. ومن ذلك على وجه التمثيل الرسالة الموسومة بـ: "قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم: دراسة في ضوء علم اللغة النصي"، للباحث: محمود عوض محمود سالم، وهي رسالة ماجستير، في كلية الآداب، في جامعة بني سويف، في عام: ٢٠٠٧م.

ومثلها رسالة: " سورة يونس: دراسة نصيّة"، للباحثة: فاطمة موسى محمد خمايسة، وهي رسالة دكتوراة، في كلية الآداب، في جامعة اليرموك، في عام: ٢٠١٤م.

وكذلك كتاب الدكتور عمر أبو خرمة: " نحو النص: نقد النظرية وبناء أخرى"، في الدراسة التطبيقية على سورة البقرة، فاشتملت دراساتهم على رموز مجرّدة من المعنى والدلالة، وأكاد أجزم أنّ أمثال هذه الدراسات لا يفهمها إلا أصحابها؛ لكونهم بحثوا فيها عند تصنيف الرموز، التي يصطف أحدها بجانب الآخر؛ ليشكل متوالية رياضية تجتمع فيها الحروف والأرقام، بهدف الإشارة إلى ما يفسر الرمز في صفحة مفاتيح المصطلحات، وبذلك تخلو الدراسة من الربط بأشكاله، ومن ثم يختفي الانسجام بين الآيات ودلالتها في سياقها مقارنة مع ورودها في سياق آخر، فيصبح التحليل مجرد إشارة لما ورد سابقًا، وما سيرد لاحقًا تحت مسمى الإحالة، التي هي أكبر من هذا المفهوم، نهجوا بذلك أسلوب الغرب في دراستهم للغاتهم التي هي على اختلافها؛ لا تصل لمستوى اللغة العربية في أساليب نظمها المتنوعة، وأفانين دلالاتها المتغيرة في كل سياق.

وهذا الأمر لا يختص بالنص القرآني؛ فالعربية بشعرها ونثرها، وبأشكالهما المختلفة؛ ينطبق عليها هذا الأمر.

- إنّ الفكر العربي المعاصر يشهد دراسات لغوية حديثة تعمل على تطويع القرآن وفق رؤاها ومناهجها، فيأخذون من النص القرآني ما يحقق ذلك، ويثبت صحة اعتقادهم، دون النظر إليه كنص واحد، ونحن لا نريد إخضاع النص القرآني لأيِّ نظريةٍ كانت، بل ندرسه كما هو دون التفات إلى النظريات الحديثة؛ كما درسه العلماء السابقون من قبل، بالإضافة إلى محاولة إيجاد الدلالات اللغوية لألفاظه، وتراكيبه، وسياقه اللغوي؛ فلا يُفهم القرآن بفصله عن سياقه بكل ما تشير إليه اللغة من هديٍ وفكرٍ وموعظةٍ، مع محاولة إدراك مراد الله من الخطاب القرآني بطريقة علمية موضوعية من خلال السياق.

منهجية الدراسة:

درست هذا الموضوع دراسة دلالية سياقية، واعتمدت منهجًا وصفيًّا تحليليًّا لآيات السورة، كما اعتمدت المنهج الاستقرائي (الناقص) بما يخدم الغرض عند دراسة الآيات المشابهة، لأتبين مواطن الإعجاز، وأساليب البيان، وأنواع الترابط والتماسك في النص القرآني ووسائله.

ولقد سلكت هذه الدراسة منهجًا مختلفًا في الدراسة التطبيقية، إذ لا يمكن أنْ نخضع النص القرآني لأي نظرية بشرية مهما كانت، فلم أقم بتقسيم المباحث وفق تقسيمات نحو النص المعروفة ضمن معاييره السبعة، ولم أتخير تطبيقًا لكل معيار؛ بعيدًا عن السياق الوارد، بل قمت ببيان دلالة

السورة في سياقها؛ من خلال ذكر علاقتها بموضوعات السور التي تسبقها والتي تلحقها، كما ذكرت علاقة الآيات المتوالية بعضها مع بعض، وبيّنت علاقة مقاطع السورة ببعضها، وكذلك علاقة أول السورة بآخرها، ومن ثم قسمت السورة إلى موضوعات بالاعتماد على الخطاب الوارد فيها، وقمت بربط هذه المواقف بمواقف مشابهة لها في سور أخرى، وبينت دلالة ذلك بالاعتماد على السياق القرآني

الدراسات السابقة:

أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة حول الموضوع، فلم أعلم حتى إعداد هذا البحث بأي دراسة لسانيّة نصيّة لسورة المائدة، وإنْ كان هناك بعض الرسائل التي درستها؛ لكن من جوانب مختلفة، وهذه الدراسات هي:

١- تفسير سورة المائدة بين القرطبي والشعراوي، دراسة لغويّة نحويّة مقارنة، وهي رسالة ماجستير من إعداد: محمد عطا الله محمد ياسين، عام (٢٠١٢م) أشرف عليها الأستاذ الدكتور: أحمد حامد، في جامعة النجاح الوطنية، إلا أنّي ألفيتها دراسة مقتصرة على بعض الجوانب النحوية واللغوية بالمقارنة بين تفسيري القرطبي والشعراوي، ولم تشمل الجوانب الأخرى، كالدلالة والأصوات وغير ذلك.

٢- هناك رسالة أعدت عام (٢٠٠٩م) لنيل درجة الماجستير في الجامعة الإسلامية بغزة وهي بعنوان: " أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم دراسة تطبيقية في سورة المائدة"، أعدّها الطالب: باسل مصطفى المجايدة، وأشرف عليها الدكتور: عبدالسلام حمدان عودة اللوح، وهي دراسة تناولت أثر اختلاف الإعراب في الدلالة في هذه السورة من خلال تنوع القراءات، ومن خلال الاختلاف في الإعراب بين النحاة. وهذا لا يخدم جانب الدراسة النصيّة المطلوبة في بحثي هذا.

٣- وهناك رسالة دكتوراه بعنوان: " البنية النصيّة لقصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم" عام (٢٠٠٨م) في الجامعة الإسلامية العالمية في الباكستان، كلية اللغة العربية والحضارة الإسلامية، للباحثة: رضوانة حبيب، بإشراف الدكتور: محمود عبدالسلام أحمد شرف الدين، إلا أنّي ألفيتها دراسة لم تصل إلى الجانب النصّي حقيقة، حيث عمدت الباحثة إلى دراسة قصة موسى عليه السلام على ثلاثة مستويات، من حيث الموضوع والنحو والدلالة، وقدمت الفصل الأول: بالتعريف بعلم النص، ومستويات التحليل النصي، فقامت بجمع الآيات التي تتحدث عن

موسى عليه السلام، وأغفلت القسم الوارد في سورة المائدة. وفي الفصل الثاني: قامت بتفسير الآيات، وذكر أقوال المفسرين فيها. وفي الفصل الثالث: عرضت لاختلاف الآيات في السورة، فدرستها دراسة نحويّة مقارنة، ثم قسّمتُ القصة إلى موضوعات، وأحصت عدد الضمائر، وحروف العطف، وحروف الجر، وأدوات الشرط، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة في كل سورة، وكذلك عدد الجمل الاسميّة والفعليّة. ثم في الفصل الرابع: قامت بدراسة أسماء السور، وموضوعاتها، ومقاصدها، والعلاقة بين آيات السور التي تحوي على القصة؛ من إجمال وتفصيل، والبلاغة السببية والتعليلية، وغير ذلك، وذكرت دلالتها في قصة موسى عليه السلام .

٤- وهناك رسالة (مشترك التضاد في سورة المائدة، دراسة تحليلية دلالية) من إعداد: أيلوك زكية، بإشراف الدكتور: نور حسنية للحصول على درجة سرجانا في الجامعة الإسلامية الحكومية (مولانا مالك إبراهيم مالانج)، عام (٢٠١٠م)، درست فيها المشترك والتضاد في السورة فقط.

خطة الدراسة:

جاءت هذه الرسالة بثلاثة فصول مسبوقة بمقدمة، ويعقب ذلك خاتمة تبرز أهم نتائج هذا البحث وتوصياته، جاء الفصل الأول بعنوان: : مقدمات ضرورية في موضوعات الرسالة، وجاء بمبحثين: أولهما بعنوان: مقدمة في نحو النص، وتحته ستة مطالب:

أولها: الدراسات اللغوية القديمة، وثانيها: من نحو الجملة إلى نحو النص، وثالثها: مفهوم النص، ورابعها: بين النص والخطاب، وخامسها: المعايير النصيّة السبعة، وسادسها: تعريف نحو النص.

والآخر بعنوان: التعريف بسورة المائدة، واشتمل على ثلاثة مطالب:

أولاً: التعريف بالآية والسورة، وثانيًا: توقيفية أسماء سور القرآن وترتيبه، وثالثًا: التعريف بالسورة: آياتها، ونزولها، وفضائلها، وأسماؤها، وحقيقتها، وما تنفرد به السورة من الظواهر، وموضوعاتها ومقاصدها.

أما الفصل الثاني فهو بعنوان: المناسبات وأثرها في ترابط النصّ القرآني، وتحته عدة مباحث هي:

المبحث الأول: المناسبة بين اسم السورة ومضمونها، والمبحث الثاني: المناسبة بين الآيات، والمبحث الثالث: المناسبة بين أوّل السورة وآخرها، والمبحث الرابع: المناسبة بين مقاطع السورة، والمبحث الخامس: المناسبة بين ما قبلها وما بعدها من السور.

وجاء الفصل الثالث بعنوان: ألوان الخطاب في سورة المائدة وخصائصه، أما مباحثه فهي:

المبحث الأول: خطاب الله ﷻ للأنبياء، وتضمّن:

أولاً: خطاب الرسول ﷺ، وثانيًا: خطاب موسى عليه السلام، وثالثًا: خطاب عيسى عليه السلام.

أما فهو: خطاب الله ﷻ للأقوام، وتضمّن:

أولا: خطاب المؤمنين، وثانيًا: خطاب بني إسرائيل، وثالثًا: خطاب النصارى، ورابعًا: خطاب أهل الكتاب.

أما المبحث الثالث: خطاب الأقوام، وفيه:

خطاب الأقوام لأنبيائهم، وخطاب الأقوام لبعضهم.

أما المبحث الرابع فهو: الخطاب القصصي، وتضمن ما يلي:

أولاً: قصة ابني آدم عليه السلام، وثانيًا: قصة موسى عليه السلام مع قومه، وثالثًا: قصص عيسى عليه السلام

وفي الخاتمة تم ذكر نتائج موجزة لهذا البحث، أُتبعت بأبرز النتائج والتوصيات على سبيل الإجمال ثم أُلحق البحث بقائمة المصادر والمراجع.

الفصل الأول:

مقدمات ضرورية في موضوعات الرسالة

المبحث الأول: مدخل في نحو النص

المطلب الأول: الدراسات اللغوية الغربية

المطلب الثاني: من نحو الجملة إلى نحو النص

المطلب الثالث: مفهوم النص

المطلب الرابع: بين النص والخطاب

المطلب الخامس: المعايير النصية السبعة

المطلب السادس: تعريف نحو النص

المبحث الثاني: التعريف بسورة المائدة

أولاً: التعريف بالآية والسورة

ثانيًا: توقيفية أسماء سور القرآن وترتيبها

ثالثًا: التعريف بسورة المائدة:

٨. آياتها

٩. نزولها

١٠. فضائلها

١١. أسماؤها

١٢. حقيقتها

١٣. ما تنفرد به السورة

١٤. موضوعاتها ومقاصدها

المبحث الأول: مقدمة في نحو النص

المطلب الأول: الدراسات اللغوية الغربية

لم تظهر النظريات اللغوية الحديثة منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى وقتنا الحاضر صدفة، وإنما نضجت على نار هادئة؛ نتيجة التراكمات المعرفيّة، واختلاف المحاولات الفكريّة؛ حيث تَبنِي الدراسات اللاحقة على السابقة؛ من خلال الدراسات والملاحظات والنقد والتوجيه، وكل مرحلة تأتي بما هو جديد؛ لإنضاج الفكرة المقصودة، وقد يتفرع عنها نظرية أخرى مناهضة أو معمّقة لما سبق.

وقد ازدادت هذه الدارسات وقويت شوكتها بظهور الأبحاث المتنوعة في العلامة اللغوية من خلال فكرة (الدال والمدلول) التي أتى بها دي سوسير، وكذلك ظهور قضية اللغة، والكلام، واللسان، فحصر موضوع اللسان في اللغة فجعلها الأساس، إلى أنْ جاء تشومسكي فجعل اللسان هو الأساس[1]. ثم أصبحت الدراسات تركز على الشخص المتكلم وأفعاله الكلاميّة؛ فجعلت الكلام هو الأساس، وهو ما عرف بالقدرة التبليغيّة بدلاً من القدرة اللغويّة لتشومسكي[2]، فتحوّلت الأنظار إلى السياق؛ إذ صار التركيز على العلاقة اللغويّة، " وعرف باسم المكون التداولي للكلمة، أو الجملة، أو النص، وصار مضبوطًا بوظائف تداوليّة محددة؛ ترتبط بسياقات وطبقات مقاميّة، وبشبكة من العلائق؛ كالعلائق الاجتماعيّة المنظمة لمقاصد المتخاطِبين، والعلاقات المنطقيّة التي تضبط محاوراتهم"[3]. وهنا ظهرت مدرسة براغ (المدرسة الوظيفيّة)، كما ظهرت مدرسة لندن بنظرية النحو النسقيّ؛ وكلتاهما تقوم على المبدأ الوظيفيّ العام باعتبار اللغة نظامًا وظيفيًّا؛ يرمي إلى تمكين الإنسان من التعبير والتواصل، وهي تراعي ذلك في دراستها، فكل ما ليس له هذا الدور خارج عنها[4].

وبتوالي البحوث والدراسات، توسع الإطار بحيث تجاوز نطاق الجملة إلى نحو النص؛ فانتقلت الدراسة من إطار الكلمة المفردة والمركب والجملة، بما فيها من القضايا التركيبية، والتداولية في إطار الجملة، إلى إطار بنية الخطاب أو النص بمختلف أقسامه وأنواعه، حيث

---

[1] انظر: المسدي، عبدالسلام (١٩٨٦)، **اللسانيات وأسسها المعرفية**، د. ط، ص٨١-١٠٥، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

[2] انظر: المتوكل، أحمد (١٩٩٥)، **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية**، د. ط، ص ٢٢-٣٢، دار الأمان– الرباط.

[3] بعيطيش، يحيى (٢٠٠٦م)، **نحو نظرية وظيفية للنحو العربي**، ص٤٠، رسالة دكتوراة، إشراف: عبد الله بو خلخال، جامعة منتوري وقسنطينة، الجزائر.

[4] انظر: المهيري، عبدالقادر وآخرون (١٩٩٠)، **أهم المدارس اللسانية**، ط٢، ص٤٠، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس.

ارتبطت الجملة بالإنجاز، ومقاصد المخاطبين، والمقام، بالإضافة إلى الظواهر النصيّة؛ كالإحالة، والاستبدال، والعطف، والحذف، والتكرار، وغير ذلك.

وقد ذكر سعيد بحيري أنّ بداية البحث في النص يرجع إلى رسالة الباحثة ناي (I. Nye) في أطروحة الدكتوراة المقدمة عام (١٩١٢) ، إذ أشارت في فصل من رسالتها إلى الربط بين الجمل، كما تناولت ظاهرة التكرار، والنقصان، وعدم الاكتمال على أسس نصيّة، وحاولت فيها اكتشاف هذه العلاقات[1]، لكن البدايات الحقيقة الجادّة للسانيات النص تعود إلى أعمال هاريس؛ الذي استعمل مصطلح الخطاب عام (١٩٥٢) في مقالة قدّم فيها منهجًا لتحليل الخطاب، سواء في حالة النطق، أو الكتابة، وكان هذا في إطار المنهج البنيويّ الذي يعتمد على تقطيع النص إلى جمل وعبارات، ثم الكشف عن العلاقات التي تربطها فيما بينها.

ثم ظهر الاهتمام بالنص، واشتدت عناية بعض الدارسين به، فهذا فان دايك اعترض على النحو التقليدي في كتابه: (جوانب من علم النص)؛ لأنّه لا يلبي المطالب التي تقتضيها دراسة النص الأدبي والشعري، ودعا إلى طريقة جديدة في تحليل المستويات الصرفيّة، والتركيبيّة، والدلالية للنص من خلال الوقوف على ما يعتريه من إضافة أو حذف أو ذكر أو استبدال[٢].

ولعل أهم هذه المشاريع وأنجحها مشروع دي بوجراند ودرسلر: (مدخل إلى علم لغة النص)؛ الذي يعد البداية الفاصلة بين لسانيات الجملة ولسانيات النص، حيث وضعا قواعد هذا العلم بصورة مختصرة مع الأمثلة التوضيحية لكل فكرة.

ومن ثم جاء كتاب: (النص والخطاب والإجراء) عام (١٩٨٠)، ليمثل مرحلة متقدمة لنحو النص، ويوضح القضايا الأساسية التي عولجت بشكل أعمق وأشمل. وكذلك كتاب براون ويول: تحليل الخطاب؛ إذ ركّزا على المتلقي للنص، وجعلا تأويل المتلقي للنص من أهم عوامل انسجامه.

---

[1] بحيري، سعيد حسن(١٩٩٧)،**علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ط١**، ص١٨ نقلا عن (Dressler): P: ١,٢.، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان.

[٢] انظر: خليل، إبراهيم،(٢٠٠٩)، **في نظرية الأدب وعلم النص**، ط١، ص٢٦٥-٢٦٦، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ودار الاختلاف ، الجزائر.

المطلب الثاني: من نحو الجملة إلى نحو النص:

إنّ النظر في النحو العربي والدراسات اللسانيّة الغربيّة يبيّن أنّ كليهما وقف عن حدود الجملة، وانطلق منها في الدراسات اللغويّة، فقد اهتم العلماء من مختلف الأجناس في وضع قواعد معياريّة تحفظ اللغة من الفساد والاندثار، ولذلك لا تخلو لغة من نحو الجملة؛ فضلاً عن التعمّق في دراسته، وهذا دَأْبُ جميع الدراسات اللغوية، إذ سيطر النحو على صياغة القواعد المعياريّة في جميع لغات العالم المعروفة قديمًا وحديثًا، فهو السبيل الوحيد لحفظ اللغة من الفساد، وسلامتها من الأخطاء؛ ولهذا لا يمكن التنكر لنحو الجملة؛ إذ هو الأساس الأول لدراسة اللغة.

ثم إنّ تكاثف العلوم اللغويّة المختلفة في دراسة الجملة؛ أدت إلى النظر إلى العلاقات بين الجمل، ومن ثم ربطها بالسياق وهكذا صارت هناك دعوة إلى دراسة النص، فأُدمجت نظرياتهم معًا لدراسة الجملة في بينتها اللغويّة العامة، وتمخّض عنها دراسة للنص المكون من عدة جمل؛ "فالجملة في الفكر اللسانيّ الغربيّ أكبر علامة لسانيّة ممكنة تقوم على وحدة الخطاب، وتعتمد الاستقلال التركيبيّ، والالتحام الدلاليّ، وهذا نجده عند النحاة العرب القدماء"[١]؛ بل إنّ مفهوم الجملة عند نحاة العرب أكثر نضوجًا، ووضوحًا، وتحديدًا لمكوناتها من توصيف الغرب لها، ولا سيما أنّ العرب استعملوا مصطلح الكلام ليدل على ما هو أوسع من الجملة[٢]، فالكلام عندهم قريب من مفهوم النص عند الغرب، لكن الاعتماد على الترجمات عن اللغات الغربيّة في دراسة اللغة العربية، بالإضافة إلى تعدد مصادر هذه الترجمات، وتطبيق المناهج الغربية أيضًا؛ أدى إلى الالتباس في المصطلحات، وبالرغم من أنّ المفهوم واضح ومحدد، فعلماء الغرب يطلقون الجملة نموذجًا تركيبيًا للكلام، ويستعملون عادة مصطلح الجملة للنموذج التركيبيّ، والمثال التطبيقيّ، وليس مصطلح الكلام؛ لذلك فرقوا بين الجملة نمطًا، والجملة حدثًا؛ وهو ما فعله هاريس في مقالته (تحليل الخطاب)، كما أنّ " تعريفاتهم لا تخلو من غموض وعموم؛ إذ لم يشر أصحابها إلى مكونات أو أركان الجملة، ولعل تعريف هاريس أنضجها؛ حيث عبر عنها بأنّها نمط تركيبيّ إشارة إلى عناصر الجملة "[٣]، فكلمة (نص) لم توجد في الدراسات الكلاسيكية الغربية كمصطلح، ولم توجد كلمة مرادفة لتدل على مفهومه، بل لم تكن بحوثهم لتتناول ما فوق الجملة، إذ اكتفت بدراسة العلاقات بين عناصر الجملة وحدها على نحو معياريّ، وهذا عند العرب موجود، إذ انطلقوا منه في البلاغة تحليلاً، ومناقشة للروابط الدلاليّة، والتداوليّة، والوظيفيّة، والجماليّة، لذلك نجد أشكال

---

[١] داود، فطيمة، **مفهوم الجملة العربية من المنظور الوصفي إلى المنظور الوظيفي**، بحث منشور على شبكة الإنترنت.
www.journals.istanbul.edu.tr/iusarkiyat/article/download/.../١٠٢٣٠١٦٠٢٧

[٢] انظر: نحلة، محمود أحمد (١٩٨٨). **مدخل إلى دراسة الجملة العربية**، ط١، ص١٩وما بعدها، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

[٣] عبد الراضي، أحمد (٢٠٠٨). **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، ط١، ص٣٩، مكتبة الثقافة الدينية.

التحليل النصيّ في كتب شروحات دواوين الشعر، كما نجدها في كتب التفسير؛ ولذلك يمكن القول بأنّ: " النحاة العرب قد أدركوا بوضوح دور التركيب في تكوين الجملة في العربية الفصحى، وأكّدت دراساتهم أنّها تصدر عن تطور محدّد، أي أنّه بدون مراعاة الترتيب؛ يصعب في كثير من الأحيان تحقيق الاتساق في التراكيب اللغويّة، ويستحيل في أحيانٍ أخرى فهم ما تقصد إليه...، ولم تنعزل عن دراساتهم لغير الترتيب من العناصر المؤثر في تكوينها"[١].

ولعلّ من أبرز دواعي التحوّل من نحو الجملة إلى نحو النصّ؛ أنّ الأخير لا يقرّ للجملة بالاستقلال، مما يجعل نحو الجملة غير كاف لوصف تتابعات كبرى تتجاوز الجملة، فالجملة ذات دلالات جزئيّة في النصّ، ولا يمكن أنْ تقرّر الدلالة الحقيقيّة لكلّ جملة؛ إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في التتابع الجمليّ، فالنصّ مهما صغر حجمه وحدة كليّة مترابطة الأجزاء، متشابكة مكتفية بذاتها دلاليًّا، يتحقق التماسك بين عناصرها المضمونيّة، والترابط بين عناصرها الشكليّة.

وكان لغياب الجوانب الدلاليّة والتواصليّة في دراسة الجملة، والعزوف عن الدراسات الفينولوجيّة ما يدفع علماء لغة النص إلى البحث عن وصف يمكنه الجمع بين تلك الجوانب إذ كان البحث في الجملة شكليًّا، كما أنّ هناك بعض القضايا عجز نحو الجملة عن تفسيرها، كما إنّه "يقوم بدراسة الجمل معزولةً عن سياقها أو الجمل المصنوعة، وإنْ كان هذا الأمر أصبح في محل شك؛ لأنّ نحاة الجملة يعتمدون ضمنيًّا على اعتبارات ذات علاقة بالسياق والموقف اللغوي"[٢].

وبظهور لسانيات الخطاب ونحو النص في أواسط السبعينات من القرن العشرين؛ أصبح موضوع الدراسات اللسانيّة عند الغرب مرتبط بالشخص المتكلم، وأفعاله الكلاميّة المحققة، وطرق استعماله لها؛ كما أنّ تحليل أبنية النصوص ووظائفها يتطلب منهجًا متداخل الاختصاصات؛ يجمع بين النحو، والبلاغة، والأسلوب، والاجتماع، والأنثروبولوجيا، والنقد، وعلم النفس، فالمعنى الكلي للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئيّة للمتواليات الجمليّة المكوّنة له ، ولا تنجم الدلالة الكلية له إلا بوصفه بنية كبرى شاملة ينتج معناه بتفاعل أجزائها.

---

[١] أبوالمكارم، علي(٢٠٠٦)، **الظواهر اللغوية في التراث النحوي**، ط١، ص٣٣٧- ٣٣٨، دارالغريب للطباعة والنشر والتوزيع.
[٢] عفيفي، أحمد،(٢٠٠١)، **نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي**، ط١، ص٧٢، مكتب زهراء الشرق، القاهرة.

المطلب الثالث: مفهوم النص

١. مفهوم النص لغة عند العرب:

اختصت المعاجم العربيّة بتحديد المعاني اللغويّة للنصّ، وكذلك المعاجم الغربيّة، ويمكن تلخيص دلالات مادة (ن ص ص) وبعض مشتقاتها في المعاجم العربيّة على النحو التالي[1]:
الرفع بنوعية الحسيّ والمجرد، والإظهار، وأقصى الشيء وغايته، والتحريك، والاستواء والاستقامة، وضمّ الشيء إلى الشيء؛ وفي معنى ضمّ الشيء إلى الشيء ما يقارب ضمّ الكلمات بعضها إلى بعض لتكوين الجملة فهو متقارب مع المعنى الاصطلاحيّ الحديث للنصّ؛ الذي يعني ضمّ الجمل إلى بعض.

ومن المعلوم أنّ الكلمات يطرأ عليها التطور اللغويّ الذي يصل إلى التغيّر في الدلالة؛ وينتج ذلك عن التراكم الزمنيّ، إذ هناك من الكلمات ما هو مستحدث، ومنه ما بطلت دلالته، ومنه ما اكتسب دلالات جديدة، بالإضافة إلى تولد كلمات لتلبية الحاجات المعاصرة لها، وهذا ما نلاحظه في المعاجم الحديثة، إذ لم يقتصر تعريف النص فيها على ما ورد قديمًا، بل أصبحت هذه المعاجم تميل إلى تعريفه بشكل أكثر شمولاً وإحاطة؛ **فالنص**: صيغة الكلام الأصليّة التي وردت عن الواضع[2]، وقيل: كلام مكتوب أو مطبوع[3]؛ بلا تفريق بينهما، وقيل: الكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبيّ[4]، أو الذي ينصّص عليه بعلامة التنصيص: (" ")، يوضع بينهما كل ما ينقله الكاتب من كلام غيره بالنص، أي بصيغته الأصليّة كما وردت من المؤلف؛ حرصًا على توخي الدقّة والموضوعيّة؛ ليحافظ على النص كوثيقة مكتوبة بنصها الحرفيّ، أو مسموعة بتسجيلها الصوتيّ.

لكننا نجد الجاحظ يقول: " النص هو القول المكتفي بذاته والمكتمل في دلالته "[5]، وقال ابن جني: " كما جاء النص عن رسول الله ﷺ من قوله: (أمتي لا تجتمع على ضلالة)"[1]، ولم

---

[1] انظر: تفاصيل ذلك: الفراهيدي، (٢٠٠٣)، **معجم العين**، (ترتيب وتحقيق: عبدالحميد الهنداوي)، ط١، ج٤، ص٢٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الأزهري،**تهذيب اللغة**، (تحقيق: محمد عوض مرعب)، ط١، ج٤، ص٣٥٨٤-٣٥٨٥، دار إحياء التراث العربي - بيروت.ابن فارس (١٩٧٩). **مقاييس اللغة** ، (تحقيق: عبدالسلام هارون)، د. ط (ن ص ص) ج٥، ص٣٥٦ ، دار الفكر. الزمخشري، (١٩٨٥). **أساس البلاغة**، ط٣، ج٢، ص٤٤٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ابن منظور (١٩٥٦)، **لسان العرب**: ج٧، ص٩٧، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت. الفيروز أبادي، (١٩٧٨). **القاموس المحيط**، ط٣، ج٢، ص٣١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[2] انظر: باشا، محمد (١٩٩٢). **الكافي**، ط١، ص١٠٢١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت- لبنان. أحمد العابد وآخرون (١٩٨٩). **المعجم العربي الأساسي " لاروس"**، ص١٢٠٨، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس - ألكسو.

[3] يعقوب، إميل ، وآخرون (١٩٨٧). **قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية**، ط١، ص٣٨٩، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان.

[4] وهبة، مجدي و المهندس، كامل (د . ت)، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، (د . ط)، مادة (ن ص ص)، مكتبة لبنان ، بيروت.

[5] الجاحظ (١٩٩٨). **البيان والتبين**، (تحقيق: عبدالسلام هارون)، ط٧، ج١، ص٢٢٢، مكتبة الخانجي، القاهرة.

يستخدم قديمًا ليدل على الشعر أو النثر المسند لصاحبه، إذ كانت دقّة اللغة العربية تقتضي تعيين هذا النص فاستعملوا الكلمة، والبيت، والقصيدة، ولكل أسلوب اسمه الخاص به، كالخطبة، والمقامة، والقصة.

وهذه المعاني الحديثة جاءت بعد تأثر الدراسات العربيّة بأصول الفقه؛ التي اهتمت بنص القرآن، ونص الحديث، ولعل الإمام الشافعي هو أول من أشار إلى مفهوم النص اصطلاحًا؛ فقال: "النص: هو ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره"[٢]، وصار النص في أوائل عصر النهضة العربيّة يطلق على قصيدة الشاعر، وكل ما أُسند لكاتبه، وأشار مصطفى جواد إلى ذلك فقال: " إنّ أغلب الناس – من الناطقين بالعربية - اليوم يفهمون المعنى العام للنص بأنّه قول المؤلف الأصليّ الموثوق به، يُذكر بهذا اللفظ لتمييزه من الشروح والتفسير والإيضاح، فيقال: ذكر فلان ما نصه كذا وكذا، وقال أو كتب ما نصه كذا وكذا، أو هذا ما سمعته نصًا "[٣].

وبمتابعة دلالته المتنوعة يظهر لنا أنّ النص " هو ذلك الكيان الواضح الجلي البارز المحدد الذي لا يحتمل الغموض أو الإبهام، ولا يحتمل الالتباس، أو الإشكال الدلاليّ، ولذلك كان ارتباطه بالأحكام القطعيّة التي لا تقبل الجدل والتلبيس، ومن ثم كان مرتبطًا عند الأصوليين بنص القرآن والسنة"[٤].

وقد حاول بعض الباحثين ربط المعاني اللغويّة القديمة بالمعنى الاصطلاحيّ الحديث، كما فعل الدكتور صبحي الفقي، وجعل النص المستوى السادس من مستويات اللغة المتعارف عليها[٥]، ولو استقرأ التعريفات في المعاجم لوجد إشارات بل دلالات لما يدل عليه النص الآن.

أما عن عدم استخدام مصطلح يدل على الاتساق والانسجام والترابط؛ فدلّ عليه لفظ آخر؛ نجده ماثلاً في مصطلح: (النسيج) الذي كثر في كتابات علماء العربيّة القدماء، ويرى الدكتور عبد الملك مرتاض أنّ مصطلح النسيج أفضل من مصطلح النص في وصف هذا الترابط والانسجام، لما في دلالته اللّغويّة من معنى الترابط، ولعدم توافر هذا المعنى في مادة (نصص)[٦].

---

[١] ابن جني، (٢٠٠٢). **الخصائص**، (تحقيق: عبد الحميد هنداوي)، ط ٢، ج١، ص٢٠٤، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٢] الشافعي، محمد بن إدريس، (٢٠٠٩). **الرسالة**، (تحقيق: عبداللطيف هميم)، ط ١، ص٧٢.

[٣] علي، عبد الوهاب محمد (١٩٧٧م)، **أمالي مصطفى جواد في فن تحقيق النصوص**، مجلة المورد العراقية، المجلد ٧ ، العدد١، ص١٩٩، بغداد.

[٤] عبد السلام، مصطفى بيومي (٢٠٠٩م)، **سلطة الأبوة، النص والعلاقات النصية عند العرب**، علامات في النقد، جزء٧٠، مجلد ١٨، ص٢٥٩، جدة.

[٥] انظر: الفقي، صبحي إبراهيم (٢٠٠٠). **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**: دراسة تطبيقية على السور المكية، ط ١، ج١، ص٢٨، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، وانظر: الزناد، الأزهر (١٩٩٣). **نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً** ص١٢، المرز الثقافي العربي، بيروت، والدار البيضاء.

[٦] انظر: عبدالمجيد، جميل(١٩٩٨). **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، د. ط ص٧٣، هامش ٢٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، نقلا عن: مرتاض، عبدالملك (١٩٩٠). **نظرية، نص، أدب، ثلاثة مفاهيم نقدية**، ص٢٦٧-٢٦٩، ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي، النادي الثقافي الأدبي بجدة.

٢. مفهوم النص لغة عند الغرب:

أما المعاني اللغوية للفظة (Text) بالإنجليزيّة، ويقابها (Texte) بالفرنسيّة؛ فقد " صرّحت المراجع بأنّ أصل كلمة (Text) تعود في الإنجليزيّة، بل وفي كثير من اللغات الأوروبيّة الأخرى لها الجذر اللغوي نفسه والدلالة نفسها، وترجع إلى الأصل اللاتيني (Textus) بمعنى (النسيج)، أو (الظفيرة من الشعر)، ومنه تطلق كلمة (Textile) على ماله علاقة بإنتاج النسيج"[١]، وقد أشار بارت إلى أنّ كلمة (Texte) تدل على النّسيج، يوصف بأنّه نتاج وستار يختفي وراء المعنى[٢].

وفي المعجم الإنجليزي ورد له عدة معانٍ هي[٣]:

الجمل والكلمات نفسها المكتوبة أو المطبوعة، والبنية التي تشكلها الكلمات وفق ترتيبها، ومضمون البحث حول موضوع ما، والجمل والكلمات نفسها من الإنجيل، أما النصيّة فهي التمسّك التام بالنص خاصة الإنجيل؛ فهي تلتقي بالمعنى اللغوي للنسيج في دلالتها على النسيج المحبوك بمعناه الحقيقي، كما تدل على المعنى الاصطلاحيّ الذي يعني الكلام الأصلي أو الوثيقة.

وتكاد تلتقي هذه المادة مع ما جاء عند العرب في كون النص هو نسيج، فكلاهما يدل على الإنشاء والتنسيق للحصول على نسيج معين من مجموعة عمليات، لكن المرجعية الثقافية مختلفة باختلاف النُّظُم التي استمد كل منهما مفاهيمه الخاصة، وهذا يدل على التوافق في النظرة إلى تشكيل الكلمات في النص.

وحاول بعض الباحثين استحداث فرق فجعل الأصل اللاتيني يشير إلى الكتابة[٤]، وذلك لأنّ الثقافة الغربيّة توجهت توجهًا كتابيًّا؛ ارتبط بالنصوص الكتابيّة التي كونت مرجعيتها الثقافيّة من خلال الفلسفة، والأدب اليوناني، ونصوص الإنجيل، والتوراة، ونصوص القانون الإغريقي، بينما تميّزت الثقافة العربيّة الإسلاميّة بطابعها الشفهيّ المرتبط بالرواية أَبْعَدَها عن الكتابة إلى عصر التدوين عمومًا، وتدوين النصّ القرآنيّ خصوصًا"[٥]؛ إلا إنّ الحقيقة أنّ العرب منذ نزول القرآن اهتموا بتدونيه، وكذلك اهتموا بتدوين السنة النبوية، وهذا يدل على أنّ عصر المشافهة ازداد توثيقًا بالكتابة، أما بالنسبة لما كان مكتوبًا عن الغرب فهذا لا يدل على أنّ التدوين بدأ عندهم منذ عصور متقدمة، إذ عُرِف عن تدوين الإنجيل مثلاً بعد مائتي عام من رفع المسيح عليه السلام.

---

[١] بصل، محمد إسماعيل (١٩٩٤م). **التراكم العلاماتي بين النص المكتوب والنص المنطوق**، مجلة المعرفة، عدد٣٧٠، ص٦٦، سوريا، دمشق.

[٢] انظر: بارت، رولان (١٩٨٨)، **لذة النص**، (ترجمة: فؤاد صفا، والحسين سحبان)، د.ط، ص٦٢، دار توبقال للنشر.

[٣] للاستزادة انظر: الكتاب مجهول المؤلف،**النص والخطاب**، ص٤-٥، شبكة الانترنت.

[٤] انظر: العربي، ربيعة، **الحد بين النص والخطاب**، شبكة الإنترنت.
www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٣٠٢٥٨١

[٥] انظر: العربي، ربيعة، المصدر السابق نفسه.

٣. مفهوم النص اصطلاحًا:

أما في الاصطلاح فقد تعددت تعريفات النص وتداخلت، ويكمن السرّ في عدم استقرار مفاهيم النص وصعوبة تحديدها؛ لعدم وجود ما هو مشترك بين الدارسين؛ لأنّ كل باحث ينطلق من خلفيّة ثقافيّة معيّنة، فيؤدي ذلك إلى تعدد التعريف في كل مرة، وتعدد معاييره، ومضامينه، وخلفياته المعرفية، والنظرية، والمنهجية، أو تعدد الأشكال، والمواقع، والغايات التي اشترطها المنظرون، واختلاف الغاية من الدراسة، وجاء ذلك من خلال التّماس بين علم اللغة النصيّ وغيره من العلوم النفسيّة، والاجتماعيّة، والفلسفيّة، والفيزيائيّة، والأدب، بالإضافة إلى عدم اكتمال تطوير نحو النص إلى الآن"[١]، وقد تأثّر الدارسون العرب بالغرب في منطلقاتهم لتعريف النص، ولذلك سنذكر تعريف النص عن الغرب اصطلاحًا وسنتبعه بما جاء عن العرب.

١- تعريف النص اصطلاحًا عند الغرب:

عرّفه الغرب **من خلال البنيوية التي لا منزلة للجملة فيها**؛ وهو تعريف يقوم على تحديد الجانب الكمي للنص، كما أنّه لا ينبئ عن المقومات البنيوية للجملة، ولا يحدد شروطًا معينة سواء اللفظية أو المعنوية للجملة[٢]، فيقول هارتمان: " النص متتالية من الكلمات تكوّن ملفوظًا منجزًا"[٣]، **أما ما يقوم على أساس الجملة**، فهو يعتبر النص " بنية مغلقة داخلها علاقات منظمة، بحيث إنّ اختلال النظام في طرف معين؛ يؤثر في الأطراف الأخرى، ويتعامل مع كل نص باستقلالية، وخصوصية، ولا يتجاوز النص في رصد المعطيات التي يصوغها وينتجها"[٤]، فهو يعتمد على التحليل الشكلي، وينطلق من المستوى اللفظي.

وقد أسهمت **السيميائية** في تعريف النص بتوسع في ذلك، إذ قد يتمثل النص في الإشارات، والرسومات، والأشكال، والرموز التي يتم التعامل معها دون اللجوء إلى الكتابة والقراءة؛ وهذه ظواهر غير لغوية، حيث تُعرف جوليا كريستيفا النص بقولها: " النص جهاز عبر لساني، يعيد توزيع نظام اللسان، فالنص إذن إنتاجية، وهو ما يعني أن علاقته باللسان الذي يتموضع داخله في علاقة إعادة توزيع: هادمة – بناءة "[٥].

---

[١] انظر: شرشار،عبد القادر(٢٠٠٦). **تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص**، ط١، ص١٩، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

[٢] انظر: الشاوش، محمد (٢٠٠١). أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص، ط١، ص٨٣، تونس، كلية الآداب بمنوبة، المؤسسة العربية للتوزيع.

[٣] المصدر السابق، ج١، ص٧٢.

[٤] نور الدين، صدوق (١٩٨٤). **حدود النص الأدبي : دراسة في التنظير و الإبداع**، د.ط، ص٧، دار الثقافة، الدار البيضاء.

[٥] كريستيفا، جوليا (١٩٩٧). **علم النص**، (ترجمة: فريد الزاهي)، ط٢، ص٢١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب.

وأما ما **يعتمد على فعل الكتابة** يمثله رولان بارت الذي يرى أن النص هو " السطح الظاهري للنتاج الأدبي، نسيج الكلمات المنظومة في التأليف والمنسقة؛ بحيث تعرض شكلاً ثابتًا ووحيدًا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً "[١].

أما **من خلال جملة من المقاربات المختلفة** فجمعوا بين التركيب والدلالة والتداول والسياق، وانتهت هذه المحاولات بمحاولة دي بوجراند و درسلر، واستقرت الدراسات عليها، حيث عرّفا النص بأنه: " حدث اتصالي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير هي: السبك، والحبك، والقصد، والقبول، ورعاية الموقف، والتناص، والإعلامية "[٢].

٢- تعريف النص اصطلاحًا عند العرب:

وأشهر من يمثله **من خلال البنيوية** الأزهر الزناد إذ يقول إنه: " نسيج من الكلمات يترابط بعضه ببعض؛ كالخيوط التي تجمع عناصر الشيء المتباعدة في كيان كلي متماسك"[٣].

أما من خلال السيميائية يرى المسديّ أن النص هو " فعل أو ظاهرة سيميائية تشمل علامة ماديّة ولغويّة متعددة المعاني، إيحائيّة تتجاوز الدلالة إلى تعدديتها"[٤]. فهو يرى أن تحديد النص يتم من خلال البنية التركيبيّة، والصياغة اللغويّة، إلى جانب الإيحاء الذي يصدر عن كل مرة تتم فيها قراءته، وينتج عن ذلك تعددية المعنى.

أما البعد الاجتماعي فيمثّله سعيد يقطين الذي يرى أن النص: " مدونة حدث كلامي، ذو وظائف متعددة، فيكون شكلاً لسانيًّا للتفاعل الاجتماعي مسايرًا لمقامات معنية"[٥].

ومن منطلق جملة المقاربات المختلفة ظهر صبحي إبراهيم الفقي[٦]، وأحمد عفيفي[٧]، ومحمد حماسة عبد اللطيف[٨]، إذ ذهب كل منهم إلى اعتماد تعريف دي بوجراند للنص بمعاييره السبعة.

---

[١] البقاعي، محمد خير (١٩٩٨). **نظرية النص:** ضمن كتاب **دراسات في النص والتناصية**، ط١، ص٢٦، مركز الإنماء الحضاري، حلب.

[٢] انظر: أبو غزالة، إلهام، و حمد،علي خليل (١٩٩٢). **مدخل إلى علم النص**، ط١، ص١١-١٢، مطبعة دار الكتاب. دي بوجراند، روبرت (١٩٩٨). **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة: تمام حسان، ط١، ص ١٠٣- ١٠٥، عالم الكتاب.

[٣] الزناد، نسيج النص، مصدر سابق، ص١٢.

[٤] المسدي، عبد السلام (١٩٩١). **قضية البنيوية: دراسة ونماذج**، ط١، ص ٥٣، وزارة الثقافة، تونس.

[٥] يقطين، سعيد (١٩٩٣). **تحليل الخطاب الروائي، الزمن ، السرد ، التبئير**، ط٢، ص٤٤، المركز الثقافي العربي.

[٦] انظر: الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**، مصدر سابق، ج١، ص٣٣-٣٤.

[٧] انظر: عفيفي، **نحو النص**، مصدر سابق، ص٣١.

[٨] انظر: عبد اللطيف، محمد حماسة (٢٠٠١). **الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر**، ص١٥، دار غريب.

فإذا نظرنا إلى التعريفات السابقة، وجدنا أن كلا منها يركز على جانب واحد، ويسقط الجوانب الأخرى، وبقي الأمر متنقلاً من منهج إلى آخر إلى أن وضع دي بوجراند تعريفاً شاملاً؛ تبعه الكثير من الباحثين، وقد أشار الدكتور صلاح فضل إلى ضرورة الجمع بين هذه المناهج فقال: "علينا أن نبني مفهوم النص من جملة المقاربات التي قدمت له في البحوث البنيوية والسيميولوجيه"[١].

المطلب الرابع: بين النص والخطاب:

إنّ انعدام مصطلح (النص) في الدراسات العربية القديمة بمفهومه الحالي ناتج عن انشغال هذا المفهوم بمصطلحات أخرى هي: القول، والخطاب، والكلام، وكانت كافية لوصف الظواهر النحويّة، بينما نجد مادة (النص) عند علماء الأصول منذ وقت مبكر يعود إلى عصر الشافعي؛ الذي قدّم أول تعريف للنص، لكون اشتغالهم يدور على النص القرآني، وأصوله، وأحكامه، فقد فرّق علماء علوم القرآن بين القرآن على أنّه كلام الله وبين كلام البشر، فاختلاف كلام الله، وخروجه عن أساليب كلام البشر يعود إلى صدوره عن ذاتيّة أخرى، عملت على إنجازه وأدائه، فاللغة واحدة لكن الأداء المتمثل في الخطاب مختلف، ومن هنا يقول منذر عياشي: " إنّ وحدة اللغة لا تحول دون تعددية الإنجاز والأداء، ولذا صار يُنظر إلى النصّ في ذاتيته النصيّة وصارت ممارسة لغة المكتوب جزء من ممارسة النص نفسه"[٢].

ويتباين موقف الدارسين من العلاقة بين النص والخطاب تداخلاً، وتقاطعًا، واحتواء، وينقسم موقفهم إلى قسمين:

١- موقف من يقول بالترادف، وعليه أغلب البنيويين[٣]، مثل: جيرار جينيت، وقريماس، وهاليدي ورقية حسن، وديفيد كريستال، وتودوروف وفاينريش.

٢- موقف يميز بينهما وينفي فكرة الترادف[٤]، ويستخدمها بمعنى مختلف، أو للدلالة على مواقف مختلفة، ومنهم: هارمان باري، وجوليا كريستيفا.

المطلب الخامس: المعايير النصيّة السبعة:

---

١ فضل، صلاح، **بلاغة الخطاب وعلم النص**،عالم المعرفة، العدد ١٦٤، ص ١٠٧.

٢ عياشي، منذر (١٩٩٢م)، **النص ممارساته وتجلّياته**، الفكر العربي المعاصر، عدد ٩٦-٩٧، ص٥٣-٥٤، بيروت.

٣ انظر: يقطين، سعيد (٢٠٠٣م)، من النص إلى النص المترابط، مجلة عالم الفكر، العدد ٢، مجلد ٣٢، ص٧٦، الكويت. صحراوي، إبراهيم (١٩٩٩). **تحليل الخطاب الأدبي، دراسة تطبيقية، ط١**، ص١٢، دار الآفاق، الجزائر. الفقي، **علم اللغة النصي**، مصدر سابق، ص٣٥-٣٦. سعد يقطين، **تحليل النص الروائي**، مصدر سابق، ص١٠.

٤ انظر: الحميري، عبد الواسع (٢٠٠٨). **الخطاب والنص" المفهوم- العلاقة ــ السلطة"**، ط١، ص١٢٨، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. باري، هرمان (٢٠٠٥م)، **الخطاب**، (ترجمة: محمد أسيداه)، مجلة نوافذ، عدد٣٤، ص٨٨، ديسمبر، النادي الأدبي بجدة، السعودية. كريستيفا، جوليا، **علم النص**، مصدر سابق ، ص١٣- ١٤.

تُجمع الدراسات الحديثة على أنّ النص مهما كان حجمه لا بد أنْ يتميّز بجملة من المقوِّمات والخصائص التي تجعل منه كلامًا متماسكًا دالاً، تعود إلى اتساقه، وترابط نسيجه التركيبي، وانسجام علاقاته الدّلاليّة مع مقاصده وأغراضه التبليغيّة، بالإضافة إلى التلاؤم مع سياقات وروده واستخداماته، كما ينبغي أنْ يتميّز بالجدّيّة والقبول عند سامعيه، وهكذا فقد ركّز الدارسون على دراسة هذه الخصائص، وهي ما عرفت بالمعايير السبعة التي وضعها دي بوجراند وهي: السبك، والحبك، والقصد، والقبول، ورعاية الموقف، والتناص، والإعلاميّة؛ حيث تتكامل في تحقيق النصيّة للنص.

أولا: السبك

وهو المعيار الأول من المعايير النصيّة التي وضعها دي بوجراند، وشاع بتسميات مختلفة[1] لدى الباحثين، ولعل ذلك يعود إلى اختلاف ترجمة المصطلح الغربيّ، وكلها تشير إلى ارتباط العناصر اللفظيّة بعضها ببعض على نحو متناسق، وهو " لا يختص بنحو النص، وإنّما لا بد منه على مستوى الجملة، لأنّه يتعلق بمجموعة الروابط النحوية التي تربط بين أجزاء الجملة وأجزاء النص "[2].

أ. السبك النحوي:

ويحدد سعد مصلوح السبك بأنّه يختص " بالوسائل التي تتحقق بها خاصيّة الاستمراريّة في ظاهر النص، ونعني بظاهر النص: الأحداث اللغويّة التي ننطق بها، أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطّها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق، ينتظم بعضها مع بعض تبعًا للمباني النحوية "[3]، وينشأ غالبًا عن طريق الأدوات كأدوات العطف، والإشارة، والتعريف، والأسماء الموصولة، ويمكن دراسته من حيث وسائل السبك النحوي، ووسائل السبك المعجمي، حيث يعمل السبك على جعل النص مفيدًا ومترابطًا.

وأبرز وسائل السبك النحوي: الإحالة، والاستبدال، والحذف، والربط.

١. الإحالة:

---

[1] أشهرها: الاتساق، والانسجام، والترابط والتماسك، والتضام، والتناسق، والربط اللفظي، والربط النحوي، والربط الرصفي، والسبك.

[2] عبد الراضي، أحمد محمد، **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، مصدر سابق، ص١١٠.

[3] مصلوح، سعد (١٩٩١م)، **نحو آجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية**، مجلة فصول، مجلد (١٠)، العددان (١،٢)، ص١٥٤، الهيئة المصريّة للكتاب.

وهي " العلاقة بين الألفاظ والأشياء، والأحداث، والمواقف في العالم الذي يدلّ عليه بالمعوضات في نص ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى عالم النص نفسه "[١]، حيث يشير عنصر لاحق إلى عنصر سابق عليه بطريقة مختلفة، كالضمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وأدوات المقارنة.

ولا تخرج هذه الإحالة عن أنْ تكون مقاليّة، تعود على عناصر لغويّة واردة في النص، وبالتالي فهي إحالة داخليّة تعود على سابق أو لاحق، أو إحالة مقاميّة؛ وتكون خارج النص وتسمّى إحالة خارجيّة، حيث تحيل إلى عنصر إشاريّ غير لغويّ، فتقوم بربط اللغة بالسياق بشكل غير مباشر.

وقد درس النحاة القدامى الإحالة، وتكلموا كثيرًا عن الضمير وعائديته، وعن قرينة الرتبة من حيث تحديد العائد لمتقدم أو لمتأخر، يقول الرضي عن الضمير في (ضرب غلامه زيد): " لا بدّ من متقدم يرجع إليه هذا الضمير تقدمًا لفظيًا أو معنويًّا؛ وهو راجع إلى زيد، وهو متأخر لفظًا، فلولا أنّه متقدم عليه من حيث المعنى لم يجز، فجعَله من باب المتقدم معنىً لا لفظًا وهو الحق"[٢].

كما صنّفوا الألفاظ إلى مبهمة وغير مبهمة، فالمبهمة هي أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وأشار عبدالقاهر الجرجاني إلى الإحالة المقامية، إذ اعتنى بالمقام، وتحدث عن المعنى ومعنى المعنى، فما يصل إليه بظاهر اللفظ هو المعنى، وإنْ لم يصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده بل وجد لذلك المعنى دلالة ثانية يصل بها إلى الغرض فهو معنى المعنى[٣].

٢. الاستبدال:

وهو " عملية تتم داخل النص، إنّه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر "[٤]. والفرق بينه وبين الإحالة هو أنّ " العلاقة بين عنصري الإحالة (المُحيل والمحال إليه) علاقة تطابق، بينما العلاقة بين عنصري الاستبدال (المستَبْدَل والمستَبْدِل) علاقة تقابل، فالاستبدال يتم على المستوى النحوي المعجمي بين الكلمات أو العبارات، بينما الإحالة فهي علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي "[٥].

---

[١] دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص ٣٢٠.

[٢] الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (١٩٩٨). **شرح كافية ابن الحاجب**، (تقديم: إميل بديع يعقوب)، ط١، ج٢، ص٢٠٤، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٣] انظر: الجرجاني، عبدالقاهر (د . ت). **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، (تعليق: محمود محمد شاكر)، ص٢٦٢- ٢٦٣، مكتبة الخانجي، مصر.

[٤] خطابي، محمد (١٩٩١). **لسانيات النص : مدخل إلى انسجام الخطاب**، ط١، ص١٩، المركز الثقافي العربي.

[٥] انظر: خطابي، **لسانيات النص**، مصدر سابق، ص١٩-٢١.

وينقسم الاستبدال بالنظر إلى العنصر المعوض إلى ثلاثة اقسام[١]:

١- الاستبدال الاسميّ، ويتم باستخدام عناصر لغويّة اسميّة مثل: كلمة آخر، آخرون، نفس.

٢- الاستبدال الفعليّ، ويمثله الفعل (يفعل، فعل).

٣- الاستبدال القوليّ؛ باستخدام (ذلك، لا).

وهذه القضايا نجدها في العربية بالمسميات ذاتها، ونجدها بتطبيقات أخرى؛ ومنها استعمال أسماء الإشارة، والضمائر، ومنها ضمير القصة أو الشأن.

كما أنّ البدل الذي يختلف في مفهومه عن الإبدال أو الاستبدال يعمل على تماسك النص وهو على ثلاثة أنواع، فهو إما بدل مطابق لما قبله تمامًا، أو بدل بعض من كل؛ أي يمثل جزءًا مما قبله، أو بدل اشتمال أي يشتمل عليه ما قبله، لكنه ليس جزءًا منه، وبدل تفصيل، أي يفصل ما قبله لأقسام.

٣. الحـذف

وهو " استبعاد العبارات السطحيّة التي يمكن لمحتواها المفهومي أنْ يقوم في الذهن، أو أنْ يوسع أو أنْ يعدل بواسطة العبارات الناقصة "[٢]، فلا يحل محل المحذوف شيء، فيهتدي القارئ إلى المعنى اعتمادًا على ما ورد سابقًا، فهو كالاستبدال؛ إحالة قبلية لكنه استبدال من الصفر، إذ علاقة الاستبدال تترك أثرًا، وقد قُسِّم الحذف إلى ثلاثة أقسام[٣]:

١- الحذف الاسميّ: وهو حذف الاسم داخل المركب الاسميّ.

٢- الحذف الفعليّ: وهو الحذف داخل المركب الفعليّ.

٣- حذف جملة أو قول: وذلك من خلال حذفها من بين الجمل المتلاصقة.

وقد حظي الحذف باهتمام كبير عند العرب، فوصفه الجرجاني بقوله: " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن "[٤].

وقد ذكر الزركشي فوائد الحذف كالتفخيم، والإعظام، وزيادة لذّة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وزيادة الأجر بسبب الاجتهاد في ذلك، وطلب الإيجاز، والاختصار، والتشجيع على الكلام[٥].

---

[١] انظر: عبد الراضي، أحمد، **نحو النص** ، مصدر سابق، ص١٣٠، عفيفي، **نحو النص**، مصدر سابق، ص١٢٣.

[٢] دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص٣٠١.

[٣] انظر: خطابي، **لسانيات النص**، مصدرسابق، ص٢٢.

[٤] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص١٤٦.

[٥] انظر: الزركشي (١٣٩١هـ). **البرهان في علوم القرآن**، ج٣، ص١٠٤- ١٠٥، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دارالمعرفة، بيروت.

٤. الربــط

ويطلق عليه أيضًا اسم الرّصف، وهو " يتضمن وسائل متعددة لربط المتواليات السطحيّة بعضها ببعض بطريقة تسمح بالإشارة إلى العلاقات بين مجموعات من معرفة العالم المفهوميّ للنص، كالجمع بينها، واستبدال البعض بالبعض، والتقابل، والسَبَبِيَّة، أما الأنواع الفرعيّة للربط فهي: مطلق الجمع، والتمييز أو الفصل، والاستدراك أو التفريع، والتبعية "(١)، فهو تحديد للطريقة التي تترابط بها العناصر، وأبرز هذه الوسائل كما ذكرها دي بوجراند(٢):

١- عناصر ربط إضافيّ: وهو الربط بين جملتين بواسطة أدوات مثل (و، أو، ثم، فـ).
٢- عناصر ربط عكسيّ: وهو يعني الربط بين جملتين بواسطة أدوات مثل: (لكن، غير أنّ، على الرغم من، بيد أنّ...) فهو عكس ما هو متوقع.
٣- عناصر ربط سببيّ: وهو عبارة عن الربط بين جملتين؛ تمثل الأولى السبب وتمثل الثانية النتيجة.
٤- عناصر ربط زمنيّ: وهو عبارة عن الربط بين جملتين متتابعتين زمنيًّا بواسطة أدوات مثل: (ثم، حتى، بعد ذلك، في أثناء ذلك، قبل أنْ، بعد أنْ، في الوقت ذاته).

أما الفرعيّة فهي:

١- مطلق الجمع: حيث يتم الربط بين صورتين متماثلتين بواسطة (واو العطف).
٢- التخيير: حيث يتم الربط بين صورتين متماثلتين من حيث المحتوى، ويقع الاختيار على واحدة منهما باستعمال الأداة (أو).
٣- الاستدراك: حيث تم الربط بين صورتين من صور المعلومات بينهما علاقة تعارض باستخدام الأداة (لكن)، و (بل).
٤- التفريع والتبعيّة: حيث تكون العلاقة بين عنصرين مترابطين علاقة تدرّج، إذ إنّ تحقق أحد هذين العنصرين يتوقف على تحقق الآخر؛ ويستعمل لذلك أدوات منها: (لأنّ، مادام، من حيث).

فأدوات الوصل السابقة تؤدي وظائف متماثلة، ولكن معانيها داخل النص مختلفة، فالربط يعمل على جعل الجمل مترابطة من خلال هذه الأدوات والوظائف المستخدمة لها.

وقد تكلم النحاة العرب على كثير من صور الربط، وإنْ لم يصنفوا وظيفته كجزء من الترابط النصيّ على نحو مباشر، وهذا الباب عُرف عند العرب من أهل البلاغة بالوصل، وقد

---

١ دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص٣٠١-٣٠٢، وانظر: ص٣٤٦-٣٥١.
٢ انظر: الخطابي: **لسانيات النص**، ص٢٣، دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص٣٤٦-٣٤٧.

درس النحاة العطف وجعلوه قسمين: عطف بيان وعطف نسق، والثاني هو الذي يشبه موضوع الربط عند الغرب؛ ويؤدي وظيفة سبك النص باستعمال الحرف الرابط، فدرسوا عطف المفردات: الاسم على الاسم، كما درسوا عطف الجمل من خلال عطف الفعل على الفعل، وذكروا حروف العطف، وهي عشرة عند النحاة ولكل منها معنى، وهي تعمل من خلال معانيها على سبك النص وقيام الدلالة والانسجام في معناه، وهي[1]: الواو، الفاء، ثم، أو، بل، لا، إما، لكن، أم، حتى.

ب. السبك المعجميّ:

وهو القسم الثاني من وسائل السبك، ويتعلق بالألفاظ المعجميّة وأبرزها: التكرار، والتضام.

١. التكرار:

وهو " شكل من أشكال الاتساق المعجميّ، يتطلب إعادة عنصر معجميّ، أو ورود مرادف له، أو شبه مرادف، أو عنصر مطلق، أو اسم عام "[2]. وهو يتفرع إلى أربعة أنواع هي[3]:

١- التكرار المحض التام، ويكون بإعادة أعيان الألفاظ مع اتحاد المرجع، أو مع اختلاف المرجع.
٢- تكرار المعنى واللفظ مختلف، ويشمل الترادف، وشبه الترادف، والصياغة.
٣- تكرار الاسم الشامل، وهو اسم يحمل معنىً مشتركًا بين عدة أسماء فيكون شاملاً لها مثل الأسماء: (الناس، الشخص، الرجل، المرأة، الولد، البنت،....) كلها تشمل الإنسان.
٤- تكرار الكلمات العامة؛ وهي كلمات فيها عموم وشمول.

وأضاف مصلوح[4] :

٥- التكرار الجزئيّ، وهو تكرار عنصر سبق استخدامه ولكن في شكل مختلف، مثل: أنعمت، نعمة.

---

[1] انظر: الرضي الاستراباذي، **شرح كافية ابن الحاجب**، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨١، المبرد، (د. ت) المقتضب، (تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة)، (د. ط) ج١، ص١٤٨-١٥٠، عالم الكتب، بيروت.
[2] خطابي، **لسانيات النص**، مصدر سابق، ص٢٤.
[3] انظر: خطابي، **لسانيات النص**، مصدر سابق، ص٢٤-٢٥، عبد المجيد، جميل، **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصيّة**، مصدر سابق، ص٧٩-٨٣.
[4] انظر: مصلوح: سعد، **نحو أجرومية للنص الشعري**، مصدر سابق، ص١٥٨.

٦- التوازي: وهو تكرار في المباني مع اختلاف العناصر التي يتحقق فيها المبنى، نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ (الصافات:١١٧- ١١٨).

وقد كان التكرار من المظاهر التي رصدها النقاد والبلاغيون العرب، وكانت مثار خلاف بينهم، فاهتم به ابن رشيق القيروانيّ لارتباطه بأمور دلاليّة، تجعل اللفظة المكررة تستقر في مكانها من النص، فتستدعيها طبيعة السياق الذي ترد فيه، ولذا فقد يكون التكرار عيبًا[١].

وقد التفت البلاغيون إلى فائدته، ومنها: التأكيد، والتنبيه على ما ينفي التهمة، وكذلك لطول الكلام وخشية التناسي يكرر الأول، وفي مقام التعظيم، والتهويل، وفي مقام الوعيد، والتهديد، وفي حال التعجب، ولتعدد المتعلق[٢].

وقد ميز العلماء بين التكرار اللفظيّ الذي يتعلق بالألفاظ، وبين التكرار المعنويّ الذي يتعلق بالمعنى، ويؤدي وظيفة دلاليّة في النص.

٢. التضام المعجميّ

ويعرّف بأنّه: " توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرًا لارتباطهما بحكم هذه العلاقة، أو تلك"[٣]، فهو يقع ضمن علاقات دلاليّة مختلفة؛ فذكر أحد الأزواج يستدعي ذكر الآخر، وعادة ما يتم استعمالهما في سياق واحد، كالليل والنهار، والشمس والقمر، وهو ما يسمى بالمصاحبة اللفظية.

وقد صنف علماء العربية التضام المعجميّ إلى أنواع أشهرها:

١- المطابقة، وهي: " الجمع بين متضادين أي معنيين متقابلين في الجملة"[٤].

٢- المقابلة، وهو: " أنْ يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يقابلهما أو يقابلها على الترتيب"[٥].

٣- مراعاة النظير: وسمي التناسب والائتلاف والتوفيق أيضًا، وهو أنْ يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد "[٦]، مثل: الشمس والقمر.

---

[١] انظر: القيرواني، ابن رشيق (د.ت).**العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، (تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد)، د.ط، ج٢، ص٢٨، ٢٩، دار الجيل، بيروت.

[٢] انظر: **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج٣، ص١١-١٦.

[٣] انظر: خطابي، **لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب**، مصدرسابق، ص٢٥.

[٤] القزويني،(١٩٩٨).**الإيضاح في علوم البلاغة**، ط٤، ص٢٥٥، (تحقيق: السيد الجميلي)، دار إحياء العلوم، بيروت.

[٥] المصدر السابق، ص٢٥٩.

[٦] المصدر السابق، ص٢٦٠.

وقد درس العرب خاصيّة النطق من خلال المستوى الصوتي، واهتموا بها في ضوء عناصر السبك التي فيها، فدرسوا موسيقى اللفظة، واهتموا بتخليصها من التنافر بين الحروف، والحركات، يقول الجاحظ:" أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغًا واحدًا وسبك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان، ... وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر،... تراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشقُّ على اللسان وتكدّه، والأخرى تراها سهلة لينة، ورطبة مواتية، سلسلة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى أنّ الكلمة بأسرها حرف واحد "[١]، فجعل البنية الصوتية مدخلا لدراسة النص وتحليله؛ فأشار إلى التوافق الصوتيّ، وتأثيره على المتلقي.

وأهم القضايا التي لها تأثير في السبك الصوتي مما درسه العرب القدماء: الجناس، والسجع، والاهتمام بالوزن والقافية في الشعر.

وعلى المستوى النحوي؛ اهتم النقاد، والبلاغيون، والنحويون، بمراعاة قواعد النحو في تركيب الكلام؛ لأنّ مخالفتها يؤدي إلى تعقيد المعنى، ونتيجة لذلك ظهرت نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني، فقدم " تحليلات مدهشة من خلال الكشف عن العلاقات الداخليّة في الخطاب الأدبي"[٢]، فتكلم عن التقديم والتأخير[٣]، والحذف[٤]، ووضع مباحث الفصل والوصل[٥]، والإحالة[٦]، والتعريف والتنكير[٧]، والربط بالاسم الموصول[٨].

ثانيًا: الحبك

وهو المعيار الثاني من المعايير النصيّة، ويكاد يرتبط بالمعيار الأول ارتباطًا تامًا، ولم يكن الفصل بينهما ممكنًا إلا لغرض الدراسة، وقد شاع بمسميات مختلفة[٩]، وهو يرتبط بالبنية الدلاليّة الكبرى للنص، وهو شيء يبنيه المتلقي بفهمه وتأويله، وليس له سطح ظاهر الدلالة؛ ويقوم على المعيار عند دي بوجراند على الترابط الفكري أو المفهومي الذي تحققه البنية العميقة للخطاب.

---

١ الجاحظ **البيان والتبيين**، مصدر سابق، ج١، ص٦٧.
٢ عبدالمطلب، محمد (١٩٩٧). **البلاغة العربية قراءة أخرى**، ط١، ص٢٨، مكتبة لبنان ناشرون.
٣ الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص٨٦-١٠٦
٤ المصدر السابق، ص١٤٦-١٥١.
٥ المصدر السابق، ص ١٦٣-٢٤٠
٦ المصدر السابق، ص ٢١٥.
٧ المصدر السابق، ص ٩١-١٠٢.
٨ انظر: الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص ١٩٩-٢٠٠.
٩ أشهرها: الانسجام، والحبك، والتماسك، والتناسق، والالتحام، والتقارن، والوحدة الموضوعية.

فالحبك هو "حصيلة تفعيل دلاليّ، ينهض على ترابط معنوي بين التصوّرات والمعارف؛ من حيث هي مركب من المفاهيم وما بينها من علاقات، على معنى أنّها شبكة دلاليّة مختزنة، يتناولها النص على مستوى الشكل، فالمستمع أو القارئ هو الذي يصمم الحبك الضروري أو ينشئه"[١]، فهو يقوم على تفسير العلاقات التي تربط معاني الأقوال والجمل مع مراعاة السياق والمتلقي.

ومن وسائل الحبك[٢]:

١- العناصر المنطقيّة؛ كالسببيّة، والعموم، والخصوص.

٢- معلومات عن تنظيم الأحداث، والأعمال، والموضوعات، والمواقف.

٣- السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانيّة، ويدعم الحب بتفاعل المعلومات التي يعرضها النص مع المعرفة السابقة بالعالم.

وقد استخدم البلاغيون العرب مفاهيم مختلفة؛ تدل على ما يدل عليه الحبك، كالاتصال، والامتزاج، والالتئام، والالتحام، والاتساق، والائتلاف، والاقتران، والارتباط، والملاءمة، والمناسبة، والتناسب، وغيرها[٣]، فدرسوا ارتباط الكلام ببعضه، واتساق الكلام في تجاوره، وانتظام المعاني فيها؛ من خلال المشاكلة بين أجزاء الكلام، يقول العسكري (ت: ٣٩٥هـ): "ينبغي أنْ تجعل كلامك مشتبهًا؛ أوله بأخره، ومطابقًا باديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها"[٤]، فكلامه يدل على وعيه بالتناسق بين أجزاء الكلام.

وعندما جاء القرطاجني أضاف الجديد، وتميّز بما بناه على دراساتهم فقال **في الابتداء**: " أنْ يكون المفتتح مناسبًا لمقصد المتكلم من جميع جهاته: إذا كان مقصده الفخر كان الوجه أنْ يعتمد من الألفاظ، والنظم، والمعاني، والأسلوب، ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وكذلك سائر مقاصده "[٥].

وأضاف إحكام مباني الفصول، وتحسين هيأتها في النص، وهو ما يعرف الآن بالمقاطع، فاشترط " أنْ يقدم من الفصول ما للنفس به عناية على حسب الغرض المقصود من الكلام، وأنْ يُتلى الفصل المقدم بالأهم؛حتى تتصور التفاته ونسبة بين فصلين تدعو إلى تقديم غير الأهم على الأهم"[٦].

---

١ العبد، محمد (٢٠٠٥). **النص والخطاب والاتصال**، ط١، ص٩١ -٩٢، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة.
٢ انظر: دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص ١٠٣.
٣ انظر: العبد، محمد، النص والخطاب والاتصال، مصدر سابق ، ص١٠٠.
٤ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، (١٩٥٢). **كتاب الصناعتين**، (تحقيق: علي محمد البيجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم)، ط١، ص ١٤١-١٤٢، دار إحياء الكتب العربي.
٥ القرطاجني، حازم (١٩٨٦). **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، (تقديم: محمد الحبيب ابن الخوجة)، ط٣، ص ٣١٠، دار الغرب الإسلامي.
٦ المصدر السابق، ص٢٨٩.

وقد أطلق القرطاجني على العناية برؤوس الفصول اسم التسويم والتحجيل، فالتسويم لأنّ العناية ترتبط بفواتح الفصول؛ فتجعل لها بهاء وشهرة وازديانا حتى كأنّه ذوات غرر[1]، أما التحجيل فيعني تعلية أعقاب الفصول بالأبيات الحكميّة الاستدلاليّة، ليكون اقتران رأس الفصل وصنعة عجزه نحوًا من اقتران الغرة بالتحجيل في الفرس[2]؛ فقد أدرك خاصية الحبك بين وحدات الفصل، كما التفت إلى علاقة المعنى في خاتمة الفصل بما عُرض في مقدمته.

وقد درس السيوطي في: (تناسق الدرر في تناسب السور) التناسق والتناسب بين السور. كما درس البقاعي التناسب بين الآيات في السورة الواحدة في تفسيره: (نظم الدرر)، وهذا يدل على وعي العرب بوجود التناسق الدلاليّ، والارتباط المعنويّ بين وحدات النص مهما كان حجمها.

ثالثًا: القصديّة Intentionality

تستخدم القصديّة للدلالة على توجه الوعي نحو موضوع معين، وهذا المعيار " يتضمن موقف منشئ النص من كون صورة من صور اللغة قُصد بها أنْ تكون نصًّا يتمتع بالسبك والالتحام، وأنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة، للوصول إلى غاية بعينها"[3]، فهو يحدد السبك والحبك، هدفين للقصدية، بالإضافة إلى وسائل أخرى، يستعملها منتج النص من أجل تحقيق مقصده.

فالقصد يحدد الغرض من أي فعل لغوي، كما يحدد هدف المتكلم من وراء ما يتلفظ به، وهو ما يساعد المتلقي على فهم (المخاطِب) أي على فهم الرسالة، ومن ثم يصبح توفير المقصد والنيّة مطلبًا أساسيًّا وشرطًا من شروط نجاح الفعل اللغويّ.

ولاشك في أنّ مفهوم القصد يمثل جزءًا أساسيًّا من دلالة الخطاب سواء أكان هذا في الفكر التراثي العربي، أم الفكر اللغوي الحديث؛ وقد تنبه علماؤنا على ارتباط المعنى بالقصد، إذ الكلام قد يحصل بغير قصد فلا يدل، وعلى القصد فيدل ويفيد؛ فليس من قبيل النص لغو الكلام، وكلام المكره والناسي والمخطئ والسكران؛ فالقصدية وإرادة المتكلم شرط في التواصل ليبلغ التأثير في المتلقي.

---

[1] المصدر السابق، ص٢٩٧.
[2] المصدر السابق، ص٢٩٧.
[3] دي بوجراند، **النص والخطاب والجراء**،مصدر سابق، ص١٠٣.

وقد ورد بلفظه عند علماء العرب، من ذلك عرف ابن حزم الكلام، فجعل القصد المؤشر المبدئي في كل نظام إبلاغي توصلي، فقال: " وأما الصوت الذي يدل بالقصد فهو الكلام الذي يتخاطب الناس به فيما بينهم، ويتراسلون بالخطوط المعبرة عنه في كتبهم لإيصال ما استقر في نفوسهم من عند بعضهم إلى بعض"(١).

ووردعن ابن هشام (ت:٧٦١هـ) قوله إنّ: (الكلام هو القول المفيد بالقصد)(٢)، ومن هنا يبدو أنّ الفائدة من الكلام تتعلق بقصد المتكلم.

وظاهر تقبل السامع (المستقبل) للنص هي أحد الأسباب المهمة في استهلال القصيدة العربية الكلاسيكية بالغزل والنسيب، ومن هذا المنظور يمكننا أيضًا فهم إلحاح علماء البلاغة على إدخال موضوع (الاحتراز مما يثير التطيّر) في أبواب علم البلاغة، وكذلك موقف النقاد من أبي تمام الذي يتلخص في الإكثار من الغريب في الشعر.

ويعد مجهود علماء التفسير والإعجاز القرآني ممن قدّم جانبًا يعتمد على كشف مقاصد الشرع في القرآن الكريم، وتفسيرها، وتوضيحها، فإنّما تَرَكّز عملهم على توضيح قصد الله تعالى.

أما الشيخ عبد القاهر الجرجاني، فيرى أنّ توفر القصد في الخطاب، يعدُّ من الأمور البدهيّة، ويفهم هذا من قوله: (وكان مما يُعلم ببداهة العقول، أنّ الناس إنّما يُكّلم بعضهم بعضًا، ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده)(٣).

وقد عبر النقاد والبلاغيون العرب القدامى عن القصد بألفاظ كثيرة منها،" الغرض"، و"الحاجة "، و" المراد "، و" الفائدة "، وغيرها، وهناك الكثير من الإشارات التي تدل على عنايتهم بالقصد.

رابعًا: الإعلامية Informativity

وعرّفها "روبرت دي بوجراند" بأنّها: " العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة، أو الوقائع في عالم نصيّ في مقابلة البدائل الممكنة، فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكل نص

---

١ المسدي، عبد السلام (١٩٨٦). **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، نقلاً عن ابن حزم، **التقريب**، ط٢، ص١٢، الدار العربية.

٢ ابن هشام، لجمال الدين الأنصاري (١٩٨٥). **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، (تحقيق: مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله)، ط ٦، ج٢، ص٣٧٤، دار الفكر، دمشق.

٣ الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص٥٣٠.

إعلاميّة صغرى على الأقل؛ تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع" [١]. فالإعلاميّة تشير إلى الطريقة التي تسخدم فيها العناصر اللغويّة لتقديم المعلومات؛ فالمعلومات لا يتوافر فيها القدر نفسه من الإعلاميّة، فيكون للنص مضمون يريد المتكلم إبلاغه للمتلقي، بحيث يخلق توازنًا بين المعلومات المعروفة سلفًا والمعلومات الجديدة، الأمر الذي يحقق مقروئيّة النص ويجعله ممتعًا، فلا ينبغي أنْ نفهم النص من جهة الإعلاميّة خلوه من الدلالة تمامًا، وإنّما القضيّة: احتواء النص على معلومات توصف بالجدّة والتنوّع، وكل كلام هرائي لا معنى له لا يعتبر نصًّا؛ إذ لو جاء النص فارغ المحتوى من الدلالة فليس نصًّا ولا علاقة لنحو النص به، فثمة علاقة عكسيّة بين التوقّع من جهة، وبين المفاجأة التي يحدثها ما هو غير متوقّع من جهة أخرى، فإذا زادت نسبة التوقّع قلّت نسبة المفاجأة، ومن ثم نسبة الانتباه .

ويجد المرء إشارات قيّمة إلى أهميّة الإعلاميّة باعتبارها مقياسًا لعدم التوقّع موزّعة في كتب علماء النقد والبلاغة العرب، ويتحقق هذا المستوى فيما سماه النقاد القدامى بالبيان، أو الإفهام، أو الفائدة من الكلام التي يتوخّى المتكلم إيصالها إلى المخاطب، إذ يقول بشر بن المعتمر (ت: ٢١٠هـ): " إنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال" [٢]، فالفائدة أو المنفعة من سمات المعنى الشريف.

وذكر أبو هلال العسكري أهمية فائدة الكلام ومنفعة الخطاب، وأنْ يحرص المتكلم على الفائدة التي يجنيها السامع فـ " لا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب" [٣]. ويفهم من كلامه أنّ وظيفة الإفهام تقع على عاتق المتكلم، والفهم يقع على عاتق السامع.

وقد تحدث النقاد العرب القدامى عن الغرابة بنوعيها : اللفظية، والمعنوية، فالنّوع الأوّل: أجمعوا على رفضه وذمه، واستعماله لا يدلّ على الجدّة والابتكار، ولاسيّما في لغة الأدب، كاستعمال ألفاظ قديمة ماتت، أو جفاها المتكلمون، أما النوع الثاني: فيتعّلق بالجدّة ومخالفة المألوف، ويرد في لغة الأدب عامة ولغة الشعر خاصة.

كما تحدثوا عن الغموض، وقد أشاد عبد القاهر الجرجاني بمستوى من الغموض، يحتاج معه المتلقي إلى بذل الجهد من أجل الوصول إلى المعنى، وقد ذكر ذلك في عدة مواضع، يقول في أحدها: " إنّ المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أنْ يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر، والهمة فيطلبه، وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد، ومن المركوز في الطبع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه ومعاناة

---

[١] دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص١٠٥.
[٢] الجاحظ، **البيان والتبيين**، مصدر سابق، ج١، ص ١٣٦.
[٣] العسكري، **كتاب الصناعتين**، مصدر سابق، ص٢٩.

الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أظن وأشغف"[١]، وليس المعنى أنْ يصل الغموض إلى الإبهام والتعقيد في المعنى.

خامسًا: التقبلية Acceptability

وهذا المعيار" يتضمّن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أنْ تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام"[٢]، وهذا يعني أنّ فكرة التقبليّة تتجه صوب المخاطَب، وهي صفة تعني أنّ النص يمثّل صورة مقبولة من صور اللغة بين أجزائها تماسك والتحام، وهي محددة الدلالة وهذه صفة يضعها نحو النص في مقابل مطابقة القاعدة؛ لا يقبل مثلاً التردد في الأوجه الإعرابية المختلفة المحتملة الموضع الواحد، ولكن يعمل على تسخير كل صفاته كالتناص، ورعاية الموقف، والإعلاميّة، وغيرها لاتخاذ قرار يؤدي إلى تحديد المعنى[٣].

وإذا كانت المقبوليّة مرتبطة بمنتج النص ومتلقيه فإنّه يجب ألا نغفل تلك الظروف التي تحيط بهما في السياق أو الموقف لغويًا أو غير لغويّ، مما يساعد على الحكم بالقبول أو عدمه؛ حيث يشير جون ليونز إلى أنّ نظرية السياق عنده لا تعتبر الجملة كاملة المعنى إلا إذا صيغت طبقًا لقواعد النحو وراعت توافق الوقوع بين مفردات الجملة وتقبلها أبناء اللغة[٤].

وقد أولى النقاد والبلاغيون العرب القدامى هذا المعنى عناية كبيرة، وأتى ذلك من اهتمام الشعراء والخطباء أنفسهم منذ العصر الجاهلي، بأنْ يقع كلامهم موقع القبول من السامع؛ ومنها إشارة القدماء إلى أهميّة العناية بالابتداء سواء في الشعر، أو النثر أو الكتابة[٥]، ومنها الوقوف على الأطلال والنسيب، فظاهره تقبل السامع أو المستقبل للنص أحد الأسباب المهمة في استهلال القصيدة العربية القديمة بالغزل والنسيب، ويترتب هذا المعيار على مدى قوة الانسجام والارتباط بين المعيار الأول والثاني، ويؤدي إلى قبول النص اللغوي، وإذا حدث خلل بين هذين العنصرين قد يؤدي ذلك إلى حدوث تصورات خاطئة؛ فهذا المعيار " لا يتعلق بالسياق اللغويّ بقدر ما يرتبط

---

١ الجرجاني، عبد القاهر (١٩٩١)، **أسرار البلاغة**، (تحقيق: محمود محمد شاكر)، ط١، ص١٠٩-١١٠، مكتبة الخانجي.

٢ دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص١٠٤.

٣ انظر: هاتيه، فولفجانج، وفيهفيجر، ديتر (١٩٩٦). **مدخل إلى علم اللغة النصي**، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، د. ط ص٩٣-٩٥. نشر جامعة الملك سعود، الرياض- المملكة العربية السعودية. دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص ١٠٣-١٠٥. عفيفي، **نحو النص**، مصدر سابق، ص ٧٥ .

٤ عبد الراضي، أحمد، **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، مصدر سابق، ص ٩٩-١٠٠.

٥ انظر: الجاحظ **البيان والتبيين**، مصدر سابق، ج١، ص ٢٠٤، ج٢، ص٤٣١،العسكري، **الصناعتين**، مصدر سابق، ص٤٣١.

بالسياق المقاميّ والثقافيّ، والأرضية المشتركة بين المنتج والمتلقي مما يجعل بينهما قدرًا مشتركًا تجعل المتلقي يتقبل تلك الأحداث الكلامية أو السلسة اللغوية"[١].

كما حدّدوا شروط الفصاحة في اللفظ المفرد، وهي الابتعاد عن (تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، والكراهة في السمع)[٢]، وثمة ثلاثة مبادئ ذكرت في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، إذا ما توافرت في البنى التركيبية المكونة للخطاب أكسبته رضًا وقبولاً عند المتلقي، وهي[٣]: الابتعاد عن ضعف التأليف، والابتعاد عن التنافر، والابتعاد عن التعقيد. حيث اهتموا بتركيب الكلمات مع بعضها، وارتباطها بما جاورها؛ بهدف أنْ تكون مقبولة لدى المتلقي، واشترطوا لهذه الكلمات شروطًا أهمها الفصاحة، وأنْ تكون بعيدة عن الغرابة والتعقيد اللفظيّ والمعنويّ.

سادسًا: المقاميّة context

يعد مفهوم "المقاميّة " جزءًا من مفهوم السياق في البحوث اللغويّة عند المحدثين، ويقصد بها: " العوامل التي تجعل النص مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه"[٤].

وقد وصف الباحثون في علم النص المقاميّة بأنّها واحدة من أهم العناصر التي تقوم عليها النصيّة، لقناعتهم بأنّ دراسة النص لن تكون كافية بالوقوف فقط عند بنيته النحويّة أو الدلاليّة الداخليّة، بل لابد من دراسته على مستوى الخطاب، وهذا يعني الاهتمام ببنية السياق، والعلاقات بينها وبين النص، فالمقاميّة " تتعلق بمناسبة النص للموقف، فهي المناسبة أو المقام الذي يوضح المقصود من النص"[٥].

وقد تطورمفهوم" السياق" ولاسيما عند فيرث الذي يرى أنّ السياق ينقسم إلى قسمين:

- السياق الداخليّ: ويتمثّل في العلاقات الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، والدلاليّة بين الكلمات في تركيب معين، ويسمى "السياق اللغوي~".

---

١ عبد البديع، أشرف (٢٠٠٣). الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، ص ١٥٦، دار فرحة للنشر، القاهرة.
٢ انظر:القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، مصدر سابق، ص١٣-١٥.
٣ انظر :القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، مصدر سابق، ص١٥-١٧، عبد المطلب، **البلاغة العربية قراءة أخرى**، مصدر سابق، ص٧٥.
٤ دي بوجراند، **النص الخطاب الإجراء**، مصدر سابق ، ص ١٠٤.
٥ عبد الراضي، أحمد، **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، مصدر سابق، ص٩٦.

- السياق الخارجيّ: ويتمثل في السياق الاجتماعيّ، أو سياق الحال، ويشكل الإطار الخارجيّ للحدث الكلامي، ويسمى "سياق الموقف"، حيث يفسر أمورًا لا يستطيع السياق اللغوي وحده تفسيرها.

فالسياق عند اللغويين المحدثين له بعدان أساسيان: الأول: داخليّ، أو "مقاليّ"، وهو بعد "سياقيّ لغويّ" صرف، والثاني: بعد خارجيّ، أو "سياق غير لغويّ"، يحدد الخلفيّة غير اللغويّة المحيطة بالعمليّة اللغويّة من ظروف وملابسات، وفي ذلك يقول تمام حسّان: "وحين قال البلاغيون لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على السواء، ولم يكن «مالينوفسكي» وهو يصوغ مصطلحه الشهير (سياق الحال) «CONTEXT OF SITUATION» ، يعلم أنّه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها"[(١)].

وهناك مقولات تمخض عنها التفكير النقديّ والبلاغيّ عند العرب القدامى يمكن أنْ تعد أصولاً تراثية لمعيار المقاميّة، ولعل أشهرها المقولتان: لكل مقام مقال، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

فأما مصطلح (مقتضى الحال)؛ فقد اهتم به علماء (علم المعاني)، يقول التهانوي: " هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال- أي يطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معلّلةً بالأحوال"[(٢)].

وهو يقترب إلى حدّ كبير من مصطلح " سياق الحال " في الدرس اللغويّ الحديث ويشترك معه في خاصية الاهتمام بالجانب الاجتماعيّ للغة، وهو - بتعريف التهانوي - أضيق دلالة؛ إذ لابد أنْ يسبق المقامُ المقالَ؛ لأنّ الكلام يصاغ بمقتضاه، وهذا يختلف عن مفهوم (سياق الموقف) حيث يستعان بعناصره في فهم الكلام بعد إنتاجه وهذا المقال جزء من هذا السياق وليس منفصلاً عنه.

ولعلّ أقدم صور الإفادة من ذلك الواقع تتمثل فيما يذكره الجاحظ عن صحيفة بشر بن المعتمر، حول معنى: (لكل مقام مقال) إذ يقول: " ينبغي للمتكّلم أنْ يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة"[(٣)]. فمن الواضح أنّ أهل علم المعاني اهتموا بأحوال المتكلم والمستمع، والتعريف يقتضى أنْ يكون

---

[١] حسان، تمام (١٩٩٤). **اللغة العربية معناها ومبناها**، د.ط، ص٣٧٢، دار الثقافة، المغرب.

[٢] التهانوي (١٩٧٢). **كشاف اصطلاحات الفنون**، (تحقيق: لطفي عبدالبديع)، د.ط، ج٢، ص ١٢٥، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

[٣] الجاحظ. **البيان والتبيين**، مصدر سابق، ج١، ص ١٣٨-١٣٩.

المتكلم على علم بأحوال السامع قبل أنْ يتكلم؛ حتى يأتي بالكلام على صفة مخصوصة تتطابق مع حال المستمع.

وكذلك نظرية النظم جاءت تنظيرًا لفكرة (المقام)، فيؤكد الجرجاني أنّه لا معنى لتفاضل الكلمات من غير النظر إلى السياق الذي وردت فيه، "وهل يقع في وهم - وإنْ جَهِد - أنْ تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أنْ ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ... وهل تجد أحدًا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها"[1]، فالسياق العام هو الذي يحكم للفظة بالفصاحة أو بخلافها.

وبذلك يتضح أنّ العرب القدامى قد وُفِّقُوا في الاهتداء إلى فكرتي المقام والمقال، بوصفهما أساسين من أسس تحليل المعنى، ويعد من الكشوف التي تمخَّض عنه العقل الغربي المعاصر في دراسة اللغة.

سابعًا: التناص

هو ترحال للنصوص، وتداخل نصيّ في فضاء نص معين؛ تتقاطع وتتلاقى ملفوظات عديدة مُقْتَطَعَةٌ من نصوص أخرى[2]، ويتضمن علاقات مرتبطة به؛ وقعت في حدود تجربة سابقة؛ سواء بوساطة أم بغير وساطة، بحيث يظهر هذا التفاعل، والتعالق، والالتقاء، والتداخل (اللفظي والمعنوي) بين النص والنصوص الأخرى التي سبقته؛ فاستفاد منها هذه النص المراد دراسته[3].

فالتناص يكون تابعًا لمجموعة نصوص سابقة يتفاعل معها ويتعالق بكيفيّاتٍ مختلفة، حصرها الدكتور محمد عبد المطلب في نمطين أساسيين هما: العفويّة وعدم القصد، إذ يتم التسرب من الخطاب الغائب إلى الحاضر في غيبة الوعي، أو يعتمد على الوعي والقصد، بمعنى أنّ الصيغة في الخطاب الحاضر تشير إلى نص آخر، وتكاد تحدده تحديدًا كاملاً يصل إلى درجة التنصيص، وهنا تطفو على السطح مفاهيم الملاقحة، والمثاقفة، والسرقات الأدبيّة، والتضمين، والمعارضة[4].

يعني ذلك أنّ تلك التقاطعات تكون بين نصوص متنوعة أو بين نصين، من غير قصد، وبكل عفويّة وبدون وعي عند البعض، وبعضهم لم يمنع أنْ تكون التقاطعات مقصودة وواعية، وبالتالي قد اقتربوا من مفهوم (التأثير والتأثر) في مجال المثاقفة بين الأمم.

---

[1] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص ٤٠٢.
[2] كريستيفا، جوليا ، **علم النص**، مصدر سابق، ص ٢١.
[3] انظر: دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، مصدر سابق، ص١٠٤، عفيفي، **نحو النص**، مصدر سابق، ص٨١.
[4] عبد الراضي، أحمد، **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، مصدر سابق، ص ٩٢، نقلا عن: **قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجاني**، ص ٩٥٣.

وقد فطن العرب منذ وقت مبكر إلى التجديد والتقليد، وفرّقوا بين الابتداع والاتباع، ووضعوا لذلك قواعد وأصولاً؛ إلا أنّهم لم يصطلحوا على تسمية (التناص) أو التداخل النصيّ، فالمتأمل في التراث النقدي والبلاغي عند العرب يجد مظاهر كثيرة لهذه القضية؛ بأسماء مختلفة، تقترب مفهوماتها من مفهوم"التناص"، ومن أهمها: السرقات الشعرية، والاقتباس، والتضمين، والنقائض، والمعارضات التي عرفها العرب، في تفعيل نصّ بنصّ آخر، على شاكلة واحدة، وموضوع واحد.

وقد عُرّفت السرقة الأدبية بأنّها: " احتيال الأدباء للإفادة من إبداع من تقدّموهم من غير إشارة إلى مبدعه، أو نسبته إلى قائليه، وتعني المعنى الذي اختص به شاعر و نُسب إليه؛ كقول أبي نواس في وصف الخمر:

فتمشّت في مفاصِلِهم كتمشّي البرءِ في السَّقِمِ

فإنّه أخذ المشبه به من معنى مسلم بن الوليد في قوله:

تجري محبّتها في قلب عاشقها مجرى المعافاة في أعضاء منتكس

فالسرقات الأدبيّة تعدُّ من القضايا النقديّة القديمة التي حظيت بالاهتمام فشغلت حيزًا كبيرًا من مؤلفات القدامى، وكانوا ينظرون إليها في البداية نظرة أخلاقيّة، وأجمعوا على رفض هذا الاتجاه، لأنّه يرتبط بظاهرة النحل، أما إذا كان الشاعر يكسو المعاني التي أخذها من غيره أثوابًا مبتكرة من اللفظ والشكل، فقد أقرّوا بشرعيتها، وهذا يدخل حتمًا ضمن معنى" تداخل النصوص"، الذي يعني أنّ النص المبدَع لا ينشأ لطفرة كلاميّة تتدفق على المتكّلم؛ وإنّما هو نتيجة لاستحضارٍ واعٍ أو منسيّ لتراثٍ إبداعيٍّ سابق عليه[1]، فثمة أخذٌ للفظ والمعنى معًا، وثمة أخذٌ للمعنى من دون اللفظ، وثمة إجادة أو قبح في الأخذ، ونجد أن هذا النوع من السرقات الذي يؤخذ فيه اللفظ والمعنى معًا يحقق أعلى مستوى من التناص، أما الأمور التي يمكن رد الاتفاق فيها إلى توارد الخواطر، وتلاقي الأفكار كتشبيه الحسن بالشمس، والجواد بالغيث، والشجاع الماضي بالسيف؛ فليست من السرقة الأدبيّة في شيء[2].

ويعد موضوع الاقتباس والتضمين أحد أبواب البلاغة العربيّة، وهم يعنون بالاقتباس ما يستغله الكاتب من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وعرّفه الرازي بقوله:" هو أنْ تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينًا لنظامه وتضخيمًا لشأنه"[3]، كقول بعضهم عند وفاة بعض أصحابه:

---

[1] انظر: شبيل، الحبيب (١٩٩٢). **من النص إلى سلطة التاويل**، ص٤٥٣ ، بحث منشور ضمن كتاب " **صناعة المعنى وتأويل النص** "، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس.

[2] انظر: المهندس، كامل ، ووهبة، مجدي ، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، مصدر سابق، ص ١٩٩.

[3] المصدر السابق ، ج١، ص٢٧١، نقلاً عن نهاية الإيجاز ص ١١٢.

قد كان ما خفت أنْ يكونا　　　إنّا إلى الله راجعونا

من الآية:(ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ) (البقرة:١٥٦)، ويكون ذلك " إما للتحلية أو للاستدلال، على أنّه يجب الإشارة إلى مصدر الاقتباس بهامش المتن، وإبرازه بصفته بين علامات تنصيص، على أنّ الذوق الأدبي العام يفضل ألا يزيد النص المقتبس عن عشرة أسطر تقريبًا"[١].

ونلاحظ أنّ " الاقتباس" يمثل شكلا من أشكال " التناص المباشر" الذي يعني اجتزاء قطعة من نص سابق أو نصوص سابقة، تجعلها تتلاءم مع موقف اتصالي جديد.

أما التضمين فهو الأخذ من نصوص الآخرين بوجه عام، فقد عرّفه القزويني بقوله: " وأما التضمين فهو أنْ يضمن الشعر شيئًا من شعر الغير، مع التنبيه عليه إنْ لم يكن مشهورًا عند البلغاء"[٢].

وقد عدت النقائض والمعارضات في الشعر من أنماط " التناص" الذي يدور في سياق نص كامل وليس في جزئياته؛ كما هي الحال في الاقتباس والتضمين، فالنقائض تطلق عندما ينظم شاعر معين قصيدة يتجه فيها إلى شاعر آخر، هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الشاعر الآخر إلى الرد عليه بقصيدة أخرى ملتزمًا الوزن نفسه والقافية نفسها[٣].

وأما المعارضات أنْ يقول الشاعر قصيدة في موضوع ما، فيأتي شاعر آخر، فينظم قصيدة أخرى على غراره محاكيًا القصيدة الأولى في وزنها وقافيتها وموضوعها، أو مع انحراف عنه يسيرًا أوكثيرًا، مع حرصه على إظهار التفوّق، من دون أنْ يعرض لهجاء الشاعرالأول[٤]، وهذا يجعلنا نقول إنّ العرب كانت تمارس فعل التناص، لاسيما في الخطاب الشعري، دون أنْ تسمّيه، بينما كانت هناك تسميات مثل التضمين والاقتباس، والاستشهاد، والنقائض والمعارضات، وكذلك مفهوم السرقات، وإنْ كانت هذه التسمية الأخيرة دالة على الانتقاص والاستهجان، مما جعلهم يقللون من قيمة الشاعر الذي يلجأ إلى السرقات في شعره، ولكنها بمفهوم العصر أخذ أو محاكاة قام بها شاعر لنص شاعر آخر.

---

[١] المهندس، كامل ، ووهبة، مجدي، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب** ، مصدر سابق، ص٥٦.
[٢] مطلوب، أحمد، **معجم المصطلحات البلاغية**، مصدر سابق ،ج٢ ص٢٦٤، نقلاً عن الإيضاح للقزويني، ص ٤١٩.

[٣] انظر: ضيف، شوقي (١٩٨٧)، **التطوروالتجديد**، ط٨، ص١٦٩، دار المعارف.
[٤] انظر: عزّام، محمّد (٢٠٠١)، **النّصُ الغائب: تجلّيات التّناصّ في الشعر العربي**، د. ط، ص١٤٢، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

المطلب السادس: تعريف نحو النص

وبهذا توصل الباحثون إلى تعريفٍ لنحو النص، ولا نجد اختلافًا كبيرًا فيما بينهم كما وجدناه في تعريف النص والخطاب، فهو:

فرع من فروع علم اللغة؛ يهتم بدراسة النصوص المنطوقة والمكتوبة على حدٍّ سواء باعتبارها وحدة متكاملة، من حيث هو بنية كليّة موضوعة في مقام ما أو سياق ما، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمّها: دراسة الأدوات اللغوية التي تحقق صور التماسك النصي؛ (الشكلي والدلالي)، مع مراعاة السياق، وخلفية المتلقي المعرفية بالنص[1].

فهو اتجاه معاصر في دراسة النصّ اللغويّ؛ لأنّه يشتمل على كثيرٍ من الأشياء التي تخلو منها الكلمة أو الجملة، فبذلك نقول إنّ النصّ يتجاوز جميع حدود المعيارية لنحو الجملة؛ كما إنّه يخرج نفسه من حدود كل عادات القراءة التقليدية، وكذلك من طرق التحليل النحوي المعروفة.

والدراسات اللسانيّة تزداد صعوبة إذا تجاوزنا في تحليلنا الجملة إلى النص؛ فقد نتج من تفاعل مجموعة من العلوم المختلفة، بعضها لغويّ، وبعضها الآخر غير لغويّ. وهو من المصطلحات التي قررت لنفسها هدفًا واحدًا وهو الوصف، والدراسة اللغويّة للأبنية النصيّة، وكذلك هو تحليل المظاهر المتنوعة لجميع أشكال التواصل النصيّ؛ خاصة التي عجز عنها نحو الجملة، وصار شكلاً متطورًا للبحوث اللغويّة التي دارت حولها دراسات المدارس اللغويّة السابقة.

---

[1] انظر: بحيري،**علم لغة النص**، مصدر سابق، ص٩٩-١٠٠. أحمد عفيفي، **نحو النص**، مصدر سابق، ص٥٥، الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**، مصدر سابق، ج١، ص٣٥- ٣٦.

المبحث الثاني: التعريف بسورة المائدة

أولا: التعريف بالآية والسورة

الآية لغة: تطلق على المعجزة والعلامة، والعبرة، والأمر العجيب، والجماعة، والبرهان[١]، فهي علامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله، وقيل: جماعة حروف من القرآن وطائفة منه، وقيل: سميت آية لأنّها عجبٌ يعجز البشر عن التكلم بمثلها[٢].

واصطلاحًا: طائفة من كلمات القرآن مفصولة ومميزة عما قبلها وما بعدها بفاصل[٣]. وقيل: " قرآن مركب من جمل ولو تقديرًا ذو مبدأ ومقطع مندرج في سورة"[٤].

أما تحديد مقادير الآيات فمرويٌّ عن النبي ﷺ، وقد تختلف الرواية في بعض الآيات؛ ومعرفتها تتوقف على النقل والسماع، فما كان رسول الله ﷺ يقف عليه دائمًا عدّه الصحابة آية، وما وصله دائمًا فليس بآية، وما كان يقف عليه مرة ويصله أخرى اختلفوا في عدّه واعتباره آية[٥]، وذلك بناء على الاختلاف في نهاية بعضها، فقد يكون في الرواية، وقد يكون في الاجتهاد.

وقد كان عدد آي القرآن معروفًا في زمن النبي ﷺ، فقد كان يقول: " ضعوا آية كذا في موضع كذا، وكان جبريل عليه السلام يقف على موضع الآية من السورة، ثم يقرؤها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كتّاب الوحي بكتابتها معينًا لهم السورة التي تكون فيها الآية" [٦]، وهو ما استقرت عليه رواية الحفاظ من الصحابة، ويرى ابن عاشور أنه: " لا يبعد أن يكون تعيين مقدار الآية تبعًا لانتهاء نزولها، وأمارته وقوع الفاصلة"[٧].

أما السورة لغة: فهي المنزلة الرفيعة، والسورة من البناء ما حسن وطال، وسميت السورة من القرآن لأنّها درجة إلى غيرها، ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقطعة[٨]، وسورة كل شيء حدّه، وسور الإبل كرامها، وبينهما سورة أي علامة[٩]، وقيل: هي مأخوذة من سور

---

١ الناخبي، سامح علي ناصر(٢٠٠٩)، **إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن**، ط١، ص٧١، دائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري، دبي.

٢ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر (١٩٩٧)، **تفسير القرآن العظيم**، (تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري)، ط١، ج١، ص٣٦٥-٣٦٦، دار ابن الجوزي.

٣ الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله (١٩٧١)، **البرهان في علوم القرآن**، ط٢،ج١، ص٢٦٦، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٤ السيوطي، جلال الدين(١٩٨٨)، **الإتقان في علوم القرآن**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، ج١، ص٩٨٧، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥ الناخبي، **إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن**، مصدر سابق، ص ٧٢.

٦ البخاري (٢٠٠٤)، **صحيح البخاري**، د.ط، كتاب التفسير، ج٨، ص٥٢، دار الحديث، القاهرة.

٧ ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر (١٩٩٧)، **التحرير والتنوير**، الطبعة التونسية، ج١، ص١٧٥، دار سحنون ، تونس.

٨ ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، ج٣، ص٣٦٦ .

٩ المصدر السابق، ج٣، ص٣٦٥.

المدينة وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية كالسور؛ توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة، وإما لما في السور من معنى العلو والرفعة المعنويّة، الشبيهة بعلوّ السور ورفعته الحسيّة، وإما لأنّها حصنٌ وحمايةٌ لمحمد ﷺ، وقيل لتمامها وكمالها؛ لأنّ العرب يسمون الناقة التامة سورة[1] .

واصطلاحًا: عرّفها الحرّالي بقوله: " تمام جملة من المسموع، يحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة"[2]، وهو تعريف يتناول السورة باعتبارها وحدةً واحدةً متكاملةً؛ ومثل هذا النظر الكلي للسورة يعد من الركائز الأساسيّة لدراسة الترابط في النصوص، وحديثًا تُعرّف السورة بأنّها قطعة من القرآن، معيّنةٌ بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسمّاةٌ باسمٍ مخصوصٍ، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آياتها، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة[3]، ويرجع الطول، والقصر، والتوسط، وتحديد المطلع، والمقطع إلى الله وحده؛ لحكم سامية علمها من علمها، وجهلها من جهلها[4].

فالتعريف اللغويّ يعلل سبب اختيار كلمة السورة كتسميةٍ لأجزاء القرآن، وليس هناك علاقة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي إلا من خلال معرفة المعاني اللغويّة التي تحملها الكلمة.

وتسوير القرآن من السنّة في زمن النبي ﷺ، فقد كان مقسمًا إلى مائة وأربع عشرة سورة بأسمائها، ولم يحفظ عن الصحابة حين جمعوا القرآن أنّهم ترددوا ولا اختلفوا في عدد سوره[5].

وهذا للتيسير على الناس، وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وحفظه، فلو كان متصلاً لصَعُب حفظه، وفهمه، ومعرفة وجوه ارتباط بعضه ببعض، وكذلك لتعليم الأطفال، والتدرج بهم من القصير إلى الطويل، ومن فوائده أيضًا معرفة علاقات السور بعضها ببعض، ومواضع النظائر، وعلاقتها بسياقها في كل سورة، وما يتبع ذلك من نظم الآيات ومعانيها التي تحقق غرض كل سورة ومقصودها[6].

وهذا يدل أنّ القرآن كاملاً وحدةٌ واحدةٌ ونصٌ واحدٌ مترابطٌ، ولكل سورة طابعها الخاص ونمطها المستقل رغم تشابهها مع غيرها في الموضوعات العامة والقضايا الجزئيّة.

---

1 ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مصدر سابق، ج١، ص ٣٦٤-٣٦٥.

2 البقاعي، الحافظ برهان الدين (١٩٩٥)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (خرّج أحاديثه ووضع حوشيه: عبد الرزاق غالب المهدي)، ط١، ج١، ص٦٢، وانظر: ج١، ص٦٣، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١، ص٨٤.

4 الزرقاني، محمد عبد العظيم (١٩٨٨)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**،ج١، ص٣٥٠-٣٥١، دار الفكر.

5 ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج١، ص٨٥.

6 انظر: الزمخشري (١٩٩٨)، **الكشاف**، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض)، ط١، ج١، ص١٢٨، مكتبة العبيكان. والسيوطي، **الإتقان**، مصدر سابق، ج١، ص ١٨٦. الزرقاني، **مناهل العرفان**، مصدر سابق، ج١، ص٣٥١-٣٥٢.

واختلف العلماء في ترتيب السور هل هو بتوقيف من النبي ﷺ، أم باجتهادٍ من الصحابة رضوان الله عليهم، واختلفوا على ثلاثة أقوال[١]:

القول الأول: وهو قول الجمهور: إنّه بتوقيف من النبي ﷺ، فلم توضع سورة إلا بأمره وتعليمه، واستدلوا بأنّ الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد.

القول الثاني: إنّه باجتهاد صحابة، لاختلاف ترتيب مصاحفهم قبل الجمع في ترتيب السور، والجواب عليه بمنع الملازمة؛ لأنّ الاختلاف ليس دليلاً على أنّه ليس توقيفًا، فمصاحفهم مصاحف علم وتأويل.

القول الثالث: إنّ ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي ﷺ، وبعضها الآخر باجتهاد من الصحابة، مستدلين بما وقع بين ابن عباس وعثمان بشأن سورتي الأنفال والتوبة، وجعلهما في الطوال وعدم الفصل بينهما بالبسملة، لعدم البيان فيهما، وما عداهما فبتوقيف من النبي ﷺ.

وقد جعل الزركشي الخلاف لفظيًا فقال: "والخلاف بين الفريقين في ترتيب السور لفظيّ؛ لأنّ القائل بعدم صدوره عن النبي ﷺ، يقول إنّه رمز لهم بذلك، والثاني يقول إنّه صرح لهم به، ولذلك قال مالك: إنّما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ"[٢]، فحمل قول من قال إنّه توقيفي على أنّه كان بتعليم النبي ﷺ، وإرشاده وإنْ بطريق الرمز والإشارة، لا بصريح القول والعبارة.

وقال السيوطي: " لترتيب وضع السور في المصحف نطّلع على أنّه توقيفيّ صادر من حكيم[٣]، ويرى أنّ: ترتيب كل المصاحف بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على الترتيب العثماني[٤].

---

١ الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ج١، ص٣٥٢.
٢ انظر الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٥.
٣ السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن (١٩٨٣) ، **تناسق الدرر في تناسب السور**، (تحقيق: عبد الله محمد درويش)، ط١، ص ٢٩-٣٠،عالم التراث، دمشق.
٤ المصدر السابق، ص٣١.

ثانيًا: توقيفية أسماء سور القرآن وترتيبها:

والعلماء في تسمية سور القرآن على مذاهب ثلاثة:

- **المذهب الأول**: يرى أنّ أسماء السور توقيفية، مستدلين بما ورد عن رسول الله ﷺ من تسميته لبعض السور مثل فاتحة الكتاب، الزهراوين البقرة وآل عمران، كما استدلوا بشهرة أسمائها بين الصحابة رضوان الله عليهم، وتواترها بين أجيال الأمة إلى هذا اليوم دون اختلاف على أسمائها[١]. وإلى ذلك ذهب السيوطي حيث يقول: " وقد ثبتت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار "[٢].
- **المذهب الثاني**: يرى أنّ أسماء السور اجتهادية؛ " ولعلّهم اعتمدوا في هذا على عدم ورود اسم كل سورة من طريق التوقيف، وإنْ وقع هذا لبعض السور"[٣].
- **المذهب الثالث**: يرى أنّ السور التي وردت بأسمائها وعرفناها من خلال الأحاديث والآثار توقيفية، وإنْ لم يرد لها اسم بأثر صحيح فهي اجتهادية من اجتهاد الصحابة[٤].

ثالثًا: التعريف بسورة المائدة:

١. آياتها:

آياتها مائة وعشرون للكوفي، وثلاث وعشرون للبصري، واثنتان وعشرون للباقين[٥]، واختلافها ثلاث آيات: (أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ) (المائدة:١)، (وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ) (المائدة:١٥)، لم يعدهما الكوفي وعدهما غيره، (فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ) (المائدة:٢٣) عدها البصري وحده[٦].

٢. نزولها:

في القرآن ترتيبان للسور، ترتيب من حيث النزول، وترتيب في المصحف الكريم، وهي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، والسورة السابعة والعشرون في ترتيب نزول السور المدنية

---

[١] انظر: زقزوق، محمود حمدي وآخرون (د.ت)، **الموسوعة القرآنية المتخصصة**، د. ط ، ص ٢٢١، د. ن.
[٢] السيوطي، **الإتقان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٦٦.
[٣] زقزوق، **الموسوعة القرآنية المتخصصة**، مصدر سابق، ص٢٢٢.
[٤] المصدر السابق نفسه.
[٥] البقاعي، الحافظ برهان الدين (١٩٨٧)، **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، (تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين)، ج٢، ص ١٠٤، دار المعارف ، الرياض.
[٦] المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٥.

بعد سورة الفتح وقبل سورة التوبة[١]، وهي السورة المائة واثنتا عشرة في ترتيب نزول القرآن الكريم كله[٢].

وهناك من ذهب إلى أنّ سورة المائدة نزلت دفعة واحدة، مستدلين بعدة أحاديث، منها عن أسماء بنت زيد قالت: إنّي لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة"[٣]،وليس في ذلك شيء مرفوع إلى النبي ﷺ[٤]. وهناك من ذهب إلى أنّها نزلت في أوقات متفرقة، واستدلوا بما ورد من نزول آيات منها في مناسبات مختلفة[٥]، أو بما يظهر في سياق الحديث عن بعض آياتها بما يدل على معرفة الصحابة بهذه الآيات قبل نزولها كاملة[٦].

٣. فضائلها:

ومما قيل في فضائلها:

- ما روي عن أبي عبيد عن عطية بن قيس وحمزة بن حبيب رحمهما الله تعالى، قالا: قال رسول الله ﷺ: المائدة من آخر القرآن تنزيلا، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها"[٧].
- ولأبي عبيد عن جبير بن نفير قال: " حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: يا جبير هل تقرأ المائدة ؟ قلت نعم، قالت: أما إنّها أخر سورة نزلت فما وجدتم فيهما من حلال استحلوه وما وجدتم فيها من حرام فَحَرِّمُوه"[٨].
- عن عمر بن الخطاب ﷺ أنّ رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم

---

١ السيوطي، **الإتقان**، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٣.

٢ دروزة، محمد عزة (٢٠٠٠)، **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، ط٢، ج١، ص١٦، دار الغرب الإسلامي.

٣ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥، قال المحقق في الحاشية: " قال الهيثمي في الجمع: ج٧، ص١٣: فيه شهر بن حوشب وهو ضعيف".

٤ الألوسي، **روح المعاني** ، مصدر سابق، ج٦، ص٤٧.

٥ في صحيح البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ أن قوله تعالى: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) الآية، نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع. وروي عن مجاهد أنه قال: (ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ... غَفُورٌ رَّحِيمٌ) نزلت يوم فتح مكة ومثله عن الضحاك، انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٧١.

٦ هناك حادثه في غزوة بدر تقطع بأنّ الآيات الخاصة بموقف بني اسرائيل مع موسى عليه الصلاة والسلام من دخول الأرض المقدسة كانت معروفة للمسلمين، ففي الصحيح عن ابن مسعود قال:" شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به. أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال:" لا نقول كما قال قوم موسى : (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ)؛ ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي أشرق وجهه وسره، يعني قوله". انظر: أحمد، عبدالرزاق حسين (١٩٩٩)، **المكي والمدني من القرآن الكريم**، ط١، ص ٤١٥، دار ابن عفان، نقلاً عن: **صحيح البخاري** مع الفتح، ج٧، ص٣٣٥ برقم (٣٩٥٢)، كتاب المغازي.

٧ أبو عبيد، القاسم بن سلام (١٩٩٥). **فضائل القرآن ومعالمه وادابه**، (تحقيق: مروان العطية وآخرون)، ط١، ج١، ص٢٣٩، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، وأخرجه الحاكم في المستدرك: ج٢، ص٣١١ موقوفًا على عائشة رضي الله عنها، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٨ المصدر السابق نفسه.

تقرؤونها، لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أي آية، قال: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ)[1]، فقال عمر ﷺ: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة"[2].

٤. أسماؤها:

لاسم السورة دور في الكشف عن وحدتها، فاختيار اسم السورة من مكونات السورة، إذ لا شك ينطوي على دلالة واضحة وصريحة بكونه يحمل بعض الإشارات التي تنبئ عن مضمون السورة ومقاصدها، يقول البقاعي: " اسم كل سورة مترجمٌ عن مقصودها، لأنّ اسم كل شيء تُظهر المناسبةَ بينه وبين مسمّاه عنوانُه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه؛ وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه السلام عند العرض على الملائكة عليهم السلام، ومقصود كل سورة هادٍ إلى تناسبها"[3]، ومن أسماء هذه السورة:

اسمها التوقيفي: سورة المائدة، وهو الاسم المدوّن في القرآن الكريم، وقد ورد ذكره في كتب التفسير وكتب السنة، ومن ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما: " أنّ النبي ﷺ قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة"[4]، وسميت بالمائدة لاشتمالها على قصة نزول المائدة من السماء بعد أنْ طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام؛ لتدلَّ على صدق نبوته، وتكون لهم عيدًا[5].

أما أسماؤها الأخرى الاجتهادية فمتعددة وهي:

١. **سورة العقود**: وقد وردت تسمية السورة بهذا الاسم في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن، ولم يثبت هذا الاسم عن رسول الله ﷺ، أو عن السلف، إنّما هو اجتهاد المفسرين من معنى الآية الأولى[6]، وممن ذكرها من المفسرين: أبو حيان، والألوسي، والسخاوي، والسيوطي، وقال الزركشي:" وأما المائدة فسورة العقود، وبها تمام الشرائع وبها تمام الدين"[7].

---

[1] (سورة المائدة: ٣)
[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، مصدر سابق، ج٥، ص١٨٥، مسلم، (٢٠٠٣)، **صحيح مسلم**، كتاب التفسير، ط١، ج١٨، ص١٥٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان. وللاستزادة انظر: طرهوني، محمد بن رزق، **موسوعة فضائل سور وآيات القرآن**، م١، ج١، ص٢٣٩- ٢٤٠، دار ابن القيم.
[3] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص١٢، وانظر: البقاعي، **مصاعد النظر**، مصدر سابق، ج١، ص١٤٩، ٢٠٩.
[4] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(٢٠٠٧)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، ط١،ج٣، ص٣، مكتبة الرحّاب.
[5] القاسمي، محمد جمال الدين(١٩٥٧)، **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل**، علّق عليه: (محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ج٦، ص١٧٨٨.
[6] الدوسري، منيرة محمد ناصر(١٤٢٦ هـ)، **أسماء سور القرآن وفضائلها**، ط١، ص ١٨٢، دار ابن الجوزي.
[7] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١ ، ص٢٦١.

٢. **سورة المنقذة:** وردت بهذا الاسم في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن أيضًا، وممن ذكرها: أبو حيان، وابن عطية ، والسيوطي في الإتقان[١]، وابن عاشور، وسميت بذلك لأنّها تنقذ صاحبها من ملائكة العذاب[٢]، فقد روي عن النبي ﷺ: " سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة، تنقذ صاحبها من أيدي ملائكةالعذاب" [٣].

٣. **سورة الأحبار:** سميت بذلك لاشتمالها على ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ (المائدة:٤٤)، وقوله تعالى: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ (المائدة:٦٣).

٤. **سورة الأخيار:** وقال ابن عاشور:" وكان الصحابة يسمون سورة المائدة بسورة الأخيار، يقال: فلان لا يقرأ سورة الأخيار، أي لا يفي بالعهد"[٤]، ولعله من التصحيف بين الأخيار والأحبار.

٥. **سورة المبعثرة:** وردت باسم المبعثرة عند أبي حيان، ولم يعلل سبب تسميتها بهذا الاسم[٥].

وترى الباحثة أنّه يمكن أنْ تتعدد أسماء السورة، لكن الاعتماد على ما ورد عن النبي ﷺ توقيفيًا من خلال الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية، أما الأسماء الأخرى التي اشتهرت من وضع الصحابة وباجتهادهم فلا بأس من معرفتها، لأنّ الصحابة أحرص الناس على كتاب الله، ولم ينطقوا بها عبثًا، لكن مغزاها من خلال تسميتهم هو الذي دفعهم لإطلاق هذه التسمية، فهناك مناسبة بين السورة واسمها ، وارتباط بين مواضيع السورة بعضها ببعض، فتتضح المنطلقات والأهداف في السورة؛ مما يجعل الدارس يستفيد من كل اسم، ويدرسه ويربطه بسياقه، إذ قد يمثل كل منها أحد الأعماق الدلالية الكامنة فيها؛ فهي تتضمن الإشارة إلى المقصود منها، أو إلى بعض جوانبه أو لوازمه، وهذا يؤثر على اختيار الألفاظ، واصطفاء المعاني في السورة، كما يوجه الدلالات حتى تتمتع بشمولية أكثر، وهذا من صور الترابط بين اسم السورة ومحتواها.

٥. حقيقتها:

ألفاظ القرآن الصريحة تفيد أنّ عيسى عليه السلام طلب من ربه أنْ ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعًا، وتكون عيدًا أو سعادة لأول قومه وأخرهم، والمائدة طعام ورزق، من عند الله ﷻ، وقد وعد الله ﷻ أنْ ينزلها عليهم، ولم يذكر القرآن إنْ كانت بمفهومها الضيق كما طلبها

---

[١] انظر: السيوطي، **الإتقان**، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٢.

[٢] الألوسي، روح **المعاني** ، مصدر سابق، م٣، ج٦، ص٤٧، ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب(٢٠٠١)، **المحرر الوجيز**، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد)، ط١، ج ٢، ص١٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٣] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (١٩٩٦)، **الجامع لأحكام القرآن**، ط٥، ج٦، ص ٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. (قال المحقق لم أجده، والظاهر أنه من رواية النقاش وهو موضوع بكل حال).

[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق،ج٦، ص٦٩، نقلاً عن المنتخب عن كفايات الأدباء، ص١٣٢٦،١٢١هـ.

[٥] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٢٧.

الحواريون، أو بمفهومها المطلق، كما قد يريده الله، ويفهمه عيسى ﷺ، ويلهمه الحواريون، فيكون حينئذ وعدًا بنعمة من الله عليهم طعامًا ورزقًا يشمل أولهم وآخرهم، وترجمة للمفهوم الضيق الذي أرادوه للمائدة، لمفهوم أوسع قد يشمل الطعام وسواه من الرزق[١].

٦. ما تنفرد به السورة:

- لم تتحدث عن الشرك والمشركين على النحو الذي ألف في القرآن من محاجتهم، وتحقير شركائهم.
- لم تعرض إلى ما عهد في أكثر السور المدنية التي نزلت قبلها من الحث على القتال، والتحريض عليه، ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين؛ كما نراه في سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والأنفال، والتوبة، لأنّ المسلمين في ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شيء من هذا[٢].
- وهي من أواخر سور القرآن نزولاً، لذلك فقد " احتوت على تشريعات كثيرة تنبئ بأنّها نزلت لاستكمال شرائع الإسلام"[٣]، فتناولت العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، ورسمت حدودها بينهم، وبيّنت خصال اليهود والنصارى القبيحة، وأبطلت عقائدهم الزائفة، وحذرت من موالاتهم[٤].

٧. موضوعاتها ومقاصدها:

لعل من أبرز الظواهر الأسلوبيّة في القرآن هي مزاوجته بين عدة موضوعات في السورة وتنقله بينها، وبالتالي تتكرر معالجة الموضوع الواحد في عدة مواضع بطرق مختلفة، ومن زوايا متعددة، ذلك أنّ معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة بعيدة المدى مترامية الأطراف موزعة على آياته، وأبرز ما في سورة المائدة الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل على ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكرًا للنعمة واستدفاعًا للنقمة، وقصة المائدة أدل ما فيها، فإنّ مضمونها أنّ من زاغ عن الطمأنينة، وزاغ عن الثبات والسكينة بعد الكشف الشافي، نوقش الحساب، فأخذه العذاب[٥].

---

[١] شحاتة، عبد الله محمود(١٩٨٦)، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ط٣، ج١،ص٦١، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
[٢] انظر: شحاتة، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، مصدر سابق، ص ٦١.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٦، ص٧٢ – ٧٣.
[٤] انظر: قطب، سيد (١٩٨٨)، **في ظلال القرآن**، ط١٥،ج٢، ص٨٣٣، دار الشروق. ويُفضّل أن يقال: وبينت صفات اليهود والنصارى القبيحة؛ لعدم تناسب كلمة خصال المستخدمة في وصف الأمور الحميدة مع قوله: القبيحة.
[٥] البقاعي، **مصاعد النظر**، مصدر سابق، ج٢، ص ١٠٦.

ومقاصد القرآن مبنية على مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وموضحة طريق السعادة في المعاش والمعاد؛ لذا تعرضت السورة لكثير من مواقف أهل الكتاب مع أنبيائهم؛ تسلية للنبي ﷺ من جهة، وتنديدًا بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى[1]، فهي " تقرر أصلاً وهو: أنّ الحكم بما أنزل الله جوهر الإسلام، وأنّ ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو المنهج الحق؛ الذي ينبغي للمؤمن أنْ يلتزمه ويتمسك به، فإنْ تركه وحاد عنه فليس من الإيمان في شيء[2]؛ وهذا ما يبرز في هذه السورة بروزًا واضحًا من خلال التخلص من أساطير الوثنية، وانحرافات أهل الكتاب، وبيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم، وإتمام نعمته عليهم بالإسلام، والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون، الظالمون، الفاسقون، وأنّهم إذًا يبتغون حكم الجاهلية.

وقد تناولت السورة جانب التشريع بإسهاب، فبها اكتملت الشرائع، وبها تم الدين، ومن أبرز موضوعاتها:

أولاً: الأصول والقواعد الاعتقادية أو العملية:

- افتتحت السورة بالأمر المطلق بالوفاء بالعقود؛ سواء أكانت بين المسلمين وربهم، أو بين المسلمين وأهل الكتاب، أو بين المسلمين أنفسهم، وذلك في جميع معاملاتهم الدينية والدنيوية.
- تخللت السورة آيات تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتؤكد وجوبه وتذم تاركيه.
- بيّنت أنّ التوراة والإنجيل أنزلا نورًا وهدىً للناس، وأمروا بإقامتهما، وفيهما تصديق لما جاء به القرآن، ولو فعلوا ذلك، وسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لكان خيرًا لهم.
- تخللت السورة أوامر عديدة للحكم بما أنزل الله، والتحذير من الحيود عن ذلك.
- النهي عن موالاة الكفار، وأهل الكتاب، ومن آيات النفاق المسارعة في موالاتهم.

ثانياً: الأحكام الفقهية وبيان الحلال والحرام ، والأوامر والنواهي، فمن الأحكام الفقهية:

أ. تفصيل أحكام الحلال والحرام في الطعام والشراب، وأحكام الإحرام والصيد، وأحكام النكاح، والطهارة، والوصية عند الموت، وأحكام الأيمان والكفارات، ووضعت الحدود، وشرعت التوبة.

ب. حرمت الاعتداء على شعائر الله، وعلى قاصدي البيت الحرام، والاعتداء في الأشهر الحرم، وحرّم سبحانه الميسر والأنصاب والأزلام، وتحريم الغلو؛ بتحريم الطيبات، أو بتحليل الخبائث.

---

[1] انظر: شحاتة، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، مصدر سابق، ج١، ص٦٢.
[2] البقاعي، **مصاعد النظر**، مصدر سابق، ج٢، حاشية رقم ٣، ص١٠٦.

ج. أمر الله رسوله بمعاملة أهل الكتاب بالعدل، والحكم بينهم بالقسط بما أنزل الله.

ثالثاً: ذكر أحوال فئات الناس المختلفة مع عهود الله ومواثيقه:

- تخلل السورة ترغيب في الإيمان، والعمل الصالح، والتنفير من أعمال السوء، وما أعده الله لهم.
- تذكير المسلمين بنعم الله تعالى وذكرت بعض أحوالها. وذكرت وصايا خاصة بهم.
- التذكير بالمواثيق ، والتحذير من نقضها بذكر عقوبة من أخل بها من أهل الكتاب.
- بيّنت أنّ الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنّ المنافقين يسارعون إلى موالاة اليهود والنصارى.
- النهي عن سؤال النبي ﷺ عن أشياء قبل نزول القرآن فيها.
- بيان عموم بعثة النبي ﷺ، وأمره بالتبليغ العام، وكونه لا يكلف من حيث كونه رسول إلا بالتبليغ.
- بين موقف المشركين من المسلمين ومن تعاليم الإسلام، والإخبارعن أعمال المنافقين وصفاتهم.

رابعاً: ذكر القصص والعبر من الآخرين:

- تسلية الرسول ﷺ، بذكر مواقف بني إسرائيل من موسى عليه السلام، وقصة ابني آدم.
- التذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى عليه السلام على النصارى.
- ذكر جزاء أهل الكتاب؛ لنقضهم العهد مع الله، وذلك للتحذيرمن سلوك مسلكهم.
- بيان أنّ الله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس في أمر دينهم ودنياهم.

وهي السورة الوحيدة التي جمعت مقاصد الشريعة الخمسة:

فمقاصد الشريعة الخمسة قد ذكرت في سورة المائدة؛ لتثبت لنا أنّ الأوامر والنواهي المطلوب إيقاؤها، إنّما هي لضمان مصلحة الناس ضمن المحاور الخمسة المذكورة. حفظ الدين[١]، حفظ النفس[٢]، حفظ العقل[٣]، حفظ العِرض[٤]، حفظ المال[٥].

---

١ (المائدة: ٥٤)
٢ (المائدة: ٣٢)
٣ (المائدة: ٩٠)
٤ (المائدة: ٥)
٥ (المائدة: ٣٨)

الفصل الثاني:

المناسبات وأثرها في ترابط النصّ القرآني

تمهيد

المبحث الأول: المناسبة في اسم السورة ومضمونها

المبحث الثاني: المناسبة في الآيات

المبحث الثالث: المناسبة في أول السورة وآخرها

المبحث الرابع: المناسبة في مقاطع السورة

المبحث الخامس: المناسبة في ما قبلها وما بعدها من السور

تمهيد

المناسبة تكون بين آيات السورة الواحدة، كما تكون بين أول السورة وآخرها، و تكون بين آخر السورة وأول السورة التالية لها، ونجدها كذلك بين السور في ترتيبها المتعارف عليه، وهو يختلف عن علم أسباب النزول، فعلم المناسبة، الذي يمكن أنْ نطلق عليه (التناسب)؛ تمييزًا له عن علم أسباب النزول، عِلْمٌ قائمٌ على إظهار الترابط بين الآيات والسور، وقد عبّر العلماء عنه بألفاظ مختلفة فقالوا: ترتيب الآيات[١]، واتصالها[٢]، وتعلقها[٣]، واعتناقها[٤]، ونظمها[٥]، ونظامها[٦]، وانتظامها[٧]، وربطها[٨]، وارتباطها[٩]، وكل ذلك يشير إلى ترابط الآيات واتساقها؛ وهو ما يبحثه نحو النص في ترابط النصوص.

وهذا التناسب بين السور، ومحاولة معرفة سر تتابعها وترتيبها الدقيق من أبرز الشواهد على وحدة النص القرآني، ورغم ذلك فإنّ لأسباب النزول أهمية عظمى في فهم معاني القرآن وإدراك مراميه، يقول الواحدي: " هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"[١٠]؛ فشأن النزول هو شأن الناس وأمرهم الذي نزلت فيه الآيات، وتقسيم هذه الأمور والقضايا على السور؛ لمناسبةٍ بين هذه الأمور وعمود السورة، فالكلام لابد أنْ يكون مطابقًا لموضعه، وسوق هذا الكلام لا بدّ أنْ يتناسب مع موضوع الكلام؛ لكي يُعلم أنّ الآيات لها دوافع ومواقع، بهدف إظهار الحكم منها ومعالجتها، وهذا هو الهدف من تنزيل القرآن.

---

[١] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٨٧، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١٤١، ج٣، ص٢٨، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٥ ،٧ ، ٨، ٤٩٤.

[٢] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٤، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ٨، ص١٢٤، ج١٠، ص١٢٥، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٣٧، ٤٥،٤٢-٤٦، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٩، ٤٤٢، ج٢، ص٣٠٨، ٤٦٤.

[٣] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج٤، ص١٣٢، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٣٩، ٤٠، ٤٩، ١٨٦، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٥، ج٢، ص٣٢٥.

[٤] انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٠، ج٤، ص٢٤٢.

[٥] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨٧، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج٧، ص١١٢،البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٧، ١٧١،٤٣٨.

[٦] انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٣٢، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٥٦٣.

[٧] انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص١٤، ٤٠١، ج٢، ص٤٢٣.

[٨] انظر: الأندلسي، أبو حيان (د.ت)، **البحر المحيط** ، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض)، د.ط ج٧، ص٤١٦، دار الكتب العلمية، بيروت. الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٤٦، ٤٩، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٧، ١١.

[٩] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج١، ص١٠٣، الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٣٨، ٤٠، ٤٦، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج١، ص٥.

[١٠] الواحدي (١٩٦٨)، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٢-٤٣، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

المبحث الأول: المناسبة بين اسم السورة ومضمونها

أُطلق اسم المائدة انعكاسًا لورود قصة المائدة فيها؛ مما يعطي قوة للاسم الذي انتسبت له؛ وذلك بربط الاسم بالمسمى؛ لأنّه أوقع في نفس السامع، وأكثر دلالة على المحتوى،" فاسم سورة المائدة يدل على أنّه يوجد شيء بهذه السورة؛ ينبغي التوقف عنده ومعرفته؛ لأنّ الشيء الملفت في القرآن، والسامع لتلاوته هو ذلك الاسم، ولأنّ المائدة هنا أصبحت معجزة مقرونة بالتحدي"[١].

فاسم السورة يلفت الأنظار إلى أهميّة ما طلبه الحواريون، وهو المائدة، فنزولها آية، أي معجزة، وكانت بذلك أول شيء في هذه السورة من الأهمية لِجَعْلِها عنوانًا لها، فجعل الله من اسمها رابطا بين آياته، " فكانت الآية البارزة والمعجزة هنا هي المائدة المليئة بالطعام، والمنزّلة من عند الله مباشرة، فيها دليل المعجزاتَ التي لا تنتهي، والإشارة الدالة على أنّ المائدة معجزة هذه السورة، ولأنّ فيها عبرةً وتوجيهًا وحوارًا خاصًا جدًا؛ فسوف يعلق بنفس القارئ لهذه القصة أكثر من غيرها، وذلك لما فيها من ترداد بين المُرسل والمرسَل إليهم، فكانت تسميتها بالمائدة هو ألطف شيء بعقول العباد؛ لأنّه موافق مراد الله مع مراد الفطرة السليمة[٢].

وترى الباحثة أنّ اسم السورة مناسب لما ابتدأ الله به من تحليل الطعام والشراب، وتحريم بعضه، وما اختتم به من قصة المائدة، إلا أنّ قصة المائدة، ونزولها جاء نتيجة سؤال الحواريين عيسى عليه السلام إياها ، وقد رأوا المعجزات من قبل، وهي آية لها حقّها، فتوعدهم الله إنْ كفروا بعد نزول هذه الآية بالعذاب الشديد، وكان على المسلم أنْ يرى هذه الآية، ويرى مصير الكافرين بها أمام عينيه كلّما قرأ أو سمع أمرًا من أوامر الله وتشريعاته، فجاء مطلع السورة مخاطبًا لهم بعكس صفة الكفر وهي الإيمان؛ وأمرهم بالوفاء بالعقود؛ ليضعوا أمام أعينهم العذاب الشديد لمن خالف أوامره تعالى؛ فارتبطت قصة المائدة بقصة قوم طلبوا آيةً من الله تعالى، فأُعطوها ، وأخذ عليهم عهدًا قويًا بالطاعة، فإنْ نقضوه فسوف يعذّبون عذابًا شديدًا، أما بالنسبة لأمتنا؛ فقد أعطاها الله تعالى في هذه السورة الآية المحورية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة:٣)، وهي توجب العمل بمقتضى هذا الدين.

ونجد تركيزًا في السورة على الحلال والحرام في الطعام، والشراب، والصيد، والذبائح، وهذا يتناسب تمامًا مع اسم السورة (المائدة)؛ فالطعام من أهم ضروريات الحياة، ومع ذلك يجب مراعاة الحلال والحرام فيه؛ والمائدة عادة تحتوي على الطعام والشراب، وجاءت هذه السورة

---

[١] الجابري، سيف راشد (٢٠٠٣)، **أسماء السور القرآنية (دلالات وإشارات)**، ط٢، ص ٨٣، د.ن. والصحيح أن يُقال: اللافت.

[٢] انظر: الجابري، **أسماء السور القرآنية (دلالات وإشارات)**، مصدر سابق، ص٨٥.

تحدد الحلال وتبين الحرام من الطعام والشراب، وإذا أردنا أنْ نربط بين المائدة وما عليها من أصناف الطعام والشراب وبين السورة؛ وجدنا أنّ السورة احتوت على أنواع وأصناف مختلفة من الوصايا والتشريعات، فهذه المائدة التي هي معجزة سماويّة احتوت أطعمة، وينبغي اتباع تعاليم الله في تحليل ما أحلّه، وتحريم ما حرّمه منها، والابتعاد عن تحريم ما أحلّه الله؛ كما كان يفعل المشركون من تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وتحليل الخمر وهو منافٍ للشرع، وكذلك تحليل الميتة، والدم، وما لم يذكر اسم الله عليه من الأطعمة.

يقول أحد الباحثين: " ثمة نقطة تلاقٍ بين العنونة والتسمية، فالعنونة في جانب منها تسمية، والتسمية فيها جانب عنواني ... ومثلما يشكل الاسم، أو يتوخى منه أنْ يشكل سمة دالة على المسمّى، فإنّ العنوان كذلك يشكل أو يتوخى منه أنْ يشكل سمة دالة على المعنون"[1]، فنقطة التلاقي بينهما هي أنّ كلا من العنوان والاسم علامة تحيل على شيء ما؛ فالعنوان يعد الواسطة في ربط الخطاب الموجه إلى القارئ بمحور رئيسي، يظل يلاحق وعي القارئ وانتباهه، وتجمع تأويلاته إلى دائرة الموضوع الذي يمثل الخطاب، فمن يقرأ نصًّا بلا عنوان يشعر بانشقاق وشرخ كثيف في البنية الإنطولوجية للفهم، ويلاقي تفككًا في مواقف تأثير المعنى، " وفي هذه الحالة يصبح العنوان البوابة الرئيسية للولوج إلى النص، وفي غيابها يبقى المتلقي في فضاء مفتوح، يصعب عليه إيجاد الشفرات التي انبنى عليها النص، ومنه فإنّ قراءة النص تظل مرهونة باللحظة التأسيسية الأولى لدلالة العنوان، وهي اللحظة التي تعمل منذ البداية على الأحاطة بكامل النص، وكل ما يمكن أنْ يلقى على هوامشه فيظل موسمًا بها"[2]، فهو يعمل على ضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه، غير أنّ السورة القرآنية تتكون من موضوعات شتى يجمعها رابط الموضوع، فيحتاج القارئ حينئذ إلى التدبر والتفكر العميقين.

وترى الباحثة أنّ العنوان من أهم العناصر التي يستند إليها النص، وهو جزء من العناصر المكونة له، وإذا كان العرب قديمًا قد وضعوا عناوين لقصائدهم؛ فلا بد أنّ ذلك معروف بينهم، ولم يكن خاصًّا لبعضهم دون بعض، ولذا لم يُنكر ولم يرفض، لأنّ العنوان يشير إلى دلالة النص ويحيل إليها، والقرآن أعلى وأكبر من الشعر، وعنونة النصوص من الأمور الدارجة، فلا بد أنْ يكون لسور القرآن المحددة ببداية ونهاية اسم يميز كل سورة عن غيرها، حتى إذا أراد تالٍ للقرآن تحديد مكان قراءته؛ يعرف من أين سيقرأ، وإذا أراد الحديث عن إحدى السور، يعرف كيف يصفها ويسميها، وإلا فماذا سيقول؟ ولم يرد في الأحاديث الواردة عن أسماء سور القرآن ما يدل على استغراب الصحابة، أو استهجانهم لاسم من أسماء السور، بل يبدو أنّ الأمر من المسلّمات،

---

[1] بسام، قطوس(٢٠٠١). **سيمياء العنوان**، ط١، ص ٤٢، وزارة الثقافة، الأردن.
[2] ناصر، عمارة (٢٠٠٧). **اللغة والتأويل**، ط١، ص ١٦٨، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.

كما أنّ الدراسات في العصر الحديث تولي العنوان أهميّة خاصة بوصفه يقوم بوظيفة مزدوجة، تلفظيّة وإرشاديّة، حيث يتضمن العلامة أو الرمز، وتكثيف المعنى الذي يحاول المؤلف أنْ يثبت فيه قصده وغرضه من النص.

وقد ظهرت دراسات كثيرة، لسانيّة، وسيميائيّة تُعنى بدراسة النص وتحليله من النواحي التركيبيّة، والدلاليّة، والتداوليّة، بل يرى بعضهم أنّه لا يمكن الولوج إلى عالم النص إلا بعد اجتياز عتبة العنوان، " فالعنوان قد يشجع القارئ على تلقي النص، وقد ينفره من قراءته، وبالتالي لا يظل العنوان مجرد عتبة للنص، بل مفصل محدد لفعل قراءته ومحفز لعملية استهلاكه واقتنائه"[١].

أما عن تسمية السورة بأشهر ما فيها فأقول: إنّ الأمر على خلاف ذلك، ويعرف هذا بتدبر اسم السورة الذي اشتهرت به، وتلمس المناسبة بين اسمها وبين كل موضوع من موضوعاتها، فيبدو جليًّا أنّ أسماء السور لها أسرارها الحكيمة، مما يدل على حكمة مُنزّل القرآن، ويشير إلى المناسبة اللطيفة بين اسم السورة وجميع موضوعاتها، ومن ذهب إلى أنّ ذلك من محاكاة عادة العرب في تسميتهم، فإنّه يجعل الاسم عنوانًا على موضوعه فقط، لا على السورة كلها، أو كما قيل: " إنّه يجعل الاسم أخص من المسمى"[٢]، فهل يمكن أنْ يكون القرآن الكريم قام بمجاراة العرب؛ إذ كانت تراعي في كثير من مسمياتها أخذ أسمائها من نادر مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة، وهل هذا كافٍ لتبرير التسمية في القرآن الكريم، يقول الجاحظ: " كيف ينفرد القرآن الكريم بالإعجاز في كل شيء، ثم يجاري العرب في تسمية أسماء السور؟ في الوقت الذي خالف العرب ما سمت به كلامها تمييزًا له من غيره، فقد سمى جملته قرآنًا، كما سموا شعرهم ديوانًا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضه آية كالبيت وأخرها فاصلة كقافية"[٣].

إنّ تعليل وجه التسمية في سور القرآن الكريم إلى مشاكلة العرب في تسميتها ليس حجة على جميع السور، وإنْ وجد الحل في تعدد أسماء السور، كما أنّ التسمية ليست بهذه البساطة التي يتخيلها هؤلاء ولا كما يراها بعض المتأخرين، حيث جعل الضابط العام في التسمية إلى اشتقاق كلمة واردة في متن السورة وقد تكون أول كلمة منها[٤].

ويرى بعض الباحثين أنّه " يمكننا معرفة وجه التسمية لكل السور، وهذا ما نجده عند أصحاب التفسير الموضوعاتي للقرآن، فهم يرون أنّ كل سورة تعرض موضوعًا واحدًا أساسيًّا، يتناسب مع اسمها بوجه أو بآخر"[٥].

---

[١] بو عزة، محمد (٢٠٠٤م)، **من النص إلى العنوان**، مجلة علامات في النقد، جزء٥٣، مجلد١٤، ص٤٠٨، جدة.
[٢] زقزوق، **الموسوعة القرآنية المتخصصة**، مصدر سابق، ص ٢٢٠.
[٣] سليمة جلال (٢٠٠٩)، **أسماء السور في القرآن الكريم مقاربة لسانية سيميائية**، رسالة ماجستير، إشراف: بلقاسم ليبارير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، المقدمة، ص (أ).
[٤] دروزة، محمد عزة (د.ت)، **القرآن المجيد**، د.ط ص ١١٦، منشورات المكتبة العصرية.
[٥] جلال، سليمة، **أسماء السور في القرآن الكريم** ، مصدر سابق، ص ٦١.

المبحث الثاني: المناسبة بين الآيات:

إنّ آيات القرآن الكريم لها ترتيب معين في المصحف، وفق ما أراده الله ﷻ، وكما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، وكان نزول القرآن منجمًا على ثلاث وعشرين سنة بالتشريع عند وقوع الحوادث والمناسبات على الرسول ﷺ؛ تثبيتًا له وللمسلمين من حوله، فلم يكن نزول القرآن سورًا؛ بل نزل آيات متفرقة، وكان النبي ﷺ يأمر بوضع كل آية مكانها الذي يأمره به جبريل ؑ، وكان يفصل بين السور المكتوبة بالبسملة حتى يُعلم أنّها بداية سورة؛ وليس أنّ القرآن ينزل بالبسملة للإعلام أنّها سورة جديدة، وهذا يدل على أمرين:

الأول: هو استقلال كل سورة من سوره في المصحف، وفي ظروف التنزيل، وهذا يقود إلى الأمر الثاني: وهو حقيقة وجود الترابط المعنوي فيما بين السور والآيات، وهذا ما جعل بعض المفسرين يعمد إلى تفسير القرآن بالقرآن، وهو مبدأ قائم على أساس وحدة النص القرآني، لكن يُشترط في تطبيقه ألا يُخِلّ بالوحدة السياقيّة للسورة؛ لأنّ في الإخلال بوحدة السورة السياقية إخلال بالقرآن، فالنص القرآني تترابط أجزاؤه نحويًا ودلاليًا وسياقيًا وإسقاط أي عنصر من عناصره يؤدي إلى عدم تحقق الفهم المطلوب إذ التماسك يجمع بين العلاقات اللفظية الدلالية بين أجزاء النص.

وترى الباحثة أنّ كون نزول القرآن منجمًا فيه سير على عادة العرب في ارتجال أشعارهم، فكان العربي يقول الشعر وفق الظرف المحيط به، وعند حصوله ولا يقوله لشيء لم يحدث بعد، وهذا من تمام الفصاحة والبلاغة؛ بما لديه من القدرة على النّظم في جميع المجالات؛ فنزول القرآن تبعًا للظروف جاء متسقًا مع عادة العرب.

ولذلك رأى البعض صعوبة إدراك ما بين آياته من اتصال وما في نظمه من ارتباط، حتى زعم بعض علماء أوروبا مثل دوزي وكارليل أنّ هذا عيب يؤخذ على القرآن؛ لأنّه جاء في ترتيبه مخالفًا للكتب الوضعية، فليس له مقدمة مثلها، ولا مباحث مرتبة ذات مقاصد مختلفة، آية وعظ تتلوها، آية جهاد، تتبعها آية فقه، بعدها قصة رسول، إلى غير هذا مما لا يجري على قاعدة الكتابة المألوفة، ولا يوافق نظم التأليف المعروف[1]. ومن الخطير التسليم لهؤلاء الزاعمين بعدم تناسق القرآن، وعدم ترابط أجزائه، واتصال آياته؛ " لأنّهم يطعنون به على القرآن أنّه سيء الترتيب، مفكك الأجزاء، مشتت المعاني والأغراض، ولا نقنعهم أنْ نقول إنّ الترتيب يحسن في

---

[1] الصعيدي، عبد المتعال، **النظم الفني في القرآن**، ص٣، المطبعة النموذجية. يقول المؤلف: وقد أجاب الأستاذ محمد فريد وجدي عن هذا في مقدمة تفسيره، قال:" ولم يكن لدوزي وغيره أن يرميها بأنها مفككة الأجزاء، وغير محكمة النظم، ولا واضحة الأغراض".

كلام البشر، ولا يحسن في كلام الله تعالى، لأنّ الترتيب مطلوب في كل كلام بليغ، وحسنه في كل كلام من البداهة بمكان"[١].

وقد وقف المسلمون على البحث عن مناسبات الآيات، وروابطها بعضها ببعض منذ عصر الصحابة، ابتداءً من ابن عباس رضي الله عنهما، وفي هذا العلم يقول الشيخ وليّ الدين الملّوي: "وقد وَهَمَ من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة، لأنّها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنّها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلاً، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف؛ كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر"[٢]، ويردف الزركشي: " والذي ينبغي في كل آية أنْ يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علمٌ جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له"[٣]. فعلم المناسبة يبتغي جلاء العلاقة بين النص وسياقه الداخليّ (الاتساق الداخليّ) من خلال النظر إلى النص في تشكله الأخير (ترتيب التلاوة)؛ بغض النظر عن ترتيب النزول؛ علماً أنّه لا تعارض أبدًا بين الاتساقين (الداخلي والخارجي)، "والمناسبة بين الآيات والسور تقوم على أساس أنّ النص وحدة بنائية مترابطة الأجزاء، ومهمة المفسر محاولة اكتشاف هذه العلاقات"[٤].

وقد بيّن الزركشي فائدة هذا العلم فقال في فائدته: " جعل أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حالهُ حال البناء المحكم والمتلائم الأجزاء"[٥]، وهذا يُبرز الوظيفة الرئيسية لعلم المناسبة؛ وهو تحقيق الارتباط بين عناصر النص، وهو ما يسمى بالتماسك النصّي، فالمناسبة تحقق الربط بين الآية وما تسبقها من الآيات، ومن ثم فهي تحقق التماسك بينها.

وقد ذكر برهان الدين البقاعي عن شيخه القاعدة في ذلك فقال: " قال شيخنا أبو الفضل محمد بن محمد المشدّالي المغربي: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن؛ هو أنّك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إلى ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند إنجاز الكلام في المقدمات إلى ما تستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها. فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط

---

[١] المصدر السابق، ص٤.
[٢] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج ١، ص٣٧.
[٣] المصدر السابق نفسه.
[٤] العموش، خلود (٢٠٠٥)، **الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق " مثل من سورة البقرة "**، ط١، ص١٨٩، عالم الكتب الحديث، إربد.
[٥] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٢.

بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته؛ تبيّن إنْ شاء الله تعالى وجه النّظم مفصلاً بين كل آية في كل سورة"[1].

ويقول ابن العربي: " ارتباط آيِ القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متّسقة المعاني، منتظمة المباني"[2]، وهذا يدل على أنّ نظرتهم للقرآن قامت على أنّه كلام واحد مترابط من حيث الفهم والتفسير، إذ نجد بعضه يبيّن بعضًا، فقد لا نفهم موضعًا إلا إذا ربطناه بموضع آخر، " فإذا كان بعضه متوقفًا على البعض في الفهم، فلا محالة إنّما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار"[3]، ويصح ألا يكون كلامًا واحدًا إنْ كان باعتبار أنّه أُنزل سورًا مفصولاً بينها، ونزولها كان على وقائع وأسباب مختلفة؛ تشير إلى استقلال معناها.

وسنحاول الآن التقاط ما يمكن التقاطه مما يلوح من العلاقات والروابط التي بين آيات السورة؛ لنرى إعجاز القرآن في **سبكه، وحبكه، وتآلفه، وتلاحمه، وكيف يعتلق بعضه ببعض،** كما يعتلق أول الآية بآخرها، وكيف يدل مطلعها على خاتمتها، وسترى أنّ جزئيات السورة يرجع بعضها إلى بعض في مختلف المواقع من السورة؛ حتى القصص لها ارتباط بموضوع السورة ومضمونها.

فإذا أردنا أنْ نتحدث عن بلاغة الإعجاز في افتتاح السورة؛ لابدّ من معرفة كيف يكون ذلك متحققا في المطلع، ويسعفنا السيوطي بقوله: " أنْ يتأنّق في أول الكلام لأنّه أول ما يقرع السمع، فإنْ كان محررًا قَبِل السامع؛ قَبِل الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، وإنْ كان في نهاية الحسن؛ فينبغي أنْ يؤتى فيه بأعذب اللفظ، وأرقه وأجزله وأسلسه وأحسنه **نظمًا وسبكًا**، وأصحه معنى، وأوضحه وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس أو الذي لا يناسب"[4]. وذكر ما يسمى براعة الاستهلال، " وهو أنْ يشمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله"[5].

التناسب في بداية السورة:

وقد ابتدأت السورة بقوله تعالى:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾)، يقول ابن عاشور: " تصدير

---

[1] الصعيدي، **النظم الفني في القرآن**، مصدر سابق، ص ٥-٦.
[2] المصدر السابق، ص ٥، نقلا عن كتاب سراج المريدين.
[3] الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد (١٣٤١هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، ج٤، ص٢٧٤، المطبعة السلفية، مصر.
[4] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **معترك الأقران**، ج١ ص ٧٤-٧٥، دار الفكر العربي.
[5] المصدر السابق، ج١، ص٧٥.

السورة بالأمر بالوفاء بالعقود مؤذن بأنّه سترد بعده أحكام وعقود كانت عقدت من الله على المؤمنين إجمالاً، وتفصيلاً، ذكّرهم بها؛ لأنّ عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه"[١].

ويدخل في ذلك الأحكام التي شرعها الله، لأنّ الداخل في الإسلام يلتزم بها ضمنًا، وفيها عهد الله الذي أَخَذَهُ على الناس أنْ يعبدوه ولا يشركوا به[٢]، وعموم العقود في كل رَبْطٍ يوافق الشرع سواء أكان إسلاميًّا أم جاهليًّا[٣]؛ فبدأ بتفصيل التكاليف، وقوله: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ) تمهيد لما سيرد من المنهيّات[٤]، فهو تفصيل في تشريع الحلال والحرام من المطاعم والمشارب.

ثم إنّه تعالى لما ذكر إحلال هذه البهائم ذكر الفَرْقَ بين صيدها وغير صيدها، " فما كان منها صَيْدًا فإنّه حلال في الإحلال دون الإحرام، وما لم يكن صيدًا فإنّه حلال في الحالين"[٥]، وذكره هنا لأنّه تحريم عارض غير ذاتي. ثم قال بعد هذا التفصيل ما يدل على أنّه تعالى خالق الأشياء ومالكها، وهو المتصرف فيها، فختم الآية بقوله معللاً: (إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)، يقول أبو حيان: " وجاءت هذه الجملة مقويّة لهذه الأحكام الشرعية المخالفة لمعهود أحكام العرب من الأمر بإيفاء العقود، وتحليل بهيمة الأنعام، والاستثناء منها ما يتلى تحريمه مطلقًا في الحل والحرم إلا في الاضطرار، واستثناء الصيد في حال الإحرام، وتضمن ذلك حِلُّه لغير المحرم، فموجب الحكم والتكليف هو إرادته؛ لا اعتراض عليه، ولا معقب لحكمه"[٦].

فلما شرّع الله في الآية أحكام الحلال والحرام؛ علّل ذلك بأنّ إرادته ومشيئته تقتضي ذلك؛ لأنّه أعرف بمصالح خلقه، وما يصلح لهم وما لا يصلح، وليس لأحد أنْ يتدخل في حكمه؛ وفي ذلك يقول الشيخ عبد العظيم بدوي: " قد تضمن هذا القول صفتين من صفات الله ﷻ هما: الحكم والإرادة، وكأن هذا الختام جاء ردًّا على سؤال: لماذا أحل الله وحرم؟ وأحل الحرام في بعض الأوقات؟ وحرم الحلال في بعض الأوقات؟ فجاء الجواب: (إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ)، فبين أنّه يحكم؛ فيحلل ما يريد، ويحرم ما يريد، ويأمر بما يريد، وينهى عما يريد، فجعل التحليل والتحريم والأمر والنهي متعلقا بإرادته"[٧].

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٧٤.
[٢] انظر: ابن عاشور،**التحرير والتنوير**، مصدر سابق ، ج٦، ص٧٤.
[٣] الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج٣، ص٤٢٨.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٧٤.
[٥] الرازي، محمد الرازي فخر الدين، (١٩٩٥)، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، (قدّم له الشيخ: خليل محي الدين الميّس)، ج١١، ص١٢٩، دار الفكر.
[٦] الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٣. وانظر: السيوطي، (١٩٩٤) **قطف الأزهار**، (تحقيق: أحمد بن محمد الحمادي)، ط١، ص ٧٨٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
[٧] الخلفي، عبد العظيم بن بدوي، (٢٠٠٩)، **إعلام ذوي الأفئدة بأحكام سورة المائدة**، ط١، ص٦٤، دار ابن رجب، نقلاً عن: عبد العزيز الناصر الرشيد في كتابه: التنبيهات السّنيّة على العقيدة الواسطية، (٦٤-٦٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لما حرّم الله الصيد على المُحْرِم في الآية الأولى؛ أكدّ ذلك بالنهي عن مخالفة تكاليف الله تعالى، لكن ذلك ليس مطلقًا، بل هو محدّد بزمان ومكان وهيئة، فخطاب الله للمؤمنين بعدم الاعتداء على حدود الله، " مع أنّهم لا يُظنّ بهم إحلال المُحرمات؛ يدل على أنّ المقصود النّهْيُ عن الاعتداء على الشّعائرِ الإلهيّةِ التي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون"[١]، ولما بيّن حرمة إحلال الإحرام؛ وهو أنْ يتهاون بحُرمة الشعائر، عقّب ذلك ببيان حرمة إحلال سائر الشعائر.

ولما ذكر الحَرَم وهو من الشعائر المكانيّة، والأشهر الحُرُمَ وهي من الشعائر الزمانيّة؛ ذكر ما يُهدَى للحَرَمِ وهو من شعائر الذوات، فالهَدْيُ هو ما يُهْدَى إلى بيت الله ليُنْحَرَ، وينتفع به الناس. ثم بيّن حُرْمَةَ قاصدي الحَرم، يقول البقاعي: " ولما أكد في احترام ما قُصِدَ به الحَرَم من البهائم، رَقّى الخطاب إلى من قَصَدَهُ من العُقلاء، فإنّه مُمَاثل لما تقدّمَه في أنّ قَصْدَ البيت الحرام حامٍ له، وزاجرٌ عنه"[٢]، فلا بد للهدي من قائد يقودها لتبلغ الحرم، فما فائدة الكفّ عنها والتعرض لصاحبها.

ثم أمر بالتعاون على الخير، فالاعتداء على العدوّ إنّما يكون بتعاونهم عليه؛ لذلك نُبّهوا على أنّ التعاون لا ينبغي أنْ يكون صدًّا عن المسجد الحرام، أي لِيُعِن بعضكم بعضًا على البر والتقوى[٣]، وناسب أنْ يأتي بعدها الأمر بالتقوى؛ لأنّ في ذلك ترغيبًا، ومن ثم ناسب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأنّ فيه ترهيبًا ووعيدًا لمن ترك التقوى، ولمن ترك أمر الله ونَهْيَهُ؛ وعلّل بأنّه شديد العقاب، " لأنّ الإخبار بشدة العقاب يبعث على التقوى"[٤]، وذلك لأنّ " كف النفس عن الانتقام، وزجرها عن شفاء داء الغيظ، وتبريد غلة الإحن، في غاية العسر"[٥].

---

١ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٨١.
٢ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٨٨.
٣ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٨٧-٨٨.
٤ السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص ٧٨٨.
٥ البقاعي، **نظم الدرر** ، مصدر سابق، ج٢، ص٣٨٩.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

يقول البقاعي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " لما أتمّ الكلام عن احترام أعظم المكان وأكرم الزمان وما لابسهما، عدّد على سبيل الاستئناف ما وعد بتلاوته عليهم مما حُرِّمَ مطلقًا؛ إلا في حال الضرورة"[1]، فهذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، فشرع في بيان المحرمات التي استثناها، وهي أحد عشر نوعًا: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أَكَل السبع، وما ذُبِح على النصب[2]، وما أُخِذَ من الاستقسام بالأزلام[3]، حيث أجمل الله المُحَرَّمات بقوله: (الميتة)، ثم فصّلها بذكر أنواعها، وهذه العلاقة شديدة الصلة بالتماسك النصي، فالتفصيل شرح للإجمال؛ ولا نجد تفصيلاً إلا سبقه مُجمل، يتناسب معه، ويسهم في تحقيق الانسجام الدلاليّ بين جُمل السورة وآياتها.

ومن ثم وصفها بأنّها " فسق"؛ وهي تعود إلى كل ما فيه شرك بالله تعالى، لأنّ الفسق خروج عن أمر الله.

---

1 المصدر السابق، ج٢، ص٣٩٠.

2 حجارة غير مقصود منها أنها تمثال للآلهة، بل هي موضوعة لأن تذبح عليها القرابين والنسائك؛ التي يتقرب بها للآلهة والجن، فقيل فيها: هي حجارة كانت حول الكعبة يذبحون عليها ويُنضخ بالدم ما أقبل من البيت، وقيل: هي الأصنام لأنها تنصب فتعبد من دون الله، لذلك ميزوا بين الأنصاب والأصنام فقالوا: الصنم له صورة والنصب صخرة غير مصوّرة، والأصنام معدودة، وكانت لها أسماء، وكانت في مواضع معينة تقصد للتقرب، بينما الأنصاب ليست كذلك. انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٣٩، الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص٥٨. وانظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٩٤- ٩٥.

3 قالوا: وأزلام العرب ثلاثة أنواع:
- أحدها: الثلاثة التي يتخذها كل إنسان لنفسه، في أحدها: افعل، وفي الآخر: لا تفعل، والثالث: غُفْلٌ، فيجعلها في خريطة، فإذا أراد فعل شيء أدخل يده في الخريطة منسابة، وائتمر بما خرج له من الأمر أو النهي، وإن خرج الغفل أعاد الضرب.
- والثاني: سبعة قداح كانت عند هبل في جوف الكعبة في أحدها: العقل في أمر الديات من يحمله منهم فيضرب بالسبعة، فمن خرج عليه قدح العقل لزمه العقل، وفي آخر: تصح، وفي آخر: لا ، فإذا أرادوا أمرا ضرب، فيتبع ما يخرج، وفي آخر: منكم، وفي آخر: من غيركم، وفي آخر ملصق، فإذا اختلفوا في إنسان أهو منهم أم من غيرهم؟ ضربوا، فاتبعوا ما خرج، وفي سائرها لأحكام المياه، إذا أرادوا أن يحفروا لطلب المياه، ضربوا بالقداح وفيها تلك القداح فحيث ما خرج عملوا به.
- والثالث قداح الميسر وهي عشرة، سمي بذلك لأنهم كانوا يستقسمون به الرزق، وهو طلب ما قسم لهم بالأزلام حيث يوزع الجزور كل حسب ما يخرج له من حصة، انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٩، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٤٨-٤٩.

أما قوله: " ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ ... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾"، فهو جملة معترضة بين آيات المحرمات المتقدمة، وبين آية الرخصة التالية، وهي قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾[1]، ومناسبة هذا الاعتراض أنّ الله تعالى عدّد الأنعام التي حرمها، ومنها ما كان فِعلها من جملة الشرك، وهي ما أهل لغير الله به، وما ذبح على النصب، والاستقسام بالأزلام، ولما كانت هذه الأعمال شديدة الخبث حذّر المكلفين منها فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾، ثم حرّضهم على التمسك بما شرع لهم، وأعقب هذه الشدة بإيناسهم وبشارتهم بأنّه أنعم عليهم بالدولة القاهرة، والقوة العظيمة؛ بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾؛ على سبيل النتيجة والتعليل، أي يئسوا مما كانوا يطمعون في حصوله وهو عدم انتشار الدين، وارتداد متبعيه، وأضاف الزمخشري: " يئسوا أنْ ترجعوا مُحَلِّلين لهذه الخبائث بعد ما حُرِّمت عليكم"[2]، ونهى عن خشية جميع أنواع الكفار، وأمر بخشيته تعالى وحده، ثم عدّد نعمًا أخرى، وهي إكمال الدين، والرضا عنه، وإتمام النعمة به، قال القرطبي: " رضيت عنكم إذ انقدتم لي بالدين الذي شرعته لكم، ويحتمل أنْ يريد: رضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم دينا باقيًا بكماله"[3].

وفي قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾، يقول ابن عاشور: " لما تضمنت الآيات تحريم كثير مما كانوا يقتاتونه، وقد كانت بلاد العرب قليلة الأقوات، معرضة للمخمصة عند انحباس المطر، أو في شدة كَلَبِ الشتاء، فلم يكن عندهم من صنوف الأطعمة ما يعتاضون ببعضه عن بعض، فلا جرم أنْ يكون تحريم كثيرٍ من معتاد طعامهم مُؤْذِنًا بتوقع منهم أنْ يفضي ذلك إلى امتداد يد الهلاك إليهم عند المخمصة؛ فناسب أنْ يفصح عن هذا الشرط المُعْرِب عن أحوالهم"[4].

وقد وصف البقاعي ارتباط الكلام في هذه الآية بقوله: " ولما تمت هذه الجمل الاعتراضية التي صار ما بينها وبين ما قبلها وما بعدها بإحكام الرصف، وإتقان الربط من الامتزاج؛ أشد مما بين الروح والجسد، المشيرة إلى أنّ هذه المحرمات هي التي تحقق بها أهل الكفر كمال المخالفة؛ فأيسوا معها من المواصلة والمؤالفة، رجع إلى تتمات تلك المحظورات"[5]، وفي قوله هذا إشارة إلى قوة الترابط النصيّ بين المفردات، وشدة تعالقها وانسجامها دلاليًا؛ بحيث لا يمكن الفصل بينها؛ لأنّها في موقعها الذي تؤدي به الغرض المقصود.

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٠٠.
[2] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٦.
[3] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦ ، ص٤٣.
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ، مصدر سابق، ج ٦، ص١٠٩-١٠١.
[5] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٤.

وذهب الشيخ ابن عاشور في كشف هذه العلاقات إلى أنّ العلاقة بينهما أنّ: " موقع ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ متصلاً بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ اتصال المعطوف بالمعطوف عليه، والفاء للتفريع، تفريع مِنَّةٍ جُزْئِيَّةٍ على مِنَّةٍ كُلِّيَّة، وذلك أنّ الله امتنّ في هذه الجمل الثلاث بالإسلام ثلاث مرات، مرة بوصفه في قوله: (دينكم)، ومرة بالعموم الشامل في قوله: (نعمتي)، ومرة باسمه في قوله: (الإسلام)، فقد تقرر بينهم أنّ الإسلام أفضل صفاته السماحة والرفق، فلما عَلِمَهُم يوجسون خيفةَ الحاجة في الأزمات بعد تحريم ما حرّم عليهم من المطعومات؛ أعقب ذلك بالمِنَّة؛ ثم أزال عَقِّب ذلك ما أوجسوه في نفوسهم بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾، فناسب أنْ تعطف هاته التوسعة وتُفَرَّع على قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، وتعقب المِنّة العامة بالمِنّة الخاصة"[1]، ولما قدم الله في الآية أصنافًا من المطعومات المحرمة، ثم أتبع ذلك بتحليلها في حال الاضطرار والحاجة، ناسب أنْ تكون الفاصلة معللة بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿غَفُورٌ﴾ لمن يأكل هذه المحرمات في حال الاضطرار، و﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بتحليلها لهم في تلك الحال؛ فهو علاج نفسيّ لما يجول في صدورهم، ولم تفصح به ألسنتهم، فعالجه مرتين، الأولى في حال الوقوع في المخمصة، والثانية في حال اللجوء إلى الضرورات، وهذا الأمر من اهتمامات نحو النص نجدها ماثلة هنا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

يقول أبو السعود في مناسبتها لما قبلها: " بعد ما ذكره الله تعالى من المحرمات، وبيان تحريمها إلا في حال الاضطرار، سألوا عن الحلال من المطعومات؛ حتى يكونوا على يقين بَيِّن من الحلال والحرام، فهذا متصل بما تقدم من ذكر المطاعم، وهنا شرع في تفصيل المحلات،

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦، ص١١٠.

وكأنّهم سألوا عنها عند بيان أضدادها"[1]، فجاء الجواب شاملاً سؤالهم ومضيفًا إليه نوعًا آخر هو المصيد؛ ليشمل ذلك جميع المطعومات، فهناك من المطاعم ما لا يحتاج إلى صيد، ومنها ما يُصاد بواسطة السلاح أو الجوارح؛ فبين تعالى حكم الطعام المصيد وحالاته، ومتى يحلّ ومتى يحرم، فأحلّ الله الصيد بالحيوان المُعلَّم، وفي كل آية يُخرج الله الذين آمنوا من عادات أهل الجاهلية، واعتقاداتهم ويُذكرهم بتقوى الله، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ بتطبيق ما أمر الله به في هذه الآية، ومن ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وذلك لمن خالف ما أمر به تعالى، وهذا وعيد بيوم القيامة وحسابه.

ثم ذكر الله تعالى منّة جديدة؛ وهي إحلال طعام أهل الكتاب، وكان ذكر إحلال طعامهم تمهيدًا لذكر أحكام مناكحة نسائهم والمصاهرة معهم، وشرط الله في الرجال العفّة، والبعد عن الزنا واتخاذ الصديقات؛ ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾، ويرى ابن عاشور أنّها "معترضة بين الجمل، والمقصود التنبيه على أنّ إباحة تزوج نساء أهل الكتاب لا يقتضي تزكية لحالهم، ولكن ذلك تيسير على المسلمين"[2]. فبعد هذه الوصايا يحذر الله من اتباع الهوى، ويقدم الوعيد الرادع من جهة ضياع الأعمال الصالحه بقوله: ﴿حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ ومن جهة أخرى، الخسران في الآخرة مقابل إرضاء الشهوات الزائلة، فقال: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

بعد أنْ ذكر الله ما أحل من المطاعم، ثم ما أحل من المناكح، ذكر الوضوء للصلاة، فذكر الشيء وشرطه، " وذكر من الشرائط ما يُتَطَهَّر به، فالذبح طهور للبهائم، والمهر وقصد الإحصان

[1] أبو السعود، (١٩٩٩)، **إرشاد العقل السليم**، (وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن)، ط١، ج٢، ص٢٣٨، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. وانظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٦٦.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٢٥.

طهور للنساء، والوضوء طهور للصلاة، ثم هدى إلى هذه الحقيقة فقال: (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ)"[١].

فعلاقة هذه الآية بما قبلها تتجلى من خلال هذه الأشياء نفسها، الطعام والنساء والصلاة، فكلها طيبات، أما المناسبة بين الطعام والنكاح فيكمن في تخصيص محلهما من المحرمات، إذ قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ...) (النساء: ٢٣)، وقال: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ....) (المائدة: ٣)، فذكر المُحَرَّم ثم ذكر المُحَلَّل منهما.

أما العلاقة بين النكاح والصلاة؛ فالنكاح وازع عن التدنس، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهؤلاء الثلاثة أساس قيام العالم؛ الذي يقوم على الشخص، والنوع، والروح، وجبر اضمحلالها بالطعام، والنكاح، والصلاة على الترتيب[٢].

أما وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها عند الرازي إنّه انتقال من ذكر ما قدمه الله ووفى به من حق الربوبيّة من نوع المنافع الدنيويّة المحصورة في ملذات المطعم والمنكح، فذكر ما يحل ويحرم منها، انتقل إلى الأمر بالوفاء بعهد العبوديّة، وقدّم منه الصلاة؛ لأنّها أشرفه بعد الإيمان، ولما كانت الصلاة لا تقوم إلا بالطهارة، ذكر شرائط الوضوء[٣]، وإلى مثل ذلك ذهب أبو حيان[٤].

وربط البقاعي بين هذه الآية من خلال الصلاة التي هي أولى دعائم الإيمان، وبين الآية التي قبلها من خلال قوله تعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ۝)[٥].

بينما يرى ابن عاشور أنّ هذه الآية " نزلت هنا تذكيرًا بنعمة عظيمة من نعم التشريع، وهي منّة شرع التيمم عند مشقة التطهر بالماء، وذُكر هنا في عداد النعم التي امتنّ الله بها على المسلمين"[٦]، واستنادًا على ما قيل؛ يكون ما جاء في الآيات من امتنان الله تعالى على البشر بالطيبات، واختياره لهم طيب الطعام، وطيب النكاح، اختار لهم نعمًا أخرى تتعلق بالدين، والتيسير فيه، ومنها نعمة الوضوء، التي هي طهارة للبدن، كما هي طهارة للروح، وللاهتمام بذلك جاءت نعمة التيمم حفاظًا على طهارة الروح، يتبع بذلك الصلاة؛ التي هي غذاء الروح، ولا ينافي هذا ما تقدم من كون أنّ الله انتقل من ذكر الحلال والحرام في المطعم والمنكح، إلى الأمر بعبادته ابتداء

---

١ الفرّاهي (٢٠٠٨). تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ط١، ص٤٤، الدائرة الحميدية، يو – بي، الهند.
٢ انظر، الفرّاهي، **تفسير نظام القرآن**، مصدر سابق، ص ٤٤- ٤٥.
٣ انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٥٢-١٥٣.
٤ الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج٣، ص٤٤٩.
٥ انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٠٠-٤٠١.
٦ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٢٤.

بالإيمان الذي أهم شعائره الصلاة، ولا صلاة بلا وضوء، ومن هنا تبدأ أحكام الدين وأولها الصلاة، أما قوله: " وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ"، فيرى ابن عاشور أنّ الإتمام أنْ " يكمل النعم الموجودة قبل الإسلام بنعمة الإسلام، أو يكمل نعمة الإسلام بزيادة أحكامه الراجعة إلى التزكية، والتطهير، مع التيسير في أحوال كثيرة، فالإتمام إما بزيادة أنواع من النعم لم تكن، وإما بتكثير فروع النوع من النعم"[1].

فحرّم الله الميتة وما يلحقها من أشكال، وأحلها في حال الاضطرار، أما في أمور الدين فشَرْعُها القائم بها الصلاة وشرطه الوضوء، فإنْ لم يكن هناك ماء صار لدينا حالة اضطرار توازي حالة الاضطرار الأولى في جواز أكل لحم الميتة، لكن حلُّه هنا الصلاة بلا وضوء، وهذا لا يجوز؛ لكون الوضوء شرط في الصلاة، لذلك لا بد من أمر آخر يقوم مقام الماء، فكان التراب، وهذه مِنّة اخْتُصّت بها أمة محمد ﷺ، وختمت الآية بقوله: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، لأنّ كل ما جاء في الآية من مشروعية الوضوء والتيمم اللذين هما وسيلة تطهير المسلم؛ ليؤدي الصلاة، وما جاء قبلها من النعم المجملة تستدعي شكر المنعم ﷻ.

(وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧)

أما وجه مناسبتها لما قبلها فهو كما قال الرازي: " لما ذكر التكليف؛ أردفه بما يوجب عليهم القبول والانقياد، وذلك من وجهين، الأول: كثرة نعم الله عليهم ، والسبب الثاني: هو الميثاق الذي واثقهم به"[2]؛ فلشدّة نعم الله وتواترها عليهم وكثرتها وتعاقبها حتى صارت كالأمر المألوف ذكرّهم بالميثاق الذي أخذه عليهم، وهذا يعيدنا إلى ما افتتحت به السورة من قوله: **(أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ)**، ثم حذرهم من نقض تلك العهود والمواثيق فقال: **(إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)**.

يقول الطوفي: " هو مناسب لما في الآية، لأنّ خيانة العهد ونقض الميثاق أمر باطن يحصل بالنية والعزم، وإنّما آثاره الدالة عليه تظهر بالفعل، فأخبرهم من علمه بذات الصدور بما يوجب لهم المراقبة وحفظ الميثاق؛ بحيث لا ينقضونه بالعزم، ولا بالفعل، وأيضًا فإنّ مِنْ شُكْرِ النّعمة ما محلّه

---

[1] المصدر السابق، ج ٦، ص ١٣٢.
[2] الرازي، التفسير الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٨٣.

القلب؛ فأخبرهم أنّه عالم بمن يشكر بقلبه وبمن لا يشكر"[١]. وهي متضمنة التحذير من نكث العهود بعصيان أوامر الله في السر والعلن.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٠)

يقول الشيخ وهبة الزّحيلي في مناسبة الآيات لما قبلها: " لما ذكّر الله تعالى المؤمنين في الآية السابقة بما يوجب عليهم الانقياد لأوامره ونواهيه، طالبهم هنا بالانقياد لتكاليفه المتعلقة به أو بعباده"[٢]. فذكر هنا كيف ينبغي أن تكون معاملتهم مع من سواهم، فبعد أن بين لهم ما يتعلق بأنفسهم، فبدأ في بيان الشرائع المتعلقة بما يجري بينهم وبين غيرهم، سواء أكانوا من الأعداء أم من الأولياء، حيث نهاهم عن أنْ تحملهم الضغائن على ترك العدل والعمل به فذكره مرة أخرى، فقال: (ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ)، وهذه علة الأمر العدل، وذلك لما كان الشنآن محله القلب، وهو الحامل على ترك العدل، أمر التقوى، كما أنّ القيام بالقسط والعدل والعدوان أمور باطنة، ويظهر أثرها بالعمل الظاهر، فأخبرهم تعالى أنّه عالم بجميع عملهم الخفي منه والظاهر؛ ليراقبوا أنفسهم،[٣] فالرقابة الإلهية التي يستشعرها المسلم حتى على نواياه الخفية؛ تجعله يتجه إلى التقوى، ويحذر من مخالفة أمر الله تعالى؛ لذلك خُتِمت الآية بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ).

ثم ذكر الله تعالى وعده لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ ترغيبًا في الامتثال لأمره، وأعقبه بوعيده لمن كفر وكذّب بآيات الله، ترهيبًا وتخويفًا من مصيره؛ فالمغفرة ستر الذنوب، والأجر العظيم هو الجنة؛ فجاءت خاتمة الآية مناسبة لعملهم وطاعتهم.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١)

ذكّر الله تعالى المؤمنين بنعمه عليهم، من خلال دفع الشر والمكروه عن نبيّهم ﷺ، وردّ كيد

---

[١] السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٧٩٢- ٧٩٣

[٢] الزحيلي، وهبة (٢٠٠٩)، **التفسير المنير**، ط١٠، م٣، ج٦، ص ٤٦٧، دار الفكر، دمشق. وانظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٠٧.

[٣] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٤١. السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٧٩٣.

الأعداء عنهم على كثرتهم، وقوتهم، وضعف المسلمين، وقلتهم، وذلك عندما كفّ يهود بني النضير ومنعهم من قتله ﷺ، ثم جاء الأمر بالتقوى عقب ذلك لأنّها أظهر للشكر، إذ التقوى مقصودة لذاتها؛ فهي شكر لله؛ بدليل وقوع الأمر بعدها بالتوكل على الله، قال الطوفي: الختم بالتوكل مناسب لما في الآية، لأنّ مضمونها أمر يبعث النفوس المؤمنة على التوكل، والتسليم إلى الله بقلب سليم، والعلة أنّه لا خير إلا بنعمة الله، ولا شر إلا بقدر الله"[1]. فأمر بالاعتماد على الله وحده دون غيره، إذ بيده وحده جلب المنافع، ودفع المضار.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢﴾

ذكر تعالى مثالاً على أخذ العهود على الأمم الأخرى، وخصّ اليهود بالذكر لما أنّهم حاولوا قتل النبي ﷺ[2]، وقد ذكر تعالى كيف كفّ أيديهم عنه في الآية السابقة، وما فعله اليهود مع الرسول ﷺ نقض للمواثيق التي عقدها معهم عند وصوله إلى المدينة، شأنهم في كل زمان، فلا يُؤمن جانبهم، ولا ينتهي مكرهم، وقد فعلوا ذلك مرارًا وتكرارًا مع موسى عليه السلام، فهذا مثال لنقضهم العهد بعد أنْ نصرهم الله تعالى، ونجاهم من فرعون وجنوده بلا قتال، وفي هذا تحذير للمسلمين من كيدهم ومكرهم، كما هو تحذير من أنْ يصيروا مثلهم في مواثيقهم مع الله ورسوله.

وقد اختار الله هذه الواقعة لكشف فضائحهم، وفضائح أسلافهم التي لا يعرفها إلا كبار علمائهم، وكل ذلك بنقضهم للمواثيق المأخوذة عليهم، وليتعظ المسلمون فلا ينقضوا المواثيق بأي حال؛ فهذا تحذير لهم أنْ يسلكوا طريقهم ويتبعوا نهجهم فيكون مصيرهم واحدًا.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾

يقول البقاعي في وجه اتصال الآية بما قبلها: " لما ذكر سبحانه ما أخذ على اليهود من الميثاق، ووعيده لهم إنْ كفروا بعد ذلك، ذكر أنّهم نقضوا العهود مرة بعد مرة، فاستحقوا ما هم

---

[1] السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٧٩٥.
[2] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٨٨.

فيه من الخزي"[١]. وكان نقضهم للميثاق بعدة أشكال: إما بتكذيب الرسل، وقتل الأنبياء، وإما بتحريف التوراة، وترك العمل بما أنزل الله، وإما بمجموع هذه الأمور كلها[٢].

وبيّن شدة مرتبة قساوة قلوبهم؛ التي أدّت بهم إلى نقض العهد مع الله، ثم سوء تعاملهم مع الرسول ﷺ فلا يزالون يخونون، واستثنى قليلاً منهم جبلوا على الوفاء، " قيل: هم الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: يحتمل أنْ يكون هذا القليل من الذين بقوا على الكفر، لكنّهم بقوا على العهد ولم يخونوا فيه، وعن هذا القليل جاء الأمر بالعفو والصفح عنهم"[٣]، فلا يؤاخذ من حافظ على العهد بجريرة من نقضه، فناسب قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ)؛ وهو الرسول ﷺ؛ فالعفو والصفح أمر من الله لرسوله ﷺ، ولن تقع صفة المحسنين على اليهود وإنْ لم ينقضوا العهد؛ لأنّهم لم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

(وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾)

بعد ذلك انتقل إلى ذكر موقف النصارى، فسبيلهم مثل سبيل اليهود في نقض المواثيق، وبدأ ذلك بقوله تعالى: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ) ولم يقل نصارى لأنّهم " سموا أنفسهم بهذا الاسم ادّعاء لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى: (نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)، فكان هذا الاسم في الحقيقة اسم مدح، فبيّن أنّهم يدّعون هذه الصفة، ولكنهم ليسوا موصوفين بها عند الله تعالى"[٤].

وهذا ذمٌّ لهم؛ لأنّ الآية تتحدث عن نقضهم للمواثيق والعهود، سيرًا على نهج من سبقهم من اليهود، ومن ذلك أيضًا إخفاؤهم صفة محمد ﷺ، وعدم الإيمان به وعدم نصرته، فجميع أتباع الرسل قد لزمهم ما لزم رسلهم من نصرة الأنبياء بعدهم، ونصرة النبي محمد ﷺ خاصة[٥]،

---

[١] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٤١٥.

[٢] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق، ج ١١، ص١٩١.

[٣] قيل إنه منسوخ بآية السيف، وذلك لأنه عفو وصفح عن الكفار، ومن قال إنه غير منسوخ فله وجهان: أحدهما: أن المعنى: أعفُ عن مذنبهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم، والثاني: أنا إذا حملنا القليل على الكفار منهم الذين بقوا على الكفر؛ فسرنا هذه الآية بأن المراد منها أمر الله رسوله أن يعفو عنهم ويصفح عن صغائر زلاتهم ما داموا باقين على العهد". انظر: الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، مصدر سابق، ج١١، ص١٩٢.

[٤] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق، ج ١١، ص١٩٣، وانظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص ٧٨، الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص٩٥-٩٦.

[٥] ذلك في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾) (آل عمران:٨١).

فأصحاب هذا الاسم يعنون أنّهم أنصار لما يأمر به الله للأنبياء والمرسلين ولأتباعهم من بعدهم، وهم بمعزل عن الصدق، وكانت نتيجة أفعالهم هذه وجود العداوة والبغضاء فيما بينهم، وهي ملازمة لهم في كل الأحوال، قيل: بين فرق النصارى المختلفة وقيل: بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، قال مجاهد وقتادة والسدي: " فإنّهم أعداء يلعن بعضهم بعضًا ويكفّر بعضهم بعضًا"[١]؛ ثم أخبر الله تعالى أنّ ذلك سيستمر إلى يوم القيامة.

وترى الباحثة أنّ الرأي الأول هو الصحيح؛ لأنّ السياق في الحديث عن النصارى فقط، وقد انتهى الحديث عن اليهود وإنْ كانت اليهود أيضًا فرقًا متناحرة ، وكذلك اليهود والنصارى مختلفين وإن اتفقوا على محاربة الإسلام.

(يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦)

يقول المراغي في مناسبتها لما قبلها: " إنّ الله سبحانه لما بين أنّه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، كما أخذه على هذه الأمة، وأنّهم نقضوا العهد والميثاق، وتركوا ما أمروا به، وأنّهم أضاعوا حظًا عظيمًا مما أوحاه إليهم، ولم يقيموا ما حفظوا منه، دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وبالكتاب الذي جاء به"[٢].

فما أظهره القرآن من أحوال أهل الكتاب، وأنبائهم، مما لا يعرفه إلا العلماء؛ فلا يستطيعون إنكاره، وذلك دليل قاطع على نبوة محمد ﷺ، وقد اعترفوا بذلك في قرارة أنفسهم لكنهم رفضوا الاتباع تكبرًا وحسدًا.

وقد ظهر من صدق النبي ﷺ ما يقيم الحجة عليهم؛ لأنّ معرفته بِخَفِيِّ ما في كتبهم وهو أميّ دليل على أن ذلك يأتيه من عند الله، وأشهرها أمر الرجم، فما أخفوه ظهر؛ وما يظهره: " فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة"[٣]، وما تركه لم يظهر، " وإنّما لم يظهره لأنّه لا حاجة إلى إظهاره في الدين"[٤]، ثم وصف ما جاء به الرسول ﷺ فقال: (قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ)، قيل إنّه:

---

[١] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٦، ص٤٦٣، وانظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٧.
[٢] المراغي، أحمد مصطفى (١٩٤٦)، **تفسير المراغي**، ط١، ج ٦، ص٧٩، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
[٣] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢١٨.
[٤] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٩٤، وانظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٧٩، الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢١٨.

يحتمل أنْ يكون محمدًا ﷺ والقرآن، والنور محمد ﷺ، والقرآن هو الكتاب المبين، وقيل: يريد موسى ﷺ والتوراة، وترى الباحثة أنّ كون النّور هو موسى ﷺ والكتاب هو التوارة بعيد، لأنّ السياق الإخبار عن الرسول محمد ﷺ، والدعوة إلى اتباعه بعدما نقضوا عهودهم مع موسى ﷺ والأنبياء من بعده. فلما بيّن تعالى أنّه أرسل رسوله محمدًا ﷺ بشريعة جديدة فيها إظهار كثير مما أخفاه أهل الكتاب من التوارة والإنجيل؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: (قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ)؛ لتبين أنّ القرآن جاء به محمد ﷺ من عند الله، وبه سيكشف فضائح أهل الكتاب.

وبيّن تعالى أنّ هذا النور، وهذا الكتاب المبين، لهداية من أراد، وذلك باتباع شرعه، وتعاليمه، وسيوصله بهذا إلى طريق السلامة، بل إلى الجنة، إذ يخرجهم من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، فاتّباع الرسول ﷺ، وما جاء به القرآن، سيؤدي إلى كل هذه الأمور، وذلك بيان لفضل اتباع الرسول ﷺ، والقرآن لأنّه سيوصل إلى طريق النجاة المؤدية إلى الجنة؛ ولذا ختمت الآية بقوله: (وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾)

يقول الشيخ وهبة الزحيلي في مناسبة الآية لما قبلها: " بعد أنْ أقام الله الحجة على أهل الكتاب عامة، وأوضح أنّهم مقصّرون معرضون عن الحق بعدم إيمانهم برسالة الإسلام؛ بيّن ما كفر به النصارى بنحو خاص"[1]، فأخبر تعالى عن نقضهم لميثاقهم؛ لقولهم إنّ الله هو المسيح ابن مريم.

واحتج الله سبحانه على فساد مذهبهم بأنّ عيسى ﷺ عبد مملوك مساوٍ لباقي الناس، فهو مشاكلٌ لمن في الأرض في الصورة، والخلقه الجسميّة، والتركيب، وتغيّر الصفات والأحول، فإذا كان الله تعالى خالقًا للكل، ومدبرًا للكل، وجب أنْ يكون أيضًا خالقًا لعيسى ﷺ، والتذييل بقوله: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ)؛ تأكيد لكون الله قادر على إهلاك من يشاء، لأنّ الملك له، وفيه تعظيم لشأنه تعالى، فهو الخالق المالك، يخلق ما يشاء، لذلك خلق عيسى ﷺ من

[1] الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، م٣، ج٦، ص٤٨٦-٤٨٧.

غير أب، كما خلق قبله آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، وفي هذا ما يدل على تمام القدرة فقال معقبًا: (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، يقول الطوفي: " مناسب لما في الآية؛ لأنّ الإهلاك والخلق والملك التام لا يتأتّى بدون القدرة"[1].

(وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)

يقول ابن عاشور في مناسبة الآية لما قبلها: " لما فرّط اليهود بما جاءهم من البينات؛ فعدلوا عنها كفروا، ولما أفرط النصارى في تعظيم عيسى عليه السلام؛ كفروا أيضًا، فكلا الحالتين معصية، إذ يقولون ما لا يليق بعظمة الله تعالى، ثم هو مناقض لمقالاتهم الأخرى"[2]، وهي قولهم : (نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ)، فكل طائفة منهما نسبت ذلك لنفسها؛ وهذه المحبة ليست المتداولة بين البشر، التي هي عكس البغض، فهناك محبة بين الصالحين في الله، وهي التي وصّى الله بها من خلال الحديث القدسي عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله، إذ قال منهم (ورجلان تحابا في الله....).

ويُعرف من سياق الآيات أنّ الله لا يُعذّب أحبابه، وهذه بشرى لمن أراد أنْ يكون من أحباب الله، وأهل ودّه؛ وذلك من خلال عمل الصالحات، وتطبيق الشرع في النهي والأمر، وهذه علامة حب المسلم لربه ﷻ، فمن أحب الله برئ من عذابه.

وعذاب اليهود في الدنيا كان مسخهم قردة، وعذاب النصارى كان مسخهم خنازير[3]، ثم ذكر الله نتيجة هذا الاستدلال باستدلال آخر وهو نقض آخر من ثبوت كونهم بشرًا عن بعض من خلق، فهم مساوون لغيرهم في البشرية والحدوث، وهذا مما يمنع البُنوّة، فهم كسائر خلقه، يحاسبهم على الطاعة والمعصية، ويجازي كلاً بعمله، فأتبع مع ذلك بقوله: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ)، فهو مالك خلقه ومَلِكُهم؛ فلا اعتراض عليه في شئ من أمره، وأضاف ناقضًا ثالثًا أعمّ مما قبله وهو قوله: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)، فله التصرف التام في خلقه، يجازي المحسن والمسيء بما يستدعيه عمله، فليس لأحدٍ عليه حق يوجب أنْ يغفر له، كما أنّه ليس لأحدٍ

[1] السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٧٩٩.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٦.
[3] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص١٩٧-١٩٨، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٦.

عليه حق أنْ يمنعه من أنْ يعذبه، فمرجع الخلق إليه وحسابهم عليه، ومن كان ملكه هكذا، وقدرته هكذا فلا اعتراض عليه في شيء من أمره، وليس هو كالاحتراس لدفع توهم النصارى أنّ البشرية مقتضية استحقاق العذاب بوراثة تبعية خطيئة آدم عليه السلام كما ذهب إلى ذلك ابن عاشور[1]، لأنّ اعتقاد النصارى يختلف عن اعتقاد اليهود، وجاء الرد في الآية على كلا الطرفين، وكل منهم يعرف ماضيه: " مسخ آبائهم على تعديهم في السبت، وبقتل نفسه على عبادة العجل، وبالتيه على امتناعهم عن قتال الجبارين، وبافتضاح من أذنب منهم بأنْ يصبح مكتوبًا على بابه ذنبه وعقوبته عليه فتُتَّخذ فيهم"[2].

وختم بما فيه وعيد لهم، فقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فلما أثبت الله فساد مزاعمهم في قولهم إنّهم أبناء الله وأحباؤه؛ بأنْ وقع عليهم عذاب في الدنيا، وسيتبعه عذاب في الآخرة، جاءت الفاصلة هكذا.

(يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩)

يقول البقاعي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " ولما دحضت حجتهم، ووضحت أكذوبتهم، أقتضى ذلك الالتفات إلى وَعْظِهِم على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنونه حجة، ولِمَا كان ما حصل لهم من الضلال؛ بتضييع ما عندهم من البيّنات وتغييرها"[3]، فهذا التغيير والتحريف قد تطرق إلى شرائعهم؛ لتقادم العهد بها، والابتعاد عن تطبيقها، أو لتحريفها، ثم علّل مجيء الرسل بالبينات بقوله : ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ﴾، أي ببشر يخبرنا بما نعمل فنفوز، أو يحذرنا من النواهي فنخاف، فنتجنب ما يشقينا فنسلم.

وفي هذا قطع معذرة أهل الكتاب عند مؤاخذتهم في الآخرة، أو تقريعهم في الدنيا على ما غيّروا من شرائعهم، لئلا يكون من معاذيرهم أنّهم اعتادوا تعاقب الرسل لإرشادهم، وتجديد الديانة، فلعلهم أنْ يعتذروا بأنّهم لما مضت عليهم فترة بدون إرسال رسول؛ لم يتجه عليهم ملام فيما أهملوا من شرعهم، وأنّهم لو جاءهم رسول لاهتدوا[4]، فقد أرسل الله تعالى لهم الرسل فزالت العلّة، وارتفع العذر.

---

[1] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٦. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٧.

[2] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٦.

[3] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٢٢.

[4] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٩. والمقصود: لم يأتهم نبي بعد موسى وعيسى عليهما السلام وليس أنه لم يأتهم نبي البتة، وفي ذلك تنبيه للمسلمين لئلا يكونوا مثلهم، فيتركون ما جاءهم على مر الزمان، لأنه ليس هناك نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تعهد الله كتابه، فبقيت الشرائع كما هي.

وجاء الختم به مناسب لما في الآية، " أي قدير على أنْ يبيّن أحكامه لأهل الكتاب على لسان رجل أمي، أو تكون مناسبة القدرة راجعة إلى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ أي فمن آمن فله البشرى ومن كفر فله العذاب، والله قادر على كل شئ من إثابة وعقوبة وغيرهما"[١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

مناسبة هذه الآيات لما قبلها أنّ الله لما أقام الحُجة على بني إسرائيل، وأثبت لهم رسالة نبيّه محمد ﷺ بما أوحاه إليه بشأنهم، بيّن هنا تمرد أسلافهم على موسى عليه السلام، وعصيانهم له، وأنّ هؤلاء جَارُون معكم مجرى أسلافهم مع موسى عليه السلام ؛ ليعلم الرسول ﷺ، أنّ مكابرتهم للحق من أخلاقهم؛ توارثوها عن أسلافهم، وتأصلت في طباعهم، فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك[٢].

فهذه القصة مشتملة على تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى على لسان موسى عليه السلام، وحثهم فيها على الوفاء بالعهود، حيث أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين، وحذرهم من الارتداد عن الجهاد، فرفضوا ذلك، وصرّحوا بأنّهم لن يدخلوا الأرض المقدسة لوجود الجبارين فيها، كما رفضوا الإصغاء لأوامر نبيّهم، وقد تدخّل رجلان صالحان لحثّ قومهما على الجهاد، فهناك من يأتمر بما أمر الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لكنّ كلامهما لم يؤثر في نفوس القوم، والتزموا رفض الجهاد، فدعا عليهم موسى عليه السلام، فوقع عليهم عقاب الله وهو التيه؛ فحرمهم من دخولها والاستمتاع بخيراتها، ونهى الله نبيّه موسى عليه السلام أنْ يحزن عليهم؛ لما سيحل بهم من العذاب الدنيوي.

---

١ السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٨٠١.

٢ انظر: الشافعي، محمد الأمين بن عبد الله، (٢٠٠١)، **تفسير حدائق الروح والريحان**، إشراف ومراجعة: (هاشم محمد علي بن حسين مهدي)، ط١، ج٦، ص٢٠٠، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان.

ومن ألوان الاتساق البارزة في الخطاب القرآني السابق ذلك التداخل العجيب بين المشاعر التي تظهر من اليهود، والصورة الفنية التي تجسدها للعيان، حين عبر القرآن عن ارتدادهم لرفضهم طاعة أوامر الله بقوله: (وَلَا تَرْتَدُّواْ) بما فيها من قيمة صوتية تعبيرية تشير إلى المعنى النفسي والحركي من خلال حروفها المنظومة.

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾)

وهذا من قبيل عطف قصة على قصة، وهو من الروابط الشائعة بين آيات القرآن الكريم، والشرط الخاص في هذا النوع من العطف هو التناسب بين القصتين في الغرض العام لكل منهما. وقد ذُكر في مناسبة هذه الآيات لما قبلها عدة وجوه[1]:

الأول: أنّه تعالى ذَكَرَ قبل قصة محاربة الجبارين قوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ)؛ فبين من خلال قصة ابني آدم أنّ اليهود يريدون إيقاع البلاء بالنبي ﷺ، وما ذلك إلا لشدة حسدهم له فيما آتاه الله من الدين الحق، ففي قصة ابني آدم، قتل أحدهما أخاه حسدًا على تقبل قربانه، فنبّهوا على أنّ الحسد يجرُّ إلى ما لا يرضي الله، ويؤدي إلى النار، وهذي تسلية للرسول ﷺ لمّا همّ قوم من اليهود أنْ يمكروا به.

الثاني: أنّه متعلق بقوله: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿١٥﴾)، وهذه القصة وكيفية إيجاب القصاص عليها من أسرار التوراة، وقد وردت هذه القصة كما هي في التوراة، وسيأتي بعدها حكم القصاص على بني اسرائيل خاصة.

[1] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص٢٠٨، البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٣.

الثالث: أنّه لما ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم الأمر في قتال الجبارين، ذكر قصة ابني آدم، وعصيان قابيل أمر الله، وأنّهم اقتفوا في العصيان أول عاصٍ لله تعالى، وأنّهم انْتهوا في خور الطبيعة، وهلع النفوس، والجبن، والفزع، إلى غاية، بحيث قالوا لنبيهم: (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝)، وانتهى قابيل إلى طرف نقيض من الجسارة والعتو، وقوة النفس، وعدم المبالاة؛ بأنْ أقدم على أعظم الأمور؛ وهو قتل النفس التي حرّم الله قتلها، بحيث كان أول من سن القتل[1].

فهذه المناسبات تكاد تتقارب في توجيه الآيات السابقة لها، فقصة موسى عليه السلام مع قومه في تكليفهم بمحاربة الجبارين مثال على نقض اليهود لعهودهم مع الله ﷻ، ومع رسوله موسى عليه السلام، وكفر اليهود بمحمد ﷺ نقض آخر للعهود المأخوذة عليهم، وسبب نقضهم للعهد الثاني هو الحسد والكبر الذي كان في نفوسهم، مع علمهم بصدقه، مما أدى بهم إلى محاولة قتله ﷺ، فضرب الله له مثلا لأثر الحسد بين البشر؛ من خلال قصة يعرفها اليهود، وهي عندهم في التوراة؛ فجاءت في سياق تسلية الرسول ﷺ، فكل ذي نعمة محسود، ونعم الله على رسوله ﷺ أعظم النعم، فكما قام قابيل بقتل أخيه هابيل حسدًا، لأنّه مقبول عند الله؛ وباء هو بعدم القبول، فكذلك حال النبي ﷺ مع اليهود الذين باؤوا بعدم القبول؛ جراء ما فعلوه من محاولة قتل النبي ﷺ، ونقض المواثيق والعهود معه، وكذلك التمرد والعصيان على الأنبياء، فينشأ صراع من عدم الرضا بالدونية، والرغبة بالعلو بلا ثمن، فلم يرضَ قابيل أنْ يكون أقل من أخيه، ولم يرض اليهود أنْ يكون هناك من هو خير منهم، واعتراض الحالين يتوجه إلى الشخص المفضّل، وتتم محاولة التخلص من وجوده، فإنْ نجح قابيل بذلك فالنبي ﷺ بحفظ الله ورعايته، ومن ناحية أخرى فإنّ هذه القصة تمهّد للحديث عن أحكام شرعية، وجدت عند اليهود، وكتبت في التوراة، واسْتَبْقَتْهَا الشريعة الإسلامية، وهي أحكام القصاص في القتل، وهذا من حسن التخلص في الانتقال من موضوع إلى آخر، بل من قصة إلى أحكام شرعية.

---

[1] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٧٥. وللاستزادة انظر:ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق ، ج٦، ص١٦٨. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، **تفسير البغوي " معالم التنزيل"** (١٩٩٧)، (حققه: محمد علي النمر وآخرون)، ط ٤، م٣، ص٤٤، دار طيبة، الرياض.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وانطلاقًا من هذه الجريمة شُرِع القصاص، وفرض حكمه على بني إسرائيل في التوراة، فهم أول من أنزل إليهم كتاب؛ وقد قتلوا الأنبياء، وحاول المتأخرون منهم قتل الرسول ﷺ؛ فَشَرَع الله بما هو المقصود من تلاوة النبأ، مشيرًا إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه المفهومَيْن من القصة.

فقال معلّلاً: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، " والمقصود من الإخبار بما كتب على بني إسرائيل بيان للمسلمين أنّ حكم القصاص شرع سالف ومراد لله قديم"[1]، وذلك لجرأة الناس على قتل بعضهم بعضًا، لا سيما بني إسرائيل، فجاء القصاص ليحافظ على النفس البشرية، ويستبقيها حية، ومن أحياها بأي طريق من طرق الإحياء، فله ثواب مضاعف كأنّه أحيا الناس جميعًا.

وأتبع ذلك حالهم الدالة على أنّهم بعيدون من أنْ يكونوا أبناء وأحباء فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾، فهذا الإسراف والفساد مع مجيء الأنبياء، دليل على إعراضهم عن الشريعة، ولا يزالون يقتلون، فبينت الآية جزاء القتل وعظم حرمته، ثم ذكرت موقف بني إسرائيل ؛ وهو أنّ أكثرهم مسرفون.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

لما ذكر في الآية قبلها تغليظ الإثم في قتل النفس بغير نفس ولا فساد في الأرض، أتبعه ببيان الفساد في الأرض الذي يوجب القتل، فإنّ بعضه لا يوجب القتل، والآية تخلُصُ إلى تشريع عقاب المحاربين، وهم ضرب من الجناة قاموا بالقتل؛ فعلاقتها بأخبار بني إسرائيل ضمنيّة لما كانوا يفعلونه، إذ الآية تشريع؛ وهذا التشريع نصّ القرآن بأنّه مكتوب عندهم في التوراة[2].

فهذه الآية تتحدث عن أحكام القتل والإفساد في الأرض التي لا يكاد يخلو منها مجتمع، ولولا ذلك لما احتيج إليها، وفيها إشارة إلى أنّ بني إسرائيل حرّفوا هذه الأحكام، فطبقوها على بعض

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٧.

[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٨٤. ابن عاشور، **التحرير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٨٠.

منهم، وغيروا حكمها لآخرين؛ حتى نُسي الأصل، وبقي التغيير، ثم بيّن لهم طبيعة هذا الجزاء في الدنيا والآخرة، فجمع بينهما تغليظًا لذنب الحرابة فقال: (ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، وفتح باب التوبة لهم، فلما عفا عنهم بسبب توبتهم؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: غفور رحيم، غفور يتجاوز عن المعاصي بالتوبة، رحيم يسقط عنهم عقوبة الدنيا والآخرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۝)

يقول أبو حيان: " لما ذكر الله جزاء من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، وذكر العقوبات الأربعة، والعذاب العظيم المعدّ في الآخرة، ذكر حكمهم عند التوبة، وختم الآية بما يناسب الغفران والرحمة، وأرشدهم إلى معاقد الخير، ومفاتح السعادة، وذكر فوزهم في الآخرة، وأمرهم بتقوى الله؛ كما أمرهم بعدم الافتتان بدينهم كما فعل أهل الكتاب، وانتهى ذلك إلى الترغيب بالفلاح الذي هو خاتمة هذه الطاعات، وعلّة القيام بها[1]، ثم شرح حال الكفار، وعاقبة كفرهم، وما أعد لهم من العذاب"[2]، وفي ذلك تأكيد وجوب الامتثال لأوامر الله تعالى وتحذير من عاقبة الكفار، وجزائهم، وعدم قبول الشفاعة فيهم، ناهيك عن عدم قبول الفداء منهم، وبيّن حالهم في أثناء مكابدة العذاب الدائم الذي هو النار، " وعلل شدة إيلامه بدوامه، ثم نفى خروجهم على وجه التأكيد، ولما كان المعذبون في دار ربما دام لهم المكث فيها، وانقطع منهم العذاب فقال: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) داء الإقامة لا يبرح ولا يتغير"[3]، قال السيوطي: " مناسب لقوله: (وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا)؛ لأنّ ذلك هو حقيقة الإقامة في العذاب"[4].

---

[1] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٨٨.
[2] المصدر السابق، ج ٣، ص٤٨٦.وانظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٨٨.
[3] البقاعي، **نظم الدرر** ، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٥٣. وإرادتهم الخروج تحتمل وجهين هما:
الأول: أنهم قصدوا ذلك وطلبوا المخرج منها، قال تعالى: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) (السجدة:٢٠)، وذلك إذا رفعتهم النار لقوتها إلى الأعلى تمنوا الخروج، والثاني: أنهم تمنوا ذلك وأرادوا بقلوبهم لقوله تعالى: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا) (المؤمنون:١٠٧). انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق،ج١١، ص٢٢٧-٢٢٨، والأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣،ص٤٨٨.
[4] السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص ٨٠٦

(وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝)

قال المراغي في مناسبتها لما قبلها: " لما بيّن الله سبحانه وتعالى عقاب المحاربين الذين يفسدون في الأرض، ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة، وأمر بتقوى الله، وابتغاء الوسيلة، والجهاد في سبيله؛ ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها خفية، وجمع في هذه الآيات بين الوازع الداخلي، وهو الإيمان والصلاح، والوازع الخارجي، وهو الخوف من العقاب والنكال"[1].

فالعلاقة بين المحاربة والسرقة أنّ في كليهما أكل الأموال الناس بالباطل، وحكم الفاعل في كليهما قطع يديه، يقول أبو حيان عن السرقة: " وهو أيضًا حرابة من حيث المعنى؛ لأنّ فيها سعيًا بالفساد، إلا أنّ تلك تكون على سبيل الشّوكة والظهور، والسرقة على سبيل الاختفاء والتستر"[2].

وهذا الجزاء بقصد الردع وعدم العودة إلى السرقة، ثم ختم الآية بقوله: (وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝)

وهذا حكم لا يصدر إلا عن عزيز؛ فيشرع ما يناسب الأحوال من العقوبات الرادعة، حكيم فلا يضع حدًّا إلا عن حكمة بالغة، فناسب الحالات التي تقام فيها الحدود، قال أبو حيان:" (عزيز) في شرع الردع، (حكيم) في إيجاب القطع، وقيل: (عزيز) في انتقامه من السارق وغيره من أهل المعصية، (حكيم) في فرائضه وحدوده"[3].

ولما ذكر تعالى تصرفه في أحكام المحاربين، والسّارقين،" نبّه أنّ ذلك تصرف في ملكه، وملكه لا معقب لحكمه، فيعذب من يشاء، وهم المخالفون لأمره، ويغفر لمن يشاء، وهم التائبون"[4].

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ

[1] المراغي، تفسير المراغي، مصدر سابق، ج٦، ص١١٣.
[2] الأندلسي، البحر المحيط ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٨٨.
[3] المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٥.
[4] المصدر السابق، ج ٣، ص٤٩٦.

لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾)

لما بيّن الله أحكام الحرابة والسرقة، وأنّ أهل الحرابة يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادًا، أمره الله ألا يحزن، ولا يهتم بأمر المنافقين، واليهود من تعنتهم وتربصهم به، وبمن معه الدوائر ونصبهم له حبائل المكروه، والإفساد في الأرض، ونصب المحاربة لله ولرسوله، وغير ذلك من الرذائل الصادرة عنهم[1].

فالآية خطاب للنبي ﷺ بصفة الرسالة، وهي توحي بما فيها من تبعات ومسؤوليات، وما إلى ذلك من الأمور، ثم بدأ السياق القرآني في تسليته عليه الصلاة والسلام، وتهوين أمر منافقي اليهود وأعمالهم؛ لأنّه تعالى سينصره عليهم، وسيكفيه شرهم، وأَمَرَهُ ألا يحزن لمسارعتهم في الكفر، وإظهار الكيد للإسلام وأهله؛ فقد حرّفوا تَوْرَاتَهم وبدّلوا أحكامها، فهم يقولون بأفواهم: نحن مؤمنون بالتوراة، وبموسى، وقلوبهم غير مؤمنة من حيث بدلوا وجحدوا ما فيها من نبوة محمد ﷺ وغير ذلك مما ينكرونه[2]، وصرّح بالطائفة السماعة، وليس بالطائفة التي تبدل التوراة على علم؛ وإنّ كان ما سيذكره عنهم لاحقًا يوحي بأنّ الطائفة السماعة هي أيضًا تحرف الكلم عن مواضعه.

ولما بيّن الله فضائحهم قال مؤكدًا: (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ) أي من رجس الكفر، وخبث الضلال؛ لانهماكهم فيهما، وإصرارهم عليهما، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية[3]، وكان من المناسب أنْ تكون الفاصلة حديثًا عن عقابهم في الدنيا والأخرة، أما في الدنيا فللمنافقين الفضيحة، وهتك الستر بظهور كذبهم بين المسلمين، ولليهود الذل والجزية وفضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نص التوراة[4]، وأما في الآخرة فالخلود في النار.

ثم انتقلت الآيات إلى صفات أحبارهم حين حكمهم بين الناس؛ فهم يسمعون الكلام ممن يكذب عندهم في دعواه، فيأتيهم برشوة فيأخذونها، فعلماؤهم وأحبارهم كانوا يحلّلون الحرام للناس بالرشوة، ويحكمون بالباطل لأجلها، وهم الذين حرّفوا التوراة فعليًّا، ونشروا التطبيق الخاطئ للشريعة لأجل مصلحتهم فقط، وعندما أرادوا الاحتكام عند النبي ﷺ، وكانوا لا يتحاكمون إليه إلا

---

[1] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٩٩.

[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٩٩.

[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٣.

[4] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق،ج ١١، ص٢٤٠، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق،ج ٦، ص٢١٩، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٣.

لطلب الأسهل والأخف، كالجلد مكان الرجم، فخيّره الله بين القبول والإعراض، فإنْ حكم فالحكم بالقسط وفق شرع الله، وإنْ أعرض فلن تضره عداوتهم [1].

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝)

هذا " تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أنّ الحكم منصوصٌ في كتابهم الذي يدّعون الإيمان به "[2]. وهذا يثير في النفس تساؤلاً عن سبب تحكيمهم الرسول ﷺ وهم لا يقبلون بحكمه، ويقول الرازي معللاً : " عدلوا عما يعتقدونه حكمًا حقًّا إلى ما يعتقدونه باطلاً؛ طلبًا للرخصة"[3]، فهم يعلمون أنّه ﷺ جاء بالتسهيل، فأرادوا أنْ يأخذوا به في حكم الرجم؛ ظنًّا منهم أنّه مختلف عن حكم التوراة، لكن الرسول ﷺ كشف لهم كذبهم في الحكم الذي يحكمون به أصلاً، وأنّه مخالف لما في التوراة، فهم لم يكونوا آمنوا بالتوراة ولا بالإسلام؛ فكيف يكون تحكيمهم صادقًا.

ويُستأنف الكلام لبيان علوّ شأن التوراة، ومدحها، والثناء عليها، فهي هدى ونور، يحكم بها النبيون والأحبار والفقهاء والعلماء من بني إسرائيل، وقد أودعها الله في حفظهم، ونهاهم عن تغيير أحكامها خشية الناس، أو رغبة بالمال والرشوة، كما أثنى على الحاكمين بها من الأنبياء، ومن يقتدي بهم، تنديدًا باليهود الذين أعرضوا عن الحكم بها، فالعمل بما في التوراة كان عهد الله على النبيين والربانيين والأحبار، إذ طلب الله منهم حفظ كتابه، والعمل به، وقد عملوا به إلى أنْ جاء من ضيّعها وحرّفها، وعمل بأهوائه ومصالحه، وبيّن أنّ من أعرض عن حكم الله المنزل في كتبه؛ فأولئك هم الكافرون، لأنّهم عرفوا هذه الأحكام ولم يعملوا بها.

وبين أنّ الحكم في التوراة موافق لما في القرآن، وذكر أنّ القصاص في التوراة يقوم على أنّ النفس بالنفس، والعين بالعين، والإذن بالإذن، والسن بالسن، ولما ذكر الجِراح جعل فيها

---

[1] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق،ج ١١، ص٢٤٢. الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص ٥٠١. الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص ١٤٠.
[2] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٠.
[3] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق،ج١١، ص٢٤٢.

مقاصّه؛ وخيّر بينه وبين العفو فقال: (فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ)، فالقصاص كفارة للجاني، والعفو كفارة للمتصدق، فكما غيّر اليهود حكم الزاني المحصن، كذلك غيّروا حكم القتل، وفي هذا تغيير لحكم الله، وهذا تسجيل لمخالفاتهم لأحكام التوراة[١].

وبعد أنْ ذكر نوعين راجعين إلى تحريفهم أحكام التوراة، أحدهما: ما حرّفوه، وترددوا فيه بعد أنّ حرّفوه، فشكّوا في آخر الأمر، والتجأوا إلى تحكيم الرسول، وثانيهما: ما حرّفوه وأعرضوا عن حكمه، ولم يتحرجوا منه، وهو إبطال حكم القصاص، قال تعالى محذرًا: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)؛ وفيه تحذير من مخالفة حكم الله، لينبّه على أنّ الترغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف بالحكم، وإبطال العمل به؛ لأنّ حكم القصاص شرع لحكم عظيمة، وإبطال الحكم بالقصاص يعطل هذه المصالح، وقد تغشى غباوة حكام بني إسرائيل على أفهامهم فجعلوا إبطال الحكم بمنزلة العفو، فهذا وجه إعادة التحذير عقب استحباب العفو[٢].

(وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾)

شرع الله في بيان أحكام الإنجيل، وأحوال النصارى، فذكر أنّه قفاهم بعيسى عليه السلام؛ تنبيهًا على أنّه من جملة الأنبياء، وتنويهًا باسمه، وتنزيهًا له عما يدعيه اليهود فيه، وأنّه من جملة مصدقي التوراة[٣]، وجاء ذلك لبيان نوع آخر من أنواع إعراض اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم، وهذا نوع ثالث: هو إعراضهم عن حكم الله بالكلية؛ وذلك بتكذيبهم لما جاء به عيسى عليه السلام[٤].

ثم تبع ذلك الأمر بالحكم بما في الإنجيل، وهو تمهيد لقوله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)، فهم لم يحرفوه، ولم يبدلوه، لكنهم عرفوه واختاروا غيره من الأحكام الوضعية، فسماهم الفاسقين، أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى[٥] . لذلك ناسب هنا ذكر الفسق

---

[١] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٠٥.
[٢] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢١٧.
[٣] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥١٠.
[٤] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢١٨.
[٥] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١١، الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ٣، ص٥١١.

لأنّه خرج عن أمر الله تعالى إذ تقدم قوله (وليحكم) وهو أمر، " فلما كانت الآية الأولى متعلقة بمخالفة الأحكام الاعتقادية ختمت بوصف الكفر، ولما كانت الآيتان متعلقتين بتغيير الأحكام الشرعية، ختمتا بوصفي الظلم والفسق"[١].

(وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾)

يقول المراغي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " إنّ الله سبحانه وتعالى لما بيّن إنزال التوراة، ثم الإنجيل على بني إسرائيل، وما فيهما من الهدى والنور، ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الانبياء محمد ﷺ، ومنزلته من الكتب قبل، وأنّ الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر[٢]. وكما قدّم أوصافًا للتوراة، وأخرى للإنجيل، ذكر هنا أوصافًا للقرآن بقوله: (مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)، فهذه أحوال القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، إذ هو مصدق محقق لبعضها، ومبطل ناسخ لأحكام أخرى وردت فيها، ثم قال مسببًا عن كل ما سبق: (فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ)، أي فاحكم بين اليهود بما أنزل الله، مما جاء في التوراة، ومما جاء في القرآن؛ لأنّه حكم واحد وشرع واحد، وهنا وصلت الآيات إلى المقصود من إرسال الرسول محمد ﷺ، وإنزال القرآن : ليبين أنّ القرآن جاء ناسخًا لما قبله، وأنّ مؤاخذة اليهود على ترك العمل بالتوراة والإنجيل مؤاخذة لهم بعملهم قبل مجيء الإسلام، وليعلمهم أنّهم لا يطمعون من محمد ﷺ بأنّ يحكم بينهم بغير ما شرعه الله في الإسلام؛ فالأمر المهم هو عمل الخير، وطاعة الله وإقامة شريعته، لأنّ المرجع والمصير إليه تعالى، وباجتماع الأمم، وباختلافها في الدنيا، اختتم الله الآية، أنّه سينبئ الجميع بما كانوا مختلفين فيه، من الشرائع والأحكام، أو من الحقوق التي بينهم.

---

١ السيوطي، قطف الأزهار، مصدر سابق، ص ٨١١.
٢ المراغي، تفسير المراغي، مصدر سابق، ج ٦، ص١٢٩.

(وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾)

يقول البقاعي في مناسبة الآية لما قبلها: " أعاد الأمر بالحكم سبحانه مصرحًا بذلك لذاته، لا لشيء آخر، ليكون الأمر به مؤكدًا غاية التأكيد مرتين: مرة لأنّ الله أمر به ، وأخرى لأنّه على وفق الحكمة، تأكيدًا له، وتنويهًا بعظيم شأنه، ومحذرًا من الأعداء فيما يلقونه من الشُّبَهِ للصد عنه"[1].

وأعاد الله تحذير رسوله ﷺ من اتباع أهوائهم، ومن مكرهم في فتنته عن الحكم بما أُنزل إليه، والمقصود من ذلك: " افتضاح مكرهم وتأييسهم مما أمّلوه لأنّ حذر النبي ﷺ لا يحتاج فيه إلى الأمر لعصمته من أنْ يخالف حكم الله"[2]. ثم يبين الله موقف اليهود من حكم رسول الله ﷺ، فإعراضهم عنه سيكون سبب العذاب والشقاء اللاحق بهم، ومن ثم ختم الآية بقوله تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ)، إذ كانت الآية مشتملة على الأمر بالحكم بما أنزل الله، وتجنب إدخال الرغبات والأهواء والمصالح في الحكم، وتوعد من أعرض عن الحكم بما شرعه الله.

ثم خاطب اليهود، لأنّهم أرادوا من النبي ﷺ أنْ يحكم بأهوائهم حكمًا من أحكام الجاهلية، التي لا تستند إلى كتاب ولا إلى شريعة،ولما كان موضع الآية الإنكار على الفاسقين الذين اختاروا أحكامًا وضعيّة على أحكام الله، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴿٥٣﴾)

لما بين عنادهم وعداوتهم لأهل هذا الدين التي حملتهم على هذا الأمر العظيم، نهى من اتّسم بالإيمان عن موالاتهم، وذلك بعد أنْ سمعوا ضلالات اليهود، ومحاولة تضليل المسلمين، فتهيأت

---

[1] البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٧٨.
[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٢٦.

نفوسهم لقبول هذا الأمر، ثم استأنف تعليل النهي عما سبق، والالتزام بذلك بكون بعضهم أولى وأجدر بولاية بعض، أي: " بولاية كل فريق منهم بعض أهل فريقه، لأنّ كل فريق منهم تتقارب أفراده في الأخلاق والأعمال فيسهل الوفاق بينهم وليس المعنى أنّ اليهود أولياء النصارى"[١]. لأنّ اليهود ليسوا أولياء للنصارى، كما أنّ النصارى ليسوا أولياء لليهود، بل إنّ فرق النصارى متباغضة وكذلك فرق اليهود، فموضوع الآية هو النهي عن موالاة اليهود والنصارى، وقيل هم المنافقون، وقيل: من أبى قول لا إله إلا الله، وقيل: من وضع الولاية في غير موضعها، وقيل: الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، يمنعهم الله ألطافه ويخذلهم مقتًا لهم"[٢]. والقولين الأخيرين يكمل بعضها الآخر؛ فمن يوالي الكفار يضع الولاية في غير موضعها.

وبيّن تعالى حالة من حالات موالاة المنافقين لليهود، أريد وصفها للنبي ﷺ، لأنّها وقعت في حضرته، وفي هذا ذم وتوبيخ شديدان لكل من والى اليهود أو النصارى، وحجتهم في ذلك قولهم: نخشى أنْ تصيبنا دائرة؛ تحوجهم إلى اليهود، وذلك ألا يتم أمر النبي ﷺ، يقول ابن عاشور: "ويحتمل أنْ يكون قولهم : (نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ) قولاً نفسيًّا، أي يقولون في أنفسهم، ويؤيده ما جاء بعده"[٣]، ثم قال تعالى: (فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ). أي: فعسى الله أنْ يأتي بالفتح لرسوله على أعدائه، وإظهار المسلمين على أعدائهم، أو أمر من عنده؛ يقطع أصل اليهود، أو يخرجهم من بلادهم، فيصبح اليهود نادمين على ما حدثوا به أنفسهم، ففضح الله سرائرهم، وأفصح عن مكنونات صدورهم.

وعندئذ يُتَعَجّبُ من حال المنافقين وأمثالهم، اغتباطًا بما منّ الله به عليهم من النصر، تحقيقًا لما جاء في الآية السابقة، فهذا الكلام من المؤمنين إذا جاء الفتح وحصلت ندامة المنافقين، وفضحهم الله فحينئذ يقول المؤمنين: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ)، وتحتمل الآية أنْ تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: (نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ)، أوعند ما فعلوا في حكاية بني قينقاع، فظهر فيها سرهم، وفهم عنهم أنّ تمسكهم إنّما هو إرصاد لله ولرسوله ، فمقتهم النبي والمؤمنون، وتركهم النبي لعبد الله بن أبيّ، رغبة في الصلح والألفة[٤].

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢٩.
[٢] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٠. الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٠.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٣٢.
[٤] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق،ج٢، ص٢٠٦، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**،مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٧.

ولما أظهر الله كذب المنافقين في أيمانهم التي أقسموها للمؤمنين بالنصر والتأييد، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ)؛ مبيّنة مآلهم ومصيرهم جراء كذبهم وخداعهم.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى دلالة هذه الآية الكريمة؛ فقد تكالبت عليهم الأمم كلها، ونفروا جميعًا لحرب الإسلام والمسلمين، ولكن الله ﷻ وعد بأنْ يتم نوره ولو كره المشركون، ولم يبق إلا أنْ يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، ويرد كيد الكافرين على أعقابهم، ويكتب النصر للمؤمنين، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾)

شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق، وهو إخبار بالغيب الذي وجده المسلون فيما بعد، وقد وعد بأنّ هذا الدين سيحمله وينشره أتباع بررة مخلصون: وفي " هذا الوعد إظهار الاستغناء عن الذين في قلوبهم مرض، وعن المنافقين، وقلة اكتراثه بهم، وتطمين الرسول ﷺ والمؤمنين بالحق، بأنّ الله يعوضهم بالمرتدين خيرًا منهم"[١].

وقد وصفهم بأوصاف عالية في رتب المدح؛ ومن وهبه الله هذه الصفات، ووفقه إلى هذه الطاعات؛ فمن فضله، يعطي من سعته التي ليس لها حدّ، وهو عليم بمن يستحق هذه العطايا من المخلصين، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) لكي تناسب الفضل ومن يؤتاه.

ولما نهى في الآيات المتقدمة عن موالاة الكفار؛ أمر في هذه الآية بموالاة من يحب موالاته، فأثبت الله الولاية لنفسه، وأثبتها لرسوله، وللمؤمنين، وبين الله صفات أوليائه بأبرز الصفات التي تميز المؤمن الحق عن غير المؤمن، ثم " أخبر تعالى أنّ من يتول الله ورسوله ﷺ والمؤمنين؛ فإنّه غالب كل من ناوأه، وجاءت العبارة عامة: (فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) اختصارًا؛ لأنّ المتولي هو من حزب الله، وحزب الله غالب، فهذا الذي تولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين غالب"[٢].

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٣٥.
[٢] ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٠٩.

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾)

أما وجه مناسبتها لما قبلها فهو: " أنّ الله سبحانه وتعالى لما نهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دونه، وبين العلّة في ذلك؛ فأرشد إلى أنّ بعضهم أولياء بعض، ولا يوالي المؤمنين منهم أحد، ولا يواليهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب، والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر، أعاد النهي هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء، مع بيان الوصف الذي لأجله كان النهي، وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً"[١]. ثم أمرهم الله بالتقوى التي تؤدي إلى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

ثم ذكر بعض ما يتخذونه من هذا الدين هزوًا ولعبًا، فاستهزؤوا بحكم خاص من أحكام الدين بعد استهزائهم بالدين كله، وهي الصلاة التي هي عمود الدين وما يتبعها من الأذان والإقامة. وبين سبحانه أنّ سبب صنيعهم هذا أنّهم لا يعقلون، إذ استهزاء أهل الكتاب والكفار بالصلاة، التي هي عمود الدين لأنّهم لا يدركون بعقولهم المحدودة قيمة الصلاة، وأهميتها، ومكانتها عند الله، يقول أبو حيان:" نفي العقل عنهم لما لم ينتفعوا به في الدين، واتخذوا دين الله هزوًا ولعبًا، فعل من لا عقل له"[٢]، لذلك ناسب أنْ تكون الفاصلة: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾).

(قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾)

يقول الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " إنّه تعالى لما حكى عنهم أنّهم اتخذوا دين

[١] المراغي، تفسير المراغي، مصدر سابق، ج ٦، ص١٤٥.
[٢] الأندلسي، البحر المحيط، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٢٧.

الإسلام هزوًا ولعبًا قال لهم: ما الذي تنقمون من هذا الدين، وما الذي تجدون يوجب اتخاذه هزوًا ولعبًا "[1]. إذ إنّهم بعد أنْ حرّف اليهود التوراة، وأخفوا بعض أحكامها، ونسوا بعضًا منها، وكذلك فعل النصارى بالإنجيل، جاءهم الإسلام، فأظهر ما فعلوا، وأظهر تلك الأحكام التي حرفوها، والتي نسوها، وهذا لم يعجبهم، فلم يستطيعوا تحريف القرآن، فهو محفوظ من عند الله تعالى، فقاموا بالتشكيك فيه، والسخرية منه، ليتأثر المسلمون، فيرتدوا؛ فلا يُسخر منهم لتحريفهم.

ولما كان موضوع الآية الإنكار على أهل الكتاب بسبب عداوتهم للمؤمنين، لأنّهم هم أنفسهم تمردوا، وطغوا، وضلوا عن الطريق، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَسِقُونَ).

ثم أخرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم بأنّ الدين شر، وهو ليس كذلك، فناسب الرد عليهم من اعتقادهم وكلامهم، وقد ذكر الله أنّه لعنهم وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغون. ثم استطرد في التّهكم بهم، فلما بيّن الله قبح صفاتهم، وسوء عاقبتهم؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: (أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ)، وهو تفضيل على غيرهم من الكفار؛ لمجيء البينات والرسل فيهم، مما زاد ضلالهم، وهذا يدل على عراقتهم في الشر والضلال.

ويخبر الله عن اليهود والمنافقين المعاصرين للنبي ﷺ، إذ كذّبهم الله في دعواهم الإيمان، فدخولهم إلى مجلس الرسول ﷺ بالكفر، وخروجهم بالكفر، لم تتغير سرائرهم بدخولهم وخروجهم على المؤمنين وهم كافرون، وإنْ قالوا آمنا؛ فناسب أنْ تكون الفاصلة إظهار علم الله بما في سرائرهم، يقول سيد قطب عن ذلك : " يقولها الله سبحانه لأنّها الحقيقة ثم لكي يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم يحفظهم من كيد عدوهم، وإحاطته علمًا بهذا الكيد المكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون"[2].

ولما كان كذبهم في دعوى الإيمان أقام سبحانه الدليل على كفرهم، فاستحقوا غاية الذم لأعمالهم السيئة، لذا ختم الآية بتحقيق هذه المذمّة، وهو قوله: (لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[3].

ثم ذمّ الله ﷻ علماءهم وأحبارهم، منكرًا عليهم سكوتهم عن النهي عن المعاصي، والأمر بالمعروف، وبيّن ما كان يجب على علماء اليهود وأحبارهم فعله، والنصيحة له، والنهي عن الأعمال السيئة، إذ يدل سكوتهم عنه على مشاركتهم فيه، ومطاوعتهم لهم فيه، وعبّر عن ترك الإنكار عليهم صناعة لهم، فهم لا يأبهون بالمنكر الحاصل حولهم، وهذا دأبهم وصناعتهم، وهذا أشد الذم، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ).

---

[1] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٣٦.
[2] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، م٢، ص٩٢٨.
[3] انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٩٥.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الرازي في مناسبتها لما قبلها: " لما بيّن أنّهم إنّما ينكرون نبوته بعد ظهور الدلائل على صحتها لأجل الحسد، ولأجل حب الجاه، والتبع، والمال، والسيادة، ثم إنّه تعالى بيّن أنّهم لما رجحوا الدنيا على الآخرة؛ لا جرم أنّ الله تعالى كما حرمهم سعادة الدين فكذلك حرمهم سعادة الدنيا؛ لأنّ كل فريق منهم بقي مصرًّا على مذهبه ومقالته، يبالغ في نصرته، ويطعن في كل ما سواه، فصار ذلك سببًا لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم"[١].

وهذا تصوير لتمرد اليهود، وبعدهم عن الحق، وتجرؤهم على الله تعالى، فإذا كان هذا قولهم وفعلهم مع الخالق؛ فكيف يكون المخلوق؟ ومنهم النبي محمد ﷺ؛ فأخبر تعالى عما جازاهم به على سبيل الدعاء عليهم، بعدم القدرة والعجز واللعن، فقال: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟)، جمع فيه بين جزائين، ثم أخبر عن نفسه فقال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ) فيزيد الرزق لمن يشاء، ويقدر على من يشاء، حسبما تقتضيه حكمته؛ ثم أخبر بما سيحصل بعد ظهور كل هذه الفضائح، فقال: (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا)، "وكما كان الإخبار باجتماع كلمتهم على شقاوة الكفر ربما أحدث خوفًا من كيدهم، نفى ذلك بقوله: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ) "[٢]، فالمراد وقوع العدواة والبغضاء بين فرق اليهود على حدة، وبين فرق النصارى على حدة، ثم بين اليهود والنصارى بشكل عام.

ثم أخبر عن أفعالهم في محاربة المسلمين، فهم يحاولون إشعال نار الفتنة بينهم، أو في معناه على الحقيقة إيقاد النار على جبل أو ربوة دلالة على الحرب - وهذا كان صنيع العرب - وإطفاؤها ترك الأمر، ومعناها على المجاز إظهار الحقد والكيد والمكر بالمؤمنين، وإطفاؤها أنّ الله صرفهم عن ذلك[٣]، ثم ذكر إفسادهم في الأرض بقوله: (وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا)، فكل أفعالهم في كيد الإسلام والمسلمين، وفي كل أعمالهم إفساد، فقال تعالى: (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ)، ولما

---

[١] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٤٨.
[٢] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٩٨.
[٣] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣٦.

كانت الآية تتحدث عن أعمال اليهود السيئة بالقول والفعل، وبيان عداوتهم للإسلام والمسلمين، والسعي في الإفساد في الأرض بالحرب، وبإشعال الفتن بين الناس، ناسب أنْ تأتي فاصلة للآية.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾)

وفي مناسبة الآية لما قبلها يرى الرازي: " أنّه تعالى لما بالغ في ذمهم، وفي تهجين طريقتهم، بيّن أنّهم لو آمنوا، واتقوا، لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا، أما سعادات الآخرة فهي محصورة في نوعين: أحدهما: رفع العقاب، والثاني: إيصال الثواب ، ثم بيّن أنّهم لو آمنوا لفازوا بسعادات الدنيا، ووجدا طيباتها وخيراتها"(١).

ولما تحدثت الآية عما يجدر بأهل الكتاب عمله، وبينت جزاءهم عليه بسعة الرزق، بينت أنّ هناك من يفعل ذلك والكثير لا يفعل، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾)

لما ذكر تعالى أنّ من أريدت سعادته آمن، ومن أريدت شقاوته كفر، ومن أقام ما أنزل الله سعد، ومن كفر بشيء منها شقي، أعاد الله خطاب رسوله ﷺ، فأمره ألا ينظر إلى كثرة الفاسقين، وقلّة المقتصدين، وألا يتوقف في شيء مخافة أحد، فهو مبلّغ عن ربه، والدليل على ذلك التعقيب بتطمينه ﷺ، وليس ببيان الوعيد أو ما شابه، فهذا يعني أنّ اليهود هم المقصودون بالآية، وليس هو عليه الصلاة والسلام، ثم علل تعالى عصمته لنبيّه بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ) أي لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك(٢). وهذا مناسب لما في الآية من الوعد بحفظه من الناس.

---

١ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق، ج ١٢، ص٤٩.

٢ انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٢٧١. ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢١٧-٢١٨.

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾)

أمر الله النبي ﷺ بأنْ يقول لأهل الكتاب هذا الكلام؛ وإنْ كان مما يشق عليه جدًا، إذ أمره بالتبليغ بشكل عام، ثم أمره أنْ يبلغ أهل الكتاب بما جاء في هذه الآية؛ فيحثهم على إقامة التوراة والإنجيل؛ لأنهما يدعوان إلى الإسلام، وإلى اتباع الرسول والتصديق به وبما أنزل إليه، وقد أُمر أهل الكتاب أنْ يجمعوا بين الكتب السماوية الثلاثة في إقامة الدين؛ لأنّ ما جاء في التوراة والإنجيل بشارة بالقرآن وبالنبي ﷺ، وهذا يدل أنّ الدين واحد.

ثم استأنف الله تعالى الإخبار عن موقفهم من طغيان وكفر بما جاء به الرسول ﷺ، فكفرهم وطغيانهم هو السبب في كشف قوارعهم، ومناوراتهم مع الرسول ﷺ، وتفنيد مزاعمهم وإظهار حسدهم له.

ولما كان موضوع الآية دعوة أهل الكتاب إلى إقامة ما أنزله الله في جميع الكتب السماوية، وبيان ازديادهم كفرًا وطغيانًا بما أنزل الله على نبيه، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)، وبالتالي مصيرهم في الآخرة إلى النار فلا تحزن عليهم لكفرهم، ولا لمصيرهم.

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾)

يقول الرازي في مناسبتها لما قبلها: " إنّه تعالى لما بيّن أنّ أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بيّن أنّ هذا الحكم عام في الكل، وأنّه لا يحصل لأحد فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحًا، ثم بيّن تعالى أنّ كل من أتى بهذا الإيمان وبهذا العمل، فإنّه يرد القيامة من غير خوف ولا حزن"[1]. وفي هذه الآية إخبار عن أهل الكتاب الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل عهد الرسول ﷺ، فإنّ ما جاء في التوراة والإنجيل أمر باتباع الرسول، والإيمان به، وهذا واجب الاعتقاد؛ حتى يكونوا من المؤمنين بالتوارة والإنجيل، فقد عرفوا خبر الرسول ﷺ، كما عرفه من جاء بعدهم.

وفيه أيضًا فتح لباب التوبة أمام أهل الكتاب وغيرهم من الملل، فمن سيؤمن منهم ويعمل الصالحات؛ سيكون جزاءه هكذا، وهو بذلك قد أخرج الذين آمنوا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم وهم

---

[1] الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، مصدر سابق، ج ١٢، ص٥٧.

المنافقون؛ لبقائهم على الوثنية في إنكار البعث، وقد ذكر اليهود، والصابئين[1]، فهؤلاء حالهم أكثر شناعة من حال اليهود، ثم النصارى، ضلوا عن عبادة الله بتأليه عيسى عليه السلام، فجميع هذه الفرق في أمر الترغيب في الآخرة، وفي الترهيب منها كذلك.

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ۝)

وهو استئناف في ذكر أحوال اليهود، ومدى جرأتهم على الله ورسوله ﷺ، والتعريض باليأس من إيمانهم، والتقبيح بصنيع أفعالهم مع رسل الله وأنبيائه[2]، وفيه إخبار للنبي ﷺ؛ بأنّهم سينقضون ميثاقهم، سواء مع الله، أو مع رسوله، أومع المسلمين؛ فهذا دأبهم، وديدنهم، وبهذا يُستبعد إيمانهم.

ثم أخبر الله تعالى عنهم بعد أنْ كذبوا الرسل، وقتلوا بعضًا منهم، عن تعمد وغرور، لا عن فلتة أو ثائرة نفس حتى يُنيبوا ويتوبوا، ثم أخبر الله عنهم بقوله: (فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ)، نتيجة لأعمالهم، وكُنّي بالعمى والصمم عن العصيان والإعراض عن دلائل الرشاد، والآية تعني أنّهم أصابتهم الفتنة بعد ذلك العصيان ثم تابوا، ثم عادوا إلى ضلالهم القديم، وعملهم الذميم، ولم يتوبوا فأصابتهم فتنة أخرى[3]، ثم قال تعالى: (وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ)، أي من القتل والتكذيب.

(لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ

---

[1] "وهم فرقة عبدت الأصنام متقربين بها إلى النجوم في استنزال الروحانيات؛ انهماكا في السّحر الذي جاء موسى عليه السلام بإبطاله"، انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٥٠٨.

[2] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق،ج١٢،ص٥٨، ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٠، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٠١.

[3] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٣، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٧٦-٢٧٧.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾)

يقول الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " اعلم أنّه تعالى لما استقصى الكلام مع اليهود، شرع ههنا في الكلام عن النصارى، فحكى عن فريق منهم أنّهم قالوا: إنّ الله هو المسيح ابن مريم، ثم حكى تعالى عن المسيح أنّه قال: اعبدوا الله ربي وربكم، وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، وذلك لأنّه عليه الصلاة والسلام لم يفرق بين نفسه وبين غيره في أنّ دلائل الحدوث ظاهرة عليه"[1]، وما قاله حجة على النصارى، والظاهر أنّ قوله تعالى: (إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)، من كلام عيسى عليه السلام، لأنّه داخل تحت القول، وتعليل لما قيل من قبل، وفيه أعظم ردع عن عبادته، أو عبادة من سواه [2].

ولما ذكر الله كفر من ادعى ألوهية عيسى عليه السلام، ودلّل على بطلان هذا القول من كلام عيسى عليه السلام نفسه، وبيّن أنّ من يشرك بالله فقد ظلم نفسه، وحرم عليه الجنة، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) ينقذهم من النار بسبب شركهم بالله.

ثم بدأ في بيان كفر طائفة أخرى من النصارى، وهي القائلة بالتثليث، حيث جعلوا الألوهية عددًا، وأرادوا أنّ الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، فجعلوا الله واحدًا من ثلاثة آلهة، وهناك من يقول: أب، وابن، وروح قدس ثلاثة أقانيم، وهؤلاء الثلاثة إله واحد، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وقالوا: إنّ الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى عليه السلام اختلاط الماء باللبن، وزعموا أنّ الأب إله، والإبن إله، والروح إله، والكل إله واحد[3]. وهذا معلوم البطلان بديهة بالعقل؛ لذلك قال تعالى: (وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ) فالثلاثة لا تكون واحدًا، وكذلك الواحد لا يكون ثلاثة؛ فحصر الألوهية في واحد ونفى التثليث، وبالتالي بطلت هذه العقيدة، وثبتت الوحدانية، ولما أخبر بكفرهم، وإبطال قولهم، قال مرهّبًا: (وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

ثم أعقب الوعيد بالترغيب في الهداية، فحث الفرقين على التوبة؛ فالله يغفر لمن تاب واستغفر، وجاءت الفاصلة: (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) لهذا الغرض.

---

[1] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٦٣.

[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٣، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٤.

[3] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٦٤، الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص ٥٤٤، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص ٢٨٢.

(مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾)

استئناف لبيان وصف المسيح نفسه، ووصف أمه، زيادة في إبطال معتقد النصارى إلهيّة المسيح وإلهيّة أمه، إذ قد عُلم أنّ قولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ)، أرادوا به إلهية المسيح، وذلك معتقد جميع النصارى، وفرّعت طائفة من النصارى على إلهيّة عيسى إلهيّة أمه، ولولا أنّ ذلك معتقدهم لما وقع التعرض لوصف مريم، ولا للاستدلال على بشريتها بأنّهما كانا يأكلان الطعام[1]. فأشار أولا إلى " أشرف مالهما في نعُوت الكمال التي بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس، وآخرًا إلى الوصف المشترك بينهما وبين جميع البشر"[2]، حيث وصفه الله تعالى بأسلوب القصر إنّه رسول، شأنه في ذلك شأن الرسل السابقين له، خصّه الله ببعض الآيات كما خصّهم.

ولما كانوا قد رفعوا من رتبة أمه إلى الألوهية أيضًا، بيّن ما هو الحق من شأنها، فوصفها بأنّها صدّيقة، " أي من النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، ويبالغن في الاتصاف به"[3]، "وَوَصْفُها بذلك نَفْيٌ أنْ يكون لها صفة أعلى من ذلك، وهي صفة الألوهية، لأنّ المقام لإبطال قول الذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة، إذ جعلوا مريم الأقنوم الثالث"[4].

ثم انتقل إلى ذكر الصفات المشيرة إلى بشريتهما، لأنّ المقام مقام بيان عن خروجهما عن رتبة الإلهية إلى رتبة البشرية، فبدأ بقوله: (وَأُمُّهُۥ)، وكل من كان له أم فقد وُجِدَ بعد أنْ لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا، ثم ثنّى بما يحتاج إليه البشر وهو الطعام، وهو احتياج لما يقوم به البدن من الغذاء، واختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة؛ لأنّها ظاهرة واضحة للناس، ولأنّها أثبتتها الأناجيل، فقد أثبتت أنّ مريم أكلت تمر النخلة حين مخاضها، وأنّ عيسى عليه السلام أكل مع الحوارين يوم الفصح خبزًا، وشرب خمرًا [5].

ثم استأنف للتعجيب من حال الذين ادعوا الإلهية لهما، فكان الانتقال من العجب من وضوح البيان، إلى أعجب منه، وهو انصرافهم عن هذا البيان مع وضوحه، لسوء استعدادهم، وانعدام تأثرهم برؤية الحق وتأمله، ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أنْ يبلغهم على سبيل التعجب كيف عبدوا شخصًا

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٨٥.
[2] أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٠٦.
[3] المصدر السابق نفسه.
[4] ابن عاشور،التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٨٥-٢٨٦.
[5] انظر: الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، مصدر سابق،ج ١٢، ص٦٥.ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦، ص٢٨٦.

من البشر، لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، كيف يتخذونه إلهًا ؟ وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى[1]، وهو هنا ينفي الصفات المتعلقة بالإله من النفع، والضر، والقدرة، والملك، فعيسى ﷺمساوٍ لهم في العجز وعدم القدرة، فلا يملك إيصال الخير لسائليه، ولا دفع السوء عنهم.

(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾)

يقول الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود، ثم تكلم ثانيًا على أباطيل النصارى، وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب"[2]. فأمر نبيه ﷺ أنْ ينهاهم عن مجاوزة الحدِّ في الدين الناتج عن اتباع الهوى على اختلافه، فاليهود أنزلوا رتبة عيسى ﷺ عن رتبة الرسالة، والنصارى رفعوه عنها، ثم نهاهم أنْ يتبعوا أسلافهم من اليهود والنصارى الذين أضلوا أنفسهم، وأضلوا غيرهم، ثم ضلوا عن الحق.

(لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾)

بيّن تعالى في هذه الآية جزاء بني إسرائيل وهو اللعن بسبب المعصية والاعتداء لا بسبب آخر؛ حيث مسخوا قردة وخنازير، حين اعتدى اليهود في السبت، وهو يوم راحة لهم لا يجوز لهم الكسب فيه؛ فصادوا السمك بحيلة، ولعن النصارى لمّا كفروا بعدما أكلوا من المائدة، وذمهم لكونهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، فهم مستمرون في المعصية، ومستمرون في انتفاء التناهي عن المنكر بينهم، فليس بينهم من يتولاه، بل لم يمتنع الممسك منه عن مواصلة العاصي

---

[1] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٦٦، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٦٣، ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٢٣.

[2] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)** ، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٦٧.

ومخالطته، وموقفهم هذا يجعل غيرهم يستمر على المنكر[1]، فناسب أنْ يكون وصف عملهم هذا بقوله: (لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ).

ولما وصف أسلافهم بما تقدم؛ وصف الحاضرين منهم بأنّهم يتولون الكفار وعبدة الأوثان، والمراد منهم كعب بن الأشـرف وأصحـابه حين استجاشوا المشركين على الرسول ﷺ"[2]، فالمقصود هم منافقو اليهود. ثم قال: (لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ)، أي أبد الآبدين، وهو ذم لهم، يقول أبو حيان: " لما ذكر ما قدّموا إلى الآخرة زادًا، وذمهم أبلغ الذم، ذكر ما صاروا إليه، وهو العذاب؛ وأنّهم خالدون فيه، وأنّه ثمرة سخط الله، كما أنّ السخط ثمرة العصيان"[3]، فناسب أنْ تختم الآية بهذه الفاصلة المعبرة عن الآية ومعانيها.

وحثهم على الإيمان والرجوع إلى الله بأسلوب الشرط؛ ولو كانوا مؤمنين ما اتخذواالمشركين أولياء، هذا إنْ كان المقصود بهم اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، وإنْ كان المقصود أسلافهم من اليهود فالنبي هو موسى ﷺ، وما أنزل إليه هو التوراة، يقول الرازي: " لأنّ تحريم ذلك متأكد في التوراة وفي شرع موسى ﷺ، فلما فعلوا ذلك ظهر أنّه ليس مرادهم تقرير دين موسى ﷺ، بل مرادهم الرياسة والجاه، فيسعون في تحصيله بأي طريق قدروا عليه، فلهذا وصفهم الله بالفسق"[4]؛ أي إنّ هؤلاء اليهود تولوا الكفار ضدّ النبي محمد ﷺ، ابتغاء الجاه والرياسة، وذلك محرم عندهم في التوراة. فلم يقيموا شريعة موسى ﷺ؛ فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ).

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝)

---

[1] انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، مصدر سابق، ج١٢، ص٦٨، البقاعي، **نظم الدرر**،مصدر سابق، ج٢، ص٥٢١.
[2] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص ٦٩.
[3] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٩.
[4] الرازي، التفسير الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٧٠.

بيّنت الآيات قبائح اليهود، وعراقتهم في الكفر، واجتماعهم مع المشركين على عداوة الإسلام والمسلمين، ثم ذكرت أنّ النصارى أَلْيَنُ عريكة من اليهود وأقربهم إليهم مودة، والمشركون تبعوا اليهود في ذلك، فالمشركون أشد في العداوة، إذ تباينوا هم والمسلمون في الشريعة لا في الجنس، فبينهم وشائج متصلة من القرابات والأنساب، فتعطفهم على كل حال الرحم بينهم وبين المسلمين، فهم أسرع للإيمان من كل أحد من اليهود والنصارى (1)، أما تفاوتهم مع النصارى؛ فيبيّنه الرازي بقوله: " إنّ اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا والدليل عليه قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ) (البقرة: ٩٦)، فقرنهم في الحرص بالمشركين المنكرين للمعاد، والحرص معدن الأخلاق الذميمة؛ لأنّ من كان حرصه على الدنيا، طرح الدين في طلب الدنيا، وأقدم على كل محظور ومنكر بطلب الدنيا، فلا جرم تشتد عداوته مع كل من نال مالاً وجاهًا، وأما النصارى فإنّهم في أكثر الأمر معرضون عن الدنيا، مقبلون على العبادة، وترك طلب الرياسة والتكبر والترفع، وكل من كان كذلك؛ فإنّه لا يحسد الناس، ولا يؤذيهم، ولا يخاصمهم، بل يكون ليّن العريكة في طلب الحق، سهل الانقياد له"(٢).

وفي قوله: (ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ) إنّهم لم يكونوا عريقين في الدين ولم يقوموا به حق القيام، ولم يقل النصارى، تعريضًا بصلابة الأولين في الكفر، والامتناع عن الانقياد، ولأنّ اليهود لما قيل ادخلوا الأرض المقدسة قالوا: (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ) (المائدة: ٢٤)، والنصارى لما قيل لهم من أنصاري إلى الله؟ قالوا: (قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ) (آل عمران: ٥٢)، وعلّل ذلك بأنّ منهم العلماء والزهاد الذين يريدون الآخرة على الدنيا، مهما كانت الأسباب فقال في خاتمة الآية: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) أي عن اتباع الحق والانقياد له، فوصف الله القسيسين والرهبان، من آمن منهم عند سماع آيات القرآن، بأنّ أعينهم تفيض من الدمع، بيانًا لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم لله، ومسارعتهم إلى قبول الحق، وعدم إبائهم إياه، والمراد النجاشي وأصحابه(٣)، بالإضافة إلى بكائهم، يقولون: (رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ)، يريد أمة محمد ﷺ، الذين يشهدون بالحق، أو مع كل من شهد من أنبيائك ومؤمني عبادك بألا إله غيرك.

---

[١] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص٥.
[٢] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج ١٢، ص٧٠.
[٣] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٧، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣١٢.

وأكدوا إيمانهم بقولهم: (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾) تحقيقًا لإيمانهم، وتقريرًا له؛ بإنكار سبب انتفائه ونفيه بالكلية"[1]، ويرى أبو حيان أنّ هذا من باب مكالمتهم لأنفسهم لدفع الوساوس والهواجس التي تعرض لهم، نتيجة لمفارقتهم دينهم السابق، أو على سبيل تثبيت أنفسهم على الدين، وربما على سبيل المحاجة لمن عارضهم من الكفار، إذ لاموهم على الإيمان فأجابوهم بذلك"[2]. ثم استأنف الإخبار عن طمعهم في إنعام الله عليهم في دخولهم مع الصالحين في الجنة، ثم ذكر جزاءهم وهو جنات تجري من تحتها الأنهار، والخلود فيها، وأثنى على ما صدر منهم، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ).

ثم ذكر حال الذين كفروا منهم وكذبوا بآيات الله وذكر أنّ مصيرهم النار، ويندرج في الذين كفروا وكذبوا: اليهود، والنصارى، وغيرهم من الذين فعلوا فعلهم، وقالوا قولهم، ممن خرج عن الدين، وهم بضد أولئك الذين آمنوا وصدّقوا.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾)

يقول أبو حيان في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " إنّه تعالى لما مدح النصارى بأنّ منهم قسيسين ورهبانًا، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ومستلزماتها، أوهم ذلك ترغيب المسلمين في مثل ذل التقشف والتبتل، بيّن تعالى أنّ الإسلام لا رهبانية فيه"[3]. وذلك لئلا يمنعوا أنفسهم من الشيء منع تحريم؛ بأنْ يقولوا حرمنا على أنفسنا؛ كذا مبالغة في العزم على التزهد، أو التزام تحريمها بيمين؛ لئلا يعودوا إلى سابق عهدهم من المتع المختلفة، وهذا تنبيهٌ من الله للمؤمنين على أنّ الثناء على الرهبان والقسيسين بما لهم من الفضائل، لا يقتضي اطراد الثناء على جميع أحوالهم الرهبانية، وإنما كان الثناء عليهم بعد أنْ دخلوا في الإسلام.

ولما أمر الله في هذه الآية الذين آمنوا باتباع شرعه فيما أحلّه، وفيما حرّمه، وخصّ النهي عن تحريم ما أحله الله، وجاءت الفاصلة: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ)، لأنّ هذه المخالفة اعتداء على

---

[1] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣١٢.
[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص٨، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٢.
[3] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص١٠.

شرع الله، فأمرهم بقوله: (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ) لتأكيد الأمر بالأكل بعد النهى عن الترك؛ ليجتمع على إباحة ذلك الأمر والنهي، ثم أكّد الوصية بالإيمان والتقوى.

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾)

قيل في مناسبة الآية لما قبلها: " إنّ الله سبحانه وتعالى لما نهى عن تحريم الطيبات، وعن الاعتداء فيها، وتجاوز الحدود؛ لأنّ قومًا من المسلمين تنسّكوا، وحرّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، وغيرها من الطيبات؛ تقربًا إلى الله، سألوا عما يصنعون بأَيْمَانِهم التي حلفوا عليها، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ جوابًا لهم عما سألوا"[1]. فالأيمان غالبًا ما تجري على اللسان، وقد قسمها الله إلى قسمين، مقصود وغير مقصود، فأما غير المقصود فلا اعتبار له، وأما المقصود فقسمان: حلف على ماضٍ وحلف على آتٍ، فأما الحلف على الماضي؛ فهو اليمين الغموس التي لا كفارة لها عند بعض العلماء، وأما الحلف على الآتي؛ فذكر حكمه هنا، ولما كان مطلق الحلف الذي منه اللغو يطلق على عقد اليمين؛ علم أنّ المؤاخذه إنّما هي بتعمد القلب، وهو المقصود بـ عقدتم الأيمان، أي بتوثيقها، وتوكيدها، وإحكامها، وذلك بالجمع بين اللسان والقلب، فلا يحل لكم الحنث فيها إلا بالكفارة، بخلاف اللغو فإنّه باللسان فقط، فلا عقد فيه فضلاً عن تعقيده[2].

ثم بين تعالى كفارة الأيمان المنعقدة فجعل الإطعام، أو الكسوة، أو تحرير رقبة، على التخيير، فمن لم يجد منها واحدًا، أو لم يستطع ذلك فصيام ثلاثة أيام، وبهذا تمت أشكال الكفارة، وأكد ضرورة حفظ الأَيْمان، وذلك بعدم الحنث بها ما لم تكن إثمًا، ولمّا تم هذا البيان قال تعالى: (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، أي تشكرون هذه النعمة؛ وهي نعمة تكفير الأيمان، وعدم المؤاخذة على يمين اللغو وعلى هذا جاءت الفاصلة متناسبة مع هذه المعاني، وهي قوله: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

---

[1] الشافعي، **تفسير حدائق الروح والريحان**، مصدر سابق، ج٨، ص٩.
[2] انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٣٢

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝)

لما أمر تعالى بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن تحريم ما أحله لهم، وكان المستطاب المستلذ عندهم الخمر والميسر، وكانوا يقولون الخمر تطرد الهموم، وتنشط النفس، وتشجع الجنان، وتبعث على المكارم، والميسر يحصل به تنمية المال، ولذة الغلبة، بيّن تعالى تحريم الخمر والميسر، لأنّ هذه اللذة يقارنها مفاسد عظيمة، ومن ثم صرّح بما اقتضاه السياق فقال: (فَٱجۡتَنِبُوهُ)، وسبّب عن هذا الاجتناب الفلاح فقال: (لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ).

ثم ذكر منها نوعين من المفسدة التي تقع من الشيطان بسبب الخمر والميسر، منها ما يتعلق بالدنيا، وهي العداوة والبغضاء، أما النوع الثاني من المفاسد فمتعلقة بالدين، وهو الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ولما بين تعالى اشتمال الخمر، والميسر على هذه المفاسد العظيمة في الدين والدنيا؛ قال: (فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ)، " إيذانًا بأنّ الأمر في الردع والمنع قد بلغ الغاية، وأنّ الأعذار قد انقطعت بالكلية، حتى إنّ العاقل إذا خلّى نفسه بعد ذلك؛ لا ينبغي أنْ يتوقف في الانتهاء"[1]. وأمرهم أنْ يكونوا مطيعين دائمًا، لأنّ طاعة الله ورسوله تعم ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وغيرها من وجوه الامتثال والاجتناب، كما أمر تعالى بالحذر من عاقبة المعصية، فليس على الرسول ﷺ شيء إنْ توليتم، وما عليه إلا التبليغ بما أمره الله، وبهذا انتهت الفاصلة.

(لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝)

هذه الآية توضيح لما عرض في الآية التي قبلها، إذ لمّا أحل الله الطيب، وحرم الخبيث ما لم يكن المرء مضطرًا إليه، ومن المسلمين من مات ولم يكن الخمر قد حُرِّم بعد؛ ومنهم من أتى هذه المحرمات قبل تحريمها، فبيّن تعالى أنّه لا يؤاخذه بما مضى إذا كان ممن يتبع شرع الله، ويتقيه، ويعمل الصالحات، وكان من المحسنين، فهم مكلفون بما أمرهم الله به من الإيمان، والعمل

[1] الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج ٧، ص١٧.

الصالح، والبعد عما يسخط الله من المحرمات، وأثنى على من كانوا على هذه الصفة، وحمد أحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان(١)، ولهذا جاءت الفاصلة: (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ).

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾)

لما أمرهم الله ألا يُحَرِّموا الطيبات، وأخرج من ذلك الخمر والميسر، وهما حرامان دائمًا، أخرج بعده من الطيبات ما حرم في حال دون حال؛ وهو الصيد، وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذّذ باقتناصه. يقول الشيخ الزُّحَيْلي: " ووجه النظم والربط بين الآيات أنّه تعالى لما قال: (لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ) (المائدة: ٨٧)، ثم استثنى الخمر والميسر من ذلك؛ فصارا من المحرمات، استثنى نوعًا آخر وهو صيد الإحرام، وبيّن جزاءه، فصار مستثنىً مما أحل الله، داخلا فيما حرمه "(٢).

وقد ابتلاهم الله في هذا الصيد حال الإحرام، وفي الحرم، وامتحنهم بصيد البر، وهو مُحَرَّم على من أحرم بحج أو عمرة، وهنا تظهر التقوى، فالله يخبر عن السبب في ذلك الابتلاء؛ وهو قوله: (لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ)، وذلك ليقيم الحجة عليهم، ليحذروا ويتجنبوا النسيان، فمن صاد وقع في المحظور، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، ثم بيّن الله جزاء القتل المتعمَّد للصيد حال الإحرام، فقال: (وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

---

١ انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٧.

٢ الزحيلي، **تفسير المنير**، مصدر سابق، م٤، ج٧، ص٥٢.

ٱلنَّعَمِ)، وذلك بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد بنوع من أنواع النعم[1]، وخيّر بين الكفارات بما يتفق مع الإمكانيات، وعلّل إيجاب الجزاء على الفاعل بقوله: (لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ)، أمّا ما كان قبل التحريم فقد عفا الله عنه، ومن رجع بعد ذلك فإنّ الله سينتقم منه، لأنّه انتهك حرمة الأحرام، وقد عقّب الله بتحليل صيد البحر في جميع الأحوال، فإنّ تحريم صيد البر مرتبط بحالة واحدة، إلا إنّ صيد البحر محلل في جميع الأحوال، وهذا من سعة لطف الله ورحمته بعباده؛ وعقب بالتقوى التي هي لازمة كل الأعمال، وخوّف من يوم القيامة، فناسب ذلك بقوله تعالى: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

(جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩)

يقول الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " إنّ الله تعالى حرّم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرِم، فبين أنّ الحَرَم كما أنّه سبب لأمن الوحش والطير، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة "[2]، وأضاف: " لما ذكر تعالى أنّه جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، ذكر بعده هذه الثلاثة؛ وهي الشهر الحرام، والهدي، والقلائد؛ لأنّ هذه الثلاثة إنّما صارت سببًا لقوام المعيشة؛ لانتسابها إلى البيت الحرام، فكان ذلك دليلاً على عظمة هذا البيت وغاية شرفه"[3]. وقد وقر في قلوب الناس تعظيمها؛ بحيث لا يقع فيها أذى لأحد في الوقت الذي كانت نيران الحرب مشتعلة فيما بينهم في الجاهلية، ثم ذكر الله علّة ذلك التعظيم في القلوب، فقال: (ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ)، فهو يعلم بالأمور الكائنة في السموات والأرض؛ ويعلم مصالحكم في دنياكم ودينكم.

ولما ذكر الله تعالى أنواع رحمته بعباده، ذكر أنّه شديد العقاب؛ لأنّ الإيمان لا يتم إلا بالرجاء والخوف، ثم ذكر عقيبه ما يدل على الرحمة، وهو كونه غفورًا رحيمًا، يقول الشيخ الشعراوي: "وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال؛ لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال، فصفة (شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) تتقابل مع صفتي (غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، لأنّ كل الناس ليسوا أخيارًا، وكل الناس ليسوا

[1] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٦، ص١٩٦، الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢١.
[2] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١٠٦.
[3] المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٠٨.

أشرارًا، لذلك جاء للأخيار منهم بما يناسبهم من المغفرة والرحمة، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب،"[١]؛ وهذا مناسب للآيات في ذكر من يطيع الله ﷻ في أحكام الإحرام والصيد، ومن يعصِ الله في ذلك.

ثم أخبر تعالى أنّه كلف رسوله بالتبليغ، وتوصيل الأحكام إلى أمته، وفيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به تعالى، وأنّ الرسول قد فَرِغَ مما وَجَبَ عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة، ولزمتكم الطاعة، فلا عذر لكم في التفريط [٢]. فليس على الرسول هداية أحد، ولا إيصال الثواب إليه، إنّما هو مُبَلِّغ من ربه، ولذلك؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ).

(قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾)

إنّ المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام، فالحرام خبيث، والحلال طيب، ولا يستوي الخبيث والطيب، ولو كانت كثرة الخبيث تعز وتعجب، " ولما زجر عن المعصية، ورغّب في الطاعة فقال: (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾)، ثم أتبعه بالتكليف وبالترغيب في الطاعة، والتنفير من المعصية بقوله: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾)، أتبعه بنوع آخر من الترغيب في الطاعة، والتنفير عن المعصية فقال: (قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ)[٣]، فبعد أنْ سَلَبَ الله العلم عن الجميع؛ وجعل ما على الرسول إلا البلاغ، وبيّن أنّ الناس فريقان: مطيعون وعصاة، أخبر عن الخبيث والطيب، وحذر من الخبيث مهما كانت كثرته، ومهما كان إقبال الناس عليه، وبيّن أنّ التمييز في ذلك إنّما يرجع إلى تقوى الله، وإعمال العقل في اتباع الحق، فناسب أنْ تنتهي بهذه الفاصلة: لأنّ فيها الأمر باتباع شرع الله؛ وفي ذلك الفلاح.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾)

---

[١] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦٦.
[٢] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٠، وانظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج ٢، ص ٣٢٤.
[٣] الرازي، التفسير الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٠٩-١١٠.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها كما يقول الرازي على وجوه؛ وهي[1]: أنّه لما قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ (المائدة:٩٩)، صار كأنّه قيل: ما بلّغه الرسول فخذوه، وكونوا منقادين له، وما لم يبلّغه فلا تسألوا عنه، ولا تخوضوا فيه، فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد من التكاليف ما يثقل عليكم.

والوجه الآخر هو أنّه لما قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ (المائدة:٩٩)، إنّ الكفار كانوا يطالبونه بعد ظهور المعجزات بمعجزات أُخر على سبيل التعنّت، وطلب الزيادة من باب التحكم، وربما لو ظهرت؛ فكل من خالف بعد ذلك استوجب العقاب في الدنيا، ثم إنّ المسلمين بعدما سمعوا الكفار يطالبون الرسول بالمعجزات؛ وقع في قلوبهم ميل إلى ظهورها، فعرفوا من هذه الآية أنّهم لا ينبغي لهم أنْ يطلبوا ذلك؛ فربما كان في ظهورها ما يسوءهم.

وذكر وجهًا ثالثًا وهو أنّ هذا متصل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ۝﴾، فاتركوا الأمورعلى ظواهرها، ولا تسألوا عن أحوال مخفية؛ إنْ تبد لكم تسؤكم[2].

ولما كان موضوع الآية النهي عن السؤال عن أمور لم يذكرها الله ﷻ، ولم ينزل بها الوحي؛ وقد عفا عنها ؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، يغفر الذنب ولا يؤاخذكم به.

وعلل ذلك بأنّ " غيرهم عرف أشياء وطلب أنْ يُعطَاها، إما بأنْ سأل غيره ذلك، وإما بأنْ شرعها؛ وسأل غيره أنْ يوافقه عليها، وهو قاطع بأنّها في غاية الحسن، فكانت سبب شقائه"[3]، وهو ما كان يسأله الأقوام أنبيائهم[4]، فأعطاهم الله ما سألوا، فصار وبالاً عليهم؛ وإنّما منعهم الله سؤال ما لم يكلفوا به؛ حتى لا يلتزموا به بعد ذلك وإلا كانوا كسابقيهم من الأقوام الكافرة.

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝﴾

[1] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١١١.

[2] وإلى ذلك ذهب الشيخ ابن عاشور، انظر: **التحرير والتنوير**، مصدر سابق ، ج٧، ص٦٥.

[3] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٥٠.

[4] كقوم صالح سالوا الناقة ثم عقروها، وقوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة فصار ذلك وبالاً عليهم، وبنو إسرائيل قالوا لنبي لهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ (البقرة:٢٤٦)؛ ولم يقاتلوا عندما جاءهم الملك إلا قليلاً منهم، وقوم عيسى سالوا المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ (المائدة:١١٢)؛ ثم كفروا بها.

يقول أبو حيان في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " إنّه تعالى لما نهى عن سؤال ما لم يأذن فيه، ولا كلفهم إياه منعًا من التزام أمور ليست مشروعة من الله تعالى، ولما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بأحكام الكعبة؟ بيّن تعالى أنّه لم يشرّع شيئًا منها، أو لما ذكر المحللات والمحرمات في الشرع، عاد إلى الكلام في المُحَلّلات والمُحَرَّمَات من غير شرع"[١].

فقد فرّق الله بين ما أحدثه أهل الجاهلية من نقائض الحنيفية، وبين ما نوّه به مما كانوا عليه من شعائر الحج، فإنّه لما بيّن أنّه جعل الكعبة قيامًا للناس، وكذلك الهدي والقلائد ؛ بيّن هنا أنّ أمورًا لم يجعلها الله، ولكن جعلها أهل الضلالة؛ فإنّ البحيرة وما عطف عليها تشبه الهدي في أنّها تحرر منافعها وذواتها حيّة لأصنامهم، كما تهدى الهدايا للكعبة مذكاة، فكانوا في الجاهلية يزعمون أنّ الله شرع لهم ذلك، فلا فرق عند العرب في الجاهلية بين الهدي والقلائد، وبين البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فهم سواء في التقرب إلى الله، وإنْ كان بعضها للكعبة، وبعضها للأصنام.

ولما كانوا قد حرّموا هذه الأشياء[٢]، وكان التحريم والتحليل من خواص الإله، وكان (لا إله إلا الله)، وكان حكمهم عليها بالحرمة، نسبة لذلك إلى الله سبحانه كذبًا، نفى الله أنْ يكون شرّع شيئًا من ذلك؛ فالرؤساء يفترون على الله الكذب يقولون: الله أمرنا بهذا وهم خاصة الناس، أما عامة الناس فهم الأتباع الذين اتبعوا هؤلاء المضلين، وفي هذا العمل افتراء وكذب على الله؛ لأنّه لم يشرع ذلك أصلاً، وفي هذا شرك وكفر، وفيه منع للانتفاع بها، كما أنّها تحتاج لمن يرعاها، فإذا تركت فهي عاجزة عن رعاية مصالحها بنفسها؛ فلا تجد مأوى ولا مرعى وربما عَدَتْ عليها السباع[٣]، وكذلك من اتبعهم لم يتفطن إلى أنّ ذلك ليس من الحكمة، وليس من المصلحة فاتبع سادته بلا تفكير، ولا تدبر، فناسب أنْ تكون الفاصلة (وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ).

---

[١] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٨.

[٢] **البحيرة**: كانت الناقة إذا أنجبت خمسة أبطن وكان آخرها ذكرًا، شقوا إذنها، وامتنعوا عن ركوبها وذبحها وسيبوها لآلهتهم، لا يجز وبرها، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع عن مرعى، ولا ينتفع بها.
السائبة: هي التي تسيّب حيث شاءت، وذكروا فيها وجوهًا: فقيل: إذا قدم الرجل من سفر، أو كان مريضا، أو نذر نذرًا، وشكر نعمة، سيّب بعيرًا؛ فكانت بمنزلة البحيرة في جميع ما حكموا بها. وقيل: إذا ولدت الناقة عشرة أبطن، كلهن إناث؛ سيبت لم تركب، ولم تحلب، ولم يجز لها وبر، ولم يشرب لبنها إلا ولد أو ضيف. وقيل: هي التي تعتق للأصنام، فيجئ بها إلى السدنة وهم خدم آلهتهم، فيطعمون من لبنها أبناء السبيل.
الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت خمسة أبطن أو سبعة، فالأخير إذا كان ذكرًا نبحوه لبيوت الطواغيت، وإذا كان أنثى استحيوها، فإذا ولدت ذكرًا أو أنثى استحيوهما جميعًا، وقالوا: وصلت أخاها فمنعته من الذبح.
الحام: وفيه وجوه، فقيل: هو الفحل إذا ركب ولد ولده أي لقحه، فيقولون حمى ظهره، أي حفظه عن الركوب فلا يركب، ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى إلى أن يموت، فحينئذ تأكله الرجال والنساء، وقيل: إذا نتجت الناقة عشرة أبطن قالوا حمت ظهرها، وقيل: هو الفحل يضرب في الإبل عشر سنين فيخلى، وقيل هو الفحل يولد من صلبة عشرة أبطن. وكان أول من بحّر البحيرة وسيب السائبة عمرو بن لُحيّ الخزاعي، وهو أول من غيّر دين إسماعيل عليه السلام، فاتخذ الأصنام، ونصب الأوثان، وشرع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فقال النبي ﷺ :" فلقد رأيته في النار يؤذي أهل النار بريح قصبة"، والقصب: الأمعاء. انظر: ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، ج٢، ص٢٤٧-٢٤٨، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١١٦-١١٧، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٢٨، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص٧٢-٧٤.

[٣] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١٢، ص١١٧.

ولما حرموا هذه الأشياء، اضطروا إلى تحليل الميتة، فحرموا الطيّب وأحلّوا الخبيث؛ ولما اتخذوه دينًا، واعتقدوه شرعًا، ومضى عليه أسلافهم، دعتهم الحظوظ والأنفة عن نسبة آبائهم إلى الضلال، والشهادة عليهم بالسّفه إلى الإصرار عليهم، وعدم الرجوع عنه بعد انكشاف قباحته، وبيان شناعته [١]، وهذا دليل على عدم عقلهم، وقد دعاهم الله تعالى إلى العمل بما أنزل من الأحكام المؤيدة بالبراهين، وإلى الرسول المبلغ لها، والمبين لمجملها، فرفضوا وقالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا، فهم لنا أئمة قادة مشرعون، ونحن لهم تبع [٢]، ولما كانوا عالِمين بأنّه ليس في آبائهم عالم، ومن تأمل عرف أنّ الجاهل لا يهتدي إلى شيء؛ من لا يعلم قد يشعر بجهله فيتعلم فيهتدي؛ فيصير أهلاً للإقتداء به، قال منكرًا وموبخًا: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، فرفضوا الهدى لكونه تسفيهًا لآبائهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول الرازي في مناسبة هذه الآية لما قبلها: " فكأنّه تعالى قال: إنّ هؤلاء الجُهَّال مع ما تقدم من أنواع المبالغة في الإعذار والإنذار، والترغيب والترهيب، لم ينتفعوا بشيء منه، بل بقوا مصرّين على جهلهم، مجدّين على جهالاتهم وضلالاتهم، فلا تبالوا أيها المؤمنون بجهالاتهم وضلالاتهم، بل كونوا منقادين لتكاليف الله، مطيعين لأوامره ونواهيه، فلا يضركم ضلالتهم وجهالاتهم "[٣]، ثم إنّ آباءهم بشر، والبشر يخطئون، وهم لا يعلمون علامَ استند آباؤهم في هذا التشريع، فأخبرهم الله أنّ الاعتماد الوحيد على ما أنزل الله على الرسول ﷺ، فهو مُرْسَل مُبَلِّغ عن ربه، ولا يأتي بشيء من أحد، أو من تلقاء نفسه، والله هو الإله، والإله لا يخطئ؛ بل له حكمة في كل الأمور التي تنفع البشر في دُنياهم وأُخراهم، فمن أحقّ أنْ يُتبع: البشر أم الإله ؟ لذلك وصفهم بالضلالة لاختيارهم البشر الضالين، الذين لم يصلوا أصلاً إلى مرتبة العلم والهداية.

---

[١] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٥٥٢- ٥٥٣.

[٢] انظر: الزحيلي، **التفسير المنير**، مصدر سابق، م٤، ج٧، ص٨٩.

[٣] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١١٨، وللاستزادة: انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٤١. البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٥٤.ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٦٧.

ولما كانت الآية تحثّ على طاعة الله، وفيها أنّ الضالين لن يضروهم في دينهم؛ إذا أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر؛ فلم يستجيبوا؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: (إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)، أي يوم القيامة، وكل فريق لا يُؤاخذ بذنب الفريق الثاني.

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾)

يقول المراغي في مناسبتها : " إنّه تعالى لما ذكر في الآية السابقة أنّ المرجع إليه بعد الموت، وأنّه لا بدّ من الحساب والجزاء يوم القيامة، أرشدنا إثر ذلك إلى الوصية قبل الموت، وأنّه تجب العناية بالإشهاد عليها؛ حتى لا تضيع على مستحقيها"[1]، وذلك للحفاظ عليها وإثبات ما فيها وتنفيذها. فانتقل من أمر الدين إلى أمور الدنيا، وهنا ظهرت مشروعية الوصية أو الإيصاء في السفر، وذلك تحقيقًا لإكمال الدين، وحفظ أموال المسلمين، واستقصاء ما يحتاجون إلى علمه.

ويجب أنْ يكون الشاهدان رجلين عَدْلَيْن، من المسلمين، فإنْ لم يجد فمن غير المسلمين، واشتُرط أنّ شهادة غير المسلم تكون في حال السفر، ولم يكن هناك مسلمون، على أنْ يحلفا بالله بعد الصلاة إنّهما صادقان، لم يكذبا، ولم يخونا، ولم يغيرا شيئًا من الوصية.

والصلاة المقصودة: إما بعد الظهر، أو بعد العصر؛ " وعدم تعيينها لتعيّنها عندهم بالتحليف بعدها، لأنّه وقت اجتماع الناس، ووقت تصادم ملائكة الله وملائكة النهار، ولأنّ جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب، وقيل: بعد أي صلاة كانت، لأنّها داعية إلى النطق بالصدق، وناهية عن الكذب والزور"[2].

---

[1] المراغي، **تفسير المراغي**، مصدر سابق، ج٧، ص٤٨.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٣١.

وإنْ تبيّن أنّهما كتما الشهادة، أو كَذَبا فيها، أو بدّلا من حقيقتها، بطلت شهادتهما، وذلك بظهور كذبهما، وإقامة الدليل عليه، ويأتي اثنان آخران للشهادة؛ لإثبات الوصية الحقيقية، وهذان الشاهدان أولى من الشاهدين القديمين؛ لكونهما من أهل الموصِي الذين استحقوا الوصية.

ولما كان موضوع الآية بيان الحكم الشرعي عند ظهور كذب الشاهدين ناسب أنْ تكون الفاصلة: (إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)؛ لأنّها تتعلق بالشاهدين الجديدين، وتناسب: (وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ) لأنّ الاعتداء ظلم[1]. والحكم السابق الذي ذكره الله في الشهادة وكيفيتها، الأقرب لإيتاء الشهادة على وجهها، والبعد عن الحلف الكاذب؛ لئلا يفتضح أمرهم بين الناس، كما حذرهم من مخالفة حكم الله وعقابه في خيانة الأمانات، وأمرهم بطاعته، وجاءت الفاصلة: (وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)، "إشارة إلى من حرّف الشهادة أنّه فاسق خارج عن طاعة الله، فالله لا يهديه إلا إذا تاب، فاللفظ عام والمعنى اشتراط انتفاء التوبة"[2].

(يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾)

يقول الشيخ وهبة الزحيلي: " بعد أنْ أمر الله بالتقوى، وحذّر من إخفاء شيء من الوصية أو غيرها، أعقب ذلك بالتحذير من الحساب يوم القيامة؛ أي اتقوا الله، واذكروا دائمًا يوم يجمع الله الرسل. وعادة القرآن أنّه إذا ذكر أنواعًا كثيرة من الشرائع والأحكام والتكاليف - كما ذكر هنا - أتبعها إما بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال يوم القيامة ليؤكد ما تقدم، وهنا أتبع الشرائع بوصف أحوال القيامة، ثم ذكر في الآية بعدها أحوال عيسى عليه السلام "[3].

وأضاف ابن عاشور: " لما تم الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين، ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى، فإنّ الأديان وصايا الله إلى خلقه"[4].

فالسياق لا زال في الاستشهاد على الوصايا؛ إلا أنّه كان فيما بين الناس بعضهم لبعض، وانتقل لمشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة حيث يشهد الرسل على أقوامهم.

وفي قولهم: (إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ) من الأدب الجمّ إذ " محوا أنفسهم من ديوان العلم بالكلية؛ لأنّ كل علم يتلاشى إذا نسب إلى علمه، ويضمحل مهما قرن بصفته أو اسمه "[5]، ولما

---

[1] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص ٥١.
[2] المصدر السابق، ج٤، ص ٥٢. وانظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٢٨.
[3] الزحيلي، **التفسير المنير**، مصدر سابق، م٤، ج٧، ص١١٠
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٩٨.
[5] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٦٢.

كانت الآية تذكر ما يحدث في مشهد العرض يوم القيامة، وسؤال الأنبياء على تبليغهم، وإجابتهم بنفي العلم مقابل علم الله، ناسب أنْ تكون الفاصلة كذلك لإفراد الله بالعلم بالمطلق.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وفي مشهد يوم القيامة هذا، يناقش الله الموصي والموصَوْن بالوصية التي هي في الأساس عبادة الله وحده، وفي أثنائها تُذكر المعجزات التي سيّرها الله، وأمضاها على يد نبيّه عيسى عليه السلام، والتي اعترف بها قومه كمعجزات ونعم منَّ الله بها عليهم؛ فذكر في هذه الآية ثماني نِعَم، وسيتبعها بالنعمة التاسعة، وهي أنّه أوحى للحواريين أنْ يؤمنوا بعيسى عليه السلام، ويتّبعوه، إنّما ذكر هذا في معرض تعديد النعم؛ لأنّ صيرورة الإنسان مقبول القول عن الناس، محبوبًا في قلوبهم، من أعظم نعم الله على الإنسان، وذكر تعالى أنّه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم؛ آمنوا وأسلموا "[1]. ثم أتبعها بالنعمة العاشرة؛ وهي إنزال المائدة من السماء؛ علامة على قدرة الله، وتصديقا لنبوّته عليه السلام، فهذه النِّعَم توجب الاعتراف للمنعم بالفضل، وتوجب له العبادة الخالصة، فهل يمكن أنْ يقول عيسى عليه السلام لقومه: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ فكل واحدة من هذه النعم تدل على أنّه عبد لله، وأنّه بشر لا يملك لنفسه شيئًا. ثم ذكر موقف الذين كفروا من هذه النعم والمعجزات، فقال الله على لسانهم: (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)، وهي مناسبة لما سبق من ذكر النعم والمعجزات العجيبة وتكذيب الكافرين بها.

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ

[1] الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، مصدر سابق، ج١٢، ص١٣٦.

ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

ترى الباحثة أنّ ذكر النعم التي أعطاها الله تعالى لعيسى عليه السلام سيكون في الآخرة، وإنْ حصلت هذه النعم في الدنيا، وكذلك نزول المائدة نعمة من الله كذلك؛ وفي سرد أحداثها تذكير بالعهد الذي قطعه الحواريون على أنفسهم، وموافقتهم على نزول العذاب على من يخالف العهد من أولهم لآخرهم؛ لأنّ كل من هذه الأحداث شهادة عيسى عليه السلام على قومه، وعلى بني إسرائيل عامة، إذ جاءهم بالبينات فكفروا، وإنْ آمنت طائفة هي الحواريون؛ فكفر بعضهم بعد نزول المائدة، وكل أولئك يحتاجون إلى شهادة من يشهد ضد أقوالهم، فجاء الخطاب بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنّ الحواريين كانوا مؤمنين، ولم يشكوا في قدرة الله تعالى[1]؛ لذا قالوا مبررين طلبهم لعيسى عليه السلام بأربعة أسباب، وهي قولهم: (نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾).

ولما كان موضوع الآية ذكر ما دار بين عيسى عليه السلام وبين الحواريين بخصوص طلب معجزة وآية جديدة من السماء، وهي المائدة، ذكّرهم عيسى عليه السلام بالله، ودعاهم إلى تقواه، وترك ما أرادوا من استحضار المعجزة، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، تذكيرًا لهم بإيمانهم الذي اشهدوه عليه في الآية السابقة، ومعناه الالتزام بما يؤمرون به.

وقد " أمرهم عيسى عليه السلام بتقوى الله، منكرًا عليهم ما تقدم من كلامهم، فصرّحوا بسبب طلب المائدة، وأنّهم يريدون الأكل منها، وذلك للشرف، لا للشبع، واطمئنان قلوبهم بسكوت الكفر إذا عاينوا هذا المعجز العظيم النازل من السماء وعلم الضرورة والمشاهدة بصدقه"[2]؛ ليشهدوا لله بالواحدانية ولعيسى عليه السلام بالنبوة؛ فأجابهم عيسى عليه السلام لِما طلبوا لَما رأى أنّ لهم غرضًا صحيحًا في ذلك؛ ليلزمهم الحجة، ويُرسل عليهم العذاب إذا خالفوا، ثم دعا الله تعالى بالرزق؛ فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ).

---

[1] انظر: ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٩.
[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص ٥٩.

فأجابه الله فقال: (إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ)، وهذا السياق مشعرٌ بأنّه سيحصل منهم كفر، لذلك أتبعه بقوله: (فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ)؛ وفي هذا الأمر ما هو زاجر لهذه الأمة عن اقتراح الآيات(١)، فناسب أنْ تكون الفاصلة بهذا التهديد الشديد.

(وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾)

بعد أنْ ذكر الله ما أنعم على عيسى عليه السلام من النعم التي آخرها إنزال المائدة من السماء؛ توبيخًا لقومه وتقريعًا لهم، وإقامةً للحجة عليهم في رسالته؛ ليصل إلى مغزى ذلك؛ وهو تأليه عيسى عليه السلام، فأراد تعالى أنْ يبيّن أنّ عيسى عليه السلام سيتبرأ منهم، ومن قولهم يوم القيامة، فصوّر ما سيحصل من خلال قوله: (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ)، وتذكر الآيات الرد الذي صدر عن عيسى عليه السلام عند سماع هذه الإدعاء ينزّه فيه الله، حيث نفى نفيًا يعضده دليل العقل فقال: (مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ)، فيمتنع عقلاً إدعاء بشر مُحْدَثٍ الإلهية، فإنْ لم يكن هو قائل ذلك؛ فلا عذر لمن قاله؛ لأنّهم زعموا أنّهم يتبعون أقوال عيسى وتعاليمه(٢).

أما ما تضمّنته المحاورة التي جرت بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام، وجوابه مع الله تعالى لما قرع سمعه ما لا يمكن أنْ يكون؛ فقد نزّه الله تعالى وبرّأه من السوء، ومن أنْ يكون له شريك، ثم أخبر عن نفسه أنّه لا يمكن أنْ يقول ما ليس له بحق، ثم تبرأ تبرؤًا ثالثا؛ وهو إحالة ذلك على علمه تعالى، وتفويض ذلك إليه، وعيسى عليه السلام يعلم أنّه ما قاله، ثم لمّا أحال على العلم؛ أثبت علم الله به، ونفى علمه بما هو لله، ثم علل ذلك بأنّه تعالى مستأثر بعلم الغيب"(٣).

---

١ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٧١.
٢ انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص ٦٣. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١٣.
٣ انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج٤، ص ٦٥.

ولما كان موضوع الآية إقرار عيسى عليه السلام بالدعوة إلى الله وحده لا شريك له وعبادته له، تبرأ من قومه من بعده، ومن ادعائهم الألوهيّة له ولأمه، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، مبينة أنّ الله مطّلع على الناس، مراقب لأحوالهم.

ثم لما كان هذا الذي سلف كله سؤالاً وجوابًا وإخبارًا؛ من حَمْدِ الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله بالتنزيه له، والاعتراف بحقه، والإشادة له بعلم الخفايا، والقدرة، والحكمة، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال، وكان هذا السؤال يفهم إرادة التعذيب للمسؤول عنهم، مشيرًا إلى الشفاعة فيهم على وجه الحمد لله سبحانه وتعالى، والثناء الجميل عليه، لأنّ العذاب ولو للمطيع عدل، والعفو عن العاصي بأي ذنب كان فضلاً مطلقًا، وغفران الذنب ليس ممتنعًا بالذات قال:(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ)، أي: فأنت جدير بأنْ ترحمهم، ولا اعتراض عليك في عذابهم؛ لأنّ كل حكمك عدل، (وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)"(١)، وهنا تفويض لأمرهم إلى الله تعالى إنْ شاء عذبهم، وإنْ شاء عفا عنهم.

وقال الزركشي عن هذه الفاصلة: " إنّها مُشكلة؛ لأنّ قوله: (وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ)؛ يوهم بأنّ الفاصلة: (الغفور الرحيم)، وإذا أمعنا النظر في التلاوة؛ نجد أنّه لا يَغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه؛ فهو العزيز؛ لأنّ العزيز هو الغالب، ووجب أنْ يوصف بالحكيم؛ لأنّ الحكيم من يضع الشيء في محله، والله تعالى كذلك، إلا أنّه قد يخفى وجه الحكمة، أي وإنْ تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب؛ فلا معترض عليك لأحد، والحكمة فيما تفعله، ولا يجوز الغفور الرحيم؛ لأنّ الله قطع العذاب في قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ) (النساء: ٤٨، ١١٦)، وقيل: لأنّه مقام تَبَرٍّ؛ فلم يذكر الصفة المقتضية استمطار العفو لهم، ولو قيل: (الغفور الرحيم) لأوهم الدعاء بالمغفرة، ولا يسوغ الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه"(٢).

(قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾)

---

١ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٧٦.
٢ انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٩-٩٠.

يقول أبو السعود في مناسبة الآية لما قبلها: " كلام مستأنف ختم به حكاية ما حُكيَ مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأُشير إلى نتيجته ومآله، أي يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام، مشيرًا إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذي هو في زمرتهم"[١]. وبعد أنْ أجاب عيسى عليه السلام في ذلك الموقف المهيب، تشوّق السامع إلى جواب الله له، ومعرفة مصير أولئك المدّعين الألوهية لعيسى عليه السلام وأمه، فجاء الجواب عامًّا شاملاً للجميع، فقال تعالى: (هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ)، فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله، وكلما كان أتقى كان أدخل فيها.

ولما بيّن الله عاقبة الصادقين المؤمنين، وبيّن جزاءهم في الآخرة، ناسب أنْ تكون الفاصلة: (ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) معبرة عن حسن ثوابهم، " ولما كان هذا الذي أباحه لهم، وأباحهم إياه؛ لا يكون إلا بأسباب لا تسعها العقول، ولا تكتنه بفروع ولا أصول، علّل إعطاءه إياه وسهولته لديه قوله مشيرًا إلى أنّ كل ما ادُّعِيَت فيه الإلهية - مما تقدم في هذه السورة وغيرها - بعيد عن ذلك، لأنّه ملكه، وفي ملكه، وتحت قهره"[٢]؛ فادعاء الألوهية للمسيح وأمه؛ تعنى أنّهما مالكين للقدرة، فأفرد الله ذلك لنفسه، وأعلن الملكية المطلقة له لما في السماوات والأرض وما فيهن، فهذه الجملة جمعت عبودية كل الموجودات لله تعالى، وتضمنت أنّ جميعها في تصرّفه تعالى، فناسب ما تقدم من جزاء الصادقين، وفيها معنى التفويض لله تعالى في كل ما ينزل، وبين أنّ هذه الملكية تتبعها القدرة في التصرف في شؤونها، فناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

وعن خاتمة السورة نقول ما قاله السيوطي: " وخواتيم السور مثل الفواتح في الحسن، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفوس تشوُّف إلى ما يُذكر بعد، لأنّها بين أدعية، ووصايا، وفرائض، وتحميد، وتهليل، ومواعظ، ووعد، ووعيد، إلى غير ذلك"[٣]، وبيّن خاتمة السورة فقال: " كالتبجيل والتعظيم الذي ختمت به المائدة"[٤].

ويصف الشيخ محمد عبد الله دراز اتصال السورة وترابطها، فيقول: " إنّك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة؛ يحسبها الجاهل أضغاثًا من المعاني حُشِيت حشوًا، وأوزاعًا من المباني جمعت عفوًا، فإذا هي - لو تدبرت - بنية متماسكة، قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول، وأُقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتدّ من كل شعبة منها فروع تقصر وتطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضع رسمه مرة واحدة؛ فلا تحس

---

١ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٤٥.
٢ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٧٧.
٣ السيوطي، **معترك الأقران**، مصدر سابق، ج١، ص٧٥.
٤ المصدر السابق نفسه.

بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام، كل ذلك من غير تكلف، ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنّما هو: حسن السياق، ولطف التمهيد في مطلع كل غرض، ومقطعه، وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفًا"[1].

وهذا ما نجده في السورة، فالبحث عن المناسبة بين الآيات يدخلنا في صميم الدرس اللغوي لآليّات النص، والنص في هذا العلم هو شاهد ذاته، لا يعتمد على شواهد من خارجه؛ وهو الذي يؤسس معايير علاقته، بناءً على طبيعة تركيبه اللغوي؛ أي المناسبة في المستوى الوظيفي للألفاظ، ويكون في حسن الاختيار، والمناسبة في المستوى التركيبيّ ويكون في بناء الجملة؛ من حيث التقديم والتأخير، والمناسبة في المستوى الأسلوبيّ؛ ويكون في عرض الموضوع من حيث الإيجاز والإطناب، والمناسبة في المستوى الدلاليّ، ويكون في عرض الموضوع بما يناسب مقتضى الحال.

المبحث الثالث: المناسبة بين أول السورة وآخرها

تتشكل السورة القرآنية من مقاطع متوالية؛ يرتبط بعضها ببعض بتناسق عجيب، بحيث تتشكل من خلالها وحدة السورة، وما أجمل ما قاله الدكتور عبد الله دراز في وصف هذا الترابط: " لماذا نقول: إنّ هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنّها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشترك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضويّة"[2]؛ فالسورة تلتقي بموضوعاتها المتنوعة، بحيث يكون بعضها جزءًا من بعض، وقد يكون متممًا للبعض الآخر، أو مفصّلاً له، وهي في ذلك كله مترابطة متعانقة، لا نلحظ فيها تكرارًا، أو إطالة، تتآزر جزئياتها للوصول إلى الغرض المقصود، وفي ضرورة النظر والربط بين أول السورة وآخرها يقول الشاطبي: "والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيهما، لا ينظر في أولها دون

---

[1] دراز، محمد عبد الله (١٩٨٥)، **النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن**، د.ط، ص ١٥٤- ١٥٥، دار الثقافة، الدوحة.
[2] المصدر السابق، ص١٥٥.

آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإنّ القضية وإنْ اشتملت على جمل؛ فبعضها متعلق بالبعض؛ لأنّها قضيةٌ واحدةٌ نازلةٌ في شيءٍ واحدٍ، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرّق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار على بعض أجزاء الكلام دون بعض"[1]؛ فالسورة تناقش أغراضًا مرتبطة؛ لا بد من ملاحظتها وفهمها من خلال الربط بين آياتها.

وسأقوم بدراسة الموضوعات المنتشرة في أول السورة وآخرها، والتي ترتبط فيما بينها بروابط تخفى تارة، وتظهر تارة أخرى، وذلك كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: " اعمد إلى سورة السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقّل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بُدئت؟ وكيف خُتمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطّأت أولاها لأخراها؟"[2].

ومن هذه الموضوعات:

١. الوفاء بالعقود:

بُدِئت سورة المائدة بالأمر بإيفاء العقود، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ①)، ويشمل ذلك التزام حدود الله فيما شرع من حلال وحرام، وفيما سنّه من أحكام تتعلق بأمور دنياهم؛ في المطعم والمشرب والمنكح، والمعاملات فيما بينهم فتدخل فيها الحقوق، والمعاهدات، وإقامة الحدود، وما إلى ذلك، فهي تتنقل بين عهدي الربوبيّة والعبوديّة، بين حقّ الله على الناس، وحقّ الناس على الله، وبيان جزائهم على ذلك، ويأتي ختام السورة مراجعة للعقود في يوم القيامة، يقول تعالى: (يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ⑩⑨)، وآخر السورة مرتبط أيضًا بأولها في قوله تعالى: (هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ①①⑨)، فالذين يصدقون هم الذين يوفون بالعهود، وهم المؤمنون الذين خاطبهم الله في أول السورة، ويذكر مثلاً على تبرؤ نبيّ من نقض قومه لعهود الله، وهو عيسى عليه السلام، إذ يتبرأ من الذين ضلّوا من النصارى، ولا شك أنّ ذلك ينطبق على جميع الأنبياء، " وأنْ تختم السورة التي تربي على الوفاء بالعهود، ووصل ما أمر الله به أنْ يوصل، والإصلاح في الأرض بهذه الخاتمة التي ترينا هول المقام يوم القيامة، وشدة التدقيق

---

[1] الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد (١٣٤١هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، ج٣، ص٤١٧، المطبعة السلفية، مصر.
[2] دراز، **النبأ العظيم**، مصدر سابق، ص ١٥٤.

حتى مع الرسل عليهم الصلاة والسلام، فذلك واضح الدلالة على أنّ ما طولبتم به أيها الناس أنتم محاسبون عليه؛ فخذوا الأمر بمنتهى القوة"[1].

٢. أحكام الحلال والحرام:

أما في الحلال والحرام من المطاعم والمشارب؛ فيقول السيوطي:" وفي أولها إحلال بهيمة الأنعام، وفي أخرها النعي على من حرّم منها ما لم يحرمه الله"[2]، فقد بدأ الله بذكر ما يحل وما يحرم من الأطعمه في أول السورة فقال: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۝١)، فشملت جميع الأنعام، باستثناء ذوات الأنياب والحافر، والأنعام هذه منها المصيد، ومنها غير المصيد، فأحلها الله جميعها في حال الإحلال، وحرم المصيد منها في حال الإحرام.

وقال كذلك: (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ ۝٤).فهو متصل أيضًا بذكر المطاعم والمآكل، وهو تحليل بشكل عام؛ ثم خصَّ منها صيد الجوارح المعلمة من الطير والسباع، إذْ كانوا يصيدون بالكلاب وبالطيور، كالصقر، والبازي، والباشق، والعقاب، فما صِيد يحل أكله بشرط التسمية عند اطلاقه، كما أُحلّ طعام أهل الكتاب في قوله: (ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ ۝٥)، واستثنى منها حالات معيّنة فقال: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ۝٣)، فالميتة حرام، وكل ميت بسبب من الأسباب التي تميت الحيوان، والصيد الذي أكله السبع كذلك؛ ولحم الخنزير سواء أكان مذبوحًا أو ميتًا، لأنّه محرم لذاته، ومثله الدم، وما ذبح على النصب تقربًا للآلهة، وكذلك ما ذكر اسم غير الله عليه عند ذبحه؛ وقد استثنى في حالة الاضطرار أكل القليل من هذه المحرمات للحفاظ على الحياة، فقال: (فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣)، وفي آخر السورة قال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ۝٨٧)، فنهى عن تحريم المباح وهو الذي حلّله من قبل،

---

[1] حوّى، سعيد،(١٩٨٥)، **الأساس في التفسير**، ط١، ج ٣، ص١٥٤٢، دار السلام.

[2] السيوطي، جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن، **علم المناسبات في السور والآيات ويليه: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع**، (تحقيق: محمد بن عمر بن سالم بازمول)، ص١٢٩، المكتبة المكية.

وقال: (وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴿٨٨﴾)، فخصّ الحلال الطيب بالتحليل، وإذا كان الله قد أحلّ الأنعام كلها، فهناك فئة منها حرّمها العرب في الجاهلية بلا سبب سوى التقرب لأصنامهم، فنفى الله تحريمها وأحلها بقوله: (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴿١٠٣﴾)، وذكر تحليل صيد البحر في آخرها فقال: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴿٩٦﴾)، وهذا التحليل للمُحْرِم ولغير المُحْرِم، ثم أعاد الحديث عن صيد البرّ للمُحْرِم فقال: (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴿٩٦﴾)، فذكر تحريم صيد البرّ على المُحْرِم حال الإحرام سواء بالحج أو العمرة، أو بكون المرء في أرض الحَرَم؛ ويزول الحكم بزوال ذلك، وفي موضع آخر كذلك قال: (لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴿٩٥﴾)، لتحريم أكل المصيد للمُحْرِم، فلا يوجد داعٍ لصيده.

ومن الطعام المحرم كذلك الطعام الذي يؤخذ بالميسر وبالاستقسام بالأزلام، ذكرت مع محرمات الشراب، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴿٩٠﴾)، ولم يجعل الله في شرب الخمر أدنى إباحة، سواء في حال الاضطرار أو في غيره كما جعل في المُحْرِم من الطعام، فقال تعالى معللاً: (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴿٩١﴾)، فالخمر كله سوء، وكله شر، فهو من عمل الشيطان، يصدّ به عن ذكر الله، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس، فأغلق الله الباب أمام جميع هذه المعاصي، والمشروبات الأخرى التي لا تقع تحت هذا الباب كلّها حلال، فالمُحَلَّلات أكثر بكثير من المُحَرَّمات، مما يفسح المجال للتنويع في الطعام والشراب ضمن المباح، وقد رفع الله الحرج عن المؤمنين في طعامهم، لكن عليهم بتقوى الله في ذلك فقال: (لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾).

وفي ذكر قصة المائدة في ختام هذه السورة التي افتتحت بإحلال المآكل، واختتمت بها أعظم تناسب، وفيها دعوة إلى شكر الله على النعم وعدم كفرانها، وهذه المائدة طلبها الحواريون فلم يعملوا بحق الله بعد نزولها، فقال تعالى: (إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن

يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ (المائدة:١١٢- ١١٥).

٣. تحريم الصيد وتحليله:

يقول السيوطي:" بُدِئت بتحريم الصيد في الإحرام، وبالشهر الحرام، والهدي، والقلائد وختمت بذلك"[1]. أما تحريم الصيد وتحليله، فقد ورد في قوله تعالى: (غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ﴿١﴾)، فالصيد في حال الإحرام حرام سواء في منطقة الحرم، أو عند الإحرام بحج أو عمرة، أما في حال الإحلال فيجوز، ونظيرها قول الله تعالى: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴿٢﴾)، والإحلال: إمّا التحلل من الإحرام بحج أو عمرة، وإمّا بالخروج من منطقة الحَرَم المعروفة.

وذكر تحريم الصيد كذلك في آخر السورة في قوله تعالى: (لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴿٩٥﴾)، وفي قوله: (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴿٩٦﴾)، وهذا كله في حالة صيد البرّ، أما صيد البحر فحلال للجميع في كل الأوقات، إذ قال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴿٩٦﴾)، فصارت بيانا لقوله في أول السورة: (غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ﴿١﴾)، وقد مهّد لذلك في قوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴿٩٤﴾)، وكان ذلك عندما كان الصحابة مُحْرِمِين، والصيد هنا بواسطة الرماح والقنص، وفي أول السورة الصيد بواسطة الجوارح، قال تعالى: (وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴿٤﴾)، فذكرت طرق الصيد الممكنة، وكل ما سبق يدل على ارتباط أول السورة بآخرها، ويؤكد سياقها الواحد، فلا تناقض ولا تغيير وإنّما توسعة وتبيين، وكل ذلك تأكيد للحكم.

---

[1] السيوطي، علم المناسبات في السور والآيات، مصدر سابق ، ص١٢٩.

٤. المواثيق:

وهي التكاليف التي ألزمها الله عبادة، والحديث عنها موزّع على السورة بأكملها، فبعد هذا الأمر يذكّر الله بنعمته على عبادة بأنْ أخذ عليهم العهد، وكان منهم السمع والطاعة، فقال: (وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾)، فالله يذكّرهم بميثاقه عليهم، وما ذلك إلا لكثرته وتواتره وتتابعه، إذ ربما صارت كالأمر المعتاد[1]، وربما لأنّ هذه التكاليف قد لا تصل إلى الجميع في بداية الدعوة؛ فلزم التذكير بها للسؤال عن الجديد منها في كل فترة، وكان ردهم بعد معاهدة الرسول ﷺ بقولهم: سمعنا وأطعنا نعمة، وهذا الرد يلزمهم بها، فحذرهم من نقضها بأنّه عليم بذات الصدور، ولم يخبر الله عما سيحل بهم إنْ نقضوها؛ بل ذكر ما حل بمن نقض الميثاق في أمم أخرى، فقال: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾)، فكان هذا ميثاق الله تعالى مع بني إسرائيل، حذرهم من نقض الميثاق فنقضوه، فبين الله جزاءهم جراء ذلك فقال: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ﴿١٣﴾)، فخسروا تلك الميزات الخاصة للملتزمين بالعهد، وحلّ بهم عكسها من اللعن وقساوة القلب.

وذكر الله ميثاقًا آخر أُخذ على بني إسرائيل وهو قوله تعالى: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾)، ففي هذه الآية أخبر الله أنّ الرسل كانت تأتيهم تترى، فهم مدّعمون بالمحافظة على العهد لكثرة الرسل، وموقفهم لم يكن ليتغير، بل كذبوا بعض الرسل، وقتلوا بعضهم الآخر، ثم بيّن تعالى علّة ذلك فقال: (وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ ﴿٧١﴾)، أي ظنوا أنّ الله لا يحاسبهم ولا يجازيهم على صنيعهم هذا، لأنّهم على زعمهم أبناء الله وأحباؤه، وأنّ هذا سيدفع عنهم العقاب، فلن يبقوا في النار إلا أيامًا معدودات.

---

[1] انظر: الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، مصدر سابق، ج١١، ص١٨٣.

ثم أخبر تعالى عن نقض النصارى فقال: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾)، فسبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض المواثيق؛ فكانت لهم العقوبة في الدنيا والوعيد في الآخرة.

وأشارت الآيات إلى نقض اليهود لميثاقهم يوم السبت، كما أشارت إلى نقض النصارى لميثاقهم في المائدة؛ فقال تعالى: (لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾)، إذ اعتدى اليهود في السبت؛ فصادوا الأسماك، واعتدى النصارى بعد نزول المائدة، وهي من المواثيق التي أخذت على الحواريين بعدما طلبوها، فقال تعالى: (قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾)، فما لبثوا أنْ نقضوا العهد، فمسخوا قردة وخنازير، وهم أشد الناس عذابا يوم القيامة.

ثم بين الله في آخر السورة جزاء الصادقين الذين التزموا بمواثيقهم مع الله تعالى فقال: (قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾)، وهو أعظم جزاء؛ وبهذا سيظهر للمسلمين ما سيحصل لمن التزم بالعهود والمواثيق، وما سيحل بمن نقضها منهم، فحذرهم الله بضرب الأمثال لأمم أخرى، وصوّر الجزاء في الآخرة من خلال أحد مشاهد يوم القيامة.

٥. التناسب بين آيتين:

قوله تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ) وامتداداته في السورة، وعلاقته بقوله تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ):

هذه الآية محوريّة في السورة، فلا وجود للعهود إلا بعد التّمام، ولذا وقعت في هذه السورة التي افتتحت بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴿١﴾) فما سبقها من السور فيها أيضًا العهود والمواثيق، كما احتوت على العقاب الذي حلّ بمن نكث العقود والمواثيق، ومن مظاهر إكمال

الدين تمام الشرائع، والوفاء بعهود الرسول ﷺ، وما أخذ على الأمة من تشريعات وأحكام، فذكر فيها الحلال والحرام من الطعام والشراب والنكاح، يقول السيوطي: " فيها تحريم الصيد على المُحْرِم الذي هو من تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذي هو من تمام حفظ العقل والدين، وإحلال الطيبات الذي هو من تمام عبادة الله"[١]، ففيها التيسير بأكل الميتة للمُضطر، فقال: (فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثۡمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝)، وفيها الطهارة بالوضوء و التيسير بالتيمم للمُضطر، واختصت به أمة محمد ﷺ، إذ يقول: " جُعلت لي الأرض مسجِدا وطهورًا"، كما فيها أحكام الشريعة والدين بما فيه من التسهيل ورفع الحرج عن المكلفين، كما في التيمم لفاقد الماء، فقال: (فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا۝)، كما ذكر فيها أحكام القصاص والحرابة والحدود، لحفظ الدماء والأموال، فهي تشمل أنحاء مختلفة لتوضيح الدين وتصحيح الاعتقاد، وبهذا رفع الله المسلمين بالدين عما كانوا عليه في الجاهلية من الانحطاط والفساد والاعتداء، وفي ذلك إشارة إلى محبة الله لهم، ورعايته لمصالحهم، وتذكيرهم بالتوبة، ووعدهم بالجنة، وتذكيرهم بالنعم المتوالية عليهم؛ ليستمروا على الطاعة، والتقرب إلى الله بما شرعه لهم، وبما ألزمهم من التكاليف، ورفع عنهم الحرج في كثير من التكاليف كقوله: (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ۝)، بل إنّ الحدود والقصاص الذي شرعه الله رحمة بهم؛ ليسود الأمن والأمان في بلادهم، وقد وعدهم بالجنة إنْ هم أطاعوا، وحذرهم من عقابه إنْ هم خالفوا ونقضوا العهد فقال: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝)، ودعا المذنبين منهم إلى التوبة فقال: (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝)، وقال: (فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝).

أما ادّعاءات اليهود والنصارى:

بالمقابل فإنّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى قالوا: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ۝)، ولو نظرنا إلى أفعالهم لرأينا ادعاهم المتناقض، فالأبوه تقتضي المحبة والرعاية، والبنوة تقتضي الرضا والطاعة، لكن ما نجده في السورة على العكس من ذلك، وكأن قولهم هذا

---

[١] السيوطي، معترك الأقران، مصدر سابق، ج ١، ص٦٩.

مجرد تسويغ لقبائحهم وأفعالهم المنكرة؛ بأنّهم لا يُؤاخذون عليها لكونهم من سلالة الأنبياء، أو لكثرة الأنبياء فيهم، فاليهود نقضوا العهود مع الله، ورفضوا الجهاد في سبيله، واستنكفوا عن نصرة نبيّه، وغيروا أحكام التوراة وحرفوها، ولم يعملوا بما فيها، ومن ذلك أنّهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما أنزل عليه وهو القرآن، بل لم يأمن شرهم ومحاولتهم قتله، وإنْ كان من جاءهم من الأنبياء كُذِّبوا وقُتلوا، ولم يردعهم كونهم رسل الله أنْ يفعلوا بهم ما فعلوه، وقد وصفهم الله لرسوله ﷺ، وأطلعه على أخلاقهم، وحقائق نواياهم؛ فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾) وقال عنهم: (سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ﴿٤٢﴾)،وقال أيضًا: (وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٦٢﴾)، وصفهم بأنّهم يسارعون في الكفر، وأنّهم سمّاعون للكذب، وأكّالون للسُّحت، وهم جواسيس لغيرهم، منافقون، أما النصارى فقد ألّهوا عيسى عليه السلام وأمه، ومنهم من قال بالتثليث؛ فجعلوا الله ﷻ وعيسى وأمه عليهما السلام، كلهم إلهًا واحدًا، فقال تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴿١٧﴾)، وقال أيضًا: (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾)، وكذلك حرفوا كتابهم ولم يعملوا به، فقال تعالى: (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾)، وقد أخبر تعالى مستفهمًا عن سبب تعذيبه لليهود والنصارى إنْ كانوا كذلك، أي من أبنائه وأحبائه، فقال تعالى: (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴿١٨﴾)، فأفعالهم لا تنبئ عن هذه الصفة التي نسبوها لأنفسهم؛ ومن أنواع العذاب التي وقعت بهم أنْ لعنهم وجعل قلوبهم قاسية؛ لا تفهم الحق ولا تستوعبه، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ومسخهم قردة وخنازير، وعاقبهم بالتيه، وكشف فضائحهم للرسول ﷺ

وللمؤمنين، وهي باقية لكل قارئ للقرآن، ولكل من يتعامل معهم؛ لأنّ من شيمهم الغدر، بل قالت اليهود في حق الله ما لا يليق بجلالة؛ إذ قالوا: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٤﴾)، وردّ الله عليهم قولهم فقال: (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴿٦٤﴾)، كما أنّهم لم يكونوا ليأمروا بالمعروف، ولا لينهوا عن المنكر، ويسعون في الأرض فسادًا، فقال تعالى: (كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾)، وأخبر تعالى أنّ منهم أمة مقتصدة، فقال: (مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾)، وكل هذا ينافي عبارتهم التي قالوها، فنرى أنّ الله تعالى ذمّهم، وأظهر سوء خفاياهم، ودناءة أفعالهم، في مقابل دعوة المسلمين لموالاته، وموالاة رسوله والمؤمنين، والاستغناء عن المرتدين منهم بقوله: (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴿٥٤﴾) فأثبت الحب لهم، ونفاه بالأدلة القاطعة عن أهل الكتاب.

٦. الشعائر:

أما شعائر الله فقد ذكرت في أول السورة، وقد حرّمها الله تعالى فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴿٢﴾)، وشعائر الله: جميع تكاليفه وهو الدين، وقيل: شيء خاص منها[1]، وهو كل ما يخص البيت الحرام، وأضاف آمّيين البيت الحرام، وجعلها عامة حتى لو كانوا مشركين إلحاقًا لهم بالهدي فقال: (وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴿٢﴾)، وقال في آخر السورة: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴿٩٧﴾)، وهنا حلل الهَدْي المهديّ للكعبة وللبيت الحرام، وفي آخر السورة حرّم الهَدْي المهديّ للأصنام والألهة فقال: (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴿١٠٣﴾)، وهو من فعل العرب في الجاهلية، وفيه شرك بالله؛ لذلك لم يقرّه الإسلام، بل أقرّ الشهر الحرام، وهي أشهر محددة حرّم العرب فيها القتال تعظيمًا لها وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، وبيّن الله الحكمة من تحريمها بأنّها قوام لحياة الناس لتحقيق أمنهم - وهم العرب - حفاظًا على بقائهم، والقيام بمصالحهم، كذلك قيامًا للناس بما فيها من

[1] انظر: الرازي، التفسير الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٣٠.

المناسك العظيمة، والطاعات الشريفة، التي هي سبب لحط السيئات، ورفع الدرجات، وكثرة الكرامات[١].

٧. الأنصاب والأزلام والميسر:

ذكرت الأنصاب[٢] والأزلام في أول السورة في سياق تحريم بعض الأطعمة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۝٣﴾، فبين أنّها فسق، فالنوع الأول فيه طلب لمعرفة الغيب، وهو حرام إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وأما الثاني ففيه إشعال نار العداوة والبغضاء بين المتقامرين، إذ ربما لا يكون لصاحب الناقة شيئًا منها، وقد ذكر تعالى ذلك في آخر السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ۝٩٠﴾، ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۝٩١﴾، فهو مفسد من ناحية دينيّة بالصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، ومن ناحية دنيويّة بإثارة العداوة والبغضاء بين الناس.

٨. الشهادة لله بالقسط:

ذكرت الآيات الأولى الشهادة بالقسط في قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۝٨﴾، أي: " لا تحابِ في شهادتك أهل ودّك، ولا تمنع شهادتك أعدائك"[٣]، وفي هذه الشهادة حثٌّ على الانقياد لتكاليف الله فيما يحبونه وفيما يكرهونه، أما في آخر السورة اختصت الشهادة في حالة الوفاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ۝١٠٦﴾، وهي عن الشهادة المحتاج إليها عند حدوث الموت؛ بمشارفته وظهور أمارات وقوعه؛ حين يريد أنْ يوصي، ففي حالة السفر خاصة يشهد شاهدان للميت ليوصلا ما أراده لأهله، وفي حالة عدم وجود مسلمين

---

١ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٠٧.

٢ والنصب: أحجار كانوا ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للأصنام أما الأزلام فهي قداح الميسر وهي سهام مكتوب عليها خير أو شر، أحدهم إذا أراد أمراً ما ضرب القدح وقد كتبوا على بعضها أمرني ربي وعلى بعضها نهاني ربي وتركوا بعضها بلا كتابة، وكانوا ينفذون ما يخرج لهم وكانت تستخدم في الميسر فتقسم بواسطتها الجزور أي الناقة التي يتقامرون عليها، إذ يكون لكل من المتقامرين قدح فتدار فإذا خرج قدح أحدهم كان له من الناقة بقدر ما خصص له القدح.انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص ١٣٧- ١٣٨، ج ١٢، ص٨٤.

٣ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٨٤.

للشهادة؛ يشهد من غير المسلمين ، فيحلفان كما يقول تعالى: (فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾)، فإنْ تبين أنّ الشاهدان كذبا في شهادتهما، فيأتي شاهدان آخران من الأقربين للميت؛ فيقسمان بأنّ شهادتهما أحق وأولى، كما في قوله: (فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾)، وبهذه الشهادة الثانية يصير لدى الشاهد خوفًا ووازعًا أنْ يظهر الله كذبه؛ فيستدعي ذلك الشهادة بالحق.

كما ذكرت الشهادة يوم يجمع الله الرسل، أي يوم القيامة، من خلال شهادة الرسل على أقوامهم، ممثلا بشهادة عيسى عليه السلام على قومه؛ فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾) (المائدة:١١٦-١١٨).

٩. النعمة

ورد التذكير بالنعمة في عدة مواضع في أول السورة ، إذ قال تعالى: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾)؛ فأخبر الله تعالى بأنّه أتمّ لهم النعمة بإكمال الدين الإسلامي؛ فهو آخر الرسالات، وقد شرّفهم بأنْ اختارهم لاتباع هذه الرسالة، وجعلهم من أهلها، وأعطاهم بسببها من الميّزات ما أعطى، فخفف عنهم في الأحكام، ورفع عنهم الحرج في التكاليف، وضاعف لهم الأجر والثواب، وما إلى ذلك؛ على أنْ يقيموا شريعة الله، إذ جاء هذا الدين من تمام النعمة بعد أنْ كانوا في جاهلية جهلاء؛ لا يراعى فيها عدل، ولا يعطى فيها حق، بل تسود الطبقيّة والقبليّة والتمييز بين الأفراد؛ وغير ذلك مما كان سائدًا في الجاهلية في جميع مجالات الحياة.

واختص بهذه النعمة محمد ﷺ وأمته من بعده إلى يوم الدين، وقد ذكّرهم الله بهذه النعمة مرارًا في هذه السورة إذ قال تعالى: (وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴿٦﴾)، وقال: (وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴿٧﴾)، فهي ليست نعمة واحدة، بل هي نعم لا تعد ولا تحصى، لكن السياق يدعو إلى التأمل في جنس النعم وليس في عددها، وقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴿١١﴾)، ففي سبب نزولها أنّ الله كفّ أذى اليهود عن النبي ﷺ ومنعهم من قتله، وهي نعمة خاصة في رد كيد الأعداء عن المسلمين وعن النبي ﷺ.

وقد ذكّر موسى عليه السلام قومه بنعم الله في قوله تعالى: (يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾)، فقد أنجاهم من فرعون وجنوده، وأرسل إليهم الأنبياء، وجعل فيهم الملوك، ورزقهم من كل الطيبات، ونعمه تعالى عليهم لا تعد ولا تحصى كذلك.

وفي آخر السورة ذكّر الله نعمه على عيسى عليه السلام، فقال:(إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿١١٠﴾)، وهي إما نِعَمٌ خاصة له، أو نِعَمٌ عامة لقومه، أما النِّعَمُ الخاصة فهي تأييده بروح القدس، وبتكلمه في المهد وكهلاً لإثبات براءة أمه ومعجزة من الله تعالى، وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وكف عنه أذى بني إسرائيل؛ فرفعه الله إليه، أما معجزاته فكانت: إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وتشكيل شيء بهيئة الطير فتصير طيرًا بإذن الله، ومنها أيضًا إيمان الحواريين، فقال تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾)، وكذلك إنزال المائدة من السماء، فقال تعالى: (قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴿١١٥﴾)ففي أول السورة، وآخرها، وفي وسطها كلام عن نعم الله على أنبيائه، وخصّ منهم محمدًا ﷺ، ولم يصرّح باسمه تعالى، وجعل تذكير بني اسرائل بالنعم على لسان موسى عليه السلام، ثم ذكّر الله عيسى وقومه بالنعم عليهم.

فهذه النِّعَمُ ليست جزافًا، إذ لها حقها في تعظيم معطيها ومانحها، وما هذه القصص حول موسى عليه السلام وقومه، ثم قصة عيسى عليه السلام في الآخرة، ومحاجة قومه إلا لتثبيت المسلمين على الطاعة له، وعبادته وحده؛ ليتم عليهم النعمة في الدنيا والآخرة .

١٠. المسيح عيسى ﷺ وموقف اليهود والنصارى منه:

تحدثت السورة عن الطوائف المسيحية التي كفرت، فبعد أنْ تحدث عن نقضهم للميثاق في أول السورة؛ وذكرت إرسال الرسول ﷺ؛ كاشفًا ما أخفوه من أحكام التوراة والإنجيل، وداعيًا إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ ﴿١٧﴾)، فهذه فرقة منهم ألّهت المسيح ﷺ، ورد الله عليهم بأنّ المسيح ﷺ لا يستطيع أنْ يدافع عن نفسه، فضلاً عن أنْ يدافع عن أمه إنْ أراد الله إهلاكه، فكيف سيدافع عن الآخرين، وهل من كان كذلك يمكن أنْ يكون إلهًا.

ثم قال في آخر السورة تقريبًا: (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾)؛ وجاءت الآية في سياق تفصيل الحديث عن النصارى، فهذا الفريق الذي سبق ذكره ألّه المسيح ﷺ، وهنا بين أنّ المسيح ﷺ نفسه أعلن عبوديته لله تعالى، ودعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة، والبعد عن الشرك، وقوله حجة قاطعة على فساد قول النصارى[١].

ثم ذكر بعدها مباشرة الفرقة الثانية التي قالت إنّ الله ثالث ثلاثة، فقال تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴿٧٣﴾)، فهؤلاء قالوا: إنّ الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، ومعنى قولهم ثالث ثلاثة أي: أحد ثلاثة آلهة، ثم بين تعالى بطلان ذلك بقوله: (وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴿٧٣﴾)، فلا يعقل أنْ يكون الثلاثة واحد والواحد ثلاثة [٢]، ثم بين حقيقته وحقيقة أمه بقوله: (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴿٧٥﴾)، فمن كان يأكل الطعام فله حاجات، وهذا لا يصح لإله.

وقد بيّن تعالى في آخر السورة كذلك أنّ من نعمه على عيسى بن مريم إيمان الحواريين بنبوته ورسالته في قوله: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾)، فهؤلاء آمنوا به فهم على الدين الحق قبل أنْ يضل الناس ويتخذونه إلها، لذلك فإنّ مشهد يوم القيامة في سؤال عيسى ﷺ عن هذا التأليه؛ يرد على الملأ في الآخرة، كما يرد على أسماع

---

[١] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٦٣.
[٢] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٦٤.

الناس في الدنيا؛ ليتعظوا وينتبهوا إذ سيتبرأ المسيح من قولهم، ويعلن أنّه ليس يحق له ذلك، كيف والله يعلم سره، كما يعلم جهرة فيقول تعالى: (وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾)، فلم يُشْهِد عيسى عليه السلام من اتبعه من الحورايين، بل أشهد الله أنّه بلّغ الرسالة.

وقد بيّن تعالى في موضع سابق أنّ من النصارى من أسلم لما عرفوا من الحق الذي جاء في القرآن مطابقًا لما عندهم في الإنجيل، فقال تعالى عنهم:(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾) (المائدة:٨٢-٨٣).

١١. دعوة أهل الكتاب للإيمان

بعد أنْ بيّن الله نقض اليهود والنصارى لمواثيقهم، دعاهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وهم يعرفون صفته، ويؤمنون بمجيئه، لكنهم أنكروا ذلك أمام الملأ، فقال تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾)، فأخبر تعالى بإخفائهم بعض ما جاء في التوراة والإنجيل من الأحكام التي شرعها الله، وما ذلك إلا ليدل على أنّ محمد ﷺ رسولٌ مرسلٌ من الله تعالى، بشريعته التي أنزل أحكامها على من قبله، وأردف أنّ هناك مما أُخفي لم يظهره الله؛ لأنّه عفا عنه وجاء بما هو أخف منه في في الحكم والتشريع، وهو قادر على إظهاره إنْ شاء. وما جاء به الرسول ﷺ هو القرآن، وهو لهداية الناس.

ثم أعاد الكرّة مذكرًا متوعدًا المعرضين فقال: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾)، فلن يكون هناك حجة بفتور الرسل التي أدت إلى نسيان الأحكام والتشريعات؛ لطول العهد بتركها، فلا حجة لهم على نقض المواثيق بعد إرسال محمد ﷺ.

ولما ذمهم الله على إعراضهم، وتمردهم، وفعلهم القبيح؛ بيّن أنّهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الدنيا والآخرة فقال: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾)، وذلك بتكفير السيئات وإدخالهم الجنان، وليس هذا فحسب؛ بل في إقامتهم الدين تعم الخيرات فقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴿٦٦﴾)، فما جاء في التوراة والإنجيل جاء في القرآن فإقامتهم واحدة.

ومع إصرار أهل الكتاب على موقفهم، وإعراضهم عن دعوة النبي ﷺ؛ جاءت الآيات في آخر السورة لتثبت أنّه لا شيء مقبول منهم إنْ لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما أُنزل إليه، فقال تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾)، لأنّ الإيمان بالتوراة والإنجيل، يعني الإيمان به، فكلاهما قد ذكر من أمر الرسول ﷺ، وأمر بإتباعه حتى الأنبياء أنفسهم، لكن موقفهم كان الازدياد كفرًا، والطغيان حسدًا، وضيقًا من النبي ﷺ ومن كتابه أيضًا.

١٢. الحكم لله ﷻ

بينت السورة منذ بدايتها أنّ الحكم لله وحده فقال: (إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾)، فأثبت الله لنفسه صفتي الحكم والإرادة، فبين في عدة مواضع أنّ الحكم والأمر له، وذلك من خلال وضع التشريعات والحدود، والرسول ﷺ مكلفٌ بتبليغ رسالته، وقد نهى الله عن السؤال في أمور لم يخبر عنها فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴿١٠١﴾)، وقد بين ذلك في أكثر من موضع فقال: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾)، في سياق خلق عيسى عليه السلام بلا أب، وقال: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)، في سياق المغفرة والتعذيب لأهل الكتاب إذ له الأمر فيهما.

وقال أيضًا: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾)، في سياق المغفرة للتائبين والتعذيب للكافرين ، وفي سياق الحديث عن حد السرقة والتائبين منها.

ثم ختم السورة بقوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾)، فلذلك هو يحكم ما يريد، وهذا في سياق ينفع الصادقين صدقهم، وهم الذين وفّوا بعهودهم.

١٣. تبليغ الرسول ﷺ

أُمر الرسول ﷺ بتبليغ الناس رغم قلة المستجيبين، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴿٦٧﴾)، خاصة بما يتعلق باليهود، فكشف أسراراهم، وفضح أفعالهم بما نزل به القرآن، ثم قال تعالى: (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ ﴿٦٧﴾)، حتى يبلغ الرسول ﷺ كل شيء حتى الدقائق الصغيرة، وهذا رد على اليهود أنفسهم وليست للرسول ﷺ؛ لكي يعلموا أنّ ذلك من الله، وإنْ لم يكفّوا عن أفعالهم السيئة؛ ستزيد الآيات فضائحهم، وكشف أفعالهم، فالسياق هنا يتحدث عن اليهود.
وقال في آخر السورة: (فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾)، ثم أمرهم بطاعة الله ورسوله، وحذرهم المخالفة؛ مبينا أنّما على الرسول ﷺ البلاغ من ربه، فقال: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴿٩٩﴾).

فلا يكفي النظر في المناسبات بين الآيات، وبحث الصلات الجزئيّة في الموضوعات غاضين النظر عن النظام الكلي للسورة في جملتها، ومعرفة صلة أولها بآخرها، والبحث في ترابط قضاياها، ثم معرفة علاقتها بالسور الأخرى حتى يكتمل المعنى ويتضح، يقول البقاعي معبرًا عن ذلك: " وقد انطبق آخر السورة على أولها كما ترى أي انطباق، واتسقت جميع آياتها آخذًا بعضها بحجز بعض أي اتساق"[1]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ولا تغني السورة وما فيها عن القرآن كاملاً.

---

[1] البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج ٢، ص٥٧٧.

المبحث الرابع: المناسبة بين أقسام السورة

تتكون السورة من سبعة أقسام وخاتمة[1]، وفي كل قسم يُعالَج موضوع من طرفين، أحدهما يتعلق بطريق الهداية، والثاني يتعلق بطريق الضلال، فجاءت الأقسام تتكامل في تبيان الطريقين، وتوضيح قضية الفسوق والخسران بسبب نقض العهد، والإفساد في الأرض، وقطع ما أمر الله به أنْ يوصل. وهذا يشعرنا بوحدة السورة وتكاملها وارتباطها بسياقها.

١. القسم الأول: مواثيق المسلمين

يبدأ بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ١)، إلى قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ١١)، فبدأ بالأمر بالوفاء بالعقود، وانتهى بتذكيرنا بنعمة الله علينا؛ أنّ كفّ أيدي الأعداء عنا، بعد أنْ همّوا باستئصالنا، وكأنّه يقول لنا: أوفوا بعقودكم معي، وكونوا ملتزمين بها على اختلافها، وسأقوم بالمقابل بحمايتكم، وكفّ أيدي الناس عنكم، فلا تخافوهم في طاعتي.

ويعرض لنا بين هاتين الآيتين صفحة من الحلال والحرام، وما يحلّ لنا وما يحرم علينا أكله، ثم مشروعية الوضوء والغسل للصلاة، وفي كلا الحالتين: يرفع عنا الحرج بأنْ أباح المحرّم من الطعام بشرط المخمصة، وأباح لنا التيمم بشرط فَقْد الماء، وجعل من ذلك طاعة لله، وصحة للبدن، ثم جاء بالطهارة كونها طهارة للبدن، وطهارة للروح؛ بإقامة الصلاة التي يسبقها الوضوء، فإذا تطهر المسلم بتنقية ما يدخل في جوفه أولاً، ثم بطهارة بدنه وروحه ثانيًا، استقام لله تعالى وعمل بطاعته، ثم جاء التذكير مرة أخرى بالمواثيق لأنّ المسلم في هذه الحالة بعد أنْ طيّب طعامه ونفسه وروحه؛ يصير أكثر استجابة وإقبالاً لطاعة الله، فيلتزم بمواثيق الله وعهوده، فجاءت إقامة الشهادة لله بالقسط. مهما صَعُب الأمر وشقّ ورُفض من الآخرين؛ فذلك لا يضر، لأنّه أمر ظاهر، ونحن لا نعلم السرائر، ومن أراد بالإسلام والمسلمين سوءًا؛ فقد أخبر الله بأنّه سيكف ذلك عنهم.

وفي أثناء ما سبق دعوة إلى تقوى الله، ونهي عن استحلال شعائر الله وكل ما يتعلق بها، قال: (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢).

وقد شرّع في هذا المقطع الصيد، والزواج من الكتابيات، وقبل ذلك من المؤمنات، وأباح طعام أهل الكتاب كذلك، وجاء قوله تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي

[1] اعتمدت في هذا التقسيم تقسم كلٍ من سيد قطب في تفسيره:(في ظلال القرآن)، وكذلك سعيد حوى في تفسيره:(الأساس في التفسير).

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ) بين ذلك، وهذا " يشعر بأهمية قضايا التحريم والتحليل في دين الله ﷻ، وأنّها حلقة في منظومة هذا الدين، فإذا كان أساس الدين الأول (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فإنّ موضوع الحلال والحرام هو الشيء المتمّم المكمّل في هذا البناء، وإذا المعاني تؤكد وحدة المقطع"[1].

فاتباع شرع الله في تطبيق لكلمة التوحيد، وفي عدم تطبيقها كذب وافتراء على الله، واتباع لشرع غير شرع الله، كما فعل كفار قريش، حيث أباحوا ما حرم الله، كالميتة بأنواعها، والدم، ولحم الخنزير، وحرّموا ما أحل الله، كالسائبة، والوصيلة، وأمثالهما، وفي هذا كله كذب على الله، ومنهم من وضع أحكاما صارت كالعرف الشرعي فهذا شرك بالله. وفي الآية الثانية من المقطع يرد قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ)، ثم ورد قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ۝٨) مما يشير إلى وحدة المقطع وارتباط نهاياته ببداياته"[2]، ومن ارتباطه ببعضه كذلك أنّ السورة " بدأت بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ ۝١)، ثم قال: (وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ ۝٧) مما يؤكد تعانق الصّلات بين بداية المقطع ونهايته"[3].

٢. القسم الثاني: مواثيق بني إسرائيل

يبدأ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٢)، وينتهي بقوله تعالى: (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٤)، فتحدث هذا المقطع عن عهود بني إسرائيل ومواثيقهم، وموقفهم من تطبيقها، ثم الحديث عن مواثيق النصارى، وموقفهم من تطبيقها أيضًا، فانتقل من مواثيق المسلمين وعهودهم، إلى مواثيق أهل الكتاب وعهودهم، مبينًا موقفهم منها، وجزاء الله لهم على أفعالهم، وذلك لتحذير المسلمين من اتخاذ الموقف الخاطئ من المواثيق فتكون العاقبة واحدة.

---

[1] حوّى، سعيد (١٩٨٥م)، **الأساس في التفسير**، ط١، ج٣، ص١٣٠٢-١٣٠٣، دار السلام. قطب، سيد (١٩٨٨م)، **في ظلال القرآن**، ط١٥، ج٢، ص٨٤٥، دار الشروق.

[2] انظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٣٠١. قطب، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، ج٢، ص٨٥٢.

[3] انظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٣٠٢.

ثم ذكر قصة امتناع بني إسرائيل عن الجهاد ومحاربة الجبارين، لما أمرهم به موسى ﷺ، هو جزء من الميثاق، فاستحقوا العذاب وهو التيه؛ وهذا تمهيدٌ لما سيأتي من الأمر بالجهاد للمسلمين حتى ينتبهوا فلا يوافقونهم في الموقف.

ثم تحدث عن قصة ابني آدم وقتل أحدهما الآخر ظلمًا وعدوانًا، وهي نموذج ثانٍ لنقض العهود، إذ هو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهو إفساد في الأرض بانعدام الأمان، ثم جاء تشريع الله معللاً الحكمة من هذا التشريع بالحادثتين السابقتين، " بوجوب نصرة الرسل، وحرمة الإفساد في الأرض كجزء من الميثاق، بأنْ ذكر عقوبة حرب الله ورسوله، وعقوبة الإفساد في الأرض"(١)، فذكر حد الحرابة، وحد السرقة، والدعوة إلى التوبة، والرجوع إلى الله، وهذا تعريض بجزاء من فعل فعلهم، ليعلم المسلمون أنّ جزاء نقض العهد موجود، وقد حصل لأمتين من قبل قد أنعم الله عليهما أيضًا.

وقد بدئ هذا المقطع بأخذ الميثاق على بني إسرائيل، وختم بالدعوة إلى اتباع الرسول ﷺ، وفي ذلك يقول سعيد حوى:" لما كان من الميثاق الإيمان بالرسل ونصرتهم؛ فقد ذكّر الله ﷻ أهل ذلك بأنّ محمدًا رسول الله ﷺ، وأنّ عليهم أنْ يؤمنوا به وينصروه، ثم إنّ الخطاب بالإيمان جاء بعد تبيان عقوبة نقض الميثاق من قبل، وكيف أنّ نقض الميثاق فيه ما فيه، فكيف بعد بعثة رسول الله ﷺ؛ الذي قامت به الحجة على الخلق"(٢).

٣. القسم الثالث: أحكام تشريعية

يبدأ المقطع بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝)، وينتهي بقوله: (أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ ۝)، فبعد أنْ عرضت الآيات السابقة خطر الفساد جاءت الآية الأولى لأمر المؤمنين بالجهاد، ومحاربة الفساد؛ والجديد هنا هو حد السرقة، فالسرقة نقض للعهد، وقطع اليد عقوبة عادلة على جريمة؛ يفتح الله بعدها باب التوبة لمن تاب وأناب.

أما علاقة هذا المقطع بالسابق أنّ في ذكر القتل والإفساد في الأرض إزهاق للأنفس، "فحتى لا يفهم فاهم أنّ الجهاد الذي فيه إزهاق الأنفس داخل في قضية الاعتداء على الأحياء؛ جاء هذا المقطع آمرًا بالجهاد، ومتحدثًا عن العقوبة الأخرويّة للكافرين، مما يعرف به فظاعة

---

١ حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج ٣، ص١٣٤٦.
٢ المصدر السابق، ج٣، ص١٣٤٣. وانظر: قطب، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، ج٢، ص٨٥٧- ٨٦٠.

جرمهم"[1]، حيث كانوا يقتلون من أسلم بغير حق، ويعتدون عليهم، وينهبون أموالهم وغير ذلك، فعقوبة القصاص في قتل النفس بغير حق؛ تمنع الناس من هذا الفعل وتخيف من عاقبته، ومثله الإفساد في الأرض بأنواعه، وكذلك السرقة، فحدها يمنع الرجوع إليها، وفتح باب التوبة يؤدي إلى إصلاح المجتمع.

وقد ختم المقطع بإثبات الملكية لله تعالى، وبالتالي إثبات الحاكميّة له ﷻ، فهو المتصرف في خلقه يغفر لمن شاء، ويعذب من شاء، ولكل من الفريقين ما جنت يداه، فللتائب المغفرة، وللعاصي العذاب.

٤. القسم الرابع: كشف خفايا اليهود للنبي ﷺ

يبدأ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ ، وينتهي بقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، فبينت الآيات موقف اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل والحكم بما فيهما.

فتحدث المقطع عن صفات المنافقين اليهود خاصة بإسهاب، ويكشف خفاياهم وفضائحهم، ثم يبين الحكمة في إنزال التوراة والإنجيل والقرآن، ويدعو إلى الاحتكام بما جاء فيه، ويخيّر النبي ﷺ بين الحكم لأهل الكتاب بما في القرآن، وبين عدم الحكم، وإنْ حكم فلا يتبع أهواءهم المخالفة لشرع الله ﷻ.

٥. القسم الخامس: تحذير المسلمين من موالاة اليهود

يبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾، فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط، ويحذر من موالاة اليهود والنصارى، ويذكر موالاة المنافقين لهم، ومصيرها، ليعود إلى ذكر صفات اليهود وأعمالهم السيئة، وتقوّلهم على الله بما لا يليق بجلاله، ومع كل ذلك يدعوهم إلى التوبة والإنابة إليه سبحانه، أما علاقة هذا المقطع بسابقه؛ فإنّ السابق يبين فسوق أهل الكتاب، وانحرافهم عن الحق، وانحراف المنافقين، وموالاة كلا الطرفين للآخر، وفي هذا المقطع يحذرنا

---

[1] المصدر السابق، ج٣، ص١٣٧٨. وانظر: قطب، **في ظلال القرآن** ، مصدر سابق، ج٢، ص٨٧٨.

من موالاة أهل الكتاب، وما تجره هذه الموالاة من ارتداد عن دين الله، ويبيّن أنّ الولاء لله ولرسوله وللجماعة المسلمة فقط[1].

يقول سعيد حوى: " فإذا كانت المقاطع السابقة قد جاء فيها نقض الميثاق والإفساد في الأرض بشكل أوضح، فإنّ هذا المقطع يذكر فيه ما أمر الله به أنْ يوصل؛ فمن لم يعط الولاء لأهل الإيمان فقد قطع ما أمر الله به أنْ يوصل، ومن أعطى ولاءه للكافرين والمنافقين فقد وصل ما أمر الله به أنْ يقطع"[2].

٦. القسم السادس: موقف اليهود من أوامر الله ﷻ

ويبدأ بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۝)، وينتهي بقوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝)، فهذا المقطع يؤكد ويعمق ضرورة عدم الولاء لليهود والنصارى، وتخصيصه لأهل الإيمان، فنجد في ذكرًا للمواثيق التي أخذت على بني إسرائيل وموقفهم منها وما نزل بهم استحقاقًا لصنيعهم، كما ذكرت موقفهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث لا يستغرب معه موقفهم من النبي ﷺ، ومن دعوته، ومن المسلمين وشعائرهم، كما ذكرت الآيات كفر فريقي النصارى القائلين بألوهيّة عيسى ابن مريم، والقائلين بالتثليث، وناقشتهم في اعتقادهم، وبيّنت سبب هداية فئة منهم لما سمعوا الحق وبما جازاهم الله به، كما ذكرت جزاء من أعرض منهم.

فالضلال والهداية هما المحور الذي تقوم عليه السورة، وظهرت أسباب ضلال الطائفتين هنا، وأسباب استجابة بعض من النصارى للحق، جاء هذا المقطع وأوجب الاحتكام إلى القرآن واتباعه، إذ انتهى المقطع الخامس بالدعوة إلى إقامة التوراة والإنجيل، والأخبار عن أثر اتباعهما، وبداية المقطع السادس ضمّ إليهما القرآن؛ وقال لستم على شئ حتى تقيموا هذه الثلاثة، آمرًا الرسول ﷺ بالتبليغ وخاصة لأهل الكتاب، كما يقرر شدة عداوة اليهود والمشركين للمسلمين، وأنّ النصارى أقرب منهم للمسلمين.

وهناك علاقة بين المقطع الثاني والمقطع السادس؛ حيث جاء المقطع الثاني من السورة، فذكر أخذ على بني إسرائيل في كليهما، كما تحدث عن كفر النصارى فيهما، وذلك في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۝) ، وفي قوله تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ

---

[1] انظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٤٢١. قطب، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، ج٢، ص٩٠٨ -٩١١.

[2] حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٤٢١.

قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴿١٧﴾)، وفي هذا المقطع يأتي قوله تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴿٧٢﴾)، وقوله: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴿٧٣﴾).

هناك جاء التكفير في سياق نقض العهد الآتي في سياق الوفاء بالعقود، وههنا يأتي التكفير في سياق نقض العهد الآتي في سياق الأمر بالتبليغ، وهي ملاحظة لنعرف صلة هذا القسم بما قبله، إذ في كلٍّ منها نقض للميثاق الذي أمر المسلمين بالوفاء به في المقطع الأول بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴿١﴾)، حتى إذا وصلنا إلى نهاية المقطع السادس تأتي أوامر متعددة وتوجيهات متنوعة تشكل المقطع السابع في السورة[1].

٧. القسم السابع: تشريعات إسلامية

يبدأ هذا المقطع بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴿٨٧﴾)، وينتهي بقوله تعالى: (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴿١٠٨﴾)، وهذا المقطع متعدد الموضوعات، تدور كلها حول قضية التشريع، وفي كل منها يتوجه الخطاب لأهل الإيمان باستخدام أسلوب النداء: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)، يأمرهم تارة، وينهاهم أخرى، وابتدأت الآيات بالحديث عن الطيبات: (لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴿٨٧﴾)، وقوله: (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴿٨٨﴾)، ثم ينتقل إلى الحديث عن الخبائث: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ).

وتعرض الآيات تحريم صيد البر والنهي عن قتله في حال الإحرام، وتحليل صيد البحر في جميع الحالات، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴿٩٥﴾)، وفقال: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴿٩٦﴾)، ففصّل الصيد للمُحْرِم.

ثم انتقل إلى بعض ما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم مما لم ينزل به الله من سلطان، فقال: (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴿١٠٣﴾)، وكل ذلك متعلق بالمطعم والمشرب مما

---

[1] انظر: حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص ١٤٥٥-١٤٥٦

حرمه أهل الجاهلية تقربًا لأصنامهم ولم يشرعه الله، أما ما أهداه أهل الجاهلية إلى الكعبة فقد أبقاه الله فقال: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴿٩٧﴾).

ثم قررت السورة أنّ طريق الهداية مفتوح للناس من خلال التناصح، والإرشاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطريق الضلال في عدم الاستجابة لذلك، وفي هذه الحالة يقول تعالى: (لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴿١٠٥﴾)، ثم انتقلت الآيات إلى الوصيّة، وعرض من خلالها إلى قضية الأيمان، وقد بدأ المقطع السابع بالأيمان وانتهى به، وإنْ كان يعالج قضية مختلفة، إذ القضيّة في أول المقطع حول الأيمان المنعقدة، قال تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴿٨٩﴾)، وهو الحلف على شئ ما، وفي نهاية المقطع جاء قوله: (فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا ﴿١٠٦﴾)، وهذا يشير إلى وحدة المقطع.

كما احتوى المقطع على تبليغ الرسول ﷺ، وكذلك في المقطع السابق له، قوله تعالى: (أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾)، وقوله: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴿٩٩﴾)، وقد ورد كذلك في المقطع السادس قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴿٦٧﴾)، وهذا يدل أنّ هذا المقطع استمرار للمقطع السادس، وهما يشكلان معًا وحدة متماسكة، فيهما قضايا رئيسيّة حول إبلاغ أهل الكفر، وأهل الإيمان، ففي أول المقطع السابع كان الإبلاغ لأهل الإيمان، أما في المقطع السادس فالأمر بالتبليغ متنوع لأهل الكتاب أولها: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴿٦٨﴾)، وثانيها: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴿٧٦﴾)، وثالثها: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾)، ثم يليه نداء لأهل الإيمان في المقطع السابع، فكل نداء منها " يحرر المسلم من خُلُق يستحق به صاحبه الإضلال لأنّ الوقوع فيه فسوق"[1]، وهكذا تتعانق المعاني في فقرات المقاطع، وتتكامل، لتأخذ محلها في السياق الخاص في السورة، كما تأخذه في السياق العام، إذ نلاحظ الصلات الممتدة بين أجزائها المختلفة؛ وهذا المقطع الأخير تفصيل لما أجمل في السورة.

---

[1] حوّى، الأساس في التفسير، مصدر سابق، ج٣، ص ١٤٥٢.

٨. الخاتمة: مشاهد من يوم القيامة

وتبدأ من قوله تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴿١٠٩﴾)، وتنتهي بقوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴿١٢٠﴾) ، ويظهر مشهدان من مشاهد يوم القيامة، أولها استجواب الرسل أجمعين، والثاني استجواب عيسى ﷺ، وإقامة الحجة على قومه، ومشهد ثالث ضمني للذين استجابوا من خلال قوله: (قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴿١١٩﴾)، فبعد أنّ تم التبليغ والإبلاغ؛ يظهر نقض اليهود والنصارى للمواثيق من جهة، وغلوّ النصارى في المسيح ﷺ وأمه من جهة أخرى، والمشهد الآخر يدور حول طلب الآيات والمعجزات من الرسل؛ حيث طلب الحواريون المائدة من عيسى ﷺ، وظهر مدى خطورة ذلك، إذ سُكت عن العذاب الذي سيلحق من كفر منهم بعد نزول المائدة، لعظمته وشدته، فهم الذين نقضوا ميثاقهم مع الله تعالى، وجاء القرآن فكشف عن حقيقة المسيح، كما أخبر عن أحداث يوم القيامة، إذ صُححت عقيدة النصارى، وأُقيم الدليل على فسادها في القرآن الكريم؛ فسورة المائدة جمعت بين الدنيا والآخرة في الخطاب والمناقشة والمحاججة.

وفيها كذلك بشارة للصادقين المهتدين الذين التزموا بميثاقهم مع الله تعالى في الدنيا، وتحرروا من أسباب الضلال فيها، كما ظهر في النهاية طريق الضالين وطريق الناجين، " وكأن هذه النقلة تشير إلى أنّ رسول الله ﷺ قد بلغ، وأنّ على الناس أنْ يستجيبوا، وأنّ الرسول ﷺ شهيد على الموقف"[١]، فكيف ستكون شهادته، وكيف سيحاجج المتبعين له من خلال معجزته الخالدة؟

---

[١] المصدر السابق، ج ٣، ص١٥٤١.

المبحث الخامس: المناسبة بين ما قبلها وما بعدها من السور

إنّ سور القرآن تتعانق فيما بينها وتتعالق بشكل كبير؛ بحيث أنّ كل سورة تنقل إلى التي تليها، وفي كل سورة موضوعات مجملة تجدها في السورة التي تليها بشيء من التفصيل، والتوضيح، أو ضرب الأمثال، أو الوعظ، وغير ذلك من الروابط، وإذا أردنا أنْ نرى العلاقة بين سورة وأخرى، فلن يخلو الأمر من التطرق إلى سورة ثالثة ورابعة وأكثر من ذلك، إذ الموضوع مطروح في السور؛ كل جزئية منه تتعلق بمقصد السورة وهدفها، فلا بد من دراسة علاقات الارتباط بين جميع السور؛ حتى نفهم متعلقات موضوع ما، فلا بدّ من دراسة موضوعية على مستوى القرآن كاملاً؛ مع الربط بالمقصد الأساسي لمكان وروده، لأنّ السورة تعالج المقصد من خلال الموضوع، يقول الدكتور محمد دراز: " ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسبابًا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها؛ تمتُّ بها إلى الجار ذي القربى، والجار الجنب، وفي شبكة من العلائق، يحار الناظر إلى خيوطها مع أيّها يتجه، ولا يدري أيّها هو الذي قصد بالقصد الأول"[1].

أولا: علاقة سورة المائدة مع ما قبلها وما بعدها من السور

وإذا بدأنا دراسة علاقة سورة المائدة مع ما قبلها وما بعدها من السور؛ سنجد الحديث يتوزع في تلك السور، ويتنامى فحواه ومضمونه، فإذا بدأنا بسورة الفاتحة، سنجدها تتحدث عن فئات الناس، المحمودة والمذمومة، يقول السيوطي عن سورة المائدة:" وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة ببيان المغضوب عليهم والضالين"[2]، كلها في الآية الأخيرة منها، يقول تعالى: (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝)، فالآية قسمت أحوال المكلفين إلى ثلاث فرق: وهم أهل الطاعة، وأشار إليهم بقوله: (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)، وأهل المعصية وأشار إليهم بقوله: (غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)، وأهل الجهل في دين الله والكفر، وإليهم الإشارة بقوله: (وَلَا ٱلضَّآلِّينَ)، فهذه الفئات الثلاثة يجب معرفة صفاتها وأفعالها، حتى نستطيع تصنيف الناس عليها، للوصول إلى صفات الفئة المحمودة منها، وهي الفئة الأولى، وهم الذين أنعم الله عليهم، ونبتعد عن صفات المغضوب عليهم، والضالين، يقول السيوطي: " سورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية، والالتجاء إليه في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهودية

[1] دراز، **النبأ العظيم**، مصدر سابق، ص ١٥٨.

[2] السيوطي، الحافظ جلال الدين (٢٠٠٠)، **ترتيب سور القرآن**، (تحقيق: السيد الجميلي)، ط الأخيرة، ص ٦٠، دار ومكتبة الهلال. وانظر، السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص ٤٨.

والنصرانية"[1]، أي أنّ المغضوب عليهم هم اليهود؛ لقوله تعالى: (مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ)، والضالين هم النصارى لقوله: (قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾). وإلى ذلك يذهب ابن عطية في تفسيره، فيقول معللا : " لأنّ ذكر غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله: (قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ ﴿٦٠﴾)، فهؤلاء اليهود بدلالة قوله تعالى بعد: (وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾) (البقرة:٦٥)، وغضب الله تعالى عبارة عن إظهاره عليهم مِحنًا، وعقوباتٍ، وذلة، ونحو ذلك؛ مما يدل أنّه قد أبعدهم من رحمته بُعدًا مؤكدًا مبالغًا فيه، والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد ضلوا، وأما غير محققيهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام، وقد قال تعالى فيهم: (وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾) (المائدة:٧٧)"[2]؛ فنسبت كل فرقة من اليهود والنصارى إلى إحدى هذه الصفات؛ بناء على ورود هذه الصفة، والتصاقها بالفئة التصاقًا مؤدّاه وصفها، أو وصف أفعالها، فيقول ابن عطية: " والقول في ذلك أنّ أفاعيل اليهود من اعتدائهم، وتعنتهم، وكفرهم مع رؤيتهم الآيات، وقتلهم الأنبياء، أمور توجب الغضب في عُرفنا، فسمّى الله تعالى ما أحله بهم غضبًا، والنصارى لم يقع لهم شيء من ذلك، إنّما ضلوا من أول كفرهم، دون أنْ يقع منهم ما يوجب غضبًا خاصًا بأفاعيلهم؛ بل هو الذي يعم كل كافر، وإنْ اجتهد. فلهذا تقررت العبارة عن الطائفتين بما ذكر"[3].

أما ابن عاشور فيعمم ذلك، إذ الناس ليسوا فقط يهودًا ونصارى؛ فيوضح أولا الفرق بين المصطلحين فيقول: " والمراد من المغضوب عليهم والضالين جنسًا فِرَق الكفر، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك، واستخفت بالديانة عن عمد وعن تأويل بعيد جدًّا، تَحمِل عليه غلبة الهوى، فهؤلاء سلكوا من الصراط الذي خط لهم مسالك غير مستقيمة، فاستحقوا الغضب؛ لأنّهم أخطأوا عن غير معذرة، إذ لم يحملهم على الخطأ إلا إيثار حظوظ الدنيا، والضالون جنس للفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد وسوء فهم؛ وكلا الفريقين مذموم معاقب؛ لأنّ الخلق مأمورون باتباع سبيل الحق، وبذل الجهد إلى إصابته. والحذر من مخالفة مقاصده، "[4].

---

[1] السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٦٨.
[2] ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ١، ص٧٧.
[3] المصدر السابق، ج ١، ص٧٨.
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ١، ص١٩٩.

ويعلّل إطلاق هذه التسمية الخاصة بكل منهما بقوله: " اليهود تمرّدوا على أنبيائهم وأحبارهم غير مرة، وبدّلوا الشريعة عمدًا، فلزمهم وصف المغضوب عليهم، وعَلِق بهم في آيات كثيرة، والنصارى ضلّوا بعد الحواريين، وأساؤوا فهم معنى التقديس في عيسى عليه السلام؛ فزعموه ابن الله على الحقيقة"[١]. فكأن الله ضرب للمسلمين مثلاً لما يمكن أنْ يكون بين الناس وبين أنبيائهم، ففريق تمرد على الأنبياء وعصى، وآخر ألّه النبيّ، ورفع مكانته إلى الألوهيّة، فهما ضدان لكن النتيجة في كلا الحالتين ليست المطلوبة من الإنسان.

وسورة البقرة أجمع سور القرآن لأصول الإسلام وفروعه، إذ فيها بيان التوحيد، والرسالة، وأركان الإسلام، وبيان الخلق والبعث والتكوين، كما ذكرت أحوال أهل الكتاب، وأكثرت من الحديث عن اليهود، ومواقفهم مع النبي محمد ﷺ، ومع موسى عليه السلام كذلك، كما تحدثت عن والمشركين، وعن المنافقين، وبينت الكثير من المعاملات الماليّة والزوجيّة والاجتماعيّة، وجاءت بعدها سورة آل عمران التي أكملت الحديث عن أهل الكتاب بشيء من التفصيل خاصة عن النصارى، يقول السيوطي: " وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر، كما أنّ خطاب اليهود في البقرة أكثر؛ لأنّ التوراة أصل والإنجيل فرع لها، والنبيّ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب"[٢]، وقال: " فالبقرة بمنزلة إقامة الدين على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم"[٣].

وتبعتهما سورتي النساء والمائدة، يقول السيوطي عنهما: " إنّ هاتين السورتين في التلازم والاتحاد نظير البقرة وآل عمران، فتلكما في تقرير الأصول من الوحدانية والكتاب والنبوة، وهاتان في تقرير الفروع الحكمية"[٤]. ويقول الشعرواي:" وسورة النساء والمائدة تواجه أيضًا المجتمع المدنيّ بالمدينة، بعد أنْ كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهيّة الواحدة والنّبوّات، وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجيّة والأنبياء وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكميّة"[٥].

أما سورة المائدة فيقول عنها سعيد حوى إنّها: " فصّلت في موضوع العبادة والتقوى، وبشرت أهل الإيمان والعمل الصالح، وعرّفت على الله، وعما يقرب إليه ويبعد عنه، مع أنّها قررت القضايا التي بها يكون الإنسان مع الفاسقين؛ فحذرت منها، وضربت الأمثلة على أنواع من

---

[١] المصدر السابق، ج ١، ص٢٠٠.
[٢] السيوطي، **معترك الأقران**، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٨-٦٩.
[٣] المصدر السابق،ج١، ص٦٨.
[٤] السيوطي، **ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص٦١، السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص٤٩.
[٥] الشعرواي، **تفسير الشعرواي**، مصدر سابق، ج٥، ص٢٨٨٧.

نقض الميثاق، أو قطع ما أمر الله به أنْ يوصل، أو على أنواع من الإفساد في الأرض، وطالبت بما يقابل ذلك من أخلاق الإيمان"[١].

وقد تضمنت سورة المائدة محاجّة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وشيئًا من سلوك منافقي اليهود، مع بيان بعض ضلالات المشركين، يقول السيوطي عن السور السابقة: " فانظر إلى هذه السور الأربعة المدنيّات، وحسن ترتيبها، وتلاحمها، وتناسقها، وتلازمها، وقد أفتتحت بالبقرة التي هي أول ما نزل في المدينة وختمت بالمائدة التي هي آخر ما نزل بها"[٢]؛ فهذه السور متلازمة مكمّلة لبعضها.

وجاءت بعد ذلك سورة الأنعام تبين ما عليه أهل الشرك من أباطيل وأوهام، يقول محمد رشيد رضا في تفسيره: " ولما كان أمر العقائد هو الأهم المقدم في الدين، وكان شأن أهل الكتاب فيه أعظم من شأن المشركين، قُدّمت السورة المشتملة على محاجتهم بالتفصيل، وناسب أنْ يجيء بعدها ما فيه محاجة المشركين بالتفصيل؛ وتلك سورة الأنعام، لم تستوف ذلك سورة مثلها"[٣].
فقد اشتملت هاتين السورتين: المائدة والأنعام ما يتمم كل منهما الآخر من حيث أنّ الأولى في محاجة أهل الكتاب، والثانية في محاجة المشركين.

أما سورة الأعراف فقد جاءت تعرض سنن الله في الأنبياء والمرسلين، وشؤون أممهم معهم، يقول محمد رشيد رضا: " وهي حجة على المشركين وأهل الكتاب جميعًا"[٤]، وحجيتها على المشركين في تناولها قصص الأنبياء مع أقوامهم ممن أشرك بالله، ولم ينزل عليهم من الله كتاب، وهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، أما قوم لوط فلم يدعهم إلى الله لكنه كان يحاول تقويم أخلاقهم أولاً، وأما أهل الكتاب فمن خلال عرض قصة موسى عليه السلام مطوّلة مع قومه، واستمرت أحداث القصة كذلك بعد وفاته من خلال عرض قصة أصحاب السبت التي حصلت في زمن داود عليه السلام.

ومن ثم تأتي سورتي الأنفال والتوبة، ففي الأنفال بيان للعهود والوفاء بها، وتقديسها، أما التوبة ففيها نبذ العهود، وذلك من خلال تفصيل أوضاع المنافقين في المدينة؛ الذين نقضوا العهود؛ فكشف الله خباياهم، وفضح أسرارهم، يقول البقاعي: " سورة الأنفال تفصيلٌ لقصته ﷺ، وهي قصته في أول أمره، أما سورة التوبة فهي قصة أخر أمره ﷺ، دفعًا لتوهم أفضلية موسى عليه السلام؛

---

[١] حوّى، **الأساس في التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٥٢.
[٢] السيوطي، **ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص٦٢ السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص ٤٩.
[٣] رضا، **تفسير المنار**، مصدر سابق، ج ٧، ص٢٨٨.
[٤] المصدر السابق، ج ٧، ص٢٨٨.

لطول قصته مع قومه على سائر قصص الأنبياء مع أقوامهم؛ فخصّ طول الأنفال والتوبة بقصة محمد ﷺ طول باقي القصص؛ ليعلو شأن النبيّ الخاتم الأرفع القدر"[1].

وفي هاتين السورتين وضع أصول العلاقات الدوليّة الخارجيّة والداخليّة، وأحكام السلم والحرب، وأحوال المؤمنين الصادقين، والكفار، والمنافقين، فهي تتحدث عن المجتمع العربي بطوائفه، كما ذكرت صدَّ المشركين عن المسجد الحرام، وفيها الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وفصلت في قتال المشركين وأهل الكتاب، كما بينت حال المنافقين وأوضاعهم، كل ذلك وهما سورتان منفصلتان، فهما كما يبدو متناسبتان تناسبًا يوحي باتصالهما. وبهذا تم الثلث الأول من القرآن وقد ناقش جميع متطلبات إقامة مجتمع آمن في مختلف الظروف والبيئات والطوائف.

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز في اتصال السور السابقة: " ولسوف تحسب أنّ السبع الطُّوَال من سور القرآن قد نزلت نجومًا، أو لتقولن إنّها إنْ كانت بعدَ تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده؛ فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قُدِّرت أبعاده، ورقِّمت لبناته، ثم فُرِّق أنقاضًا، فلم تلبث كل لبنة منه أنْ عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشدّ بعضه بعضًا كهيئته أول مرة"[2]. بل نجد ذلك في الثلث الأول من القرآن كاملاً، ثم ترتبط السور الأخرى بخيوط مشابكة تقوى وتغلظ حينًا، وترق أحيانًا.

وسأخص الحديث بالتفصيل المناسبة بين سورة المائدة وسورتي النساء والأنعام خاصة وذلك لالتصاقهما بها، فإحداهما قبلها، والثانية بعدها، ثم سأنتقل لباقي السور مما يأتلف مع موضوعات سورة المائدة.

ثانيًا: علاقة سورة المائدة بسورة النساء

إنّ افتتاح كل سورة من سور القرآن مناسب لخاتمة السورة التي قبلها عمومًا قال السيوطي في بيان ذلك: " سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا، فالصريح: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد الإيمان، وعقد المعاهدة والأمان، والضمني عقد الوصية، الوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا) (النساء:٥٨)، فناسب أنْ يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، وكأنّه

---

[1] البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، ج ٣، ص١٨٢.
[2] دراز، النبأ العظيم، مصدر سابق، ص ١٥٤-١٥٥.

قيـل: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ) (المائدة: ١)، التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت، فكان ذلك في غاية التلاحم والتناسق والارتباط"[١].

ومما قيل في مناسبة سورة المائدة بعد النساء، قول الكواشي:" لما ختم سورة النساء آمرًا بالتوحيد والعدل بين العباد، أكّد ذلك بقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ) (المائدة: ١)[٢].

ويقول: " وختمت المائدة بصفة القدرة كما افتتحت النساء بذلك، فافتتحت النساء ببدء الخلق وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، وكأنّهما سورة واحدة اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى"[٣]. ويقول أبو حيان في هذا الموضوع: " لما ذكر استفتاءهم في الكلالة، وأفتاهم فيها، ذكر أنّه بيّن لهم كراهة الضلال، فبين في هذه السورة أحكامًا كثيرة هي تفصيل لذلك المجمل"[٤]؛ فجاءت هذه الآية متوسطة بين العقود في سورة النساء والأخرى التي في سورة المائدة، لتؤكد أهمية الوفاء بها، فهي ليست مجرد سرد خالٍ من التكليف، بل جاءت لشحذ الهمم في الإجابة والمطاوعة، ليتنبه السامع إلى ما سيجيء بعد ذلك.

وأضاف البقاعي: " لما أخبر تعالى في آخر سورة النساء أنّ اليهود لما نقضوا المواثيق التي أخذها عليهم حرّم عليهم طيبات أحلت لهم من كثير من بهيمة الأنعام المشار إليها بقوله: (وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍۖ) (الأنعام:١٤٦)؛ ناسب افتتاح هذه السورة بأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود، وأخبرهم بتحليل الطيبات لهم"[٥]؛ فحرّم على اليهود الطيبات بسبب نقضهم للعهود، وبالمقابل أنتم أيها المؤمنون أحلت لكم الطيبات؛ فأوفوا بالعقود.

وذكر البقاعي سببًا آخر وهو أنّه " افتتح المائدة بذكر الأطعمة عقب مودة النساء التي هي من أعظم مقاصد النكاح، والإرث المتضمن للموت فيهما الولائهم والمآتم أتم مناسبة"[٦].

ومنها أنّه تعالى ذكر الميراث في آخر النساء، وهو تنظيم العلاقة مع الآخرين ابتداء من العقود، ثم بيان شعائر الله في الحج، والعدل وعدم الاعتداء، وبيان الحلال والحرام بين المسلمين وغيرهم[٧]. فجاءت خاتمة النساء في تنظيم العلاقات المالية بين الأقرباء من خلال تقسيم الإرث بينهم، وجاءت سورة المائدة فذكرت العلاقة مع الآخرين، وذلك من خلال ذكر بعض الشعائر التي

١ السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص٤٨.
٢ السيوطي، **معترك الأقران**، مصدر سابق، ج١، ص٦٦.
٣ السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص٤٩.
٤ الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٢٧.
٥ انظر: البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٨٤-٢٨٥.
٦ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٨٦.
٧ السيوطي (١٩٨٣). **أسرار ترتيب القرآن**، (تحقيق: عبد القادر أحمد عطا)، د. ط، ص ١١٨، دار السلامة، تونس.

تشير من وجه آخر إلى العلاقات في حال إنتفاء هذه الشعائر، وهذا من تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع عمومًا، فصارت السورتان تنظيم العلاقات بين الداخل والخارج.

ومنها كذلك ما يقوله السامرائي: " خاتمة النساء في هلاك الإنسان والاستفادة من مالة، والاستفادة مما ترك، وبداية المائدة في إهلاك الأنعام والاستفادة منها صوف ولحم، فالرابط بينهما الاستفادة مما ترك ومما تركت، تلك استفادة في الأموال، وهذه بالأصواف والأشعار واللحوم"[١].

وقال أيضًا: " خاتمة النساء في تقسيم الأموال، وأول المائدة في صرف الأموال ابتداء من الأطعمة، وهي أول ما يحتاج إليه الإنسان، فذكر ما يحل له وما يحرم عليه، فهي مترابطة"[٢]، فبين إذا حصل الإنسان على مال فما أوجه صرفه له فيما يحل.

وربما يكون وجه ذكر هلاك الإنسان وتقسيم إرثه، ثم الأمر بالوفاء بالعقود تذكير له بأنّ عليه أنْ يفي بما مرّ من العقود لأنّ نهايته الموت، وماله لن ينفعه بل سيؤول إلى آخرين، أما تحليل الطيبات بعد ذلك فهو فضل الله على من يؤدي حقه في أمره ونهيه؛ فسورة المائدة امتداد لسورة النساء، إذ احتوت السورتان على أحكام شرعية تتعلق بأمور الدين والدنيا بكل الأحوال التي يمكن أنْ يمر بها الإنسان؛ مع نفسه، ومع الآخرين، من مسلمين وغير مسلمين، ومع الله تعالى أيضًا.

وقال الزركشي في وجه تقديم النساء على المائدة: " أنّ الأحكام التي في سورة النساء وخاصة فيما يتعلق بالمرأة، والمرأة أهم في الحياة العملية، وأولى بالتقديم من الأحكام المذكورة في هذه السورة (يعني المائدة)"[٣]. وإنْ كان ذلك كذلك فأقول إنّ المرأة ترمز إلى الأسرة، وصلاح البيوت من صلاحهنّ، وقد كانت المرأة مهمّشة في الجاهلية، فأُعطيت حقها في سورة النساء، وبينت حقوقها ومنها انتقل إلى المجتمع الناشئ عن تلك الأسرة.

وقال السيوطي في مناسبة تقديم سورة النساء على سورة المائدة: " وهو أنّ تلك (يقصد النساء) أولها: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب الكفار، وتنزيل المكي، وهذه (يقصد المائدة) أولها: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)، وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب المدني، وتقديم العام وشبه المكي أنسب"[٤]؛ فاعتمد في تعليل تقديم النساء على المائدة على قياس نزول القرآن، بالرغم من أنّ السور السابقة لسورة النساء كلها مدنيّة، لكن ابتداء

---

١ السامرائي، فاضل، **لمسات بيانية في سورة المائدة**، بحث منشورعلى شبكة الإنترنت www.startimes.com/f.aspx?t=٣٢٩٩٧٢٨٠

٢ المصدر السابق نفسه.

٣ ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم، (١٩٩٠)، **البرهان في ترتيب سور القرآن**، (تحقيق: محمد شعباني)، حاشية (٩١)، ص٢٠١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

٤ المصدر السابق نفسه، وانظر: السيوطي، **ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص٦١.

النساء يشير إلى عموم الناس، أما المائدة فتشير إلى فئة معيّنة، فكان كالانتقال من العام إلى الخاص، إذ جاءت سورة النساء بتنظيم العلاقات بين الناس؛ فدعتهم للتقوى في ذلك، فابتدأت بالأرحام وانتقلت إلى النساء، حيث نظمت العلاقات بين أفراد الأسرة، ثم أفراد العائلة، ثم أفراد المجتمع، في حالات متنوعة، وبجميع أطيافه المختلفة من مسلمين، ويهود، ونصارى، ومشركين، ومنافقين؛ كل فريق منهم يحتاج إلى سياسة وحكمة تختلف عن الآخر، فكشفت خفايا أعداء المسلمين، وحذّرت من موالاتهم، ودعت إلى الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، حتى يستقيم المجتمع الإسلامي.

ثالثًا: علاقة سورة المائدة بسورة الأنعام

يرى ابن الزبير والبقاعي أنّ محاجّة المشركين من العرب، بل والإشارة إلى إبطال جميع أنواع الشرك سبق في سورة المائدة، إذ بيّنت صممهم عن الداعي، وعماهم عن الآيات، أما سورة الأنعام فقد ردّت على بقية الفرق؛ وهم الثنويّة، والمجوس، وهؤلاء يقولون بإلهين اثنين وبأصلين: النور والظلمة، قال عنهم ابن الزبير: إنّهم " طائفة أومأت إلى النظر والاعتبار، فلم توفق لإصابة الحق، وقصرت عن الاستضاءة بأنوار الهدى، وليسوا ممن يرجع إلى شريعة قد حرّفت وغُيّرت، بل هم في صورة من هَمَّ أنْ يهتدي بهدى الفطرة، ويستدل بما بسط الله تعالى في المخلوقات، فلم يمعن النظر، ولم يوفق، فضلّ وهم المجوس، وسائر الثنويّة، ولم يكن تقدم لهؤلاء ذكر ولا أخبار بحال"[١].

وأضاف البقاعي إلى ذلك الصابئة القائلون بالأوثان السماوية، والأصناف الأرضيّة، متوسطين إلى رب الأرباب، وينكرون الرسالة في الصورة البشرية، وأصحاب الروحانيات، مدبرات الكواكب والأفلاك، والسمنيّة القائلون بإلهية الشمس"[٢]، فهذه الفرق ذُكرت ورُدّ عليها ببيان ضلالها.

ويقول السيوطي: " افتتحت سورة الأنعام بالحمد، فإنّه مناسب لختام المائدة من فصل القضاء كما قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]"[٤].

وفصّل علاقة آخر آية من سورة المائدة بما احتوت عليه سورة الأنعام، فقال:" إنّه لمّا ذكر في آخر المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ على سبيل الإجمال،

---

[١] ابن الزبير، **البرهان في ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص٢٠٤.
[٢] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٥٨٠.
[٣] (الزمر: ٧٥).
[٤] السيوطي، **معترك الأقران**، مصدر سابق، ج١، ص ٦٦-٦٧.

افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله"[١]، وقال: " فبدأ بذكر خلق السماوات والأرض، وضمّ إليه أنّه جعل الظلمات والنور، وضمّن قوله: (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ)[٢]، أنّ له ملك جميع المحامد؛ وهو من بسط (لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ)[٣]، ثم ذكر خلق النوع الإنسانيّ، وقضى له أجلاً، وآخر للبعث، ثم ذكر أنّه خلق سائر الحيوان من الدواب والطير، ثم خلق النوم واليقظة، والموت والحياة، وأكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء؛ لما فيهن من النيّرين والنجوم وفلق الإصباح وفلق الحب والنوى...، وقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها، وما يتعلق بها، وما يرجع إليها الذي هو تفصيل: (لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ)[٤]"[٥].

وبما أنّ سورة المائدة قد تضمّنت أحكام المطعومات المحرمة والذبائح، وفيها الرد على أهل الجاهلية التي حرمت بعض الأنعام تقربا إلى الأوثان، فكان من مقاصد السورة الرد على الكفار، "فأخبر أنّهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله افتراء على الله، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أنْ يحرموا شيئًا مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار، فساق في سورة الأنعام بيان لما حرمه الكفار، فأتى به على الوجه الأبين، والنمط الأكمل، فكانت هذه السورة شرحًا لما تضمنته المائدة"[٦]، إذ أظهر الله بطلان ما جاؤوا به وناقضهم وعارضهم.

وقال الألوسي إنّه: " لما ختم تعالى بتمجيد عيسى لجلاله في ذلك اليوم في ذلك الجمع، ثم تحميد نفسه المقدسة بشمول الملك والقدرة، افتتح هذه السورة بالإخبار بأنّ ذلك العهد وغيره من المحامد مستحق له استحقاقًا ثابتًا دائمًا؛ قبل إيجاد الخلق وبعده، لذا جاء بالجملة الاسمية المفتتحة باسم الحمد الكلي الجامع لأنواعهن، الدالة على الاستغراق"[٧].

ومن التناسب بينهما في الأحكام يقول الشيخ محمد رشيد رضا: " إنّ سورة الأنعام قد ذكرت أحكام الأطعمة المحرمة في دين الله والذبائح بالإجمال، وسورة المائدة ذكرت ذلك بالتفصيل"[٨]، وكذلك قال: " ما في سورة الأنعام من الكلام على محرمات الطعام عند المشركين، وما في المائدة من الكلام على طعام أهل الكتاب"[٩]. ففي سورة المائدة حلّل الله طعام أهل الكتاب،

---

١ السيوطي، **ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص ٦٣.
٢ (الأنعام: ١).
٣ (المائدة: ١٢٠).
٤ (المائدة: ١٢٠).
٥ السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص٥٠، وانظر: السيوطي، **ترتيب سور القرآن**، مصدر سابق، ص ٦٣.
٦ انظر: السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ص٨٤٢-٨٤٣، وانظر: السيوطي، **تناسق الدرر**، مصدر سابق، ص٨٥.
٧ الألوسي، **روح المعاني** ، مصدر سابق،ج ٧، ص٩٩.
٨ رضا، **تفسير المنار**، مصدر سابق، ج ٧، ص٢٨٩.
٩ المصدر السابق نفسه.

وفي سورة الأنعام فصّل ما حرّمه المشركون من الأنعام، فالمائدة أجملت الطيبات والأنعام فصّلتها، بل زادت عليها ما جاء من طيبات النباتات، كثمار الأشجار وهذا ما لم يرد في المائدة.
وأضاف: " أنّ ركن المناسبة الأعظم بين سورتي المائدة والأنعام أنّ المائدة معظمها في محاجة أهل الكتاب والأنعام معظمهما بل كلها في محاجة المشركين"[1].

إنّ الترابط النصي بين السور كبير، وذلك من حيث علاقة السورة وارتباطها بما قبلها وما بعدها، وعلاقة مقاصد السورة السابقة وأغراضها ؛ بمقاصد السورة اللاحقة وأغراضها، ويترتب على ذلك الاشتراك في المعنى، وتكميله، أو التوسع فيه، فيكون في السورة المتقدمة إجمال للموضوعات، ويكون تفصيلها في السورة المتأخرة، أو قد تشترك السورتان في الأحكام والتشريعات، وبهذا تكون اللاحقة متمّمة للسابقة في المضمون، ومكملة لمعناها؛ إذ تبتدئ السورة اللاحقة بما ختمت به السورة السابقة، ويكون ذلك من أوكد علاقات الربط التي تجعل النص القرآني كالكلمة الواحدة، وهو ما يثبت تعانق السور القرآنية واتحادها، وبيان أهمية الترتيب المضموني في اتحاد السور فيما بينها.

رابعًا: علاقة سورة المائدة بسورتي الممتحنة والحجرات:

لم تبدأ سورة من سور القرآن بقوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) سوى ثلاث سور هي: المائدة، والحجرات، والممتحنة؛ ولا بدّ أنْ يكون هناك شيء من الاشتراك بين هذه السور الثلاثة من حيث المحتوى والموضوعات.

١. علاقة سورة المائدة بسورة الممتحنة

أما سورة الممتحنة فقد ذكرت المعاهدين من المشركين، وقد سبقتها سورة الحشر التي ذكرت المعاهدين من أهل الكتاب، " وافتتحت السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء؛ لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك، وكرر ذلك وبسطه إلى أنْ ختم به، فكانت في غاية الاتصال"[2].
وسميت السورة بذلك لأنّ فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين مهاجرات إلى المدينة.
أما السورة فقد " اشتملت على تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء، لكفرهم بالدين الحق، ولأنّهم أخرجوهم من بلادهم، وأعلمهم بأنّ اتخاذهم أولياء ضلال، وأنّهم لو تمكنوا من

---
[1] رضا، **تفسير المنار**، مصدر سابق، ج ٧، ص٢٨٩.
[2] السيوطي، **أسرار ترتيب القرآن**، مصدر سابق، ص ١٣٧.

المؤمنين؛ لأساؤوا إليهم بالفعل والقول، وأنّ ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة؛ لا يُعتدّ به تجاه العداوة في الدين، وضرب لهم مثلاً في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه، وأردف ذلك باستئناس المؤمنين بالرجاء من أنْ تحصل مودة بينهم وبين الذين أمر الله بمعاداتهم، فقد تكون هذه المعاداة غير دائمة، وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين، ولا أخرجوهم من ديارهم، وذكر حكم المؤمنات اللاتي يأتين مهاجرات، وأهمية اختبار صدق إيمانهن، وأنْ يُحفظن من الرجوع إلى دار الشرك، ويعوّض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور، ويقع الترادّ كذلك مع المشركين، كما أخبر عن مبايعة المؤمنات المهاجرات؛ ليُعرف التزامهن بأحكام الشريعة الإسلامية، وحرّم تزوّج المسلمين من المشركات، ونهى عن موالاة اليهود ولأنّهم أشبهوا المشركين بالعداء لهم ولدين الله[1]. فكل هذه الأمور تشريعات ربانية، وتوجيه لسلوكيات معينة تجاه المشركين، وكانت التوجيهات في سورة المائدة تجاه اليهود والنصارى.

واحتوت هذه السورة على ثلاثة نداءات بقوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)، الأول منها في المطلع، يحذر الله من موالاة الأعداء وهم الكفار، وقد ظهرت عداوتهم؛ إذ أخرجوهم من أرضهم وبلادهم.
أما النداء الثاني فهو لامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكّد من صدق إيمانهن.
والنداء الثالث في الآية الأخيرة من السورة يحذرهم من موالاة من غضب الله عليهم، وهذا يشمل جميع أنواع الكفار، وهذا متصل بسورة المائدة من حيث إنّه مؤدٍ لما جاءت به السورة من التحذير من موالاة اليهود والنصارى والكافرين، والدعوة إلى تخصيص الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢. علاقة سورة المائدة بسورة الحجرات

ذكر فيها النداء بـ (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) خمس مرات، في كل مرة يرشد إلى مكرمة من مكارم الأخلاق،" وفي مطلعها أنواع من التشريف للنبي ﷺ"[2]. وذكر فيها قتال البغاة في قوله: (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا...) (الحجرات:٩).

يقول ابن عاشور: " وهي مدنيّة، وأغراضها: تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ﷺ في معاملته وخطابه وندائه، ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقًا؛ وأنّ ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٨، ص١٣١-١٣٢.
[2] السيوطي، **أسرار ترتيب القرآن**، مصدر سابق، ص ١٣٢.

يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنّهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة في أحوالهم في السر والعلن، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خُلُق الكفر في بعض جفاة الأعراب؛ تقويما لأود نفوسهم"[1]. ففيها توجيه للمسلمين مع بعضهم بعضًا، ومع النبي ﷺ، وبهذا يكتمل التوجيه في العلاقات مع جميع الفئات.

والنداءات الخمسة في سورة الحجرات تحمل أوامر ونواهٍ؛ ليتخلق بها المؤمنون، أو ليجتنبوها، وأولها: الأدب مع رسول الله ﷺ،بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا يتقدموا بين يديه.

والنداء الثاني: الأدب في خطاب النبي ﷺ، بغض الصوت في حضرته، وعدم الجهر له بالقول.

والنداء الثالث: التثبّت والتبيّن من الأخبار، فلا تقبل رواية من أحد إلا بعد التأكد من صدقه.

والنداء الرابع: يتعلق في حق من حقوق المؤمنين مع بعضهم البعض، فهو يدعو إلى تجنب السخرية والتنابز بالألقاب.

والنداء الخامس: يتعلق أيضًا بحقوق المؤمنين، فهو يدعو إلى تجنّب الظن السيء، والابتعاد عن التجسس والغيبة.

فإنْ كانت سورة المائدة تنظم علاقة المسلمين مع غيرهم من أفراد المجتمع من غير المسلمين كاليهود والنصارى والمشركين والمنافقين؛ فقد ارتبطت هذه السورة بها من حيث إنّها تنظم علاقة المسلمين بعضهم ببعض؛ ليسود في المجتمع الأمن والسلام والمحبة والمودة.

ومن هنا نلاحظ أنّه لا تكفي معرفة المناسبات بين السور للوقوف على الموضوعات المطروحة فيها، إذ قد تأتي هذه الموضوعات في سور أخرى، فكل سورة مجملة لما بعدها، حيث تعالج جزءًا من الموضوع بحسب ما يقتضيه سياقها، وتمهد به للسورة التالية، التي تعالجها بتفصيل أكبر من قبل كما يقتضيه سياقها، يقول الشاطبي: " وهل للقرآن مأخذ في النظر على أنّ جميع سوره كلام واحد بحسب خطاب العباد، أي: يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما، وذلك أنّه يبيّن بعضه بعضًا، حتى إنّ كثيرًا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى، ولأنّ كل منصوص عليه فيه من أنواع الضروريات مثلاً مقيدًا بالحاجيات، فإذا كان ذلك كذلك، فبعضه متوقف على بعض في الفهم"[2].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢١٣-٢١٤.
[2] الشاطبي، **الموافقات**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٢٠.

الفصل الثالث:

ألوان الخطاب في سورة المائدة وخصائصه

تمهيد

المبحث الأول: خطاب الله ﷻ للأنبياء

أولا: خطاب الله ﷻ للرسول ﷺ

ثانيًا: خطاب الله ﷻ لموسى عليه السلام

ثالثًا: خطاب الله ﷻ لعيسى عليه السلام

المبحث الثاني: خطاب الله ﷻ للأقوام

أولا: خطاب الله ﷻ للمؤمنين

ثانيًا: خطاب الله ﷻ لبني إسرائيل

ثالثًا: خطاب الله ﷻ للنصارى

رابعًا: خطاب الله ﷻ لأهل الكتاب

المبحث الثالث: خطاب الأقوام لبعضهم

أ- خطاب المؤمنين مع اليهود

ب- خطاب المؤمنين مع النصارى

المبحث الرابع: الخطاب القصصي

أولا: قصة ابني آدم عليه السلام

ثانيًا: قصة موسى عليه السلام مع قومه

ثالثًا: قصة عيسى عليه السلام

تمهيد

يتنوع الخطاب في سورة المائدة تنوعًا شاملاً لأكثر الأجناس البشرية من الناحية الدينية، فهناك خطاب من الله تعالى لعباده على اختلاف أنواعهم، وهناك خطابٌ من العبادِ لربهم، فقد خاطبه المرسلون كما خاطبه المؤمنون، وهناك خطاب متبادل بين الأنبياء وأقوامهم، فقد خاطب موسى ﷺ قومه، وكذلك عيسى ﷺ، أما خطاب النبي ﷺ لقومه فلم يكن ظاهرًا،لأنّ الله ﷻ خاطبهم مباشرة، وخصّهم بهذه الميّزة، بينما خاطب غيرهم من المشركين، والمنافقين، واليهود، والنصارى، مُتنقّلاً بين الخطاب المباشر، والخطاب غير المباشر؛ فيُسبق الخطاب بقوله تعالى: (قل)، وذلك بأمر من الله ﷻ إلى النبي ﷺ؛ لأنّه بهذه الطريقة يكشف كذبهم، ونفاقهم، ويظهر خفايا حقائقهم.

أما الظروف المحيطة بأشكال الخطاب وتنوع أصحابه، فقد ظهرت من خلال الوقائع التاريخية الحاصلة آنذاك؛ وهو ما يسمى في علوم القرآن بأسباب النزول، حيث كان الخطاب الموجه لفئة من المخاطبين تكشف عن حقيقة الواقع الاجتماعي في فترة ما من فترات البعثة المحمدية، فأظهرت الآيات مُجْتَمَعَاتٍ عدّة، وعقائدَ مختلفة لكل منها، وهي: المجتمع الجاهلي، والمجتمع المسلم المتولد منه، ومجتمع اليهود، ومجتمع النصارى.

ومما يلاحظ حول تنوع الخطاب القرآني؛ تنوع الأسلوب اللغوي الذي صِيغ به كل خطاب، إذ إن المخاطَب أحد العناصر الرئيسية للخطاب، والأمور المتعلقة بطبيعته ونفسيته لها دور في استخدام أسلوب معين لمخاطبته، فيختلف خطاب اليهود، عن خطاب النصارى، عن خطاب المسلمين، كما أن المسلمين أنفسهم يختلف أسلوب خطابهم؛ تبعًا لاختلاف ظروف الخطاب من أمر، ونهي، واستفهام وغير ذلك.

كما يلاحظ أيضًا أن الخطاب القرآني ربط المعاصرين بالسابقين، فقد ربط أهل الإسلام بما فعله أهل الجاهلية من ناحية، وربط النصارى المزامنين لعيسى ﷺ بذكر النصارى الذين تأخروا عنه، وابتعدوا عن النصرانية الحقّة، وذكر أحوال من آمن منهم بالنبي ﷺ، وكذلك اليهود ذكر أحوالهم مع موسى ﷺ، ومن جاء بعده من الأنبياء، كما ذكر أحوالهم بعد تحريف الكتاب، ومن ثم ذكر أحوالهم مع النبي ﷺ والمؤمنين، وذكر أحوال من آمن منهم بالنبي ﷺ.

فخِطاب الحاضرين يستدعي خطاب أسلافهم، والتذكير بمخالفاتهم، فقد جاءت السورة لتثبيت العقيدة الصحيحة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، والرد على شبهات كل من اليهود والنصارى حول أنفسهم، وحول المسلمين.

المبحث الأول: خطاب الله ﷻ للأنبياء

أولا: خطاب الله ﷻ للرسول ﷺ

- **الرسول والنبيّ:**

لم يناذَ النبي ﷺ في القرآن الكريم باسمه؛ فلم يقع النداء بـ (محمد) كما نودي سائر الأنبياء كقوله: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، بل نودي ﷺ بـ (يا أيّها النبي)، و(يا أيّها الرسول) تكريمًا له، وتزكية لمقامه الشريف، وتخصيصًا له بذلك عمّن سواه.

وقد وردت كلمة (الرسول) في مائتين وستة وثلاثين موضعًا، بينما وردت كلمة (النبيّ) في ثلاث وأربعين موضعًا[1]؛ فالرسول أخص من النبي، " لأن كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا، ولكن عندما نتعرف إلى معنى كل كلمة منهما نجد أن الرسول – في المهمة التي أسندت إليه – أعمّ وأشمل من النبي"[2]؛ فقد فرّق العلماء بين دلالة لفظتي النبي والرسول، يقول الرازي: " ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا، أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أُمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

والثاني: إنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونَسَخَ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول.

والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا، وأُمر بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك؛ بل رأى في النوم كونه رسولاً، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله؛ فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى"[3]، وكل ما ذكره يصب في معنىً واحدٍ، فمن أُنزل عليه كتاب، ومعه معجزة، وكان شرع الكتاب ناسخًا لما قبله من الشرائع، كلها أمور ظاهرة تستوجب التغيير وهذه هي الرسالة، أما من تَبِع من قبله من خلال تبليغه له بأنه رسول؛ ليكمل مسيرته فهو لم يأت بجديد، بل استمر على شرع من قبله، واتّبع كتابه، فهو النبيّ الذي لم يرسل إليه الوحي المتمثل في جبريل عليه السلام، فالخطاب بالرسالة يستدعي القيام بمستلزماتها، والخطاب بالنبوّة فيه توجيه ونصح، ولكل منهما سياقه الخاص، يقول الزركشي: " ولهذا تجد الخطاب بالنبيّ في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه"[4].

والتنصيص على (الرسول) يكون في مقامات كثيرة قد يكون على رأسها الرد على من ينكر

---

[1] انظر:عبد الباقي، محمود فؤاد(٢٠٠٢).**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، د.ط، مادتي: رسل، و نبي، دار الحديث.

[2] أبو عودة (١٩٨٥)، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، دراسة دلالية مقارنة**، ط١، ص ١٢٨، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.

[3] تفسير الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٥٠.

[4] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٩.

كون الرسول مرسلاً بشرع الله؛ فيجيء خطابه ونداؤه بذلك رغمًا لهذا المُنكِر، ويجيء أيضًا في مقامات الإبلاغ، والأمر بتوصيل أمانة السماء إلى من أُرسل إليهم، ويأتي أيضًا في مقامات تحديد المكانة وبيان المنزلة؛ فقد خاطبه تعالى بصفة الرسالة في موضعين في سورة المائدة، في المرة الأولى كان خطابَ مواساةٍ وتسليةٍ له فقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ...) (المائدة:٤١)، مثبتًا له صفة الرسالة، مخاطبًا له بها؛ لكون السياق في معرض الحديث عن اليهود، وصفاتهم، وأعمالهم القبيحة في حقّه ﷺ، وهم منكرون لهذه الصفة، وأعمالهم كلها لإعاقة انتشار الدعوة الإسلامية، أما في المرة الثانية فكان الخطاب خطاب تشجيع وحث على التبليغ، ومواصلة الدعوة إلى الله، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ...) (المائدة:٦٧)، فَعَلَيْهِ القيامُ بمتطلباتها، وعدم خشية الناس، فهو يذكّره من خلال هذه الصفة بأهمية مواصلة التبليغ، والثبات عليه، فهو المأمور بالتبليغ، وهذا واجبه، والخطاب بوصف الرسالة والنبوة فيه مدح وتكريم.

أما خطابه بوصف النبوة، فقد تواتر ثلاث عشرة مرة، بدلالات سياقية مختلفة كما يلي:

١. خطاب التشريف والتكريم له [١].

٢. خطاب توجيه المعاملات المختلفة والتشريع[٢].

٣. الخطاب في قضايا الجهاد[٣].

---

[١] وذلك في عدة مواطن هي: خطاب تبشيره وتطمينه بكفالة الله تعالى له، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) (الانفال:٦٤)، وخطاب ملاطفته بالعتاب، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) (التحريم:١)، وخطاب تشريفه بالدعوة والشهادة على الخير، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا) (الاحزاب:٤٥)، وخطاب النصح له، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا) (الاحزاب:٢٨)، وخطاب الحث على الاستزادة من التقوى، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا) (الاحزاب:١).

[٢] وذلك في عدة مواطن هي: الخطاب المتضمن أحكام الطلاق، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ...) (الطلاق:١)، والخطاب المتضمن شروط مبايعة الوافدات، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا...) (الممتحنة:١٢)، والخطاب التشريعي لأحكام زواجه ﷺ، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ...) (الأحزاب:٥٠)، والخطاب التشريعي للحجاب، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ...) (الأحزاب:٥٩).

[٣] وذلك في عدة مواطن هي: خطاب التحريض على الجهاد، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ...) (الانفال:٦٥)، وخطاب الكشف عن سرائر الأسرى، قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ) (الانفال:٧٠)، وخطاب الحث على جهاد الكفار والمنافقين، قال تعالى:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ) (التوبة:٧٣)، (التحريم:٩).

وكان خطاب الله للنبي ﷺ يتراوح بين الخطاب المباشر، والخطاب غير المباشر، فالخطاب المباشر يظهر من خلال استعمال الضمائر؛ سواء ضمائر المخاطب، أو الغائب، بينما نلحظ الخطاب غير المباشر من خلال الحديث عن الأمم الأخرى، وذكر أفعالهم، وتفصيل عاقبتهم، ونلاحظ تداخل الخطاب أحيانًا، إذ ينتقل الخطاب من السياق المباشر إلى السياق غير المباشر، ثم يعود مرة أخرى للمباشر أو العكس، إذ إن القرآن وحيٌ من الله تعالى للنبي ﷺ، وكل ما فيه موجه له ﷺ ليبلغه للناس، ونتيجة لذلك تظهر لنا المشاهد القديمة كأنّها حاصلة الآن من خلال مخاطبة النبي ﷺ؛ للتشريع أو للتذكير أو للوعظ والإرشاد.

ومن ذلك إخباره ﷺ بأخذ المواثيق على بني إسرائيل، ثم انتقل الخطاب إليهم، ثم عاد إلى النبي ﷺ فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...) (المائدة:١٢-١٣)، ومثل ذلك مع النصارى فقال: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ ...) (المائدة:١٤).

وكان خطاب النبي ﷺ في هذه السورة بين أمر ونهي، ردًا وتوجيهًا على أفعال اليهود، يُظهر ما خفي من المواقف والحوارات التي لم تظهر نصًا في الآيات إلا قليلاً، وهذا من باب الاحتباك، وهو ضرب من إيجاز الحذف، وأسلوب من أساليب البيان القرآني، حيث يترك الموقف المشاهد للنبي ﷺ ومن معه، فهو معروف عندهم؛ فلم يذكره اجتنابًا للتكرار من جهة، وليقاس عليه أمثاله من جهة أخرى، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝) (المائدة:٤١-٤٢)، فنهاه تعالى عن التأثر بأفعال منافقي اليهود، وخرج النهي مخرج التأنيس والتسلية عنه ﷺ، بسبب ما كان يلقى من طوائف المنافقين وبني إسرائيل[1]، فهم يُحزنون النبي ﷺ، والنهي عن فعل الغير إنما هو نهي عن أسبابه، فهو نهي عن التأثر بما يلقاه منهم، وعبر بذلك من خلال استعمال المجاز، فنهاه عن الحزن بسبب أفعالهم التي تدل على استغراقهم في الكفر، يقول ابن عاشور: " وإسناد

---

[1] انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج ٢، ص١٩٠.

الإحزان إلى الذين يسارعون في الكفر مجاز عقلي ليست له حقيقة، لأنّ الذين يسارعون سبب في الإحزان، وأما مثير الحزن في نفس المحزون فهو غير معروف في العرف"[١]، وهذا من أبدع المعاني التي تعبر عن حقيقة أفعال اليهود مع النبي ﷺ من جهة، وحقيقة ما آل بالنبي ﷺ نتيجة أفعالهم تلك من جهة أخرى.

واحتوت هذه الآية على الوقف المتعانق (تعانق الوقف)؛ وهذا مما له أثر في الدلالة، فعند الوقف على قوله: (وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ) فيه نهي عن التأثر والمبالاة بأفعال المنافقين أو اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقًا، ويذكر أصنافهم من حيث السماع، فقال: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)؛ فمنهم (سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ)، ومنهم (سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ)، أما عند الوقف على قوله: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟)، يكون ما بعده كلامًا جديدًا، وهو قوله: (سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ)؛ حيث وصف الجميع، المنافقين واليهود، بهذين الوصفين[٢]، وهذا من بدائع القرآن.

وذكر لأفعالهم فقال: (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟)، وبهذا كشف عن مؤامراتهم التي يحوكونها في الخفاء من جهة قبول ما يناسبهم من الأحكام وعدم قبول بعضها الآخر، وهذا يدل على عدم إيمانهم.

وقد خيّر الله ﷻ النبيَّ ﷺ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم عندما يتحاكمون إليه، وعرض ذلك بأسلوب اللف والنشر، فقوله سبحانه: (وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ)، وقوله: (وَإِنْ حَكَمْتَ) راجعان لقوله تعالى: (فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ)، " ووجه التخيير تعارض السببين، فسبب إقامة العدل يقتضي الحكم بينهم، وسبب معاملتهم بنقيض قصدهم من الاختبار، أو محاولة مصادقة الحكم لهواهم؛ يقتضي الإعراض عنهم؛ لئلا يُعرِّض الحكم النبويّ للاستخفاف"[٣]، فاستعمل الطباق لتوضيح الصورة وضدّها؛ فالأمر في قوله تعالى: (احكم، أعرض) للإباحة، وقد قدّم الأمر بالحكم على الإعراض؛ " إشارة إلى أن الحكم بينهم أولى"[٤]، بينما قدم حال الإعراض على حال الحكم فقال سبحانه: (وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٩٧.
[٢] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص٣٨.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٠٢-٢٠٣.
[٤] المصدر السابق، ج ٦، ص٢٠٣.

﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ " للمسارعة إلى بيان أنّه لا ضرر فيه؛ حيث كان مظنة لترتب العداوة، ولتطمين النبي ﷺ لئلا يقول في نفسه كيف أعرض عنهم فيتخذوا ذلك حجة علينا، يقولون ركنّا إليكم، ورضينا بحكمكم؛ فأعرضتم عنّا، فلا نسمع دعوتكم من بعد"[1]، ولذلك نكر (شَيْـًٔا) للتحقير، أي لن يضرّوه ولو ضررًا يسيرًا، وكل هذه الأساليب المتنوعة في الآية تعبر عن موقف كان بين النبي ﷺ واليهود فيما يتعلق بتطبيق شرع الله عليهم، وتكشف حرصه ﷺ على دخولهم في الإسلام، وفي المقابل توحي باستخفاف اليهود بالأمر الإلهي، وعدم قبوله، ومن ناحية أخرى تبيّن الآيات الرؤية الإلهيّة للموقف وأبعاده؛ فيخيّر الرسولَ ﷺ بين الحكم والإعراض؛ فذرائع اليهود مكشوفة هدفها إلحاق الأذى به ﷺ، والله ﷻ تكفل بحمايته ﷺ.

ونلاحظ من خلال الانتقال من صفاتهم، إلى تخيير الرسول ﷺ بالحكم بينهم؛ أنّ هناك مواقف حدثت وصولاً إلى ما بعد موقف طلب الحكم، وذلك يعني وجود حذف لهذه المواقف يستطيع القارئ تقديرها، وهناك حوارات حصلت بين النبي ﷺ وبين وفد اليهود الطالِبين للحكم لم تُذكر، وتظهر كل أحداثها من خلال الآية السابقة، وذلك أنّهم أرادوا الحكم بقضيّة القتل التي حصلت في بني قريضه وبني النضير، أو قضية الزاني المحصّن، ولم يحتكموا إلى التوراة؛ رغبة أنْ يجدوا في حكم النبي ﷺ التخفيف، وفي تكرار بعض المفردات مثل: (فاحكم، حكمت، أعرض، تعرض، القسط، المقسطين)؛ تكثيف لموسيقى الآية من خلال الجناس المماثل، والطباق؛ فصارت توحي بتشابك هذه القضية وتعقدها في نفس النبي ﷺ حينما جاءوا إليه، وتسرية ذلك عنه في النهاية.

وقال سبحانه ذامًّا لهم في موضع آخر: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (المائدة: ٦٢)، وعادة يستخدم لفظ المسارعة في الأمر بالخير، يقول تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (الأنبياء:٩٠)، وقال: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ (المؤمنون:٥٦)، فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة، إلا أنّه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة؛ وهي أنّهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات كأنّهم محقّون فيها[2]، وهذا عدول في استخدام الكلمة؛ ولاجرم أنّ تخير القرآن لألفاظ دون غيرها هو مقتضى البلاغة؛ ولو أردنا استبدال لفظة وضعت في سياقٍ بلفظة أخرى لم نجد أحسن منها في سياقها، فكل مفردة قرآنية وضعت بإحكامٍ تام لا تستطيع أنْ تعوضها أيّة مفردة أخرى في اللسان العربي، فهناك تركيبة إلهية خاصة في القرآن يميزه عن غيره من كلام البشر،

---

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٧٤. ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠٣.

[2] انظر: الرازي، التفسير الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٤٢.

والسياق هو الذي يعطي لكل عنصر أهميته بحيث يكون إسقاطه مبرزًا لهذه الأهمية أكثر من ذكره.

وقد ذمهم الله في مواضع لاحقة في السورة فقال: (لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ) (المائدة:٦٣)، وهنا خرجت (لولا) التي هي للتخضيض مخرج التوبيخ والذم، فخصّهم بالذكر، وذمّهم لكونهم لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر.

وهنا تتجلى دقة الأداء القرآني، فاختيار لفظ معين في غرض وفي الغرض نفسه يختار لفظًا آخر من أسرار التعبير القرآني؛ لأنّ القرآن في اختياره لألفاظه في بعض الآيات يؤدي معنىً معينًا؛ وفي الغرض نفسه يختار لفظًا آخر، فيتوهم السامع أنّ اللفظين سواء في الدلالة، ومثلان في المضمون؛ فلماذا عبر بهذا اللفظ هنا وعبر بهذا اللفظ هناك؟ فقد ذمهم في الآية الأولى بقوله: (لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)، وفي الثانية (لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ)، فكلمة (يصنعون) أدلُّ على التمكن في العمل من (يعملون) وأبلغ، فقيلت: (يعلمون) في العامة، وقيلت: (يصنعون) في الخاصة، وهم الربانيون والأحبار، " فالقول مقابلة الفعل، والقول عمل، والفعل عمل، وما دام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب في ذلك المجال، لذلك يقول الحق: (لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)"[1]، ولما أنّ العمل لا يبلغ درجة الصنع ما لم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة، ولذلك ذم خواصّهم ، لأنّهم وصلوا إلى هذه الدرجة من الاحتراف بعد تدرّب كبير، وبعد مراحل كثيرة، تدرجًا من تغيير الأحكام، وإعادة صياغتها، ونشرها، والعمل بها وفق الأشخاص، معتمدين على الاحتيال في أنّ هذا هو حكم التوراة، فقال تعالى عنهم: (تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) (الأنعام:٩١)، فهم يختارون منها ما يحتاجون إليه في ذلك الموقف؛ فصار ذلك مهنة وصناعة لهم، وعند البحث والوقوف على أسرار التنزيل نجد أنّ التعبير القرآني في كلا الموضعين أو المواضع كلها في محلّه، ووقع كل لفظ على شاكلته[2].

ومن خلال ذلك يثبت الله ﷻ صدق ما أتى به النبي ﷺ، وصدق رسالته؛ لأنّ ما جاء به من علم الغيب، ولا يعلمه إلا خاصة علمائهم وأحبارهم، فقال سبحانه: (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾) (المائدة:٤٣)، فالاستفهام هنا للاستنكار، والتعجيب، والاستبعاد، ومحل الاستنكار هو أصل ما يدلّ عليه الفعل من كون فاعله

---

[1] الشعراوي (١٩٩٧)، **تفسير الشعراوي**، د. ط ج٥، ص٣٢٦٠، د.ن.
[2] انظر: لاشين، عبد الفتاح (١٩٨٣)، **من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة**، د. ط، ص١٥٢، دار المريخ، الرياض .

جادًا، أي لا يكون تحكيمهم صادقًا، بل هو تحكيم صوري؛ يتبغون به ما يوافق هواهم؛ لأنّ لديهم التوراة فيها حكم ما حكّموك فيه، وهو حكم الله، وقد نبذوها لعدم موافقتها أهواءهم، ومحل العجب مضمون قوله: (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ)، أي من العجيب أنّهم يتركون كتابهم ويحكمونك، وهم غير مؤمنين بك، ثم يتولون بعد حكمك إذا لم يرضهم[1].

أما الاستبعاد فلكونه صدر ممن ليس هو أهلاً لأنْ يصدر عنه هذا الأمر، أو لانتفاء الأسباب التي تجعله صانعًا له، وسبب الاستبعاد هو قوله تعالى: (وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ)"[2].

وقد استخدم الفعل المضارع (يُحَكِّمُونَكَ) الذي يدل على التجدد؛ ليجعل ذلك ماثلاً في الأذهان بتكراره، فتتّضح صورة التعجب والاستبعاد، وقد عطف عليها قوله: (ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ)، بمعنى الرجوع الذي يعني الإعراض القلبي عما سمعوه من الحق، وظهر ذلك من خلال استعارة المحسوس، وهو التولي لمعقول وهو الإعراض عن الحق، بجامع الانتكاس في كل منهما، وفيه من التصوير والتجسيم ما لا يخفى، حيث صوّر إعراضهم وصدودهم حتى كأنّه يُرى بالعين، ولقد أبدعت هذه الاستعارة المكنية في تصوير الإعراض عن الحق، حيث تعمل الصورة الحركية على تلوين النص بالحيوية، وذلك بحسن اختيارها للألفاظ والأساليب التي وظفتها؛ لتمثّل المعنى المراد.

وقد وضع اسم الإشارة للبعيد موضع ضميرهم في قوله: (وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ)؛ " إشارة إلى بعدهم عن الحق والإيمان الصادق، وقصدًا إلى إحضارهم في الذهن بما وُصِفُوا به من القبائح، مع الإشارة إلى أنّهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تميّز؛ حتى انتظموا في سلك الأمور المشاهدة"[3]، ودخول الباء على المؤمنين، لتأكيد نفي الإيمان عنهم، وتوظيف هذا الحرف من وسائل الانسجام في النص بين التركيب والدلالة.

ثم يخاطب اللهُ النبيَ ﷺ مادحًا التوراة، ومبينًا علوّ شأنها، وموجبًا مراعاة أحكامها، فقال: (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾) (المائدة:٤٤)، وفي هذا الخطاب أُنزل المخاطَب غير المنكِر منزلة المخاطب المنكِر من خلال استعمال أسلوب التوكيد الذي يستعمل عادة للمنكِر، وفيه

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠٦.

[2] انظر: المطعني عبد العظيم (١٩٩٩)، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، ط١، ج ١، ص٢٥٤-٢٥٥، مكتبة وهبة، القاهرة.

[3] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٤١.

إطناب رائع من خلال توالي الجمل المركبة التي تصف التوراة، ثم الحاكمين بها، ثم المحكوم لهم، فقد مدح التوراة بأنّها هدىً ونور، وفي ذلك استعارة للبيان والحق، وتظهر فيه علاقة العموم والخصوص، ثم مدح العاملين بها؛ وهم الأنبياء، فيكون وصفهم بذلك تنزلاً من الأعلى إلى الأدنى؛ وفي ذلك تعريض باليهود والنصارى، فاليهود قالوا إنّ الأنبياء كانوا يهودًا، والنصارى قالوا إنّ الأنبياء كانوا نصارى، فبين تعالى أنّهم كانوا مسلمين، وفي ذلك رفع لشأن المسلمين، وتعريض باليهود كونهم بُعَداءَ عن الإسلام من جهة، وكونهم محرِّفين كتابهم من جهة أخرى[1]، وبيّن أنّها لم تزل مرعية بين الأنبياء ومن يقتدي بهم، ومحفوظة عن المخالفة والتبديل.

وفي قوله: (بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ) أي التوراة، إظهارٌ في مقام الإضمار، إذ قد تقدم ذكرها؛ ليتأتى التعريف بالإضافة المقيّدة؛ لتشريف التوراة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم الله تعالى[2]، وهو مدح آخر لها، واستعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة كما هو، فقد أوكل الله إليهم حفظ كتابهم من التغيير والكتمان، بينما تعهّد الله بحفظ القرآن الكريم فقال: (إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) (الحجر:٩).

ومن ثم ذكر تعالى إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ فقال: (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٤٨) (المائدة: ٤٨)، مخاطبًا له لتأكيد رسالته ونبوته التي أنكرتها اليهود، وكونه مصدقًا لما تقدمه إمّا من حيث إنّه نازل حسبما نُعت فيه، أو من حيث إنّه موافق له في القصص، والمواعيد، والدعوة إلى الحق والعدل بين الناس، والنهي عن المعاصي والفواحش[3]، أمّا تخصيصه بلفظ المهيمن، " لأنّ المهيمن هو المعنيّ بأمره، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، ولأنّه يدخل فيه ما ليس منه"[4]، فالقرآن جعله الله مهيمنًا على الكتب؛ يشهد بما فيها من الحقائق، فيصحح الحقائق المحرفة، فهو الشاهد على الصدق، وهو مصطلح قرآنيّ؛ وبدلالته الجديدة الحادثة في استعمال القرآن له، فلسان القرآن له

---

[1] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠٣، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٦.

[2] انظر:ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠٩.

[3] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٩

[4] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٩.

شكل ثابت داخل بنية متماسكة تتميز بالحياة النابضة، والحضور القوي في الأذهان؛ إذ تستطيع هذه التراكيب بصيغها وحروفها أن تنبئك بالمعنى؛ دون أنْ تعرف ذلك، ولاتدري كيف وصل إليه.

وتكررت كلمة (الكتاب)؛ لكنّها في المرة الأولى تعني القرآن، وفي الثانية يراد بها الجنس؛ أي الكتب المنزلة على الأنبياء قبل النبي ﷺ، وهذا الأمر للوجوب، فبعد أنْ خيّره فيما سبق بين الحكم بينهم، أو الإعراض عنهم؛ أمره بإقامة حكم القرآن عليهم، وهذا يعني أنّ القرآن ناسخ لشريعتهم.

والناظر في النص الكريم يرى أنّه أظهر لفظ الجلالة في موضع الإضمار؛ " لتربية المهابة، والإشعار بعلة الحكم"[1]، لذلك قال بعدها: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)، فالخطاب بطريق الالتفات للناس كافة، فهو إحالة لمرجع متصيَّد، يُفهم من السياق، وهم السابقون لعصر النبي ﷺ، والمعاصرون له، وأمّا من جاء بعد البعثة النبوية فجميعهم شريعتهم القرآن، وقد وردت الشّرعة معطوفًا عليها المنهاج، والعطف يقتضي المغايرة؛ فالشرعة: ابتداء الطريق، وهي مشتقة من الشِّرعة؛ وهي الطريق إلى الماء للاستسقاء، وسميت الديانة شريعة على التشبيه؛ إذ الدين الطريق الواضح إلى الحياة الأبدية[2]، فالشريعة هي الطريق إلى الماء شُبِّه بها الدين؛ لكونه سبيلاً موصلاً إلى ما هو سبب الحياة الأبدية؛ كما أن الماء سبب الحياة الفانية.

ويمكن القول أيضًا إنّ الدين يشكّل النهر الكبير الممتد من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وكانت الشرائع تشتق منه لكل أمة من الأمم، وتظهر في الكتب السماوية التي أنزلها الله ﷻ على الرسل، أمّا القرآن فهو امتداد هذا النهر الكبير إلى يوم الدين.

والمنهاج الطريق المستمر، وهو الطريق الواضح البيّن، ويستعمل في كل شيء كان بيّنًا واضحًا[3]، فالناظر في آيات القرآن الكريم يجد التلاحم والترابط في الآيات واضحًا، بل إنّ كل كلمة منه وضعت في الآية وفي ترتيبها على نحو ما وضعت فيه غاية مهمة، تؤدي معنىً وهدفًا بلا تنافر ولا تشتيت.

وقد حذره قبل ذلك بقوله: (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) وأتبع ذلك بقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)، أي على دين واحد وشريعة واحدة، بل أراد الله الشرائع المختلفة المناسبة

---

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٨.
[2] انظر:البيضاوي، **أنوار التنزيل**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣١. ابن الجوزي، **زاد المسير**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٧٢.
[3] انظر: الطبري (٢٠٠٠)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط١، ج١، ص٢٦٩، مؤسسة الرسالة.

لأعصارها وقرونها، معتقدين أنّ اختلافها بمقتضى المشيئة الإلهية المبنية على أساس الحِكَم البالغة والمصالح النافعة لكل زمان.

ونلاحظ تكرار الضمائر التي تعود على النبي ﷺ؛ فكل ما جاء تكرار يحيل إحالة خارجيّة سابقة لشخص الرسول ﷺ؛ وهذا يحقق التماسك بين الآيات.

ثم انتقل الخطاب إلى الناس كافّة، وأمرهم بقوله: (فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ)، وخرج الأمر لغرض الترغيب في الإذعان للحق، ثم تلاه التحذير الشديد من الزيغ في قوله: (إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)، حيث يظهر ثواب المطيع، كما يظهر عقاب العاصي، وقد عبّر ابن عطية عن براعة هذه الآية بقوله: " وهذه الآية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وكل كتاب الله كذلك؛ إلا أنّا بقصور أفهامنا يبين في بعض لنا أكثر مما يبين في بعض"[1]، ففيها دلالات مكثّفة قويّة بألفاظ وجيزة، وقد رجع إلى ذلك الأمر لتأكيده، فقال: (وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ) (المائدة:٤٩)، فخرج الأمر هنا لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر الذي هو الحكم بالحق، وليبني عليه النهي عن اتباعهم فيما يريدونه، والمقصود منه إما إعلان ذلك ليعلمه الناس، وييأس الطامعون أنْ يُحكم لهم بما يشتهون[2]، وكرّر معنى هذا التحذير لتهويل الخطب بقوله: (وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ)، والأمر هنا للتذكير، وفيه يفضح أمرهم ومكرهم، كما أنّ فيه تأييسهم مما تأملوه، وفيه تكرار الضمير (هم) الذي يعود على اليهود، وبهذا التداعي التكراري بما يتضمنه من إثارة جماليّة من تكرار الضمير في سياق الآية بصورة كبيرة تُثير نوعًا من الإيقاع المقصود دلاليًّا ونصيًّا، وتكرار الضميرفي هذه الآيات لا يحقق التماسك النصي بين الكلمات المكررة وحدها، ولكنه يحقق التماسك النصي بين الآيات التي يقع الضمير فيها، ويتأكّد هذا عبر ملاحظة أنّ أغلب هذه الآيات تحمل أمورًا مسندة للنبي ﷺ، فالإسناد علاقة تحقق التماسك النصي، والتكرار يسهم في إبراز هذه العلاقة ومن ثم في تحقيق التماسك النصيّ، ونستشعر من خلاله التحذير، وفيه إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الخطب[3].

---

[1] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠١.
[2] انظر:ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٢٢.
[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٨.

ثم توعّدهم بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩)، وفيها وعد للنبي ﷺ بنصر الله له، ولهذه الآية إحالة مقاميّة إذ أنجزه الله بإجلاء بني قتينقاع وبني قريضه، وقتل بني النضير، وبإجلاء عمر بن الخطاب ﷺ لأهل خيبر وفَدَك وغيرهم، وفيه تخصيص إصابتهم ببعض الذنوب وليس كلها؛ لأنّ هذا الوعيد إنّما هو في الدنيا، وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصّهم، ونوع يتعدى إلى النبي ﷺ والمؤمنين؛ كمعاملتهم للكفار، وأقوالهم في الدين، فهذا النوع هو الذي يوجد إليهم السبيل، وبه هلكوا، وبه توعدهم الله في الدنيا، فلذلك خصص البعض دون الكل وإنما يعذبون بالكل في الآخرة[١].

وفي الآية احتباك يدل عليه الظاهر تقديره: لا تتبع، واحذر، فإنْ حكّموك مع ذلك واستقاموا؛ فنعمّا ذلك، وإنْ تولوا فاعلم، فالحذف هو أحد وسائل كسر التوقّع لإحداث دهشة للمتلقي، ومن هنا كان الحتباك أحد الوسائل التعبيرية الجماليّة التي يكسر بها القرآن الكريم المتوقّع، ويخرج بها عن المألوف.

ثم خاطب اللهُ النبيَ ﷺ مستفهمًا استفهامًا إنكاريًا: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِحُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾، أي: يتولون عن حكمك، وهم أهل كتاب، وعندهم تحليل وتحريم من الله تعالى، ومع ذلك يعرضون عن حكم الله ويختارون حكم الجاهلية، وهم يهود بني قريضه وبين النضير.

ومصطلح: ﴿حُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مصطلح إسلامي، وقد أشار ابن عاشور إلى أنّ لفظ (الجاهلية) من الكلمات التى استعملت بعد مجئ الإسلام فقال : " وأحسب أنّ لفظ الجاهليّة من مبتكرات القرآن ... فقد قالوا : شعر الجاهليّة وأيام الجاهليّة، ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين "[٢]، وقد ذهب إلى ذلك الدكتور عودة أبو عودة، بل ذكر أنّ لفظ " الجاهليّة " من أشهر المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم[٣].

والسر في مصاحبة لفظ (حكم) لكلمة (الجاهليّة) هو قصد التشنيع والتحقير؛ فإن ذلك كما يقول ابن عاشور: " انتساب ذم في اصطلاح القرآن"[٤]، فإن لفظ الجاهليّة " وصف به أهل الشرك؛ تنفيرًا من الجهل وترغيبًا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذمّ"[٥].

---

[١] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٢.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٤،ص١٣٦.
[٣] انظر: أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم**، مصدر سابق، ص١٥٠.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢٦، ص١٩٤.
[٥] المصدر السابق، ج ٤،ص١٣٦.

واعتمادًا على ما سلف ذكره يمكن القول إنّ تركيب (حُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ) يعد من المصطلحات الإسلامية التي أوردها القرآن الكريم؛ ولايُراد بها فقط ما كان عليه الناس قبل الإسلام من حكم؛ بل يمكن إطلاقه على كل حكم يخالف حكم الله ﷻ وشرعه؛ حتى ولو كان ذلك في هذا القرن، وهذا يوافق معنى الآية الكريمة.

وقدّم المفعول به (الجاهليّة) للتخصيص الذي يفيد تأكيد الإنكار والتعجيب، لأنّ التولّي عن حكم النبي ﷺ، وطلب حكم آخر منكر عجيب، وطلب حكم الجاهليّة أقبح وأعجب[1].

وقرئ (تَبْغُونَ)؛ فيصير الخطاب موجهًا إليهم مباشرة، وفي مواجهتم بالإنكار والردع والزجر في أسلوب الخطاب ما ليس في الغيبة[2]، وكل من هذه القراءات لها جانب مهم في الدراسة؛ لتفسير الجملة ومرجعيّتها، والكشف عن علاقاتها، للوصول إلى نص منسجم الدلالات مع اختلاف القراءات، وهي في الوقت نفسه نابعة من فهم العلاقة بينها، تلك العلاقة التي يُسهم في نشأتها المعنى المعجميّ للمفردات، والمعنى الناشئ من التركيب، ومرجعية الضمير، وغاية الكلام، والإخبار.

وآثر الفعل المضارع؛ " للإشارة إلى أنّ ميلهم إلى حكم الجاهليّة أَمَلٌ لديهم؛ يراودهم حينًا بعد حين، وليس خاطرة خطرت ثم زالت"[3]، فالفعل المضارع يدل على التجدد والتكرار.

ثم قال مستنكرًا مرة أخرى (وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ) وهو بمعنى النفي، أي لا أحد أحسن منه حكمًا، وقال أبو حيان: "هو استفهام معناه التقرير"[4].

والتنكير في (قوم) للتشريف والتعظيم، وخصّهم بقوله: (يوقنون) لسرعة إذعانهم لحكم الله؛ فهم الذين يعرفون أنّ لا أعدل منه، ولا أحسن حكما[5]، فهذا الوصف بالجملة الفعلية على سبيل المدح.

ونودي ﷺ مرة أخرى بالصفة الشريفة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ) في سياق الأمر بتبليغ الدعوة؛ "تشريفًا وإيذانًا بأنّها من موجبات الإتيان بما أُمر به من تبليغ ما أوحي إليه"[6]، وتُعد هذه الآية كرد العجز على الصدر مع قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ) (المائدة:٤١)، فكأنهما آية واحدة في مضمونها، فالآية الأولى " وصف حال المنافقين، والآية الثانية

---

[1] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٥٧.
[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٦.
[3] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٥٧.
[4] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٦.
[5] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥١٧.
[6] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٩٨.

في وصف حال أهل الكتاب، والفريقان متظاهران على الرسول ﷺ، فريق مجاهر، وفريق مستتر، فعاد الخطاب للرسول ﷺ ثانيةً لتثبيت قلبه، وشرح صدره بأنْ يدوم على تبليغ الشريعة، ويجتهد في ذلك، ولا يكترث بالطاعنين من أهل الكتاب والكفار"[١]، وهنا نجد التماسك بين آيات يفصل بينها عدد كبير من الآيات الأخرى، لكن الدلالة والتكرار اللفظي يسهمان في تماسكها في الموضعين.

وأَمَرَه بتبليغ ما أنزل إليه فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾) (المائدة:٦٧)، فالرسول ليس له من الكلام إلا التبليغ، وخرج الأمر هنا للوجوب، ولهذا كان الرسول ﷺ يقرأ القرآن على الناس وقت نزول الآية، ويأمر الناس بالاستماع إليه لحفظ الآية تمامًا كما نزلت، وكان هذا دأب الصحابة بعد ذلك، فالتبليغ مجاز في حكاية رسالته ﷺ للناس، ومنهم إلى الأجيال التالية على الدوام.

وأسند الضمير الذي يعود على الله فقال: (مِن رَّبِّكَۖ) زيادة في تشريفه ﷺ؛ وكذلك في اختيار لفظ (رب) دون اسم الجلالة، " لما في التذكير بأنّه ربه من معنى كرامته، ومن معنى أداء ما أراد إبلاغه كما ينبغي من التعجيل والإشاعة والحث على تناوله والعمل بما فيه"[٢]؛إذ هو بمرتبة الوساطة بين الله وبين الناس، فلم يقل (من ربكم).

وفي قوله: (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ) استبدال حيث لم يقل وإنْ لم تبلغ، ليتغايرا لفظًا وإن اتحدا معنى، وهذا أحسن رونقًا، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء.

وقد اختلف المفسرون في توجيه معنى قوله تعالى: (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ)[٣]، لأنّ ذلك لا يُظن أنْ يكون موجهًا للنبي ﷺ، وفي هذا الباب يقول الفراهي: " الخطاب إذا احتمل وجوهًا كان كاللفظ المشترك، فلا بد من أخذ بعضها وترك البواقي، وصُنعنا في المشترك أنْ نعلم أولاً معانيه كلها، ثم نرجع إلى سوق الكلام وغايته؛ فنأخذ بعض المعاني المحتملة، ونترك البواقي"[٤]، وحرف الشرط (إنْ) يعني عدم اليقين بوقوع الشرط، لأنّ عدم التبليغ غير مظنون بمحمد ﷺ، وإنما فُرض هذا الشرط ليبني عليه الجواب، وهو قوله (فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ)؛ ففي اتحاد الشرط والجواب سرٌّ منقطع النظير، إذ لما كان الجزاء هو عين الشرط اتضح الاهتمام بالتبليغ، وفيه

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٥٦-٢٥٧.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦٠.
[٣] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢١٨، الرازي، **التفسير الكبير**، مصدر سابق، ج١٢، ص٤٢، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٢، الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣٩-٥٤٠.
[٤] الفراهي، **تفسير نظام القرآن**، مصدر سابق، ص٦٥.

تحذير من ملاينتهم في التبليغ أو خشية إعراضهم، لذا فقد تُلِي هذا الخبر بما يُطمئِنه ﷺ ويثبّت جنانه، فقال تعالى: (وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ) فافتتح باسم الجلالة للاهتمام به، وللتأكيد على حماية الله له، وحفظه من كيد أعدائه، وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أنّ مما يحسن فيه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ويكثر: الوعد والضمان، لأنّ ذلك ينفي أن يشكّ من يُوعد في تمام الوعد والوفاء به، فهو من أحوج الناس إلى التأكيد[1]، فقد تكرر الوعد بهذه العصمة في القرآن الكريم.

وأتبع ذلك بالفعل المضارع الذي يدل على الديمومة والاستمرار، والناس ههنا الكفار من اليهود والمنافقين والمشركين بدليل قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ)، فذكر العام وهو الناس، والمراد به الخاص؛ وهم من كفر منهم.

والهداية تعني تسديد أعمالهم، وإتمام مرادهم، فهو وعد لرسوله ﷺ بأنّ أعداءه لا يزالون مخذولين لا يهتدون سبيلاً لكيد الرسول ﷺ والمؤمنين لطفًا منه تعالى، وهي كناية عن خذلان الله لهم.

والتعريف في كلمة (الكافرين) للجنس، وفيه " تثبيت للوعد، وإدامته له، وأنّه لا يتغير مع تغير صنوف الأعداء"[2].

وعبر عن الكافرين بقوله: (ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ) وليس (الكافرين) وحدها؛ لأنّ المراد بالكافرين الذين صار الكفر لهم سجيّة وصفة تتقوّم بها قوميتهم، ولو لم يذكر القوم لكان بمنزلة اللقب لهم، فلا يُشعر بالتوصيف، فكان صادقًا بمن كان الكفر فيه غير راسخ، بل هو في حيرة وتردد فذلك مرجوّ إيمانه[3].

وكما خاطب الله النبيَّ ﷺ بشأن حقيقة اليهود، وخاطبه بشأن حقيقة النصارى، فقال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ...) (المائدة:٨٢-٨٦)، فالله تعالى يكشف عن حقيقة عداوة هذه الفرق الثلاثة للمسلمين، فعداوة اليهود والمشركين أشد من عداوة النصارى، وفي النصارى من المودة والرحمة ما ليس في اليهود، فليس في دينهم عداوة ولا بغض لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فسادًا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين[4].

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٦٣.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٦٤.
[3] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٦٧.
[4] انظر: ابن تيمية (١٩٨٤)، **دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية**، (تحقيق: محمد السيد الجليند)ن ط٢، ج٣، ص٦٦، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

كما خاطبه ﷺ بالأسلوب القصصي، وذلك بإيراد القصة؛ تسلية له ﷺ لينتهي منها إلى تشريع هام، ومن ذلك إيراده قصة التيه، وما صار إليه بنو إسرائيل، واتبع ذلك بقصة ابني آدم لينتهي بعد ذلك إلى تشريع القصاص، وكذلك قصة المائدة، وذكر أحد مشاهد يوم القيامة.

ونجد في أثناء السورة خطابات كثيرة للنبي ﷺ؛ بقصد توجيهه ﷺ، كقوله تعالى:(فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣)، توجيهًا له في معاملة الفئة التي حافظت على العهد من اليهود، وقال: (فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢)؛ توجيهًا له في طريقة الحكم بين اليهود.

وربما خاطب الله النبي ﷺ ووجه الخطاب إلى الأمة، فإنّ النبي ﷺ هو الذي يصل بين الله وخلقه في توجيه الخطاب لهم، فقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٩)(المائدة:٦٩)، فيبدو أنّ هذه الآية إلى كافة الناس باختلاف دياناتهم ومعتقداتهم، وافتتحت بالتوكيد؛ " للاهتمام بالخبر لعروّ المقام عن إرادة الإنكار، أو تردد في الحكم، أو تنزيل غير المتردد منزلة المتردد"[١]؛ فدرجة الإعلاميّة هنا عالية جدًا، وفي الوقت ذاته تفاجئ الجميع بسعة رحمة الله تعالى، وسعة مغفرته للتائبين، وهي مؤكدة لقوله تعالى: (وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥) (المائدة:٦٥)، " تأكيدًا للوعد، وليُلْحِق بأهل الكتاب الصائبون، وليظهر الاهتمام بذكر حال المسلمين في جنات النعيم".[٢]

وقد بدأ بذكر الذين آمنوا، فصدرّ بها الآية " للتنويه بالمسلمين في هذه المناسبة، لأنّ المسلمين هم المثل الصالح في كمال الإيمان، والتحرز عن الغرور، وعن تسرب مسارب الشرك في عقائدهم"[٣]، ثم قال بعد ذلك: (مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا)؛ فكرر ذِكْرَ الذين آمنوا بالمعنى، وأضاف شرط العمل الصالح، ويقول الرازي: " في هذا التكرير فائدتان: الأولى: إنّ المنافقين كانوا يزعمون أنّهم مؤمنون، فالفائدة في هذا التكرار إخراجهم عن وعد عدم الخوف وعدم الحزن، الفائدة الثانية: إنّه تعالى أطلق لفظ الإيمان، والإيمان يدخل تحته أقسام؛ وأشرفها

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٦٨.
[٢] المصدر السابق نفسه.
[٣] المصدر السابق نفسه.

الإيمان بالله واليوم الآخر، فكانت الفائدة في الإعادة؛ التنبيه على أنّ هذين القسمين أشرف أقسام الإيمان"[١].

وقد وردت هذه الآية في البقرة والحج باختلاف يقتضيه سياق كل منهما، ففي سورة البقرة قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾) (البقرة: ٦٢).

وقال في سورة الحج: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾) (الحج:١٧).

وقد استشكل العلماء التقديم والتأخير الحاصل بين آيتي البقرة والحج من جهة، وبين آية المائدة من جهة أخرى، كما استشكل عليهم الإعراب، ومما استشكل أيضًا أنّ آيتي البقرة والمائدة بدأتا بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) وبعد ذلك قال: (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا)، فمن كانوا من المؤمنين لا يقال لهم من آمن منهم؛ " إلا على التغاير بين الإيمانين"[٢]، وقد زاد في آية الحج كلمة (المجوس)، و (الذين أشركوا).

أما في سورة البقرة، فقد علّل الخطيب الاسكافي ترتيب الفرق في سورة البقرة بموافقته ترتيب تنزيل الله لكتبه، فصحف إبراهيم عليه السلام قبل التوراة، والتوراة قبل الإنجيل، ثم أتى بلفظ الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملّة إلى ملّة، ولا كتاب لهم؛ فوجب أن يكونوا متأخرين[٣].

أما الزبير الغرناطي فيرى أنّ المؤمنين أحقّ بالتقديم وهم أهل الخطاب، وهم من قُصد بالخطاب والتأنيس، ثم إنّ أهل الكتابين يَلُونهم، واليهود أقدم تعريفًا وأسبق زمانًا؛ فذُكروا بحسب حالهم الدنيوي، وأخّر ذكر الصابئين لتأخرهم عن هؤلاء الأصناف في أنّهم ليسوا أهل الكتاب[٤].

وقد نزلت آية البقرة فيمن سأل عنهم سلمان الفارسي رضي الله عنه من أصحابه الرهبان قبل مجيء الإسلام، فنزلت: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ)، إلى قوله:(يَحْزَنُونَ)، قال: فكأنّما كُشف عني جبل[٥].

والنص القرآني في سورة البقرة يخاطب المؤمنين تارة بتكاليف الدعوة الجديدة وتعاليمها، وتارة يخاطب اليهود لموقفهم من هذه الدعوة، ويستعرض تاريخهم القديم مع الأنبياء عليهم

---

١ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٥٨.
٢ الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج١، ص٢٤٢.
٣ انظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥١-٢٥٣.
٤ انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢١٩.
٥ انظر: الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص١٤- ١٥.

السلام؛ وكان ذلك معظم آيات سورة البقرة، فناسب أنْ يذكر (الذين آمنوا) أولاً لأنّهم المخاطبون بالاستخلاف، ثم ناسب أنْ يذكر (الذين هادوا) مراعاة لسياق الكلام، ويكون ذكر النصارى إنّما جاء بعد اليهود، لأنّهم هم الذين سأل عنهم سلمان الفارسي، ولم يكن للنصارى في المدينة وجود كوجود اليهود، كما أنّ الخطاب في الآية ليس معهم، ومن ثم حَسُن تأخيرهم في الذكر بعد اليهود، ولما كان (الصابئون) لم يسبق لهم ذكر في السياق ولم يرد عنهم سؤال من أحد حَسُن أنْ يؤخروا في الذكر عن اليهود والنصارى، وبذلك تكون الآية جاءت في نظمها على غاية الحكمة في مراعاة حسن الترتيب.

أما في سورة المائدة فيرى الخطيب الاسكافي أنّ الترتيب فيها على ترتيب الأزمة لفظًا وعلى حسب تنزل الكُتُب نية وحقيقة، والصابئون وإنْ كانوا متأخرين عن النصارى بأنّه لا كتاب لهم فإنّهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم، لأنّهم كانوا قبل عيسى عليه السلام، فرفع (الصابئون) ونوى به التأخير عن مكانه، كأنه قال بعدما أتى بخبر: إنّ الذين آمنوا والذين هادوا **والنصاري** من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون هذه حالهم أيضًا، فقدّم في اللفظ وأخر في النية، لأنّ التقديم الحقيقي التقديم لِكُتُبِ الله المنزّلة على الأنبياء عليهم السلام، وجاء في آية البقرة، وجاء هنا تقديم الزمان[١]، وكلامه يؤول إلى أنّ الآيتين مرتبتان ترتيبًا واحدًا، وكذلك فعل ابن الزبير، فحاول أنْ يجعل الترتيب في سورة المائدة مؤكدًا لما ذهب إليه من تعليل ترتيب ذكر الفرق في سورة البقرة؛ وعلل مجيء (الصابئين) مرفوعًا لتأكيد للتسوية في الحكم، وكأنّه لما ذكر حكم المذكورين سواهم قيل والصابئون كذلك، أي لا فرق بين الكل في الحكم الأخروي[٢].

ولا تظهر الحكمة من اختلاف الترتيبين عندهما، وقد بيّنها ابن الزملكاني بقوله: " فإنْ قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته التنبيه على أنّ الصابئين يُتاب عليهم إنْ صحّ منهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم؟ وذلك أنّ الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غيًّا، وما سُمُّوا صابئين إلا لأنّهم صبؤوا عن الأديان كلها، أي خرجوا..."[٣]، وبمثل هذا التعليل علل كثير من المفسرين والمعربين وجه الترتيب في آية المائدة، أي أنّها مقدمة عن تأخير[٤]، ويرى أحد الباحثين أنّ " المراد بالآية (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) وهم أمة محمد ﷺ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين آمنوا من اليهود والصابئين والنصارى؛ أي دخلوا في دين الإسلام، وعملوا بشرائعه فلا

---

[١] انظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٣-٢٥٧.
[٢] انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٠-٢٢١.
[٣] ابن الزملكاني (١٩٧٤)، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، د.ط، ص٢٣٢، تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني بغداد. وانظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٧٢، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٧٢.
[٤] انظر: القيسي، مكي بن أبي طالب (١٩٧٥)، **مشكل إعراب القرآن**، ط١، ج١، ص٢٣٣، تحقيق: حاتم الضامن، بغداد، سلسلة كتب التراث، ٣٨. الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣١.

خوف عليهم ولا هم يحزنون، ففي الآية إغراء لأهل الطوائف الثلاث بالدخول في الإسلام، والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، والعمل بشريعته، وإشعار لهم بأنّ ما هم عليه من دين وشريعة لم يَعُد مقبولاً بعد أن جاء الإسلام"(١).

أما في سورة الحج فيرى الخطيب الاسكافي أنّه ترتيب للأزمنة بلا نية للتأخير، ولم يقصد هنا أهل الكتب، إذ أكثر من ذكر ممن لا كتاب لهم؛ وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا عبدة الأوثان، فهذه ثلاث طوائف وأهل الكتاب طائفتان، فرُتِّبُوا بالأزمنة، وأخرّ (الذين أشركوا) لأنّهم وإنْ تقدمت لهم أزمنة، وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم صلوات الله عليهم؛ فإنّهم كانوا أكثر من مُنِي رسول الله ﷺ بهم، وصَلِيَ بجهادهم، وكأنّهم لما كانوا موجودين في عصر النبي ﷺ كانوا أهل زمانه، وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قُدّم ذكرهم(٢).

ويرى ابن الزبير أنّ سياق آية سورة الحج يشير إلى يوم القيامة، حيث يذكر الفئات الأخرى، والآي الأُخر فيمن ورد مؤمنًا فافترق القصدان واختلف مساق الآي بحسب ذلك(٣)، لذلك لم يذكر في آية الحج قوله: (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٦٢)؛ لأنّ ذلك لا يمكن أنْ يكون يوم القيامة، ولو حصل الإيمان في ذلك اليوم فلن يقبل؛ لأنّه يوم الجزاء على الإيمان والعمل الصالح في الدنيا.

أما في سورتي البقرة والمائدة فقال: (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ)؛ فنشأ سؤال هو: كيف يصح أنْ يبدأ بقوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) ومن ثم يقول: (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ)، ومثل هذا الإشكال دفع المفسرين إلى تأويل كل منهما؛ ولعل أظهرها ما ذهب إليه الراغب الاصفهاني حيث قال: " إنّ الإيمان يستعمل على وجهين، أحدهما: الإقرار بالشهادتين الذي يُؤمن نفس صاحب الإيمان وماله عن الإباحة إلى بحق، وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالإسلام، والثاني تحري اليقين فيما يتعاطاه الإنسان في أمر دينه"(٤)، فقوله (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) عنى به : المتدين بدين محمد ﷺ، وقوله: (مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...) عنى به المتحري للاعتقاد واليقين، فهو غير الأول ولما كانت متناهية الأديان هذه الأربع من الله تعالى، كان كل من تعاطى من هذه الأديان في - وقت شرعة قبل أنْ نسخ عنه-

---

١ فرحات، أحمد حسن (١٩٨٧م)، دراسات في مشكل القرآن؛ **تأويل ثلاث آيات متشابهات**، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الرابعة، العدد الثامن، ص٤٩، جامعة الكويت.

٢ انظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٧-٢٥٨.

٣ ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٢.

٤ فرحات، أحمد حسن، **دراسات في مشكل القرآن؛ تأويل ثلاث آيات متشابهات**، مصدر سابق، ص٣٩، نقلا عن تفسير الراغب الأصفهاني المخطوط ص١٠.

فتحري في ذلك الاعتقاد اليقيني واتبع اعتقاده بالإعمال الصالحة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[١].

وقد اختصت سورة البقرة بقوله: (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ) ولم تذكر في سورة المائدة، وذلك "لأنّ الآية نزلت في أصحاب سليمان الفارسي ﷺ، فذكر الله الطوائف الأربعة، وأنّهم جميعًا لهم أجرهم عن ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وذلك تأكيدًا بأنّ أهل كل ملّة هم على حق في زمن ملتهم؛ طالما أنّهم ملتزمون بما جاءهم به نبيهم، وأنّ جميع الرسالات المنزلة من عند الله في ذلك سواء"[٢]. وفي ذلك بشارة لمن مات على الإيمان إذا تحرى اليقين في أمر دينه.

ومن هنا نلاحظ أثر العطف واختلاف الحركة الإعرابية في الدلالة، كما نلاحظ أثر التقديم والتأخير ودور كل منهما في إبراز الدلالة والزمن، ويستوقفنا أثر الذكر والحذف في معرفة الزمن وتعيين الحال، وكل ذلك تنبّه إليه العلماء السابقون وبحثوا فيه.

ثانيًا: خطاب الله ﷻ لموسى ﷺ

لم يرد خطاب موجه من الله تعالى لموسى ﷺ سوى في قصة امتناع بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة، وسنذكر دلالاتها في مبحث الخطاب القصصي.

ثالثًا: خطاب الله ﷻ لعيسى ﷺ

ورد الخطاب من الله ﷻ لعيسى ﷺ ضمن المشاهد القصصية الواردة في نهاية السورة؛ وسندرسها ضمن مبحث الخطاب القصصي.

---

[١] المصدر السابق، ص٥٢.
[٢] المصدر السابق، ص٥٢.

المبحث الثاني: خطاب الله ﷻ للأقوام:

أولاً: خطاب الله ﷻ للمؤمنين

استحوذ الوصف بالإيمان على نسبة كبيرة من ألوان الخطاب في السورة، فقد خصّ القرآن الكريم المؤمنين بمساحات واسعة للخطاب المباشر بعنوان: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)، وكان مقرونًا بالتكليف الذي توزع بين الأمر والنهي، أو الشرط، أو الاستفهام؛ لإتمام تعاليم الدين، أو لمصلحة دنيويّة أو أخرويّة تخص كل منادىً حال إلقاء الخطاب إليه، وفيه الترغيب في التقوى، والحثّ على ملازمة فضائل الأعمال، وقد يعمد إلى توضيح أحكام الشريعة؛ مما يُظهر حرص المُشرّع على إتمام الدين لأولئك الصفوة؛ وإنْ عوتبوا فالعتاب لم يكن إلا منفذًا من منافذ النصح والتشريف، فتكررت تسعًا وثمانين مرة في القرآن[١].

وقد روي عن ابن مسعود ﷺ قوله: " إذا سمعت الله تعالى يقول: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) فأعرها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه، أو بشرى يزفّها، أو خطر يحذر منه، وإذا حذّرك فاحذر وانج بفضله"[٢]. فجمع كل السياقات التي جاء بها هذا التركيب، المفهومة في مختلف المقامات.

ويعد حرف النداء (يا) هوالمُستخدم الوحيد في هذه السورة، وأداة النداء (يا) لا تدخل على الاسم الذي بعدها إلا بواسطة (أي) التي " ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه، وتتحد به حتى كأنّ الكلامين قد أُفرغا إفراغًا واحدًا، وكأنّ أحدهم قد سُبك في الآخر "[٣].

وقد ذهب اللغويون إلى أنّ المعنى الأول لأداة النداء (يا) هو النداء والتنبيه[١]. وهي تستخدم في نداء البعيد والقريب[٢]، وقد افتتحت بها السورة.

---

[١] الفيروز أبادي(١٩٩٦)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، (تحقيق: محمد علي النجار، وعبد العليم الطحاوي)، ط٣، ج٥، ص٤٣٠، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة. وذهب عبد الرحمن بن ناصر السعدي في كتابه (**نداءات المنان لأهل الإيمان**)، وأبو بكر الجزائري في كتابه (**نداءات الرحمن لأهل الإيمان**) إلى أن عددها (٩٠) مرة، أقحما عبارة (يا أيها النبي) في الآية الأولى من سورة الطلاق ضمن عدد ورود تركيب (يا أيها الذين آمنوا) وأكملا بذلك التسعين، وذهب الفيروز أبادي إلى أن عددها (٨٩) مرة، ووافقه أحمد فتح الله حامي في كتابه (**نداءات المؤمنين في القرآن المبين**)، ومحمد مصطفى منصور في كتابه (**نداءات المؤمنين في القرآن الكريم**)، وصالح أحمد الشامي في كتابه (**نداءات الإيمان في القرآن الكريم**)، وذهب الأستاذان منيب الطحان في كتابه (**نداءات القرآن (يا أيها الذين آمنوا)**)، وعبد الحميد الكندح الرفاعي في كتابه (**نداءات الحق للناس والمؤمنين أجمعين**)، إلى أنها ثمان وثمانون مرة. وهناك من درسها بشكل عام دون إحصاء كما فعل: ابن العثيمين في كتابه (**نداءات رب العالمين لعباد الله المؤمنين**)، و محمد متولي الشعراوي في كتابه (نداءات الرحمن **لأهل** الإيمان). ويمكن عدها تسعين مرة إذا أضيف تركيب (أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ) (النور:٣١)، الذي لم يدرج ضمنه حرف النداء والاسم المنصوب، إلا إنه دل على خطاب المؤمنين، فالفكرة ليست بالعدد، وإنما بمضامين النداءات التي شملت مختلف الجوانب التشريعية في حياة المؤمنين، وتبرز من خلاله العلاقات الوطيدة الرابطة بين وشائج الأحكام الشرعية.

[٢] الجزائري، أبو بكر جابر (١٩٩٤)، **نداءات الرحمن لأهل الإيمان**، ط٢، ص٩، مكتبة العلوم والحكم.

[٣] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص ٢٤٣.

والنداء بوساطة (أي) ينبئ عن أهمية الأمر المنادى له، وتعظيم شأنه، يقول الرازي: "قول القائل: يا رجل؛ يدل على النداء، وقوله يا أيها الرجل يدل على النداء، وينبئ عن خطر خطب المنادى له، أو غفلة المنادى، أما الثاني فمذكور، وأما الأول فلأنّ قوله: (يا أي) جعل المنادى غير معلوم أولاً فيكون كل سامع متطلعًا إلى المنادى، فإذا خصّ واحدًا كان في ذلك إنباءُ الكلّ لتطلّعهم إليه، وإذا قال يا زيد، أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادي إلا المذكور إذ علم "[٣]، وهذا يعطي النص انسجامًا مع المقام وما فيهمن تنبيه وإثارة، وتقريب، وإدناء بلطف، وتهيئة لما يُلقى على المنادى من أوامر ونواهٍ.

وهناك دلالات ومعان أخرى في استخدام هذا التركيب، وهو التلطّف، فمواجهة المخاطَب بالأمر والنهي مباشرةً فيه جفوة وقسوة؛ لذا فيجب أنْ يتلطف المتكلم لأمره ونهيه؛ حتى يقع بردًا وسلامًا على نفس مخاطبه، فيَقبل العمل به؛ فأقبل الله بهذا الأسلوب في مخاطبة المؤمنين؛ ليفهموا ما يقنعهم ويلزمهم الحجة؛ فَيُقبلوا على الإجابة والطاعة بقلوب راضية.

وقال (الذين آمنوا) ولم يقل المؤمنين، باستخدام الاسم الموصول؛ لإبراز ما تضمّنته صلة الموصول وإظهارها، وهو الإيمان بالله؛ ليكون ذلك أدعى للاستجابة.

والنداء بـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) بعضها مختص بالمسلمين الأوائل الذين رافقوا الرسول ﷺ[٤]، وبعضها جاء لمناسبة من المناسبات؛ إلا أنّ فيها من التوجيه العام ما هو مطلوب في كل زمان[٥]، والقسم الأكبر من النداءات ما كان عامًّا ومؤكّدًا أنّ القرآن ليس كتابًا لعصرٍ بعينه؛ وإنّما له صفة الديمومة من حيث الزمان والمكان[٦].

ولم يتكرر نداء في سورة من سور القرآن الكريم كما تكرر في سورة المائدة، وكل نداء منها يشكل محورًا من محاور السورة، حيث يفصّل فيها الأوامر والنواهي، فهو خطاب خاص للمؤمنين بتفاصيل الشريعة، تمييزًا لهم عمّن سواهم، وللتكرار وظيفة يقررها البلاغيون قديمًا، والأسلوبيون حديثًا، أهمها تكثيف الدلالة وتأكيدها، فالعرب من شأنها إذا أرادت التأكيد على معنى

---

١ المرادي (١٩٧٦). **الجني الداني في حروف المعاني**، (تحقيق: طه محسن)، د. ط، ص٣٥٤، د. ن. وانظر: السيوطي، **الإتقان**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٩.

٢ المرادي، **الجني الداني**، مصدر سابق، ص٣٥٥.

٣ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٣،ج٢٥، ص١٩٠.

٤ مثل قوله تعالى:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ) (المجادلة:١٢).

٥ مثل قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ) (الحجرات:١).

٦ مثل (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾) (الأحزاب:٤١-٤٢)، وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ) (البقرة:١٧٢).

كررته، يقول قريماس: " ثمة ما يبرر للتكرار وجوده، إنه يسهل استقبال الرسالة ويكثف الدلالة الإيحائيّة للنص"[١].

وهذه الأحكام هي:

١. الوفاء بالعقود:

وقد تصدرت السورة بالدعوة إلى الوفاء بالعقود، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ)، وفي الإسلام عقودٌ كثيرة، يقول الرازي: " سمّى الله هذه التكاليف عقودًا؛ لأنّه تعالى ربطها بعباده كما يُربط الشيءُ بالشيءِ بالحبل الموثّق"[٢]، فالمكلّف بهذه الأمور يلتزمها كأنّه مربوطٌ بها، وإطلاقه من باب المجاز على الالتزام من جانبين اثنين، وفي الشرع الجانب الأول هو الله ﷻ، والجانب الثاني هو الذين آمنوا، والعقود تمثل الحبل الذي بينهما، وهو الشرائع والتكاليف، وما فيها من الأوامر والنواهي من الله ﷻ لهم، فالتعريف في (العقود) للاستغراق والالتزام الجاريين بين الله ﷻ وبين عباده.

وقد استخدم القرآن صيغة أوفى، ووفى وأوفى لغتان، وهما بمعنى واحد، لكن في المزيد مبالغة ليست في المجرد[٣]، وقد استخدم القرآن صيغة الأمر ولم يقل: لا تنفضوا، أو لا تنكثوا العقود، وذلك لأنّ الوفاء سيكون حتمًا أقوى من عدم النقض أو عدم النكث، وقد يكون النقض والنكث في جزئيات صغيرة لا تخلّ بالمأمور تمامًا، وشبه الإتيان بتلك الأوامر والنواهي بالوفاء بما يتحمله الشخص من أمور، فحذف المشبه وأبقى شيئًا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

والابتداء بالأمر بالوفاء بالعقود يؤذن بأنّه سترد بعده أحكام وعقود كانت قد عُقدت من الله على المؤمنين إجمالاً وتفصيلاً، وهذا من التناسب والانسجام بين المطلع وما سيتبعه، ومن الجدير بالذكر أنّ السور السابقة على سورة المائدة احتوت الكثير من العقود والشرائع التي وضعها الله لعبادة، لاسيما سورة النساء، فكأن هذه الآية جاءت لتربط العقود السابقة بالتالية، فما سيأتي في سورة المائدة سيكون عقودًا أخرى، فالقرآن كتاب تشريع، وليس غريبًا أنْ يتكرر التشريع مرة بعد أخرى بصورة جديدة؛ تذكّر بما سبق، وتضيف أمورًا أخرى تتسم بالجدة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ سورة المائدة تميزت بذكر العقود والمواثيق التي أخذت على اليهود والنصارى، وذكرت نقضهم لها، كما ذكرت ما أصابهم نتيجة لذلك، وبالتالي فإنّ مثل هذا المطلع

---

[١] عياشي (١٩٩٠)، **مقالات في الأسلوبية**، د. ط، ص٨٣، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق.
[٢] تفسير الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص٩٧.
[٣] انظر: الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج ٦، ص٤٨.

تحذير شديد لعدم الوفاء بالعقود، وقد كان المصطلح المستخدم مع اليهود والنصارى هو الميثاق، وفي مواضع أخرى باسم العهد، وقد ذُكر في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (البقرة:٨٣)، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠).

فهذه الألفاظ متقاربه في المعنى، على درجات في القوة والشدة، والفرق بين العقد والعهد "أن العقد فيه معنى الاستيثاق والشدة، ولا يكون إلا بين المتعاقدين، والعهد قد ينفرد به الواحد، فكل عهد عقد، وليس كل عقد عهد"[١]، فبينهما عموم وخصوص، فالعهد عام يشمل العقد، ويَفترق في أنْ ينفرد الإنسان بأنْ يعاهد نفسه، والعهد بعد توثيقه باليمين يصبح ميثاقًا، فالعهد عام يأتي بمعنى الميثاق وبمعانٍ أخرى، أما الميثاق فهو أخصّ لأنّه يعني العهد المؤكد باليمين[٢]؛ وبالتالي فإنّ قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾؛ تذكير بأنّهم على عقد مع الله تعالى، وإنْ كانت هناك عهود ومواثيق مع غيره؛ لكنها بشريعة الله؛ فيجب الوفاء بها كما يريد الله، وقد ألزم الله الأمم على اختلافها أنْ تفي بعهودها مع الله.

وقد ارتبط العهد عادة باليهود، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ (البقرة:٤٠)، ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ العهد من خلال تكليف الله إياهم بالوفاء به؛ "أنّ ذلك الخطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم، فإنّ التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تُلَقَّبُ عندهم بالعهد؛ ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق، وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماؤهم، فمجيئه على لسان النبيّ العربيّ الأميّ دليل على أنّه وحيٌ من العلّام بالغيوب"[٣]، وهذا من إعجاز القرآن في اختيار اللفظة المناسبة لكل فريق كما تقتضيه معرفتهم بدلالته، بحيث يضرب الوتر الحساس في حقيقة مُعتقدهم، فللألفاظ معان ذهنية ودلالات إيحائية؛ تتمثل في تصوير المعنى وظلاله لدى الناس، ويصل ذلك لقلوب السامعين ونفوسهم، كما فيه من الانسجام الكبير ليس فقط داخل النص القرآني، بل تعدّى ذلك إلى موافقة النصوص الدينية القديمة.

---

[١] العسكري (د.ت)، **الفروق اللغوية**، (ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي)، د.ط، ص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[٢] انظر: العمر، ناصر بن سليمان،**العهد والميثاق في القرآن الكريم**، ص٢٥-٢٦، بحث منشور على شبكة الإنترنت.
www.almoslim.net/documents/al٣ahd_١.doc

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج١، ص٤٥٣

٢. في شعائر الله

وقد ورد ذكر شعائر الله في السورة عدة مرات؛ مشيرًا إلى حرمتها، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ)(المائدة:٢)، وقال تعالى: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ) (المائدة:٩٧-٩٩).

وقد خاطب الله ﷻ المؤمنين ألا يتعدَّوا حدود الله؛ مع أنّهم لا يُظنّ بهم إحلال المحرمات؛ والتقدير: لا تحلوا المُحَرّم منها كما كان يفعل المشركون في إحلال الشهر الحرام بعمل النسيء، إذ قال تعالى: (إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا) (التوبة:٣٧). " وقد كرر هنا النداء اعتناءً بهذا الحكم وتعظيمًا له"[١]، وهي توكيد لما قبلها من تحريم الصيد على المحرم، فالحَرَم من شعائر الله، وقتل الصيد في الحَرَم أو حال الإحرام؛ استحلال لشعائر الله، وهذا التكرار فيه تفصيل لحكم الله، مما يعني إلقاء الحكم عامًّا ثم تفصيله.

وفي هذه الجملة نجد أسلوب النشر واللف من خلال الانتقال عن الخطاب المعنوي: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلى الغيبة بقوله: (شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ) ولم يقل شعائرنا، ووجه اللف والنشر فيها أنّ ذكر اسم الجلالة فيه تعظيم للشعائر، وتفخيم لها، بخلاف ما لو قال شعائرنا[٢].

وقد استعار الحلّ الذي هو حقيقة في الأجسام لانتهاك حرماتها، واستعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبد الله بها العباد من الحلال والحرام، فنهى عن استحلال الهَدْيَ جملةً، ثم ذكر المُقلّد منها، تأكيدًا ومبالغةً في التنبيهِ على الحرمةِ في التقليد، وفيه مجاز مرسل بإطلاق

---

[١] ابن عرفة، أبو محمد بن محمود التونسي المالكي (٢٠٠٧). **تفسير ابن عرفة**، (تحقيق: جلال الأسيوطي)، ط١، ج ٢، ص٨٢ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[٢] انظر: ابن عرفة، **تفسير ابن عرفة**، مصدر سابق، ج٢، ص٨٢.

الحال وإرادة المحلّ أي الهدايا المقلدات، وكل ذلك لتصوير حرمة الاعتداء عليها مما جعل كل شعيرة تأخذ حقًّا من التقدير والاحترام، كله تقديس موجوب من الله، ويسلبه الله.

وقد أشار الله تعالى إلى أهمية ذلك في موضع آخر فقال: (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ) (الحج:٣٢)، فدعا إلى تعظيمها، وهو من الإحالات اللاحقة المبينة للواجب تجاه هذه الشعائر.

ثم جاء بتفصيل ما أجمل من قبل فقال: (وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا)، فنهى عن استحلال الشهر الحرام للقتال، أو الغارة، وهي أربعة أشهر (ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب)، وهو ما يسمى النسيء.

والتعريف في (الشهر) يدل على الجنس؛ وإن كان المقصود به (رجب) - كما في بعض الروايات- فهو للعهد، وفيه مجاز مرسل بإطلاق المحلّ وإرادة الحال؛ إذ المراد القتال فيه.

وتكرار حرف النفي في كل مرة؛ لتأكيد النفي في المواضع الثلاثة[1]، فعطف الشهر الحرام والهدي وما بعدهما من الشعائر عطف الجزئيّ على كليّه للاهتمام به، وتبعيّة العطف هنا بالتشريك بواسطة حروف العطف بين المعطوف والمعطوف عليه، إيجابًا أو نفيًا، والتقييد في تبعية العطف تأتي من أنّ المعطوف عليه غير مطلق في انفراده بالحكم الذي يكون له، وكل ذلك يؤدي وظيفة الربط بين الكلمات والجمل، والحفاظ عليها متّسقة منسجمة مع سياقها.

وقد ذكر الله في موضع آخر تفصيل الهدي والقلائد والغرض منها، فالآيات للسابقة تتناصُّ مع قوله تعالى: (وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝) (الحج:٣٦)، فالبدن هي: الإبل والبقر، المهديّ منها وغير المهديّ، فيُؤكل منها بعد الذبح، ويُطعم منها المسكين والفقير، وحثّ الله ﷻ على التزام التقوى والإخلاص في التقرب إليه بها.

كما نهى الله ﷻ عن التعرض لقاصدي البيت الحرام؛ " تعظيمًا لهم، واستنكارًا أنْ يُتعرّض لمثلهم، وفي النهي عن التعرض لهم استئلاف للعرب، ولطف بهم، وتنشيط لورود الموسم، وفي الموسم يسمعون القرآن، وتقوم عليهم الحجة، ويرجى دخولهم في الإيمان"[2].

وقال تعالى: (وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ) ولم يقل: (ولا آمين مكة)؛ وذلك للتعريض بأنّ من

---

[1] انظر: صافي، محمود (١٩٩٥). **الجدول في إعراب القرآن**، ط٣، ج٦، ص٢٦٩، دار الرشيد، مطبعة الإيمان.
[2] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٥.

يقصد مكة وهو يسوق الهدي خاصة المُقلّد فهو مُحْرِم، وهذا من شعائرهم في الجاهليّة؛ أمّا من يقصده هكذا بدون هدي فهو يقصد مكة للتجارة[١]، وهذا من بلاغة اختيار الكلمة، فالقصد والدقة في اختيار الألفاظ يؤدي إلى تخصيص المعنى بسياق معين، وحال خاص كما في الآية.

وقد وصفهم الله تعالى بقوله: (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا) بتنكير فضلاً، ورضواناً، للتعظيم[٢]، والمقصود بهم المسلمون لقراءة حميد بن قيس الأعرج: (تبتغون)، فتصير العلاقة بيان حال المخاطَبين والمعنى على الخطاب " أن المؤمنين يقصدون قتالهم، والغارة عليهم، وصدّهم عن المسجد الحرام؛ امتثالاً لأمر الله ﷻ، وابتغاء مرضاته، إذ أَمَر بقتال المشركين، وقتلهم، وسَبْيِ ذراريهم، وأخذ أموالهم حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية"[٣]، وذلك في قوله تعالى: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (التوبة:٥)، وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا) (التوبة:٢٨)، فنهى المسلمين عن القتال وإنْ كانوا يبتغون به فضل الله ورضوانه؛ فالتماسك في النص القرآني هنا ناتج عن هاتين القراءتين، فتقوم القراءة الثانية مع القراءة الأولى بالدور العظيم في التماسك الدلاليّ للآية، بحيث تعطى كل من القراءتين معنىً واحدًا، نحصل عليه من خلال الجمع بينهما، فلا تناقض في الدلالة وإن اختلفت القراءات، وقد تتوفر عناصر أخرى من الخارج؛ تمكننا من فهم المقصود، كأحاديث الرسول ﷺ وأقواله وأفعاله.

وهذه الجملة تتناصُ مع قوله تعالى: (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) (الفتح:٢٩)، (الحشر:٨)، ففي آية المائدة قال: (مِّن رَّبِّهِمْ)، وفي آيتي الفتح والحشر قال: (مِّنَ اللَّهِ)، و إضافة الرب إلى ضمير آمّين على قراءة الخطاب؛ للإيماء إلى اقتصار التشريف عليهم.

ويعلل ابن الزبير ذلك بأنّ آية المائدة مبنيّة على تأنيس، وتخويف واستلطاف، وقد أحرز قوله:(من ربهم) هذه المعاني الثلاثة، ومن التأنيس افتتاح الخطاب بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)؛ وقدّم تأنيس من خوطب بالنهي إذا هم امتثلوا؛ فأنّسوا من التخويف الحاصل في الآيات، أما آية الفتح فليس فيها تخويف مُرتكب، ولا داعية إلى التأنيس، مع أنّ المخاطبين أعظم الأمة قدرًا، وأجلهم خطرًا، وهم أهل المزيّة والاختصاص؛ فلم تُبنَ الآية على مدحهم، بل وردت مورد

---

[١] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٩، ابن عاشور، **التحرير**، مصدر سابق، ج٦، ص٨٣.
[٢] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٣٤.
[٣] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق،ج٣، ص٤٣٥.

البشارة، وتعريف حال الإنعام، وعلى ذلك وردت آية الحشر من الثناء والمِدح، ولم يتخللها نهي ولا تخويف، ولا ورد تفصيل بذكر مخالفي تلك الحال[1]، فهذا هو الفرق بين استخدام صفة الألوهية في سورتي الفتح والحشر، وصفة الربوبية في سورة المائدة، فالربوبية تعني العناية والاهتمام بالمربوب، وهذا من استخدام كل صفة في موقعها، تستعمل بنية الكلمة في القرآن الكريم استعمالاً دقيقًا في غاية الدقة والجمال، يقول ابن الأثير: " اعلم أيها المتوشح لمعرفة البيان أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصيّة اقتضت ذلك"[2].

ثم قال تعالى: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ) فما مناسبة الحديث عن الصيد في حال النهي عن التعرض لشعائر الله بمختلف أشكالها، بل حتى نهى عن التعرض للمشركين في حال توجههم إلى البيت الحرام؛ وهم يسوقون الهدي المقلدة، وأظنّ السياق في حال إحرامهم، وربما يُظنّ بهم الصيد والتعرض للكفار؛ لأنّ الله أمرهم بقتالهم، فأرادوا قتالهم وأخذ مالهم وهديهم المسوق معهم، فنهى الله عن التعرض لشعائر الله المهداة إلى البيت الحرام، وخصَّ قلائدها المعلقة في رقابها من حذاء أو نعل زيادة في تحريمها، وكذلك أعطى الأمان للمشركين المحرمين، وفي ذلك مدعاة لجميع الناس أنْ يشعروا بالأمان، ويتوجهوا إلى البيت الحرام محرمين، وهم يسوقون هديهم، وبذلك يَعْمُرُ البيت الحرام بالحجاج، ويسمعوا كلام الله، ويتفكروا في أمر المسلمين الذين يعظّمون هذه الشعائر كما عظّموها، فربما خالط الإيمانُ قلوبَهم فدخلوا في الإسلام، ومن جهة أخرى، ليس على المسلمين المتوجهين إلى البيت الحرام للعبادة أنْ يجعلوا ما نفوسهم من الكافرين يؤثر على وقارهم، فهذه الشعائر لها مكانتها في النفوس، وإحلال الدماء أثناء تأديتها يسيء إلى الإسلام، والله أعلم.

وأتبع ما سبق بقوله: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ)، وعطفها عليها؛ ليبيّن لهم ما يمكن أنْ يكون سببًا للاعتداء على هؤلاء الآمّين، فخرج النهي للتأديب بآداب الإسلام، كما خرج للتشريع في المستقبل[3]، وهنا يبرز القصد من النهي وهو منع صدور الاعتداء عن المخاطَبين محافظة على تعظيم شعائر الله، لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم، فنهاهم أنْ يكون بغضهم سببًا للاعتداء، وبغضهم هذا مردّه إلى أنّهم صدّوهم عن المسجد الحرام، فكأنّ المعاملة بالمثل تقتضي أن يصدهم المسلمون ردًّا على ما فعلوه.

والمسجد الحرام مصطلح إسلامي جديد، ظهر بظهور الإسلام وهو "اسم جُعل علمًا بالغلبة

---

[1] انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٣٣-٢٣٤.
[2] ابن الاثير (١٩٨٣)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (تحقيق : أحمد الحوفي، وبدوي طبانة)، ط٢، ج٢، ص١٢، مطبعة دارالرفاعي – الرياض.
[3] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٧.

على المكان المحيط بالكعبة، المحصور ذي الأبواب، وهو اسم إسلامي لم يكن يدعى بذلك في الجاهلية، لأنّ المسجد مكان السجود؛ ولم يكن لأهل الجاهليّة سجود عند الكعبة"[١].

وقال تعالى في موضع آخر: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ) (المائدة:٨)، فكلا الآيتين وصيّةٌ للمسلمين، وحثٌّ لهم على مكارم الأخلاق، والعفو عمن أساء، ومنع البعض أنْ يكون سببًا للانتقام، واختلفت الآيتان فيما حُذروا منه، فالأولى قوله: (أَن تَعْتَدُوا۟) والثانية قوله: (عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟) والاعتداء أشد وأعظم من عدم العدل، ففي الآية الأولى " الإفصَاحُ بعلّة البغضاء الحاملة على الانتصار والانتقام، وهي صدُّهم عن البيت عام الحديبية...، فلما وقع الإفصاحُ بسبب الشنئان؛ ناسب النظم الافصاحَ بالعقوبة عليه، وهو الاعتداء بالانتقام، والمجازاة السيئة بالسيئة....، ولما لم يرد في الآية الثانية إفصاح بجريمة، بل بُنيت على أمر المؤمنين بالعدل، فقال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ)، فلما أمروا بالعدل؛ ناسب ذلك وصيتهم، وأمرهم ألا يحملهم شيء على ترك العدل الذي أمروا به، فقيل: (أَلَّا تَعْدِلُوا۟)، توضيح جليل للالتئام والمناسبة"[٢].

وبما أنّ الاستجابة تتراوح بين الإذعان والرفض فقد قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ) على سبيل المقابلة بين التعاون وعدم التعاون، وبين البر والتقوى وما يقابلها من الاثم والعدوان، فأمرهم " بالتعاون على البر والتقوى فيما بينهم، كما أنّ عليهم أنْ يعينوا غيرهم، وهذا أمريفيد التشريع"[٣]، وقد ظهر هذا المعنى من صيغة الفعل (تَعَاوَنُوا۟) التي تفيد المشاركة.

وأكد ذلك بالنهي عن ضده؛ " لأنّ الأمر بالشيء وإنْ كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه"[٤]، وقد أخّر النهي عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية؛ للمسارعة إلى أيجاب ما هو المقصود بالذات؛ فإنّ المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان إنّما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى[٥].

---

١ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٨٧.
٢ ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج ١، ص٣٦.
٣ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٨٧.
٤ المصدر السابق، ج٦، ص٨٨.
٥ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٣٩.

وقيل بأنّ البر والتقوى لفظان بمعنىً واحد، وكرر باختلاف اللفظ تأكيد ومبالغة، ولا ترادف في القرآن، كما أنّ العطف يقتضي التغاير، لذلك فقد اختلف المفسرون في معنى كل منها، فقال ابن عطية: إنّ البر يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب[1]، وقال ابن عباس: البر ما ائتمرت به والتقوى ما نُهيت عنه، وقال سهل: البر الإيمان، والتقوى السنة، يعني اتباع السنة[2].

وكما اختُلف في البر والتقوى اختُلف في الإثم والعدوان، قال عطاء: الإثم: المعاصي، والعدوان: التعدي في حدود الله، وقيل: الإثم الكفر والعصيان، والعدوان: البدعة، وقيل: الإثم: الحكم اللاحق للجرائم، والعدوان ظلم الناس[3].

ثم يأمرهم بالتقوى متوعدًا من يستحلّ شيئًا من محارمه فقال تعالى: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ)، والمراد من الأمر بالتقوى: التحذير من مغبّة الابتعاد عن شرع الله، وخرج الخبر المؤكد للتهديد والوعيد، فلا يطيق أحد عقاب الله تعالى.

وقد ذكر تعالى سبب حرمة الحرم في قوله: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ)؛ فمن تعظيم الله الكعبةَ حُرّمت أرض الحرم لأجل تحريمها، وهذا من نعم الله على أهل مكة إذ جعل هذه الشعائر التي فيها أمانا لهم، والبيت الحرام "عطف بيان على جهة المدح، لأنّه عُرِف بالتعظيم عندهم؛ فصار في معنى المعظَّم، أو لأنّه وُصِف بالحَرَام المُشْعِر بحرمته وعظمته"[4].

وعطْف (الشهر الحرام) على (الكعبة) " شِبه عطف الخاص على العام؛ باعتبار كون الكعبة أُريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها، فإنّ الأشهر الحرم ما اكتسبت الحرمة إلا من حيث هي أشهر الحج والعمرة للكعبة"[5]. وإفراد الشهر مع أنّها أشهر أربعة " لأنّه ذهب به مذهب الجنس"[6].

واستعار القيام " للتدبير والإصلاح، لأنّ شأن من يعمل عملا مهمًا أنْ ينهض له"[7]، وقوله: قيامًا للناس: أي لبعض الناس، وهم العرب على سبيل المجاز، ذَكَر الكل وأراد البعض، فالتعريف في كلمة (الناس) للعهد؛ لأنّ المراد بهم العرب، فهم الذين انتفعوا بالكعبة وشعائرها.

[1] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥.
[2] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٧.
[3] الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٧.
[4] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٧، ص
[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٥٨.
[6] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١٠٧.
[7] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٥٦.

وقد أشار تعالى إلى جميع هذه الأمور بقوله: (ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، فاسم الإشارة إحالة مرجعية إلى ما سبق، وتوسطه بين الكلاميين؛ لزيادة الربط بين السابق والآتي من الأحكام، مع التنبيه على تعظيم المشار إليه وهو الجعل المأخوذ من قوله: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ)، والكلام مرتبط بما قبله بواسطة لام التعليل، فهي جملة تعليلية لما سبق أيضًا، أي أنّ الله جعل هذه الأمور قيامًا؛ لتعلموا أنّ الله يعلم تفاصيل أمور السماوات والأرض، ويعلم مصالحكم أيها الناس من قبل ومن بعد، فهذا هو القصد من ذلك، وقد أخبر الله بهذه القصدية من تعظيم شعائره على الناس، وليس الكلام بمستأنف، لأنّ ما صدّق اسم الإشارة هو الكلام السابق، ومفاد لام التعليل الربط بالكلام السابق، والتعليل اتصال وليس استئناف؛ لأنّ الاستئناف انفصال، وليس في الكلام السابق ما يصلح لأن تتعلق به لام التعليل إلا قوله (جعل)[1].

وهكذا يظهر الربط الذي أدّاه الحرف، وتظهر قوته، وتأثيره في المعنى؛ إظهارًا لحكمة الله في تقدير الأمور، لذلك ختمت الآية بقوله: (وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، " تعميم إثر تخصيص للتأكيد"[2].

وقد توعد الله من انتهك حرماته فقال: (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾)؛ فقدّم الوعيد والتخويف من عذابه على الرجاء بالغفران والرحمة، فجاء تقديم الوعيد؛ لأنّ السياق جاء ضمن ذكر نعم الله على الناس، وتكليفهم بإقامة شعائر الله فيما أمر؛ فمن خالف فله العقاب، ومن عاد إلى الصواب فإنّ الله يغفر الذنوب، وذلك للتشديد على خطر استحلال ما حرم الله، فقدم الوعيد.

ثم ذكر تعالى إعذار الناس بأنّه بعث لهم رسولاً مبلغًا، فلا عذر لهم في التقصير، فقال: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ)؛ فهو مُكلّف بالتبليغ فقط، وليس بمسؤول عن أفعالكم، وفي ذلك تشديد في إيجاب القيام بما أمر الله به، ثم عطف على جملة (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) قوله: (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾)، وهي تتميم للتعريض بالوعيد، وتذكير بأنّه لا يخفى عليه شيء من

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٥٩.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٢٤.

أعمالهم، ظاهرها وباطنها[1]، وكل هذه الأمور تتّسم بالشدة والقوة، فكلها منسجمة مع التراكيب في شدّتها.

وأظهر كمال علمه باستخدام أسلوب الطباق بين كلمتي (تبدون) و (تكتمون)، والمقصود بذلك تعميم علمه تعالى.

٣. التحليل والتحريم:

أ- الحلال في الأطعمة

ورد في ثنايا السورة العديد من القضايا المتعلقة بالأطعمة المحلّلة منها والمحرّمة؛ بعد أنْ أمر الله بالوفاء بالعقود، وهو كلامٌ مجملٌ، شرع بتفصيله من خلال ذكر نعمه تعالى، وتبيين الحلال والحرام منها، إذ أحد العقود اتباع شرع الله في أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، فكان الابتداء بذكر المباح؛ " امتنانًا وتأنيسًا للمسلمين؛ ليتلقّوا التكاليف بنفوس مطمئنة"[2]، فالآتي علاقة تفصيل لما سبق إجماله، وهو أحد وسائل الانسجام التي تعمل على ترابط النصّ وتماسكه، ومن نتائج هذا التماسك أنّ الخطاب السابق يحدّد امتداد السياق الذي سيؤوّل فيه المستمع ما يلحق فقال تعالى: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة:١)، وعادة ما يرد في القرآن قوله تعالى: (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ) (الحج:٣٠)، فخُصّت آية المائدة بزيادة لفظ (بهيمة)، فاسم الأنعام يطلق على الأزواج الثمانية التي ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام؛ وهي: الأبل، والبقر، والضأن، والمعز، الذكر منها والأنثى، فقال تعالى: (ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ) (الأنعام:١٤٣)، ثم قال: (وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ) (الأنعام:١٤٤)، وهناك ما يصاد من الوحشي أيضًا؛ لذلك قيل إن المراد ببهيمة الأنعام: الوحشي؛ كالظباء، وبقر الوحش، ووجه وقوعها في سورة المائدة؛ " أنّ المائدة من آخر ما نزل، وقد تضمنت متمّمات من الأحكام؛ كآية الوضوء والتيمم، وتفاصيل الصيد، واستيفاء المحرمات من المأكولات والمشروبات على التحرير، وأحكام هذه السورة كثيرة، ومحكمة، وغير منسوخة، وفيها ورد: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)؛ فناسب هذا ذكر حِلِّيّة بهيمة الأنعام؛ إذ لم يذكرها الله في غيرها، وبيان العوارض التي قد تحرم لأجلها وهي قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ

---

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٦١.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦، ص٧٧.

﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾، ثم أتبع بقوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾، لأنّ هذه عوارض تكثر في الوحشي؛ لمخالفة حاله في التزكية، وما تحل به الإنسيّة من الأنعام"[١].

بينما الآية الأخرى في سورة الحج مناطة بما أُمِر به الحاجّ، والصيد محرّم على الحاجّ، لذلك لم يذكر بهيمة الأنعام التي هي الصيد الوحشي، وذكر ما يحل أكل لحمه للمُحْرِم حالَ إحرامه؛ فذكر الأنعام فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾"[٢]. فأفرد البهيمة لإرادة الجنس، وجمع الأنعام ليشمل أنواعها، والإضافة من قبيل إضافة الأعمّ إلى الأخصّ، وهذا الخبر للامتنان، وهكذا نرى كيف وظّفت الآيات الذكر والحذف فيما بين الآيات المتشابهة؛ بحيث استعملت بنية الكلمة استعمالاً دقيقًا في غاية الدقة والجمال، وهو لحكمة تُطلب، وفائدة تُرام، وليس تكرارًا بلا فائدة، وفي ذلك يقول الخطيب الإسكافي: " إذا أورد الحكيم - تقدست أسماؤه- آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضوع أخر من القرآن، وقد غيّر لفظة عما كانت عليه في الأولى فلا بد من حكمة تُطلب؛ فإن أدركتموها فقد ظفرتهم، وإن لم تدركوها؛ فليس لأنّه لا حكمة هناك، بل جهلتم"[٣].

وقد قدّم الجار والمجرور في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم﴾؛ لأجل إظهار العناية بالمقدم؛ لما فيه من "تعجيل المسرّة والتشويق إلى المؤخّر، فإن ما حقّه التقديم إذا أُخِّر تبقى النفس مترقبة إلى وروده، فيتمكن عندها فضل تمكن"[٤]، وقد بين البلاغيون أهميّة هذا الأسلوب، كما وصفه عبد القاهر الجرجاني بأنّه " باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راق لك، ولطف عندك أن قُدّم به شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان"[٥].

أما قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فهو مجمل للجهل بمعناه، وهو إحالة إلى متأخر لم يذكر بعد؛ يوضحه قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ الآية.

وقوله ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ مقيّد لمعنى الاستثناء، حيث قيّد إحلال بهيمة الأنعام دائمًا، وعدم إحلال الصيد حال الإحرام فقط، وفي هذا تفريق بين حالَيْ الأنعام؛ من حيث إنّها قد تكون

---

[١] ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٣١-٢٣٢.
[٢] انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٣١ بتصرف.
[٣] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥.
[٤] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٣٣.
[٥] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص ١٠٦.

صيدًا، وقد لا تكون، فالصيد لا يحل في حال الإحرام، وما لم يكن صيدًا فيحل في الحالين[١]، وفي هذا إيجازٌ شديد، إذ عبر بالقليل من الألفاظ، عن الكثير من المعاني؛ باستخدام أسلوب الاستثناء، وفيه تخصيص من خلال تحريم الصيد حال الإحرام.

ولحرص المسلمين على اتباع تعاليم الله تعالى؛ صاروا يسألون عما يباح لهم وما يحرم عليهم من أمور لم تُذْكر، فقال تعالى مخبرًا عنهم، مخاطبًا النبي ﷺ، ليوجه إليهم الإجابة عن طريقه فقال: (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ) (المائدة:٤)، وقد فَصَل بين هذه الآية وبين ما قبلها؛ لانعدام داعي العطف بينهما، فالآية الأولى بيان بالأنواع المحرمة من الأنعام، والآية الثانية استبيان لما أحله الله، فلا تناسب بينهما، فهي استئناف ابتدائي للانتقال من بيان الحرام إلى بيان الحلال، وهذه الآية لها إحالة مقامية خارجية، تتمثل في سبب النزول، وهو أنّ عدي بن حاتم، وزيد بن مهلهل (زيد الخير) سألا رسول الله ﷺ عن الحلال والحرام من الصيد بالكلاب، فنزلت الآية، وقيل إنّ سبب نزولها أنّ جبريل عليه السلام عندما جاء إلى رسول الله ﷺ لم يدخل؛ لأنّه لا يدخل بيتًا فيه كلب، فأمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فقتلت، فسئل عما أُحلّ من هذه الكلاب[٢].

فهذا الاستفهام حقيقي غرضه طلب الحصول على إجابة، وقد وردت هذه الصيغة كثيرًا في القرآن، كقوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ)، (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ)... فصيغة المضارع للدلالة على تجدد السؤال وتكرره أو توقع تكرره، لأنّه مما تتوجه النفوس إلى الإحاطة به، ولاستحضار صورة الحدث في الذهن، تمهيدًا لتمكّن الإجابة في النفس عند ورودها، لأنّ الحضور الذهني فيه تنشيط للنفس، وحسن التلقي[٣].

وهذا الخطاب موجه للنبي ﷺ من خلال فعل الأمر (قل)؛ الذي يؤدي وظيفتين بلاغيتين؛ إحداهما الفصل بين السؤال والجواب؛ لكمال بيان المعنى، والثانية: التمهيد لحكاية صيغة الجواب التي تلقاها المسؤول؛ وهو النبي ﷺ من الوحي، لأنّ حكاية الكلام لا يمكن التوصل بها إلا من خلال فعل القول[٤]، وتكراره في صيغة الأمر من الله إلى الرسول ﷺ من العناصر التي تحقق التماسك النصي بين الآيات التي تدور حوله، فقد تكررت صيغة الأمر من هذا الفعل مشيرة بذلك

---

[١] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج ١١، ص١٢٩، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٣.

[٢] انظر: الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق،ج١، ص١٢٨.

[٣] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١١٠-١١١.المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٩.

[٤] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٩.

إلى الحوار القائم بين الله ورسوله ليبلغ الرسول الناس من بعد، ولغة الحوار من الأنماط المحققة للتماسك النصي كذلك[١].

ومن ثم جاءت الإجابة بالإباحة بقوله تعالى: (أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ) مع التغاير في الضمير، (لهم - لكم)، الأول للغيبة، والثاني للخطاب، حيث روعي أولاً حال المحكي (يسألونك)، ولم يراعَ حال السائل، أما في الثانية فقد روعي حال السائل؛ لتصور حضوره أمام المسؤول، ومن ثم إخراجه مخرج المشافهة لا التبليغ الغيبيّ[٢]؛ فأشار إلى تحليل الطيّبات على وجه الإجمال، ثم شرع في التفصيل، فقال: (وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ) أي: وصيد ما علمتم من الجوارح، وعطفها على ما قبلها من قبيل عطف الخاص على العام، والسر البلاغي في إفراد الخاص بالذكر بعد العام؛ لإزالة ما يعلق بالأذهان من احتمال تحريم ما تصيده الجوارح، فحُلِّلَ هذا الصيد بشروطه المنصوص عليها في النّظم القرآني.

والأمر في قوله: (فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ) للإباحة، أما في قوله: (وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ) فخرج للتذكير. ويعود الضمير في (عليه) على متقدم وهو قوله: (وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ) أي سمّوا عليه عند إرساله، وقد يعود إلى: (مَآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ)؛ على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته[٣]، وهذا من الإيجاز أنْ يعود الضمير إلى مرجعين، كلاهما معنيٌّ به، ثم خوّفهم إنْ هم فعلوا ما نهاهم عنه، فقال: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)، على وجه التهديد والوعيد، وقد أظهر لفظ الجلالة الله في المواضع الثلاثة؛ " لتربية المهابة في نفوس المخاطبين، لأن المقام مقام تشريع، وتوخي الحلال، فناسب ذلك إظهار اسم الجلالة؛ لأنّه أدعى للامتثال والطاعة"[٤].

ثم كرّر المعنى بقوله: (ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ)، وذلك لتأكيد المنّة عليهم، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم بكثرة، كقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة:١٧٢)، وقال: (فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (النحل:١١٤)، فأضاف تعالى فيها وجوب شكر الله تعالى على نعمه.

---

١ انظر: الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٥.
٢ انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٩.
٣ انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٩٩.
٤ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٠.

وتكرار كلمة (اليوم) في صدر الآية؛ " إعلامًا بعظم النعمة فيه، ومفيدًا بذكر وقت الإحلال أنه إحلال مقصود به الثبات لكونه يوم إتمام النعمة"[١]، فالتكرار الدلالي له وظيفة مهمة في تحقيق التماسك النصي، كما أنّ تكرار الكلمة له وظيفة في تحقيق التماسك النصي وانسجامه.

ب- النهي عن تحريم الطيبات:

وقد نهى تعالى عن تحريم الطيبات فقال: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾) (المائدة:٨٧- ٨٨)، وهذه الآية توكيد لما سبق، فالنهي هنا للتحذير، " وليس المراد من النهي أنْ يلفظ بلفظ التحريم خاصة، بل أنْ يتركه تشديدًا على نفسه؛ سواء لفظ بالتحريم، أم لم يلفظ به"[٢]، وفي الآية تحذيرٌ ضمنيٌّ من سلوك طريق النصارى في الرهبانيّة، وتحريم الطيبات تقشفًا وتزهدًا، لأنّ ما مر كان في مدح النصارى وذلك قوله: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ) (الآية: ٨٢)، وذلك لكي لا يُفهم أنّ مدحهم مدح صنيعهم، وهذا نهي عن الإفراط.

ولما نهى عن تحريم الطيبات؛ أردفه بالنهي عن استحلال المحرمات، فقوله: (وَلَا تَعْتَدُوٓا۟) تأكيد لقوله: (لَا تُحَرِّمُوا۟)؛ فالنّهيان تضمّنا الطرفين، أي: لا تشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حرامًا، وكرر التحذير من كل اعتداء بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ)، وهذه الجملة تربطها بما قبلها علاقة التعليل، إذ كل الآية تدور حول الاعتداء في الحلال والحرام، وهذا يبرز تماسك الآية وانسجام دلالاتها، وأكّد تعالى ذلك بقوله: (وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا)، فالأمر هنا للإباحة، وقيل للوجوب لأنّ المراد هنا الإباحة والتحليل، وهو لتأكيد النهي عن تحريم الطيبات[٣]، وخص الأكل بالذكر لأنّه أعظم المقصود، وأخص الانتفاعات بالإنسان[٤]، وقد أكّد الوصايا السابقة بقوله: (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ)، والاسم الموصول (الذي) يعود على الله تعالى، وجاء به

---

[١] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٩٧.

[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٦.

[٣] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٦١.ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٧.

[٤] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٩.

للإيماء إلى علة الأمر بالتقوى، لأنّ شأن الإيمان أنّ يقتضي التقوى، فلما آمنتم بالله، واهتديتم إلى الإيمان؛ فكمّلوه بالتقوى.

وقد بدأ بقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)، وانتهى بقوله: (ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ)؛ تأكيدًا على صفة الإيمان من جهة، وترغيبًا بالالتزام بالحكم الوارد بينهما، وهذا ما يسمى رد العجز على الصدر.

وفي قوله: (حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ) تنكير،فإذا كان متعلقًا بالأكل يصير المعنى: كلوا حلالاً طيبًا مما رزقكم الله، وإن كان متعلقًا بالمأكول يصير المعنى: كلوا من الرزق الذي يكون حلالاً طيبًا، وفي هذا التعالق تضافر وتعانق؛ يؤدي إلى توضيح المعنى، ويحصره في المراد، وبذلك ينسجم المعنى والدلالة، ويفهم القارئ الحلال من أي طريق ورد إليه منهما، وهو بذلك يتبع شرع الله وحده، لا شرع غيره.

وقد ورد عن العرب في الجاهلية تحريم بعض الأنعام، وقال الله نافيًا هذا التشريع وصحته: (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ) (المائدة:١٠٣)، وهذه الآية تُحيل إلى قوله تعالى: (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ) (يونس:٥٠)، حيث كانوا يغيّرون خلق الله، مثل فقئ عين الحامي لتسييبه للطواغيت، ومنه الوشم والوسم، وهذا من وحي الشيطان إذ قال تعالى على لسانه: (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ) (النساء:١١٨- ١١٩)، فذكر هنا شيئًا مما يأمر به الشيطان مما يخصّ أحوال العرب.

و(جعل) بمعنى الأمر والتشريع[1]، حيث نفى الله تشريعه لهذه الأحكام التي عُرفت في الجاهلية، ووضعها لهم عمرو بن لحيّ، ووصف ذلك بأنّه افتراء وكذب على الله ﷻ؛ وذلك لأنّ هذا التشريع وضع أصلاً تقربًا للآلهة والأصنام؛ وهذا شرك بالله، وبها إضرار بالحيوان، وتعطيل لمنفعته، والله لا يقبل ذلك، وقد ذكر تعالى ما خلق لأجله هذه الأنعام، فقال: (وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٧١.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٥- ٨)، كل هذه الإحالات في سور مختلفة باجتماعها تعطي القصد من التشريع الرباني.

وقد جمع الله في هذه الآية كل ما حرّمه المشركون، وخصّوا به آلهتهم؛ تقربًا إليها بتسميات مختلفة، وأوصاف متنوعة، جمع بينها بتلاؤم في المعاني بين هذه الكلمات المفردة؛ تلاؤمًا يؤدي إلى الغرض المقصود؛ فالألفاظ " لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[1]، وقد سلك فيها مجرى التعداد وهو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد، فكلها لها الحكم ذاته في أنّ الله ﷻ لم يشرّعها، وهذين الفنّين - تلاؤم الألفاظ، وحسن التأليف - من أجمل مواطن الإعجاز والبيان في القرآن.

وقد فصّل تعالى تشريع الكفار هذا في سورة الأنعام، فلهذه الآية إحالات لاحقة في تلك السورة؛ تُظهر حقيقة هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام:١٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الأنعام:١٣٨)، وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل؛ " إذ يحجرون التصرف على أنفسهم في بعض أموالهم، وهذا من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم، فصنف منه محجر على مالكه أنْ ينتفع به، والثاني: أنعام حرموا ظهورها وهو الحامي، والثالث: أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند نحرها وذبحها"[2]، وأَجمَل الله الأشياء التي حرموها بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:١٣٩). وهذا يمثّل تعليقًا على هذا الافتراء على الله، وهو من قبيل الربط بين السابق واللاحق، ومن ثم يمكن تحقيق التماسك النصي من خلاله.

وهذا التحريم لا دليل عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل:١١٦)، وقد ذكر

---

[1] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص٣٨.

[2] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٨، ص٣٤.

تعالى أصناف الأنعام فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٤٣-١٤٤).

فالأنعام أربعة أصناف، تشكل ثمانية أزواج ذكورًا وإناثًا، هي: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وفائدة التفصيل بـ (اثنين) " التوصل لذكر أقسام الذكور والإناث؛ توطئة للاستدلال في التحريم "[1]. وهذه الإباحة المطلقة إلا فيما ورد تحريمه من فضل الله على المسلمين.

ولما حرّم المشركون ما أحلّ الله اضطروا إلى تحليل الميتة، ولما اتخذوه دينًا، واعتقدوه شرعًا، ومضى عليه أسلافهم؛ رفضوا نسبة آبائهم إلى الضلال، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة:١٠٤).

والأمر في قوله: (تعالوا) " مستعمل في طلب الإقبال، وفي إصغاء السمع، ونظر الفكر، وحضور مجلس الرسول ﷺ، وعدم الصدّ عنه، فهو مستعمل في حقيقته ومجازه "[2]، لكنهم رفضوا الانصياع لأمر الله تعالى، فوبخهم الله ﷻ وقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، فالهمزة " للاستفهام المصحوب بالتوبيخ والإنكار والتعجّب من حالهم[3].

وهذه الآية تتناصّ مع آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَايَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٧٠)، وقال في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (لقمان:٢١)، حيث خصص موضع البقرة بقوله: (ألفينا) وسورة المائدة ولقمان بقوله: (وجدنا)، وذلك أنّ " (ألفينا) يقصد بها الوجود التي يستعمل عليها (وجدنا)، لأنّه يقال: وجدت الشيء، وتقول: وجدت زيدًا عاقلاً، فيكون الوجود متعلقًا بالخبر الذي هو المفعول الثاني، فلا بدّ له في هذا الوجه منه، ولا يكتفى بالمفعول الأولى، أما قولهم: (ألفيت)؛ فإنّها مخصوصة بهذا الوجه من وجوه

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٨-١٢٩، وانظر: الفخر الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج٨، ص١٣٠.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٧٥.

[3] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٥.

(وجدت)؛ فكان في الموضوع الأول استعمال اللفظ الأخص أولى، وتأخير اللفظ المشترك إلى المكان الثاني"[1]، "لأنّ غيره إذا وقع موقعه في الثاني والثالث عُلم أنّه بمعناه"[2]، أمّا قوله في الموضع الثاني في البقرة: (يعقلون) وفي المائدة: (يعلمون)؛ " لأن العلم أبلغ درجة من العقل، ولهذا جاء وصف الله به ولم يجز وصفه بالعقل، فكانت دعواهم في المائدة أبلغ لقولهم: (حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ)؛ فادّعوا النهاية بقولهم: (حسبنا) فنفى ذلك العلم وهو النهاية، وقال في البقرة: (بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ)، ولم تكن النهاية؛ فنفى بما هو دون العلم؛ لتكون كل دعوة منفية بما يلائمها"[3]، فلم " يدّعوا أنّ ما ألفوا عليه آباءهم كان كافيهم وحسبهم، فاكتفى بنفي أدنى منازل العلم؛ لتكون كل دعوة مقابلة بما هو بإزائها مما يبطلها[4]".

وهنا يسخر من تشبثهم باتباع الآباء؛ مع وضوح ضلالهم، وظهور جهلهم وانحرافهم عن الطريق القويم، فسخرية القرآن تجعلهم متأكدين من ضلال آبائهم، وتفاهة تفكيرهم، وهذا التصوير من أبلغ صور التهكم والسخرية بهم، وصورتهم وهم يهرعون راكضين أشد الركض في إثر ضلال آبائهم حين تأكدوا من أنّه ضلال حمل غاية الاستخفاف[5].

وقد بيّن الله تصنيف الأمور فقال: (قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٠٠﴾)، فقيل: " إنّ الخبيث والطيب عامّان يندرج تحتهما حلال المال وحرامه، وصالح العمل وفاسده، وجيد الناس ورديئهم، وصحيح العقائد وفاسدها"[6]، فشبّه الحلال، والصالح، والجيد بالطيب؛ لتقبّل النفس له؛ ترغيبًا فيه، وشبّه الحرام، والفاسد، والرديء بالخبيث في كراهية النفس له، وعزوفها عنه؛ تنفيرًا منه، فصرّح بالمشبه به، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية؛ وهنا تظهر القصدية من خلال نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين عكسها، وذلك للترغيب في جيد كلٍ منها، والتحذير من رديئها، فكل جملة بل كل كلمة في كتاب الله تعالى لها قصدية معينة.

والواو في قوله: (وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ) واو الحال، وإعجابه به أنّه صار عنده عجب مما يشاهده من كثرة الكفار والمال الحرام، وقلة المؤمنين والمال الحلال.

[1] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٣١١-٣١٢.
[2] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٢٦.
[3] المصدر السابق، ص٢٦-٢٧.
[4] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج ١، ص٣١٥.
[5] انظر: حنفي، عبدالحليم (١٩٨٧) ، **أسلوب السخرية في القرآن الكريم**، د.ط ، ص١٥١ -١٥٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
[6] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق،ج٤، ص٣٠.

وقيل " إنّ الواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر؛ أي لو لم تعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك، حذفت الأولى حذفًا مطردًا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة"[١]، وقال السمين الحلبي: "جوابها محذوف أي: ولو أعجبك كثرة الخبيث لما استوى مع الطيب، أو لما أجدى شيئًا في المساواة"[٢]، وهذا من الاتساع في المعاني، فقد أوجد النظام اللغوي عددًا من وسائل الترابط في الجملة، يعتمد مدلولها على الفهم والإدراك الخفي للعلاقات في النص، وبعضها الآخر يعتمد على الوسائل اللغوية المحسوسة.

وفي تقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأنّ " القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء فيه لا في مُقابله، فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانًا، وإنْ جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد، لكنّ المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر"[٣].

وهنا تظهر قوة الإعلاميّة في التشريع، فقد كان العرب يخلطون بين القبيح والطيب؛ فيأكلون الميتة، وبهذه الآيات تحولت العادات إلى عبادات وتشريعات إسلامية يجب التزامها، وبهذا تُمهِّد القبولية لجميع المسلمين المعاصرين لنزول الآيات، والذين كانوا قد أكلوا ما حُرِّم في الجاهلية بعد ظهور الإسلام، لكونه شرع الله، وقد أباح الله المحظورات في حال الضرورة، فلا خوف من الهلاك.

وبهذا يظهر ترابط الآيات المتباعدة في السورة، وتَجْلِيَتِها لموضوع خاص، من نواحٍ متعددة، كل آية في سياقها، لها وظيفة خاصة، وباجتماع الآيات مع نظائرها تعطي الدلالة الكاملة.

ج- تحريم بعض الأطعمة

أما ما جاء محرمًا من الأطعمة فهو في قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (المائدة:٣)، وقال تعالى: (وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ)

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٢٤.
[٢] السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (١٩٩١). **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، (تحقيق: أحمد محمد الخراط)، ط١، ج٦، ص٢٥، دار القلم، دمشق.
[٣] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٢٤.

(الحج:٣٠)، فذكر الله تعالى أول المحرمات وهي الميتة على سبيل الإجمال، ثم فصّلها بقوله: (وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ) ثم استثنى بقوله: (إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ)، وفي هذا الاستثناء قولان:

١- استثناء من المحرمات وهو على وجهين:

أ- استثناء متّصل راجع إلى كل ما أدرك ذكاته من المذكورات، لأنّ كل ذلك مستحق الصفة التي هو بها قبل حال موته[1]، أو يعود على أقرب مذكور وهو قوله: (وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ).

ب- إنه استثناء منقطع وتقديره: لكن ما ذكيتم من غير هذه فكلوه.

٢-إنّه استثناء من التحريم لا من المحرمات، بمعنى أنّه تعالى حرم ما مضى، لكن ما ذكيتم فهو حلال، وعلى هذا التقدير يكون الاستثناء منقطعًا أيضًا[2].

وهذه المعاني جاءت من الاختلاف في الإعراب، يقول عبد القاهر الجرجاني: " قد عُلم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون الإعراب هو المستخرج، وأنّه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يُرجع إليه ولا يُنكِر ذلك إلا من ينكر حسّه، وإلا من غالط في الحقائق نفسه"[3]؛ وهو ما يؤدي إلى اتساق النص وانسجامه مع الدلالة في كلا التحليلين.

وهذه الأربعة الأولى صفات لموصوف مؤنث، وقد عدل عن الصيغة، فقال منخنقة، والأصل مخنوقة، ونطيحة والأصل منطوحة، وفي مثل هذه المواضع تكون الهاء محذوفة فيقال: نطيح وليس نطيحة، وتحذف الهاء من الفعيلة؛ " إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة، وضعتها موضع الموصوف فتقول: رأيت قتيلة بني فلان، لأنّك إنْ لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أم امرأة"[4]، فدخلت الهاء في النطيحة لأنّها صفة لمؤنث غير مذكور وهي الشاة، فانظر إلى أثر العدول عن بنية الكلمة، وكيف استعمل في القرآن الكريم استعمالاً دقيقًا، وهذا كله مراعاة لانسجام النص مع الدلالة لتؤدي المعنى المقصود.

ثم (وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ) أي ذبح على اسم غير الله على وجه التقرب، وهذا يتشابه مع قوله

---

[1] انظر: الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، ج ٨، ص٦٧-٦٨، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج٦، ص٥٠.

[2] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق،ج٣، ص٤٣٨-٤٣٩، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص١٠٤- ١٠٦.

[3] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص٧٥.

[4] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١١، ص١٣٦.

تعالى[١]: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام:١٢١)، وقد دعا إلى عكس ذلك فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام:١١٨).

أما الاستقسام بالأزلام فله عدّة معانٍ[٢]، وكان مقتضى الظاهر أنْ يقال: وما استقسمتم عليه بالأزلام، فغيّر الأسلوب وعدل إلى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ ليكون أشمل للنهي عن طريقتي الاستقسام؛ وذلك إدماج بديع"[٣].

والفسق: " الخروج عن القصد، والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، مصطلح قرآني جديد، اشتق من فَسَق يَفْسُق فِسْقاً و فُسُوقا، ويقال: فَسُق، والعرب تقول: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، وتُجمع كتب التفسير أنّ الفاسق هو الخارج عن أمر ربه، وأنّ الفِسْق هو العصيان والترك لأمر الله ﷻ، والخروج عن طريق الحق"[٤].

واستخدم اسم الإشارة للبعيد فقال: (ذلكم)؛ " للإشارة إلى بعد منزلته"[٥]، وبعده الضمير (كم) قد يكون راجعًا إلى الاستقسام أو لجميع ما تقدم[٦]، للتحذير من تلك الأعمال، فظاهر الآية أنّ جميع أنواع الميتة حرام، لكنّه تعالى بيّن في موضع آخر أنّ ميتة البحر خارجة من هذا التحريم، فقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة:٩٦)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (النحل:١٤)، فأباح تعالى ميتة البحر وقد جاءت السنة النبوية لتوضح هذا الحكم، فقال ﷺ: (أحلت لكم ميتتان ودمان)، فالميتتان هما الجراد وطعام البحر، والدّمان هما الكبد والطحال.

وفي أثناء هذه الأحكام الهامّة اعترض قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾"[٧]، وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها جريًا على " سنن الجمل التي تساق للتعداد في منّة أو توبيخ،

---

[١] المصدر السابق، ج٦، ص٩٧.

[٢] قيل إنها ثلاثة يتخذها كل إنسان لنفسه، أحدها افعل، والآخر لا تفعل، والثالث غفل، ويستعملها إذا أراد فعل شيء ما، وقيل هي سبعة أقداح كانت عند هبل في جوف الكعبة، كل منها له اسم، من يخرج له هذا الاسم يعمل بمضمونه من قداح الميسر، وهي التي يستقسمون به الرزق، حيث يوزع الجزور على حسب ما يخرج من قداح الميسر العشرة، وهي المقصودة فيا لآية، لأنه انتحدث عن الطعام، وليس عن الأفعال المقصودة، كالسفروغيره، انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣٩، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٤٨-٤٩.

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٩٧.

[٤] انظر: أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن**، مصدر سابق، ص ١٢٨.

[٥] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٧.

[٦] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص١٣٨.

[٧] المصدر السابق نفسه.

ولأجل ذلك أُعيد لفظ اليوم"[١]، فالخطاب بما احتوى على شدة أعقبها بلين؛ إيناسًا وتذكيرًا لهم بنعم الله، ومن ثم عطف هذه النعم على بعضها، وهذا يقتضي التغاير في هذه النعم، واختلافها عن بعضها، وأنّها لا ترجع إلى شيء واحد، وقيل إن (اليوم) هو " وقت محمد ﷺ، كما تقول: هذه أيام فلان، أي هذا أوان ظهوركم، وشيوع الإسلام، فقد أكملت بهذا الدين، وأحللت لكم الطيبات"[٢].

وقوله (فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ) بحذف الياء وحذف كلمة الناس، وقد وردت في موضع آخر إذ قال تعالى: (فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ) (المائدة:٤٤)، وقال تعالى: (إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي) (البقرة:١٥٠)، بإثبات الياء، فذكر الياء في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آيتي المائدة، فآية البقرة حول تغيير القبلة، قال تعالى: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ) (البقرة:١٥٠)، " لأنّ السياق في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغيير، وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله، أو خشيتهم، وإنّما عليهم أنْ يخشوا الله وحده"[٣]، أما السياق في آيتي المائدة فيختلف عن ذلك؛ إذ السياق في الآية الأولى عند "ذكر المحرمات من الأطعمة؛ فالكفار يائسون من محاربة الإسلام بعد أنْ أظهره الله وأعلى كلمته، وكذلك الأمر في الآية الأخرى"[٤]، فهي في سياق الحوار مع اليهود، لما قرر أن النبيين والربانيين قائمون بإمضاء حكم التوراة بلا تحريف، فدعاهم تعالى إلى عدم الخشية من العمل بمقتضى التوراة، وعدم الخوف من الناس بل منه تعالى وحده، فلماذا اختار كلمة الخشية دون غيرها كالخوف والإشفاق مثلا؟

ولقد تنبّه بعض العلماء على دقة اختيار لفظ الخشية من خلال إشاراتهم إلى الفروق الدقيقة بين دلالتها ودلالة غيرها؛ مستندين في ذلك إلى خصوصية الاستعمال القرآني، فذكر ابن القيم الفرق بين الخشية والخوف فقال: " إنّ الخوف هو توقع العقوبة، وغالبًا ما يقترن بحركة مادية، تتمثل في الهرب من المخوِّف، أما الخشية فهي خوف مقرون بمعرفة وتعظيم وإجلال، وهي أخص من الخوف، وغالبًا ما تقترن بحركات نفسيّة من قبيل انجماع القلب، وانقباض النفس،

---

[١] المصدر السابق، ج٦، ص١٠٢.
[٢] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٥١. وانظر: الجمل، سليمان بن عمر، (د.ت)، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، (د.ط)، ج ٢، ص١٨٤، دار الفكر للطباعة والنشر.
[٣] السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٦)، **التعبيرالقرآني**، ط٤، ص٨٩، دار عمار، الأردن.
[٤] المصدر السابق، ص٩٠.

والسكون إلى الله بعمل الطاعات، والإخلاص له، والاعتصام به خوفًا من عذابه"[1].

ثم جاء الزركشي وأكّد ما قاله ابن القيم، وأضاف إلى ذلك دلالة الأصل الحسي للفظين؛ حتى يقف على البعد النفسي الذي يختص به كل منهما، فقال: " إنّ الخشية أعلى من الخوف، وهي أشد الخوف، فإنّها مأخوذة من قولهم شجرة خشيّة إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء إذا كان بها داء، وفُرّق بينهما أيضًا بأنّ الخشية تكون من عِظَم المخشيّ، وإنْ كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإنْ كان الخوف أمرًا يسيرًا"[2]، فالخاشي من الله بالنسبة إلى عظمة الله ضعيف؛ فيصح أنْ يقال: يخشى ربه لعظمته، ويخاف ربه لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى، وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى لما ذكر الملائكة وهم أقوياء ذكر صفتهم بين يديه فبين أنّهم عند الله ضعفاء، ولما ذكر المؤمنين من الناس وهم ضعفاء ولا حاجة إلى بيان ضعفهم، ذكر ما يدل على عظمة الله تعالى[3].

أما الإشفاق فهو خوف تخالطه الرقة والعناية والعطف وضعف القلب ومن ثم يقال للأم أنّها تشفق على ولدها"[4]، فانظر إلى روعة القرآن في اختيار اللفظ المناسب في سياقه.

وقد قدّم الخشية من الناس على الخشية منه تعالى، لأنّ الخشية هذه في الدنيا وتكون عادة لخوف ورهبة أو لطمع ورغبة، ولما كان الخوف أقوى تأثيرًا من الطمع ذكره، فعدل عن أسلوب الحصر إلى أسلوب النفي والإثبات؛ ومفادهما واحد، لكنّه أراد معنى النفي والإثبات.

وهذه الآية تُحيل إلى آية أخرى في سورة البقرة، وثانية في سورة الأنعام، وثالثة في سورة النحل؛ أما في سورة البقرة فهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٣)، وفي الأنعام قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام:١٤٥)، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل:١١٥).

---

[1] ابن القيم (١٩٩٧)، تهذيب مدارج السالكين، (تحقيق: عبد المنعم صالح العلي العربي)، ط٣، ج١، ص١٣٢، دار قتيبة للطباعة والنشر.

[2] انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج٤، ص٧٨.

[3] انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مصدر سابق، ج٤، ص ٧٩.

[4] العسكري، **الفروق في اللغة**، مصدر سابق، ص٢٣٦، الأصفهاني (٢٠٠٩)، **مفردات ألفاظ القرآن**، (تحقيق: صفوان عدنان داوودي)، ط٤، ص ٤٥٨، دار القلم، الدار الشامية.

وفي آية الأنعام وصف الدم بأنّه مسفوح، وذلك للتفريق بينه وبين الدم غير المسفوح، وهو الدم الذي يسيل، حيث بيّنت الآية أنّه عُفي عن الدم غير المسفوح مع أنّه من جنس الدم؛ وهو الذي يبقى في الحيوان بعد ذبحه.

أما آية البقرة فكان السياق بيان الطيبات المباحة، فقد تقدم قبلها قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا) (البقرة:١٦٨)، وبعدها قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ) (البقرة:١٧٢)، فعرّفهم بما أُبيح لهم، مفتتحًا بنداء المخاطبين، وخصّ ما ذكره بعد بما حَرّم عليهم بكلمة (إنّما) المقتضية الحصر، والرافعة لضعف المفهوم، فلما تحصّل تأكيد هذا المُحَرَّم بما ليس في الآيات الأخرى؛ ناسب تقديم المضمر المجرور في قوله: (وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ)؛ ليكون الكلام بتقديم المجرور بقوة لو قيل: إنا حرّم عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، والمهلّ به لغير الله[1]، وعلّل الكرماني تقديمها بقوله: " لأنّ تقديم الباء هو الأصل، فإنها تجري مجرى الهمزة والتشديد في التعدّي، فكانت كحرف من الفعل، فكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل؛ ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر؛ وهو الذبح لغير الله، وتقديم ما هو الغرض أولى"[2].

أما في سورة الأنعام فكان السياق في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس باسم الله وهم يفترون عليه، فتقدم على الآية زجرهم وتعنيفهم، ثم أتبع ذلك بقوله: (قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ) (الأنعام:١٤٥).

وسورة المائدة آخر ما نزل من القرآن، والكلام فيها على التحليل والتحريم، " فوَرَدَ فيها استيفاء ما حَكَم سبحانه بتحريمه، وإلحاقه بالميتة، والدم، ولحم الخنزير"[3]، فالخطاب يجعل التحليل والتحريم بيد الله وحده، وإنْ صدر من غيره فهو شرك به تعالى، وفي سورة الأنعام ذكر أنّ المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم، وأمر في آية المائدة بذكر اسم الله.

أما آية النحل، فجاء قبلها قوله تعالى: (فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (النحل:١١٤)، فجاءت في سياق الأمر بالأكل من الحلال الطيب، وشكر نعمة الله،

---

[1] انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠-٢٥١.
[2] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٢٧.
[3] ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٥٢.

فالحلال الطيب كثير، وما حرّمه الله قليل، وهو ما ذكر بعد ذلك بقوله: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ)، وسورة النحل تبيّن كثرة نعم الله، وقلّة ما حرّمه منها، وتجعل ضمنها ما أُهلَّ لغير الله به؛ أي ما ذبح لغير الله؛ " ولما كان الإهلال بالمذبوح لا يستنكر إلا إذا كان لغير الله؛ كان ما عدا الأصل بتقديم المستنكر أحق وأولى"[١]، فكانت العناية بتقديم ما يزيل الشك، أما ما سواه فقد ورد في سياق التحريم فقط؛ فلا يحتاج ذلك إلى تقديم.

وفي هذه الآي سؤال آخر؛ وهو أنّه قال في البقرة: (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وفي الأنعام: (فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وفي المائدة: (فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وفي النحل: (فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وذلك لأنّ لكل موضع معنىً يوجب اختصاص اللفظ الذي ذُكر فيه"[٢]، فأما آية البقرة فقدم فيها ذكر الطيبات فكان " بما قدمه مثبتًا عليهم إلهيته؛ لأنّ الإله هو الذي تحقُّ له العبادة بما له من النعمة، فلما قدم ذكر ما رزقهم منها، وطالبهم بشكرها أتبعه بقوله: (إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) وختم الآية بأنْ قال: (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، أي : إن من أنعم عليكم غاية النعمة، واستحق بها غاية التعبد والتذلل؛ هو الذي يغفرلكم عند الضرورة تناول ما حرّم عليكم في حال الاختبار، رحيم بكم"[٣]، وكذلك آية النحل.

أما آية الأنعام فقد " قدّم عليه ذكر أصناف ما خلقه الله لتربية الأجسام؛ فذكر الثمار، والحبّ، وأتبعه بذكر الحيوان من الإبل، والبقر، والغنم، خصّ هذا الموضع بذكر الرب؛ لأنّ الرب هو القائم بمصالح المربوب؛ فكان هذا أليق بهذا المكان"[٤]، ويرى ابن الزبير أنّه "عَدَل إلى الخطاب التفاتًا، لأنّ الكلام إذا تنوع حرّك الخواطر إلى تَفَهُّمِه، ومع قصد الالتفات لم يعدل فيه عند تخصيص الخطاب؛ لأنّه موضع تعنيف وزجر لمن تقدم، فورد الالتفات باسم الربوبية مع الإضافة إلى ضمير خطابه به ﷺ، ولم يقل: فإنّ الله؛ ليكون ذلك معرِّفًا بمكانته ﷺ، وتحكيمًا للإعراض عنهم، وعدم التفاتهم، وتناسب آخر الكلام مع أوله"[٥].

وخُصِّصَت آية البقرة بقوله: (فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ)؛ لأنّه قال ذلك "صريحًا، وكان في نفي الإثم نفي غيره تضمينًا، لأنّ قوله: غفور رحيم يدل على أنّه لا إثم عليه"[٦]، فالله تعالى يريد أنْ يبيّن للمضطر ما يحل له تناوله؛ فبدأ في البقرة بصريح اللفظ، ثم عقبه بما اتصف به المغفرة والرحمة.

---

[١] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٣١٨.
[٢] المصدر السابق، ج١،ص٣٢١.
[٣] المصدر السابق،ج١، ص٣٢٥.
[٤] المصدر السابق، ج١،ص٣٢٢-٣٢٣، وانظر: الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٢٧.
[٥] ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٢.
[٦] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٢٧.

وقد اختصت آية المائدة بقوله: (فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ) بعد أن ذكر حكم الميتة بأنواعها؛ وذلك " تتميمًا لبيان حال المضطر، ومظنة الاضطرار؛ زيادة على ما ورد في الآي الأخر؛ ليرتفع ما عسى أن يكون باقيًا فيها من إجمال أو إشكال ليجري مع قوله: (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...)"[1]. وهذا الشرط في قوله: (فَمَنِ ٱضْطُرَّ...) يفيد الإباحة.

د- التحليل والتحريم في الأشربة:

ورد في السورة المُحَرَّم من الأشربة، وذلك في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞) (المائدة:٩٠-٩٢).

على أنّ تحريم الخمر لم يأت بشكل مباشر، بل جاء بالتدريج، حيث ذكر أول مرة تلميحًا وذلك في قوله تعالى: (وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل:٦٧)، فصرح بالرزق الحسن، ومعنى ذلك بأنّه عكس الحسن، وهنا لم يحرم شربها، ثم جاء قوله تعالى: (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ) (البقرة:٢١٩)، فذكر أنّ فيها إثم، وفيها منافع، وأنّ الإثم أكبر من النفع، وهنا إيحاءٌ بأنّ تركها أولى، لكنّه لم يحرمها.

ثم جاء قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ) (النساء:٤٣)، وهنا نُهِيَ عن الخمر في مدّة معيّنة، وهي عند الصلاة، فالشارب لا يشربها قبل ذلك، فبيّنت غاية النهي وعلّته؛ وهي أنْ يفقه الإنسان ما يقوله في صلاته في خمسة أوقات؛ معظمها متقارب، فلا بدّ من اجتنابها فترة ليست بالقليلة، وهنا تضييق لهذه العادة، وكانت هذه الآية مؤذنة بتغير شأن الخمر والتنفير منها، ثم جاءت المرحلة الأخيرة في سورة المائدة فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ...) (المائدة:٩٠-٩٢)،

---

[1] ابن الزبير، ملاك التأويل، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٢.

فكانت هذه هي المرحلة الحاسمة النهائية في شأن الخمر، مبيِّنًا علة تحريمه؛ وهو أنّه يوقع العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدّ عن ذكر الله، وعن الصلاة، ووصفه من خلال ذلك بأقبح الصفات؛ فقال إنّه رجس، وإنّه من عمل الشيطان، وهكذا نلاحظ اشتراك السور في الوصول إلى حكم شرعي من خلال التدرج في أوقات نزول الآيات، فلا يمكن أنْ نأخذ آية وندع أخرى لهذا الحكم، بل لا بدّ من جمعها كلها معًا، ومعرفة سياقاتها، وأسرارها، ووقت نزولها؛ حتى نصل إلى الحكم الشرعيّ النهائيّ فيها، وهكذا فإنّ الآيات يحيل بعضها إلى بعض إحالة مقاليّة داخليّة؛ وهناك إحالة مقاميّة خارجيّة تتمثل في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا؛ فعبث بعضهم ببعض، فلما صحوا رأوا أثر ذلك، فيقول أحدهم: صنع بي هذا أخي فلان، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم؛ فأنزل الله الآية[1].

وقد خصّ الصلاة بالذكر مع أنّ الذي يصدّ عن الذكر يصدّ عنها؛ " لأنّه من أركانها؛ تعظيمًا لها، من باب ذكر الخاص بعد العام، وإشعارًا بأنّ الصادّ عنها كالصادّ عن الإيمان؛ لما أنّها عماده، وهو أعظم شعائره المشاهدة في كل وقت"[2].

وقد اجتمعت أنواع من التأكيد في الآية، منها التصدير بـ (إنّما)، واقتران الخمر والميسر بالأنصاب، والإخبار عنها بقوله: (رجس)، ووصفه بأنّه من عمل الشيطان، والأمر باجتنابه، وترجية الفلاح، وهو الفوز باجتنابه.

وبدئ بالخمر؛ لأنّ سبب النزول إنّما وقع بها، وسميت خمرًا لأنّها خامرت العقل أي خالطته فسترته، وقال ابن الأعرابي: تركت فاختمرت أي تغيّر ريحها[3]، ففي كل من المعنيين فساد، وجمع بين الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام ليصل إلى وصفهما المشترك؛ وهو قوله (رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ)، والرجس في اللغة: هو كل ما استقذر من عمل[4].

ثم أفرد الخمر، والميسر في الآية التالية؛ لأنّه نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر، ولعب بالميسر، فذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أنّ ذلك من أعمال الجاهلية وأهل الشرك؛ فيجب اجتنابه بأسره[5].

وقال فاجتنبوه ولم يقل فاجتنبوها؛ لأنّ الضمير عائد على الرجس، وهو مذكر، وهو المخبّر به عن الأربعة؛ فكلها رجس، وكلها بمنزلة واحدة مما يجب اجتنابه، فالأمر يفيد الوجوب، وبما أنّ المسلمين قد اجتنبوا الأنصاب والأزلام بخلاف الخمر والميسر، أكّد النهي عنهما أشدّ ممّا أكّد

---

[1] انظر: السيوطي (٢٠٠٢)، **لباب النقول في أسباب النزول**، ط١، ج١، ص٨٦، مؤسسة الكتب الثقافية.
[2] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٧، ص١٦.
[3] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٩٤.
[4] المصدر السابق، ج١٢، ص٨٤.
[5] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩١.

النهي به عن الأنصاب والأزلام؛ من خلال الاستفهام الإنكاري الذي جرى مجرى " تخصيص الله تعالى على وجب الانتهاء، مقرونًا بإقرار المكلّف بوجوب الانتهاء"[١]، فالاستفهام الإنكاري يُراد به الأمر؛ لأنّه من خلال الكشف عن حقيقتها هناك زجر وتحذير من إتيانها.

وفي قوله: (فِى ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ)؛ حرف الجر (في) للسببية أو للظرفية المجازية؛ أي بسببها أو في مجالس تعاطيها، وهذا من اختلاف دلالات حروف الجر، بحيث يتأتى المعنى الملائم لها في كل سياق، مما يضفي على النص دلالات عميقة، تكشف عن الإعجاز البياني في القرآن، فقد ذكر النحاة معاني لكل حرف منها، والواقع أنها غير مطردة في مواضع كثيرة، وأن هذه المعاني ليست للحرف نفسه ولكنها للسياق وبعض الحروف أصلح من بعضها الآخر في التعبير عن معانٍ بعينها.

وقد كان لوقع هذه الآيات إحالات مقامية خارجية؛ تمثّلت ابتداء بالانتهاء من شرب الخمر، واللعب بالميسر، ثم التخلص من الخمر المخزون في البيوت والأسواق[٢]، إذ لما أُعلن تحريمها؛ أُهرقت حتى جرت سكك المدينة.

وتكشف الآيات عن أثر الخطاب القرآني على المسلمين، كما تكشف عن كيفية تفاعلهم مع هذا الخطاب، وامتداد هذا التفاعل إلى السؤال عمن لم يكن حاضرًا من المسلمين ، سواءً من لم يصله هذا الخطاب، أو من مات قبل نزول الآيات، وبدء العمل به؛ فأنزل تعالى: (لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) (المائدة:٩٣)، وهذه الآية عامة في المأكل والمشرب، فمن مات قبل التحريم ليسوا بعاصين، والمقصود أنّه لا حرج على المؤمن ما طَعِمَ من المستلَذات إذا اتقى ما حرّم الله منها، وهذا من صور العموم.

وكرر في الآية: (إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ)؛على سبيل المبالغة والتوكيد؛ وهو توكيد لفظيّ، وهو من أنواع التكرير، ومن ثم من أنواع التماسك النصي، ويبرز دور التوكيد في تحقيق التماسك النصي بملاحظة اهتمام العلماء بنوعي التوكيد اللفظي، والمعنوي.

وقُرن بحرف العطف (ثم) " ليكون إيماءً إلى الازدياد في التقوى وآثار الإيمان"[٣]، كما أنّ عطف (وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) على (ٱتَّقَواْ) من عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به، ولأنّ اجتناب

---

١ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٨٧.
٢ انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٢- ١٨٤.
٣ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٣٦.

المنهيات أسبق تبادرًا إلى الأفهام في لفظ التقوى؛ لأنّها مشتقة من التوقي والكف؛ أما عطف (وَءَامَنُواْ) على (ٱتَّقَواْ) فهو اعتراض؛ للإشارة إلى أنّ الإيمان هو أصل التقوى[1]، والآية ثناء على من هم على هذه الصفة في الإيمان والتقوى والإحسان.

٤. تحريم الصيد وتحليله:

جاء ذكر الصيد في السورة مرّة بحالة التحليل، وأخرى بحالة التحريم، فقال تعالى: (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ) (المائدة:١)، وقال: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ) (المائدة:٢)، وقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝) (المائدة:٩٤-٩٥)، وقال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة:٩٦).

فقوله: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ) أي تحلّلتم من الإحرام، وخرجتم من أرض الحرم، فإنّ التحلّل من الإحرام وهو في أرض الحرم لا يكفي لإباحة الصيد.

فالأمر هنا للإباحة وليس للوجوب، فإن المُتَحَلّل ليس ملزمًا بالصيد؛ فهو ليس من الأمر الوارد بعد النهي، وإنّما النهي الوارد في الآية نهي مؤقت[2]، إلا أنّ هناك صيدًا حلالاً للمحرم؛ وهو صيد البحر، فقال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ)، ويعني صيد البحر والنهر على السواء، وإنّما أُضيف إلى البحر " لمّا كان منه بسبب"[3]، وطعامه يعني صيده، وهو تخصيص بعد التعميم، فالعطف اقتضى مغايرته للصيد، وكُرِّرَ معنى تحريم الصيد حال

---

[1] المصدر السابق، ج٧، ص٣٥.
[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦، ص٨٥.
[3] ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤١.

الإحرام فقال تعالى: (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا)؛ " زيادة تأكيدٍ لتحريم الصيد، ولبيان أنّ مدة التحريم مدّة كونها حُرُمًا، وهذا إيماءٌ لتقليل مدة التحريم، وإيماءٌ إلى نعمة اقتصار تحريمه على تلك المدة"[١].

ثم ذكّر تعالى بأمر الحشر يوم القيامة فقال: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)؛ وهذا تنبيه وتهديد جاء بعد ذكر التحليل والتحريم، للمبالغة في التحذير.

وقد حذرهم من الصيد بقوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ...) (المائدة:٩٤-٩٥)، وهذه الآيات لها إحالة مقاميّة تتمثل في سبب نزول الآيات، فقيل إنّها نزلت في عُمرة الحُديبية، فكانت الوحش، والطير، والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قطّ فيما خلا؛ بل كانوا يتمكّنون من أخذه بالأيدي، والرماح؛ فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون[٢]، فلا يراد به الإصابة ببلوى، أي مصيبة قتل الصيد المُحَرَّم، بل يراد لِيُكلفنّكم الله ببعض أحوال الصيد"[٣]، فالتأكيد القسميّ في (ليبلونّكم) لتحقيق أنّ ما وقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس إلا لابتلائهم، لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء[٤]، وقد أخبرهم بهذا الخبر على وجه التحذير، كما حذر بني إسرائيل من الصيد يوم السبت فقال تعالى: (وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا) (النساء:١٥٤)، فالابتلاء يأتي بعد التحذير، ويتعين أنْ يكون هذا الخطاب وُجّه إليهم في حين ترددهم بين إمساك الصيد وأكله، وبين مراعاة حرمة الإحرام، وتنكير (شيء) لعدة معان، فقيل: للتحقير والتقليل[٥]، وقيل للتنويع[٦]، وذلك لأنّه قال مفصلاً: (تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ)، وفي هذا استقصاء لأنواع الصيد، فمنها ما يصاد باليد، ومنها ما يصاد بالسلاح، فكلاهما صيد، وخص الله الأيدي بالذكر؛ " لأنّه عُظْم التصرف في الاصطياد؛ وفيها تدخل الجوارح والجبالات، وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر؛ لأنّها عُظْم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه"[٧].

---

١ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٥٣.
٢ ابن كثير (١٩٩٩)، تفسير القرآن العظيم، ط١، ج٢، ص١٩٠، (تحقيق: سامي بن محمد السلامة)، دار طيبة للنشر.
٣ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٣٨.
٤ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣١٩.
٥ انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٩٣، الرازي، **التفسير الكبير**، مصدر سابق،ج ١٢، ص٩١.
٦ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٣٩.
٧ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق،ج٦، ص١٩٤.

ثم علّل تعالى ذلك الابتلاء بقوله: (لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ) أي: حال كونه غائبًا، "فأطلق علم الله على لازمه، لأنّ علم الله يلازمه التحقق في الخارج إذ لا يكون علم الله إلا موافقًا لما في نفس الأمر"[١]، فيظهر للناس من يخاف الله من خلال أفعاله الظاهرة، والعلاقة التعليليّة هنا عملت على تحقيق الانسجام بين الخبر المذكور ودلالاته، فلم يُترك ذلك لاجتهادٍ ولا لرأي.

ثم صرّح تعالى بالتحذير مرة أخرى بقوله: (فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، أي بعدما قدّم من التحذير، وذكر الاعتداء هنا؛ لأنّه " إقدام على محرَّم وانتهاك لحرمة الإحرام أو الحرم"[٢]، لأنّه قد حَذّر قبل ذلك ولم يزدجر.

والخطاب في هذه الآية مجمل بيّنه قوله تعالى بعد ذلك: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ) (المائدة:٩٥)، فبين حال تحريم الصيد وهو الإحرام؛ لتأكيد الحُرمة، وترتيب ما يعقبه عليه، فاللام في (الصيد) لام العهد لما ورد في سبب النزول، ثم بين جزاء من قتل الصيد فقال: (وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ)، فعلق حكم الجزاء على وقع القتل، فالجزاء لا يجب إلا إذا قتل الصيد، وكان مُتَعَمِّدًا، فمن لم يتعمد، فقتل خطأً أو كان ناسيًا لإحرامه فقتله؛ فلا جزاء عليه، وكذلك إنْ لم يُقتل الصيد فليس فيه جزاء، وعُرضت هذه الأحكام بإيجاز بأسلوب سلس، وبعبارات قصيرة حتى وصلت إلى الحكم، وهذا الإيجاز من أدوات الاتساق النصي.

وسُمّي جزاء ولم يسمّ كفارة، وإنْ شُرع على صفة الكفارات، إذ ليس القصد منه الغُرم، إذ الصيد ملك الله تعالى أباحه في الحلّ، ولم يبحه في الحرم وحال الإحرام، لذا روعي فيه المماثلة، فهو مقدر بمثل العمل فسمي جزاء[٣]، وهذامن دقة اختيار اللفظة، لتدل على معناها، فاللفظ وحده لا يملك دلالات إيحائية، بل منحه الخطاب القرآني ذلك من خلال الألفة مع الألفاظ الأخرى، فنسجت العبارة في ضوء المقام باستخدام الأخيلة والمجاز في الإسناد لتتسع الدلالة ومعانيها. وقد أدرك الخطّابي أهمية تلك الألفاظ في التعبير عن المعاني وانسجامها في القرآن الكريم، قال: "وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنىً به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن بدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه"[٤].

وإسناد الجزاء إلى المِثل إسناد على طريقة المجاز العقلي، وقد تكون الإضافة بيانية أي:

---

[١] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٤٠.
[٢] المصدر السابق،ج٧، ص٤١.
[٣] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٤٥.
[٤] الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، (تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام)، ص٢٤، دار المعارف، مصر.

فجزاء هو مثل ما قتل، وهذا الهدي يوزع على فقراء الحرم، فقال تعالى: (هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ) فأسند ما للفاعل إلى المفعول، أي مبلَّغا للكعبة على سبيل المجاز المرسل.

ثم ذكر الكفارات ليُختار منها ما يناسب، فقال تعالى: (أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا)، وسمي الإطعام كفارة " لأنّه ليس بجزاء، إذ الجزاء هو العَوَض، وهو مأخوذ فيه المماثلة، وأما الإطعام فلا يماثل الصيد، وإنما هو كفارة تكفر به الجريمة"[1]، ومن الملاحَظ أنّ مقدار كفارة الطعام والصيام مُجملة؛ لأنّ ذلك موكول إلى حُكم الحكمَيْن، وهذا الأمر معلل بقوله تعالى: (لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ)، والذوق مستعار للإحساس بالكدر، شبه سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام بتذوق الطعام المستوبل المستوخم العسير الهضم ، كأنّهم راعوا فيه سرعة اتصال ألمه بالإدراك، لذلك اشتهر إطلاق الذوق على إدراك الآلام واللذات.

وأعقب الله هذا التهديد بالرأفة فقال: (عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ)، ثم توعد من اعتدى بعد هذا النهي فقال: (وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ)"وذلك للمبالغة في شدة ما يناله"[2]، وهذا هو أسلوب القرآن في الدعوة إلى التوبة، والتبشير الغفران، والتحذير من متابعة المعصية وعدم الإقلاع عنها.

وقد كرّر تعالى الحديث عن تحريم الصيد حال الإحرام تغليظا لحكمه، وهو مشابه لتحريم الصيد على بني إسرائيل يوم السبت، فقد نهاهم عن ذلك وحذّرهم من عاقبة العصيان فقال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ) (البقرة:٦٥)، وبيّن ما سبب هذا الاعتداء بقوله: (وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ) (الأعراف:١٦٣)، فكان ذلك ابتلاء منه تعالى؛ وذلك أنّ بني إسرائيل زمن داود ﷺ ألحّوا على نبيّهم أنْ يجعل لهم يوما للراحة والصلاة للتفرغ للعبادة فقط، فجعل لهم السبت، فكانت الحيتان تأتي يوم السبت إلى الشاطئ بكثرة، فإذا لم يكن يوم السبت اختفت، فراحوا يحتالون لصيد السمك؛ فيجعلون له حياضًا يحوطنها يوم الجمعة، فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فيصطادونها، فغضب الله عليهم، ودعا عليهم نبيّهم دواد ﷺ، فمسخهم الله قردة بما اعتدوا على حرمات الله، وتجاوزوا حدوده، واستخفوا بالأمر

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٤٨.
[2] المصدر السابق، ج٧، ص٥١.

الإلهي؛ فاحتالوا على الله، ولذلك قال تعالى: (لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ) (المائدة:٧٨).

٥. النكاح:

وقد ورد في السورة الحديث عن حكم النكاح من أهل الكتاب في معرض الحديث عن تحليل الأطعمة؛ فقال تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) (المائدة:٥).

بعد أنْ فصّل في ذكر الطيبات من الطعام، وإحلال طعام أهل الكتاب، ذكر حكم الزواج بنسائهم، فلم يُبِح زواج النساء المؤمنات من رجالهم، فإباحة المناكحة غير حاصلة من كلا الجانبين، وخصّ النكاح بالذكر؛ لأنّ " الطيبات أعمّ من المطاعم، وكانت الحاجة إلى المناكحة بعد الحاجة إلى المطاعم، وكانت المطاعم حلالاً من الجانبين، والمناكح حلال من جانب واحد"[1].

وقد حرّم الله نكاح المشركين والمشركات من قبل؛ فقال: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ) (البقرة:٢٢١)، وقال (وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ) (الممتحنة:١٠)، وهذا يُكمّل أحكام النكاح، بالإضافة إلى آيات أخرى في سورة النساء، حيث قال تعالى: (وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَامَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ) (النساء:٢٤).

وكلمة (المحصنات) من المشترك، ويراد بالإحصان العفّة أو الحريّة، وذهب المفسرون إلى أنّهن الحرائر في هذا الموضع[2]، لأنّ العفائف وصف ينطبق على الإماء أيضًا، ونكاح الأَمَة لا يلزم إلا للضرورة؛ لقوله تعالى: (وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا

---

[1] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٨.

[2] انظر ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٩، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٥، ص٩٢.

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ) (النساء:٢٥)، فالمحصنات المؤمنات هن الحرائر، ومحصنات غير مسافحات هن العفائف[١]، ولا يجوز نكاح إماء أهل الكتاب عند جلّة العلماء[٢]، لذلك جاء تخصيص المؤمنات أولاً؛ للحث على ما هو أولى، وهو تزوّج المؤمنين من المؤمنات، ثم تخصيص الحرائر العفائف للحث عليه؛ وليس لنفي ما عداهن؛ إذ نكاح الأَمَة المسلمة منصوص عليه، قال تعالى: (فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ) (النساء:٢٥)، وقال في آية المائدة: (مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ)، فذكر أولاً قوله: (مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ) (النساء:٢٤)، وأضاف في المائدة: (وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ) (المائدة:٥)، لأنّه في سورة النساء " وقع في حق الأحرار من المسلمين، فاقتصر على لفظ (غير مسافحين)، والثانية في الجواري، وما في المائدة في الكتابيات فقال: (وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ)؛ حرمة للحرائر من المسلمات؛ لأنّهن إلى الصيانة أقرب، ومن الخيانة أبعد؛ ولأنّهن لا يتعاطين ما يتعاطاه الإماء والكتابيات من اتخاذ الأخذان"[٣].

وقوله تعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ) تركيب عجيب، " لأنّ الإيمان لا يتصور كفر به؛ إنّما الكفر بالأمور التي حقها أنْ يقع الإيمان بها"[٤]، لذلك أُوّلت، فقيل: " بشرائع الإسلام، وما أحل الله وحرم"[٥]، وقيل: " يكفر بالله، وحسّن هذا المجاز أنّه تعالى رب الإيمان وخالقه"[٦]، وقال ابن عطية: "يحتمل أنْ يكون المعنى على أن الكفر هو بنفس الإيمان"[٧]، وقيل "ومن يكفر بشهادة أن لا إله إلا الله، جعل كلمة التوحيد إيمانا"[٨].

وهذا اتساع في المعنى والدلالة؛ لاحتمال كل ما قد ذُكر، والمهم هو النتيجة وهو قوله تعالى: (فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ)، والحبوط: فساد شيءٍ كان صالحًا، وفعل (حَبِط) يؤذن بأنّ الحابط كان صالحًا فانقلب إلى فساد، والمراد من الفساد هنا هو الضياع والبطلان، وهو أشدّ الفساد، فدل الفعل على أنّ الأعمال صالحة، وحذف الوصف لدلالة الفعل عليه[٩]، وقد تطورت دلاليًا في استعمال

---

١ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٥، ص٩٤.
٢ انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٩، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١١، ص١٤٩، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٦، ص٥٣.
٣ الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ج٣٩-٤٠.
٤ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٩.
٥ الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٠.
٦ الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق،ج٣، ص٤٤٨.
٧ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٩.
٨ الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق،ج٣، ص٤٤٨.
٩ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٥.

القرآن الكريم، ففي المعجم العربي، الحَبَط: داء يصيب الإبل جراء أكل الخضر في أول الربيع، فتنتفخ بطونها ويسمى الحباط، ويظن صاحبها أنّها قد سمنت؛ بينما هي تموت في الواقع[1]، ووظفها القرآن في استعمالٍ آخر هو التعبير عن فساد الأعمال ومخالفتها لأوامر الله وشريعته، فجاءت هذه الكلمة في مقام ذكر مساوئ الكافرين، وهذا تشبيه لضياع الأعمال الصالحة بالكفر، والظن أنّه عمل عملاً صالحًا، لكن العمل يحبط تمامًا، ويضيع ثوابه المترقب عليه؛ فاللفظ وحده لا يملك دلالات إيحائية، بل منحه الخطاب القرآني ذلك؛ من خلال الألفة مع الألفاظ الأخرى، فنُسجت العبارة في ضوء المقام باستخدام الأخيلة والمجاز في الإسناد لتتسع الدلالة ومعانيها.

والمراد من ذكر الوعيد على مخالفة فرائض الله وأحكامه التحذير من الارتداد عن الدين، والترغيب في الدخول فيه كذلك، و "تأكيد الزجر على تضييعها"[2]، إن مات على ذلك ولم يتب.

٦. القصاص

أ- القتل

بدأت الحديث عن القصاص بعد ذكر قصة ابني آدم ﷺ، وكيف قتل أحدهما الآخر بغير وجه حقٍّ؛ فقال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (المائدة:٣٢)؛ فضمّن (كتبنا) معنى فرضنا، وأخبر بهذا التشريع بعد حادثة القتل؛ بغرض تهويل أمر القتل، وإظهار مثالبه، وإفراط قبحه؛ فذكر أول من سن القتل، والسبب الذي لأجله وقع، فأعطى هذا إعلامية عالية لِعِظَم شأن القتل، وهو أمر يتمتع بمقبولية كبيرة لدى جميع الناس، وقد تبيّن هنا حكم من قتل نفسًا بغير نفس، أو فساد في الأرض، ولم يتعرض هنا لحكم من قتل نفسًا بنفس، أوبفساد في الأرض، ولذلك إحالة بيّنها في مواضع أخر، ففي البقرة ذكر القصاص في القتلى، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾) (البقرة:١٧٨- ١٧٩)، أي حياة لنفوسكم في تطبيق حكم القصاص؛ لأنّ فيه

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، ج٧، ص٢٧٠.
[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٥٤.

ارتداع الناس عن قتل النفوس، ولو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس وهو من جوامع الكلم.

وقد ثبت بهذه الآية شرع القصاص في قتل العمد؛ لردع المعتدي عند الإقدام على قتل الأنفس، وتطمين أولياء المقتول بأنّ القاتل سيقتل، فلا يسعى إلى الإنتقام، ثم بيّنها وفصّلها بقوله: (ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ)، فالقصاص يكون بين الإناث كما يكون بين الذكور، ويكون بين الأحرار كما بين العبيد، فلا فرق بين الحر الشريف والحر الضعيف، ولا عبيد السادات على عبيد العامة، ولا فرق بين الذكر والأنثى؛ لأنّ الأنثى في الجاهليّة لم تكن تُقتل فلم تكن مؤاخذة بجنايتها، فأراد الله ﷻ التسوية بين الأصناف لإبطال عوائد الجاهلية.

وقد ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال: (وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء:٩٢)، فهذه الآية مُقدّمة لما سيرد بعدها من أحكام القتل؛ بقصد تفظيع القتل من مؤمن لمؤمن بغير خطأ، وشرع هنا الكفارة في حال القتل الخطأ إنْ كان القتيل مؤمنًا، وإنْ كان من قوم كافرين بينهم عهد؛ ثم ذكر حكم القتل العمد؛ فقال: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء:٩٣).

وحذر من قتل المؤمن المجهول أمره في حال السفر أو الغارة فقال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ) (النساء:٩٤).

وزاد تفصيل القصاص في قوله: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ) (المائدة:٤٥)، وبهذا أخبر تعالى أن أحكام القصاص موجود في التوراة كذلك، لا فرق بينها وبين حكم القرآن الكريم،وهذا تدرج بديع يدل على إحكام الترتيب والتلاحم.

وقد خصّ الله ﷻ بني إسرائيل بالذكر؛ وقد كان القتل محظورًا على من تقدمهم كذلك؛ لمخالفتهم ما كُتِب عليهم في التوراة، وذلك لوجهين، " أحدهما فيما رُوِيَ أنّ بني إسرائيل أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلّظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء، والآخر لِتَلُوح مذمَّتُهم في أنْ كتب عليهم هذا؛ وهم مع ذلك لا يرعَوُون ولا ينتهون، بل همّوا بقتل الرسول ﷺ، فخصوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم"[١].

وقوله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، أي من قتل نفسًا بلا حقّ فكأنما قتل الناس جميعًا، وهذا تشبيه تمثيلي، " ومناط التشبيه اشتراك الفعلين في هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله، وتجسير الناس على القتل، وفي استتباع القود، واستجلاب غضب الله وعذابه العظيم"[٢]، وفائدة هذا التشبيه الترهيب والردع عن قتل نفس واحدة، بتصويره قتل جميع الناس، والمقصود تهويل أمر القتل وليس أنه قد قتل الناس جميعًا.

وقوله:﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي استبقاها حية، استعار الإحياء للاستبقاء، لأنّ المراد استبقاءها وعدم التعرض لقتلها، فإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله، والمقصود تفخيم شأن الإحياء، والترغيب والتحضيض على إحياء النفس بتصويره إحياء جميع الناس.

وهذه مقابلة بين حالة من يقتل النفس بغير وجه حق، وجرمه العظيم كأنّه قتل الناس جميعًا، ومن استبقاها وحافظ على حياتها ولم يتعرض لها عُنوة فكأنّه أحيا الناس جميعًا، وهذه المقابلة لتعظيم قتل النفس، وإحياء ذلك في القلوب؛ لأنّ التعرض لقتل النفس إذا تصورنا قتلها بصورة قتل الناس جميعًا يعْظُم عليه ذلك فيثبطه، ويستشعر عظم الذنب وهو العقاب، وكذلك من أراد إحياءها فتصوّر بذلك إحياء الناس جميعًا فيزيد ذلك من عزيمته ورغبته، ويستشعر بعظم الثواب ورضا الله، وهذا خطاب تصويري حيث يتصور المسلم عِظَم القتل، فهذا الأثر النفسي للصورة القائمة على التمثيل؛ تعمل على تقريب المعاني إلى الأفهام؛ حيث يُعَرض المثل الغائب كأنّه حاضر، ويبرز المعقول في هيئة المحسوس، وهذا من صور التماسك النصي وانسجامه مع الدلالة، ويعبرالجرجاني عن ذلك بقوله: " إنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته؛ كساها أبّهةً، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكَلَفا، وقسر الطباع على أن تعطيه محبة وشغفًا"[٣]، وهذا هو المغزى من الدراسة النصيّة.

---

[١] انظر:ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٢، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٩٦.

[٢] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦٣.

[٣] الجرجاني، **أسرارالبلاغة**، مصدر سابق، ص ١١٥.

ب- الإفساد في الأرض

وقد تحدثت الآيات عن الإفساد في الأرض مع القتل فقال: (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...) (المائدة:٣٢)، ثم ذكر مع محاربة الله ورسوله فقال: (إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة:٣٣)، فاقتضى المعنى أنْ تكون (إنّما) حاصرة الحصر التام، لتغليظ أمر الحرابة والسعي في الأرض بالفساد، وهنا مجاز؛ إذ الله لا يُحارب، وإنّما المقصود عباد الله على حذف مضاف؛ " فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكبارًا لإذايتهم"[١].

وابْتُدِئ بأحكام القصاص؛ لأنّه أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، وإلغاء لدور الثأر الذي كان بين القبائل قديمًا[٢]، ولهذه الآية إحالة مقاميّة خارجيّة تتمثل في قصة العرينين، وهي أنّ رهطًا من عُكُل وعَرينة؛ أتوا رسول الله ﷺ، فاستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود يشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا الراعي، واستاقوا الذود، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وثمل أعينهم وتركوا في الحرة حتى ماتوا على حالهم[٣].

وقيل إنّ (أو) هنا تخييرية، وإنّ الإمام مُخيّر بين هذه العقوبات، وقيل لبيان أنّ الأحكام تختلف باختلاف الجنايات فهي للتقسيم، يقول البغوي: " هذه العقوبات على ترتيب الجرائم لا على التخيير"[٤]، لأنّ في الآية عقوبات مختلفة بعضها غليظ، وبعضها أخف؛ فلا بد أنْ تكون كل عقوبة مقابل جناية مختلفة.

وزاد تغليظ عقوبة الحرابة بأنّ لهم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم، وهذا الخبر للوعيد، وخص الدنيا بالخزي مع أنّ عذاب الآخرة أشد، وفيه خزي أيضًا " لأنّ الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها"[٥] وهذا من بلاغة استعمال الكلمة.

---

[١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج٦، ص١٥٠.
[٢] انظر:ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٦
[٣] انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن، مصدر سابق، ج١، ص١٣٠.
[٤] البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩.
[٥] الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٠.

ولعفو الله تعالى ورحمته استثنى التائبين من المجرمين فقال: (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) (المائدة:٣٤)، وفيه تنزيل المخاطَبين منزلة من لا يعلم ذلك؛ لاستعظامهم هذا العفو[١]، وهو استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله لقوله: (فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)، أما حقوق الأولياء من القصاص ونحوه؛ فقد قال تعالى في موضوع آخر: (فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ)، فهذا الأمر راجع إليهم.

ج- السرقة:

وضع الله حدودًا في شأن السرقة فقال: (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ).

وقد بدأ الله بالسارق قبل السارقة؛ إذ كان حب المال على الرجال أغلب[٢]، والرجل مسؤول عن رعيته لذلك فهو يحتاج المال لرعايتهم، وقد يأتي به عن طريق غير شرعي وهو السرقة.

والتعريف في (ٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ) مقام الذي، فصار التقدير: " الذي سرق فاقطعوا يده"[٣].

وقد صرّح بالسارقة مع أنّ المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة؛ لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر، ولدفع توهم أنْ يكون صيغة التذكير في السارق قيدًا، بحيث لا يجري حد السرقة إلا على الرجال، خاصةً أنّ العرب كانوا لا يقيمون للمرأة وزنًا، فلا يجرون عليها الحدود[٤].

والضمير في قوله: (فَٱقۡطَعُوٓاْ)؛ يعود على ولاة الأمور بقرينة المقام وليس على الذين آمنوا، لأنّهم المسؤولون عن إقامة الحدود. وقد ثنّى الضمير العائد على السارق والسارقة في قوله: (أَيۡدِيَهُمَا) باعتبار الصنفين، وفيه مجاز مرسل، حيث أطلق الكل واراد البعض فالمقطوع الكف وليس كل اليد.

---

[١] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٨٦-١٨٧.
[٢] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص١١٤.
[٣] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١١، ص٢٢٩.
[٤] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦٨، ابن عاشور، التحرير، مصدر سابق، ج٦، ص١٩٠.

وهذه الآية تحتوي على أشدّ الوعيد والتهديد؛ إذ فيها عقاب دنيوي جذري لهذه الجريمة، لذلك جاءت الفاصلة: (وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، عزّ فقطع، والخطاب القرآنيّ خطاب ربانيّ صادر من الله تعالى، وهو خطاب وجدانيّ وعقليّ، وفي هذا السياق نجد أن المفردة القرآنية لها إشراقها الخاص، ولها جمالها الذاتي في سياقها النصي، حيث اختيرت اللفظة المعبّرة عن كمال قدرة الله وحكمته في هذا التشريع، وتضمن ذلك حضور المخاطب الذي سيتلقّى هذه الرسالة، لكي لا يقع في المحظور، فقد راعت الآيات كل من المخاطِب، والمخاطَب، والرسالة النصيّة المتمثلة في الحكم الشرعي، وهذا من براعة النظم وانسجامه.

والله تعالى يفتح باب التوبة للمذنبين، فقال: (فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾)، وهذا كناية عن سقوط العقوبة عنه في الآخرة، إذ حق الناس مطلوب إسقاطه من قبلهم، وقيل:التوبة والإصلاح هي أنْ يقام عليه الحد[1].

ويستخدم الله ﷻ أسلوب الاستفهام التقريري، ويعدل عن أسلوب الخبر؛ لأنّه يريد أنْ يكون الخبر من المخاطب إقرارًا من العبد، ولا يخرج الخبر مخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثق من أنّ جواب الاستفهام في صالحه[2]، فيقول الله تعالى: (أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ) (المائدة:٤٠)، فالخبر من المتكلم، والإقرار من المتلقي، وهو أسلوب لإثبات الحجة، والإقرار من العبد، ففي الأسلوب الاستفهامي ما ليس في الأسلوب الخبري؛ إذ فيه تنشيط الذهن، وتهيئة المتلقي للاهتمام بما سيلقى من المعنى المراد تقريره في نفسه.

وقد تكرر قوله تعالى: (أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) كثيرًا في النظم القرآني، وقد أوثر هذا التركيب على كل البدائل، إذ ورد معنى ذلك بصيغ مختلفة كقوله: (لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)[3]، وقوله: (لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)[4]، وجاء قوله: (لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ) في مواضع أخرى[5]، وقد ورد التركيب في قوله: (مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ

---

[1] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٩.الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق،ج٣، ص٤٩٥.

[2] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج ٥، ص٣١٣٠.

[3] (البقرة:٢٨٤)،(آلعمران١٠٩،١٢٩)،(النساء:١٣٢،١٦،١٣١)،(الحشر:١)،(الصف:١)،(الجمعة:١)،(التغابن:١)، (النجم:٣١).

[4] (النساء:١٧٠)، (يونس:٥٥)، (النور:٦٤)، (لقمان:٢٦)، (الحديد:١).

[5] (الأعراف:١٥٨)، (التوبة:١١٦)، (الفرقان:٢)، (الزمر:٤٤)، (الزخرف:٨٥)، (الحديد:٥،٢)، (البروج:٩).

تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة:١٠٦- ١٠٧).

والتركيب في سورة المائدة أبلغ وأفخم، وذلك لا نجده في العبارات البديلة، حيث أكّد الخبر في قوله: (ألم تعلم) باستخدام الاستفهام التقريري؛ وكذلك استخدام النفي ولم يقل: (أعلمت) وفي ذلك زيادة في التوكيد، كما أنّ توكيد الخبر بقوله: (أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)، فيه مراعاة لحال الكلام، وهذه العلّة تحتاج لها حين تنعدم دواعي التوكيد مع وجود المؤكدات في النظم[1].

وكذلك استخدام أسلوب القصر من خلال تقديم المسند (لَهُۥ)، على المسند إليه (مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) أي له لا غيره الذي هو من مقتضيات الحال؛ لأنّ المقام مقام مدح وثناء وتفخيم، وقد خلت منه الآيات الأخرى، وهذا هو القصر.

كما نجد تكرار الإسناد مرتين مع خلو العبارات البديلة من ذلك، لأنّ في هذا النظم مبتدأين الأول (ٱللَّهَ)، والثاني (مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)، وخبر المبتدأ هو (له)، والضمير عائد إلى لفظ الجلالة فهذا الإسناد الأول، والمبتدأ الثاني وخبره في موضع رفع خبر المبتدأ الأول وهذه هو الإسناد الثاني[2]، فالجملة اسمية، خبرها جملة اسمية، مما يعني الثبوت والاستقرار وهذا يفيد توكيد النسبة بين طرفي الإسناد، فاستعمال الفعل في بعض السياقات، و الاسم في سياقات أخرى لأغراض دلالية، فالفعل يدل على الحدوث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت، فيؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أنّ الأمر في منزلة الحاصل المستقر، بينما الصيغة الفعلية تدل على تجدد الأمر وتغيره.

وترى الباحثة أنّ استخدام هذه الصيغة دون غيرها فيه إثبات الملك لله تعالى، وزاد عليه مطلق الملك فقال: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)، والسارق أو السارقة عندما يسرق من شخص ما، فإنّ ملك هذا الشخص لله ﷻ، فالله تعالى له الملك المطلق، ولذلك هو الذي يغفر أو يعذب المستحق لذلك من عباده، لأنّ العباد كلهم ملك لله أيضًا، وتقديم العذاب على المغفرة؛ لأنّ السرقة تقدمت على التوبة، وذلك لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب، ولأنّ تقديم العذاب أردع لأولئك العصاة رجاءً أنْ يتوبوا إلى رشدهم ويصلحوا حالهم، ثم ختم الآية بقوله: (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ)، على ما ذكر من العذاب والمغفرة، وأظهر لفظ الجلالة في موضع الإضمار للتفخيم.

[1] انظر: المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٢.
[2] انظر: المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مصدر سابق، ج١، ص٢٥١.

٧. الوضوء والتيمم

وهذه الآية تذكير بنعمة عظيمة من نِعَم الله في التشريع؛ وهي منّة التيمم عند مشقة التطهر بالماء، وقد ذُكرت في سورة النساء، لكن ذُكرت هنا في عِداد النعم التي امتنّ الله بها على المسلمين، قال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ۝٦) (المائدة:٦)، أي: إذا أردتم القيام للصلاة؛ لذا فقد تضمن (قمتم) معنى (عمدتم)؛ بقرينة تعديته بـ (إلى) أي: عمدتم إلى أن تصلوا[١]، وهو من باب إطلاق السبب على المسبَّب؛ فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل؛ لأنّ الفعل مسبَّبٌ عن القدرة والإرادة؛ فأقيم المسَبَّب مقام السبب للملابسة بينهما ولإيجاز الكلام، والتنبيه على أنّ إرادة الصلاة حقّه أنْ يبادر إليها بحيث لا ينفك عن إرادتها[٢]. كما أنّ الصلاة والوضوء متلازمان، وعبر عن أحد لازمي الشيء بلازمه الآخر فجمع بينهما؛ لأنّ المعلق على الشيء بحرف الشرط عدم عند عدم الشرط، وهذا يقتضي أنّ الأمر بالوضوء تبع للأمر بالصلاة.

والفاء في: (فاغسلوا) للتعقيب والترتيب، فأعطت الحكم الشرعي بترتيب أعضاء الوضوء.

ثم قابل بين المحدث حدثًا أصغر حيث يتوضأ، والمحدث حدثًا أكبر حيث يغتسل؛ بقوله: (وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ)، كأنّه قيل: " إنْ كنتم محدثين الحدث الأصغر فاغسلوا هذه الأعضاء وامسحوا هذين العضوين، وإن كنتم محدثين الحدث الأكبر فاغسلوا جميع الجسد"[٣]، والأمر هنا للوجوب.

وقد اختُلف في معنى (الباء) في قوله: (برؤوسكم)؛ فقيل: للإلصاق، وقيل للتبعيض، وقيل: زائدة للتوكيد، وبهذا اختلف العلماء في مسح الرأس بسبب الإعراب، فالمعاني تؤدي إلى وصف دقيق؛ فإذا كانت الباء بمعنى الإلصاق فالمعنى أنّ الماسح يلصق يده بالرأس عند المسح، وإذا كانت الباء بمعنى التبعيض فالمعنى أنّه يمسح بعض الرأس لا كلّه، وإذا كانت الباء بمعنى

---

[١] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٨.

[٢] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج١، ص٦٠٩. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤١.

[٣] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٤٩.

للتوكيد؛ فالمعنى تأكيد مسح الرأس كاملاً؛ لأنّه ركن من أركان الوضوء. وهذا بسبب تنوّع معنى حرف الجر.

والغائط هو المطمئن أو المنخفض من الأرض، كناية عن الحدث، جريًا على عادة العرب، وهي أنّ الإنسان إذا أراد قضاء حاجةٍ قصد مكانًا منخفضًا من الأرض وقضى حاجته فيه، تسترًا عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطًا للمقارنة، فاستعمال هذا اللفظ عُرْف غالب لكي يفهم السامع المقصود؛ إذ لو استُعمل لفظ آخر بعيدٌ عن الذهن لَغَاب المدلول له، فلفظ الغائط " يجمع بالمعنى جميع الأحداث الناقضة للطهارة الصغرى"[١]، وقوله: (أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ) كناية عن الجماع ومقدماته[٢]، عندما ذكر الله ﷻ سبب الحدث وهو المجيء من الغائط، ذكر سبب الجنابة وهو الملامسة؛ فبين الحدث والجنابة عند وجود الماء وعند عدمه.

وهذا الجزء من الآية كان مجملاً، " ثم بين هذا الإجمال بقوله: (وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا)؛ فجعل هذه الأشياء موجبة للتيمم إذا لم يوجد الماء، والأمر هنا للإباحة.

وقوله: (فتيمموا) أي اقصدوا من (أمّ)؛ بمعنى التوخي والقصد، وقد ارتبط هنا بين القصد، وبين فعل خاص أمر به القرآن، وبيّن كيفيته، وهو قصد الصعيد؛ أي وجه الأرض، فقال: (فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ)؛ أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب في حال عدم وجود الماء، فصار " علمًا على الوضوء بالتراب على البدل"[٣].

وهنا مقابلة بين أعضاء الوضوء وأعضاء التيمم، " ورفعت الآية الإجمال في الوضوء لقصد المبالغة، وسكتت في التيمم، فعلمنا أنّ السكوت مقصود؛ وأنّ التيمم كان مبناه على الرخصة، اكتفى بصورة الفعل وظاهر العضو؛ ولذلك اقتصر على قوله (وأيديكم) في التيمم"[٤].

والنفي في قوله تعالى: (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) يفيد الامتنان، وكل هذه النعم في النهاية لسبب وهو قوله: (وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، أي إنّه يريد تطهيرنا من الذنوب بالوضوء، ويتم نعمه علينا، " وجعل الشكر عليه لإتمام النعمة على سبيل المجاز، وصيغة الرجاء هنا بمعنى الأمر"[٥].

---

[١] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٥، ص١٤٣.
[٢] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص١٠٤.
[٣] أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن**، مصدر سابق، ص١٨٧.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٢٩.
[٥] انظر: الزركشي، **البرهان في علوم القرآن** ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠٣.

وهنا إحالة مقامية لنزول الآية، فقد نزلت في عائشة - رضي الله عنها- إذ خرجت مع رسول الله ﷺ، في بعض أسفاره فانقطع عقد لها، فالتمسه النبي ﷺ والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أُسيد بن الخضير: ما هي بأول بركتم يا آل أبي بكر[١].

وهناك تشابه بين آية المائدة وآية النساء، وهي قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) (النساء:٤٣)، فآية المائدة فيها تفصيل أحكام الوضوء وذكرها كاملة بخلاف آية النساء، فزيدت (منه) في المائدة للبيان؛ " لأنّ المذكور في هذه بعض أحكام الوضوء والتيمم، والمذكور في المائدة جميع أحكامها، فحسن الإثبات والبيان"[٢].

وكذلك جاء في النساء قوله: (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ)، بينما في المائدة قال: (وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ)، فالتعبير مجمل في المائدة، فالتطهير يكون بالماء ويكون بالتراب، وهذا يدل على أنّ هذه الآية هي آية التيمم المقصودة بقول عائشة: (فأنزل الله آية التيمم)، لأنّ الاغتسال لا يكون إلا بالماء، يقول ابن عاشور: " فالأظهر أنّ هذه الآية أريد منها تأكيد شرع الوضوء، وشرع التيمم خلفًا عن الوضوء بنص القرآن"[٣]، أما آية النساء فقد " أكمل مع تحريم قربان الصلاة في حالة السكر تحريم قربانها بدون طهارة"[٤]، يقول ابن العربي: " وهي - أي آية التيمم- معضلة، ما وجدت لدائها من دواء عند أحد، هما آيتان فيهما ذكر التيمم، إحداهما في النساء والأخرى في المائدة، فلا نعلم أي آيةٍ عنت عائشة"[٥]، ويرى القرطبي أنّ آية النساء هي آية التيمم، وآية المائدة هي آية الوضوء[٦]. وقد روى البخاري - رحمه الله - عن عمرو بن الحارث مصرحًا بأنّ آية التيمم هي آية المائدة كما سبق، كما ترجم لحديث عائشة في كتاب التيمم بقوله:

---

[١] انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب قوله تعالى: (فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ)، ج٧، حديث: ٢٣٠.

[٢] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ج٤٠

[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٧.

[٤] المصدر السابق، ج٥، ص٦١.

[٥] ابن العربي(د.ت). **أحكام القرآن**، (تحقيق: علي محمد البجاوي)، مصدر سابق، د.ط، ج١، ص٥٦١-٥٦٢، دار المعارف، القاهرة.

[٦] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٥، ص٢٣٣.

باب قول الله تعالى: (فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ)، وهذا واضح بأنّ آية التيمم هي آية المائدة، إذ لا يوجد في النساء لفظ (منه).

وتنبه إلى ذلك ابن حجر فقال: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري؛ بأنّ المراد بها آية المائدة بغير تردد؛ لرواية عمرو بن الحارث[1].

فآية المائدة ذُكر فيها تفصيل وتبين أحكام الوضوء، وآية النساء لم تُفصل في أحكام الوضوء، لكن (منه) زيدت عند الحديث عن التيمم وليس عن الوضوء، وإنْ لم تذكر أحكام الوضوء في النساء، فآية المائدة تفصيل لما جاء في آية النساء، فآية النساء في الجنب وذوي الأعذار لقوله: (وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً...)، أما آية المائدة فتشمل الجنب، وغير الجنب، وذوي الأعذار، وكان السياق في النساء حول الشرك والنفاق.

ولما كان الحديث في سورة النساء حول السُكر خُتمت الآية بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا)، وقيل: لأنّه غفر وستر علينا المشقة في ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا التيمم[2]. إذ عفا عن المسلمين بسبب عدم وجود الماء، فلم يكلفهم الغسل أو الوضوء في حال فقد الماء، ولما ذكر رفع الحرج، وإتمام النعمة، وإرادة التطهير في المائدة ختمت الآية بقوله: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

٨. آية الشهادة (الوصية)

أورد تعالى الشهادة على الوصية حال الموت بعيدًا عن الأهل، كما في السفر، وهذا حكم لم يرد قبل ذلك، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ

---

[1] العسقلاني، ابن حجر (٢٠٠١)، فتح الباري، (تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد)، ط١،ج٨، ص١٢١، رقم (٤٦٠٨)، د.ن.
[2] انظر: الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢٦١.

عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴿١٠٨﴾) (المائدة:١٠٦-١٠٨)، وهذه الآيات تبين أنّ شهادة أهل الذمة تجوز على المسلمين في حال السفر فقط، عند عدم وجود المسلمين، ولها إحالة مقامية خارجية، فقد رُوِيَ أنّ تميمًا الداري وعدي بن زيد كانا يأتيان مكة للتجارة، فصحبهما رجل من قريش، ومات بأرضٍ ليس بها مسلمين، فأوصى إليهما، فلما قَدِمَا دفعاها إلى أهله وكتما جامًا من فضة مخوصًا بالذهب، فأُتِيَ بهما إلى النبي ﷺ فاستحلفهما بالله وخلّى سبيلهما، ثم وُجد الجام عند قوم، فقالوا: ابتعناه من تميم الداري وعدي بن زيد، فقام أولياء الميت فأخذوا الجام، وحلف رجلان منهم بالله إن هذا الجام جام صاحبنا، وشهادتنا أحق من شهادتهما، فنزلت هاتان الآيتان [1].

وقوله: (شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ) بمعنى: ليشهد، فهي جملة خبرية لفظًا، إنشائيةً معنىً، يراد بها الأمر[2]، فأطلق الجملة الخبرية وأراد بها معنى الجملة الطلبية، وقال بينكم والمقصود ما بينكم، كناية عن التنازع والتشاجر، ثم أضاف الشهادة إلى التنازع؛ لأنّ الشهود إنّما يُحتاج إليهم في التنازع الواقع بين القوم، فهي مجاز باعتبار جريانها بينهم، أو باعتبار تعلقها بما يجري بينهم من خصومات.

وقوله: (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ) أي قَرُب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت، فحضور الموت يعني: " مشارفتة، وظهور أمارات بلوغ الأجل"[3]، فهو مجاز مرسل، لأنّه مجاز عن حضور أسبابه ومقدماته، ولم يقل جاء الموت، فتعبير "جاء الموت يعني الموت المفاجئ الذي لا يملك الإنسان معه شيئًا، أما تعبير حضر الموت فهو الموت البطيء الذي يملك الإنسان معه نفسه فيستطيع أنْ يوصي أصحابه وأهله، وأنْ يتدبر أمره، وأنْ يستغفر عن ذنوبه، وأنْ يتُب إن شاء ويعدّل من سيرته"[4]، حيث لا يمكن أنْ يوصي إنسان إلا وهو مالك قواه الذهنية، ومجيء الموت يذهب ذلك،وهذا من وضع القرآن كل كلمة في سياقها، ولا شك في أنّ المفردة لها إشراقها الخاص ولها جمالها الذاتي.

والمعنى ليُشهد إذا حضر أحدكم الموت اثنان بمعنى الوجوب[5]، وتقديم المفعول " لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها؛ فإنّه أدخل في تهوين أمر الموت"[6]، ولأجل تأخير ذكر الموت الذي تكرهه النفس.

---

[1] انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن، مصدر سابق، ج١، ص ١٤٢- ١٤٣.
[2] انظر: الزحيلي، التفسير المنير، مصدر سابق، ج ٧، ص٩٩.
[3] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٧.
[4] أبو عودة ، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، دراسة دلالية مقارنة**، مصدر سابق، ص٣٤٦.
[5] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٨٢.
[6] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٣٠.

والشاهدان (مِّنكُمْ) من المؤمنين، أو (ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) أي من الكفار، وفي كلا القولين الضمير (كم) يعود على المؤمنين، فمن قال إنّ معنى (أو) التخيير فيكون معنى (مِنْ غَيْرِكُمْ) من غير عشيرتك، أي خُيّر بين أقاربه أو الأجانب من المسلمين، ومن قال إنّ (أو) للترتيب، فإنّ معنى قوله: (مِنْ غَيْرِكُمْ) من غير أهل ملتكم[1]. وفيه مقابلة المسلمين في الشهادة مع غير المسلمين؛ لذلك ذهب ابن عاشور أنّ معنى (أو) هنا التقسيم باعتبار اختلاف الحالين، حال الحاضر وحال المسافر[2].

ويعود الخطاب للمؤمنين بقوله تعالى: (تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ)، فتحسبونهما بمعنى احبسوهما وحلفوهما، ولم يعين ما هي الصلاة المقصودة، وهذا من العرف السائد بين الناس باختلاف مللهم ومذاهبهم، فاللام هنا للجنس، وقيل: الصلاة هنا: الظهر أو العصر، لأنّ أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما، وبأنّ التحليف كان معروفًا بعدهما، فالتقييد بالمعروف يغني عن التقييد باللفظ، وبأنّ جميع الأديان يعظمون ذلك الوقت. و(أل) هنا بهذا الاعتبار عهديّة، وهذا الأمر يعود كذلك على الأعراف التي كانت سائدة.

والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن، أي أخذها بدلاً منه لا بذلها لتحصيله، ولا يجوز أنْ يكون معنى نشتري هنا بمعنى نبيع لبطلان المعنى، فإنّ المعتبر في عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر في عقد البيع، واستعير الشراء لأخذ شيء بإزالة ما عنده عينًا كان أو معنى على جهة الرغبة في المأخوذ والإعراض عن الزائل[3].

وجاءت الضمائر في قوله: تحبسونهما، ضربتم، أصابتكم، للجمع؛ لإفادة العموم، دفعًا لأنْ يتوهم أنّ هذا التشريع خاص بشخصين معينين لأنّ قضية سبب النزول كانت في شخصين، والخطاب لجميع المسلمين وحكامهم[4].

والضمير (به) يعود على الله ، وقيل يعود على القسم ، وقيل يعود على تحريف الشهادة، وقيل يعود على الشهادة لكن ذكرت لأنّها قول[5]، وهنا تعدد المرجع للضمير فإذ كان يعود على الله فالمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من الله؛ أي من حرمته، عرضًا من الدنيا بأنْ نهتكها ونزيلها

---

[1] انظر: الأندلسي، البحر المحيط، مصدر سابق،ج٤، ص٤٦.
[2] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٨٤.
[3] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣١.
[4] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٧، ص٨٥.
[5] انظر: السمين الحلبي، الدر المصون، مصدر سابق، ج٦، ص٥٦.

بالحلف الكاذب، وإذا عاد على القسم فالمعنى: لا نستبدل بصحة القسم بالله، أي لا نأخذ لأنفسنا بدلا من الدنيا بأنْ نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب أي لانحلف كاذبين[1].

وإضافة (شهادة) إلى (الله) تعظيم لخطرها؛ لأنّ الله لمّا أمر بأدائها كما هي، وحضّ عليها، أضافها إلى اسمه؛ حفظًا لها من التغيير، فالتصريح باسمه تعالى تذكير للشاهد حين القسم[2].

وتخصيص القربى بقوله: (وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ)؛ " لأنّ العرف ميل النفس إلى قرابتهم، واستسهالهم في جنب نفعهم ما لا يُستسهل"[3]، وجاء بحرف الشرط (لو) للمبالغة.

وقوله تعالى: (فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا) أي " اطُّلع وتَبين، وأصل فعل (عَثَر) أنّه مصادفة رجل الماشي جسمًا ناتئًا في الأرض لم يترقبه ولم يحذر منه؛ فيختلّ به اندفاع مشيه، فقد يسقط، ثم استعمل في الظفر بشيء لم يكن مُترقبًا الظفر به"[4]، وهو استعارة لما يوقع على علمه بعد خفائه، وصيغة (استحق) بزيادة السين والتاء تفيد التأكيد، أي تأكيد الإثم عليهما، وإنْ ثبت ذلك يأتي شاهدان آخران يقومان مقامهما في أداء الشهادة التي لم يؤدياها، ممن له الأحقِّيَّة بالشهادة لقربه من الميت، وهم الذين جُني عليهم، وهم أهل الميت، فقال تعالى: (فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ).

والضمير في (عليهم) يعود على (الذين)، وهو واقع على الصنف المناقض للشاهدين الجائرين، أي الورثة لأنّ استحقاق الإثم كناية عن الجناية عليهم.

ويقوم الشاهدان الجديدان أيضًا بالقسم: (فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا)، واستخدم صيغة التفضيل (أحقّ) ليدل على إمكان قبول يمينهما لصدقها فيما ادعياه، وهي " صيغة تفضيل مسلوبة المفاضلة"[5]، وقوله: (وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ) إشارة إلى أنهما (السابقين عليهما) قد اعتدوا ثم تبرءا من الظلم من خلال نفي الاعتداء، وهو مناسب للسياق؛ لأنّ شهادة الزور مرة ثانية والاعتداء على حقوق الأخرين ظلم، فقال تعالى: (إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ)، بينما قال الشاهدان الأولان: (إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ)، لأنّ عدم مطابقة يمينهما للواقع، وكتمانهما الشهادة يجران إلى الإثم[6].

---

[1] انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣١.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٨٨.
[3] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٣.
[4] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٧، ص٨٩.
[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٩١.
[6] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٥١.

وختم هذه القضية بقوله: (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ)، والإشارة بـ (ذلك) إلى جميع ما حدّ الله قبل من حبس الشاهدين بعد الصلاة لليمين، ثم إنْ عثر على جورهما، ورُدَّت اليمين، وغُرِّما[1].

وقوله: (عَلَىٰ وَجْهِهَآ)، مستعار لأحسن ما في الشيء وأكمله تشبيها بوجه الإنسان"[2]، وجمع الضمير في (يَأْتُواْ) و (يَخَافُوٓاْ) لأنّ المراد صنف ونوع من الناس، وليس الشاهدين الجديدين.

وفي قوله: (يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ) و (يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ) مقابلة بين حالتي أداء الشهادة الحقّة، وبالتالي قبول شهادتهم، وعدم أدائها كما ينبغي مما يولد الخوف من الافتضاح على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فـ (أو) هنا للتقسيم، وهو يفيد ما أجمله اسم الإشارة (ذلك) في أول الآية، كأنه قيل ذلك أدنى أنْ يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاحِ على رؤوس الأشهاد بإبطال أيمانهم، والعملِ بأيمان الورثة؛ فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه[3].

وقيل: هو عطفٌ على يأتوا على معنى أن ذلك أقربُ إلى أنْ يأتوا بالشهادة على وجهها أو إلى أنْ يخافوا الافتضاحَ برد اليمين على الورثة فلا يحلِفوا على موجَب شهادتِهم إنْ لم يأتوا بها على وجهها فيظهرُ كذبُهم بنكولهم[4]. فحروف العطف تكتسب معانيها في الغالب بناء على السياق الذي توجد فيه هذه الحروف، ومن الطبيعي أنْ تكون هناك علاقة ما تربط بين المعطوف والمعطوف عليه وهي الجهة الجامعة التي أباحت العطف بينهما[5].

والرد هنا مجاز في الانتقال، فتصير الأيمان إلى غيرهم، وقد جمعها باعتبار عموم حكم الآية لسائر قضايا الوصايا التي من جنسها[6].

وهنا تبرز القصدية لما تفيده هذه الأحكام، ومعرفة وجه القضاء في أمثال تلك القضية، وبيان كيفية الشهادة، وأهمّ الأحكام التي تؤخذ من الآية ثلاثة : أحدها : استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين، وثانيها : تحليف الشاهد على أنّه صادق في شهادته، وثالثها : تغليظ اليمين بالزمان .

---

[1] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٥٦.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٩٣.
[3] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٩٤.أبوالسعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣١.
[4] انظر: **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣١.
[5] انظر: الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٩.
[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٩٤.

ثم دعا الجميع إلى التقوى وحذّرهم من مخالفة حكمه وأوامره، فقال: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ)، فالأمر هنا للتهديد والوعيد، ومعنى (وَٱسْمَعُواْۗ) هنا: استجيبوا، فهو سمع إجابة، وخصّهم بوصف الفاسقين؛ لأن مخالفة أمر الله بعد كل ما ذكر في الآيات؛ خروج عن طاعته تعالى.

وقد ذكرت الوصية حين الموت في موضع آخر فقال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾) (البقرة:١٨٠)، فذكر حكم المال بعد موت صاحبه، والوصية هنا في حال الإقامة بين الأهل، ويُلاحظ أنّ الآية لم تبدأ بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)؛ " لأنّ الوصية كانت معروفة قبل الإسلام، فلم يكن شرعها شيء جديد غير معروف"[1]. إذ كانوا يوصون لبعض الاشخاص، وربما منعوا القريب والفقير منهم، وكذلك النساء، كالبنات والأخوات؛ مما يثير العداوة بين الاقارب، فجاءت هذه الآية لتأمر بإقامة العدل، لذلك أتبعت بقوله تعالى: (فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾) (البقرة:١٨١)، أي تغيير كلام الموصي، أو تغيير الوصية نفسها، وهذا مما يمنعه الشرع، إذا كان هذا التغيير فيه ظلم وحَيْف على أحد من الأهل أو الأقارب، أما إذا كان الموصي ظالمًا لأحد من أهله أو أقرابه ممن يستحقون إرثه فيجوز العكس، فقد قال تعالى: (فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾) (البقرة:١٨٢)، حيث يعمل على الإصلاح بين الموصى لهم، ويرفع الظلم، ويعمل بما شرعه الله، وبهذا لن يؤاخذه الله لأنّ المطلوب العمل بما شرعه الله.

٩. الأمر بالقسط

أمر تعالى بطاعته فيما مرّ من الأحكام، من تحليل الحلال وتحريم الحرام، وحسن المعاملة مع الآخرين، والإحسان إلى النساء، ومراعاة أمور العبادة التي هي الصلاة، والأخذ بالأعذار والرخص التي أُعطِيت لنا، كما أمر بالشهادة بالعدل،فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ

[1] انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٦.

بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة:٨)، فهذه الآية تربط بين ما مضى من أحكام، وما سيأتي منها، فربطت بين الحث على الوفاء بالعقود التي مع الله مما تقدم، ومهّدت للحديث عن المعاملة مع من يربطنا به علاقة العداوة والشنئان، ويرى الخطيب الاسكافي أنّ هذه الآية للولاة، فقال: (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ)؛ والدليل على أنّ الخطاب لولاة الأحكام قوله بعده: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ)؛ وذلك عام في المخالفين من أهل الأديان والموافقين ممن حصلت بهم بِغْضَه وعداوة، وقيل إنها في الشهادة في الحقوق أيضًا[1].

وفي قوله: (ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ) إحالة إلى سابق، أي: اعدلوا، فالعدل أقرب للتقوى، فالضمير (هو) عائد على العدل المُستوحى والمفهوم من قوله: (ٱعْدِلُواْ)، فالضمير إحاله قبليّة ربطت بين الجملة الواردة فيها والجملة السابقة لها من خلال عوده إلى المُحال إليه وهو العدل.

وبعد أنْ نهاهم أن تمنعهم الضغائن عن العدل وعن إقامته في الناس مهما كانوا، أمرهم بالعدل تأكيدًا عليه، وتشديدًا على أمره، فالأمر هنا للتأديب، وكذلك النهي في قوله: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ)، ثم حذرهم بقوله: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)؛ فأمرهم بالتقوى لما يأمر به الله ولما ينهى عنه، وهو يعلم خفايا صدورهم، وخفايا أعمالهم، فلا بد أنْ يحذروه، ويلزموا طاعته.

وهناك آية أخرى تشابه هذه الآية في المطلع مع اختلاف في التقديم والتأخير، ولكلٍّ منهما سياقها الخاص، فقد قال تعالى في سورة النساء: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾) (النساء:١٣٥)، فقد بُدئ بالقسط في النساء، وأُخِّرَ في المائدة، فآية النساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق المبتدأة بقوله تعالى: (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾)، ثم أردفت بأحكام المعاملة بين الرجال والنساء، وهي مَبْنِيَّةٌ على الأمر بالعدل والقسط، قال تعالى: (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ) (النساء:١٢٣)، وقال: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِۖ) (النساء:١٢٧)، ثم قال: (وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ

---

[1] انظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج ط١، ٤٢٢-٤٢٥.

بِٱلْقِسْطِۚ) (النساء:١٢٧)، وتوالت الآي بعد ذلك على هذا المعنى، فقدم قوله القسط ليناسب ما ذكر، فكان الأهم فيها أمر العدل فالشهادة، فقدّم فيها: (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ)، فالقسط فيها هو العدل في القضاء ولذلك عُدّي إليه بالباء في قوله: (بالقسط)، أما آية المائدة فهي واردة بعد التذكير بميثاق الله، فثبت قبلها الأمر بالطهارة، ثم تذكيره سبحانه بتذكّر نعمه، والوقوف مع ما عهد به إلى عباده، والأمر بتقواه، فناسب قوله: (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ)، ثم أتبع بما بُنِيَ على ذلك من الشهادة بالقسط، فكان المقام الأول للحضّ على القيام لله، والوفاء له بالعهود، ولذلك عَدّى قوله: (قَوَّٰمِينَ) باللام، وإذا كان العهد شهادة أتبع قوله: (قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ) قوله: (شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ)، أي شهداء بالعدل، شهادة لا حيف فيها، وأولى شهادة بذلك شهادتهم لله تعالى[1].

ويقول أبو حيان: " وهذا من التوسع في الكلام، والتفنن في الفصاحة، في النساء جاءت في معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين؛ فبُدئ فيها بالقسط الذي هو العدل، وهنا جاءت في معرض ترك العداوات والإحن؛ فبدئ فيها بالقيام لله تعالى أولاً؛ لأنّه أردع للمؤمنين، ثم أردف بالشهادة بالعدل، فالتي في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيه بما هو آكد، وهو القسط، وفي معرض الشنئان؛ بدئ فيها بالقيام لله؛ فناسب كل معرض بما جيء به إليه، وأيضًا تقدم هناك حديث النشوز والإعراض، وقوله: (وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ) (النساء:١٢٩)، وقوله: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا) (النساء:١٢٨)، فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخير ذكر العداوة؛ فناسب أنْ يجاورها ذكر القسط"[2].

وقد تكرر قوله تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ)؛ إذ ورد سابقا في سياق تحريم شعائر الله، فقال تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ)؛ إما لاختلاف السبب، فالأول نزل في المشركين، وهذا في اليهود، أو لمزيد اهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ[3].

---

[1] انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١،ص٣٥٨، ابن عاشور، **التحرير** ، مصدر سابق، ج٦، ص١٣٤-١٣٥.
[2] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٥٤، وانظر: الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٤١.
[3] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٤.

١٠. الأمر بالتقوى

جاء الأمر بالتقوى صريحًا في قوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ۝) (المائدة:٣٥-٣٧)، حيث جاءت الآيات في سياق ذكر جزاء المحارب، وعظم جنايته، وأشار أثناء ذلك إلى سعة مغفرته تعالى لمن تاب، ثم أمر المؤمنين بتقواه في كل ما يأتون به من عمل، وما يدعونه من المعاصي، فالآيات جارية مجرى البيان والتأكيد لما قبلها من القصاص، وبيان مآل التائبين والعاصين من الناس.

وهذا خطاب وعظ من الله تعالى لعباده المؤمنين، فالجملة الأولى أمرٌ بترك المعاصي، والثانية أمرٌ بفعل الطاعات، وعطف عليهما الجهاد مع دخوله في قوله: (وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ)؛ "تشريعًا له، وأنها العبادة التي تصلح لكل شيء منهيٍّ عنه"[1]، والوسيلة مصطلح إسلامي وحقيقتها: مراعاة سبيل الله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقُربة[2].

وكل هذه الضمائر تعود على الذين آمنوا، وضمير المفعول به المستتر يعود على الله ﷻ، وهذه الإحالات تمنح النص انسجامه، كما تمنحه نموّه من خلال أفعال الأمر المتوالية، فهذه الإحالات المشتركة تحافظ على دوران النص بمعلومات واضحة، وتشير إلى العلاقة بينها من خلال اختلاف المُحال إليه، وكلها صارت تفيد القصر؛ أي إنَّ التقوى لله وحده، وكذلك ابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله؛ وذلك لنيل مرضاته، والفوز بكراماته.

وقد تكرر الأمر بالتقوى في ثنايا السورة بشكل لافت، فكلما جاء حكم شرعي أعقبه الأمر بالتقوى كقوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) (المائدة:٢)، فهذه الآية تنهى عن تحليل شعائر الله، وتأمر بالتعاون على البرّ، وتنهى عن الإثم والعدوان، فجاء الأمر بالتقوى مقترنًا بالتحذير من عقاب الله فقال: (إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ).

وفي قوله: (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (المائدة:٤)، وهذه موضوعها ذكر الحلال من الطيبات، وتحليل صيد الحيوان المُعلَّم بعد التسمية

---

[1] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٧.
[2] انظر: الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، مصدر سابق، ص٨٧١.

عليه، واقترن الأمر بالتقوى بأنّ الله سريع الحساب؛ من خلال ذكر إحاطة علمه بكل شيء، وسرعة حسابه؛ فكأنه توعُّد بالمجازة السريعة إنْ لم يأتمروا بما جاء في الآية.

أما قوله: (وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)(المائدة:٧)، ففيها التذكير بنعم الله، ومواثيقه، وتعهدهم على السمع والطاعة، وهذه أمور خفيّة، فجاءت التقوى مقترنة بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ).

وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ) (المائدة:٨)، وفيها الأمر بإقامة الشهادة بالحق، والعدل بين الناس، واقترنت التقوى بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ) فهو يعلم يقينا كل أعمالهم، وهو خبير بها.

وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) (المائدة:١١)، فيها تذكير بنعمة الله، وكيف دفع كيد الأعداء عنهم، فجاء الأمر بالتقوى مقترنًا بالأمر بالتوكل، فهو المتكفل بذلك وحده.

وقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) (المائدة:٥٧)، وجاءت هذه الآية تنهى عن موالاة اليهود والنصارى والكفار الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبًا؛ فجاء الأمر بالتقوى مقترناً بقوله: (إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ) للحثّ على الامتثال وترك موالاتهم.

وقوله: (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ) (المائدة:٨٨)، وجاءت الآية لتحل لهم الأكل مما أحله الله، وقرنت الأمر بالتقوى بقوله: (ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ)؛ للحث على الامتثال وتأكيده؛ فهم المؤمنون به.

وقال: (أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ) (المائدة:٩٦)، وجاءت الآية تَذْكُر تحليل صيد البحر، وتحريم صيد البرّ على المُحرم وتذكر الحشر، فقال: (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ) فكل أعمال المحرم الحاج تذكير بالحشر، وكذلك طريقة الصيد عبارة عن تضيق على الحيوان وحشره، فتناسبت الفاصلة مع الموضوع.

وقال: (قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ... فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:١٠٠)، وجاءت الآية لتَذْكُر فضل الطيّب مهما قلّ؛ فاقترنت التقوى بالفلاح للمتفكرين المتدبرين في حكم الله تعالى وشرعة.

وقال: (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟) (المائدة:١٠٨)، حيث تتحدث الآية عن الشهادة، فاقترنت التقوى بقوله: (وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ)، للحث على أداء الشهادة كما يجب.

وقال: (إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (المائدة:١١٢). وجاءت الآية الأخيرة على لسان الحواريين حين سألوا المائدة فجاء الأمر بالتقوى على لسان عيسى عليه السلام، فقال: (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) للحث على الامتثال.

وجاء في هذه الآية: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) مقترنا بالفلاح؛ لأن من التزم ما في الآية من أوامر ونواهٍ؛ فلا بد أن يكون من المفلحين، فكلها تدعو إلى طاعة الله وتحذر من عصيانه.

وقد وردت آيات كثيرة تدعو إلى التقوى، كقوله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ) (آل عمران:١٠٢) وقال: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ) (التوبة:١١٩).

ثم ذكر بعد ذلك جزاء الكافرين الذين ابتعدوا عن الحق ولم يؤمنوا به فقال: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝) وهو تأكيد لوجوب امتثال أومر الله السابقة، والترغيب في المسارعة في تحصيلها وعملها؛ إذ هي سبيل الفلاح، وفيه بيان استحالة توسل الكفار بأقوى الوسائل لأجل النجاة من العذاب؛ فضلاً عن نيل الثواب، وهذا مشهد من مشاهد يوم القيامة الخاصة بالكافرين فعدل عن قول: (إن الذين كفروا لو يفتدون بما في الأرض جميعًا من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم) إلى قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ)

باستخدام الشرط؛ والغرض منه " تهويل الأمر، وتفظيع الحال"[١]، أي إنّ حالهم حين مشاهدة العذاب بمنزلة حال من يكون في أمر جسيم، ويحاول التخلص منه؛ فلا يُتقبل منه ولا يتخلص.

والضمير في (به) يعود على قوله: (مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ)، ووحد الضمير وإنْ كان المتقدم شيئان وذلك " إما لغرض تلازمهما فأُجْرِيَا مجرى الواحد، وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنّه قال: ليفتدوا بذلك"[٢].

ثم توعدهم بقوله: (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وبعد ذلك: (يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧)؛ كناية عن لزوم العذاب لهم، لزيادة تقرير ما جاء سابقًا، وبيان هول العذاب، فكما لا يندفع العذاب بالافتداء؛ لا يندفع دوامه ولا يتوقف، والإرادة هنا على معناها الحقيقي، وقوله: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) تأكيد لقوله: (وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ).وجاءت الفاصلتان: (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)، فالأولى تصريح بعدم قبول فديتهم؛ لزيادة تقرير العذاب، وبيان هوله وشدته، والثانية تصريح بعدم تناهيه، فهو مستمر؛ وهم باقون فيه لا يخرجون منه، فجاء ذكر مدّة العذاب بعد بيان شدته.

١١- طاعة الرسول ﷺ

قال تعالى: (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ۝٩٢) (المائدة:٩٢)، وقال تعالى: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۝٩٩) (المائدة:٩٩)، فجاءت الآية الأولى في سياق تحريم الخمر والميسر. وجاءت الثانية في سياق ذكر شعائر الله، وسؤال الناس أسئلة أنزل الله بعدها النهي عن السؤال، وانتظار نزول الآيات، فذكر أنّ الرسول مبلِّغٌ من الله وليس عليه شيء.

فقوله: (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ) عطف على: (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١)، وطاعة الله تعالى تعمُّ ترك الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام، وغير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب، وخرج الأمر لتأكيد التحريم، والتشديد في الوعيد والامتثال للأمر، يقول الرازي: " وهذا تهديد عظيم،

---

[١] الألوسي، روح **المعاني**، مصدر سابق، ج ٦ ، ص١٢٩.
[٢] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٨٦.

ووعيد شديد في حق من خالف في هذا التكليف، وأعرض عن حكم الله وبيانه"[1]، فمن تولى فقد قامت عليه الحجة، وكرر (أطيعوا) اهتمامًا بالأمر بالطاعة، وعطف عليهما (واحذروا)؛ وفيه التحذير من ترك الطاعة، وفيه مبالغة في التحذير، وحذف مفعوله " لينزل الفعل منزلة اللازم، لأنّ القصد التلبّس بالحذر في أمور الدين، وذلك أبلغ من أن يقال: واحذروهما، لأنّ الفعل اللازم يَقْرُبُ معناه من معنى أفعال السجايا؛ ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زنةِ فَعِل كَفَرِح ونَهِم"[2].

وفرّع عن ذلك قوله: (فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ) وفي ذلك وعيد لمن تولى، وتحذير من مخالفة الأمر مرة أخرى، والتولي استعارة للعصيان، شُبه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصي بجامع المقاطعة والمفارقة.

وذكر قوله: (فَٱعۡلَمُوٓاْ) للتنبيه على أهمية الخبر، واستخدم أسلوب الحصر لبيان أنّ الرسول ﷺ قد خرج عن عهدة التبليغ ولا يضيره توليكم، ويفي الوعيد عليهم وحدهم، وفي هذا غاية التحذير والوعيد الشديد. وأضاف الرسول ﷺ إلى ضمير الجلالة؛ لتعظيم هذه الرسالة، وإقامة معذرته في التبلغ بأنه رسول، وعدم هدايتهم ليس من تقصير الرسول ﷺ، وذلك رفعة لشأنه عليه السلام.

وأكد ذلك بقوله: (مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ...) فلا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها؛ فتظهر سرائركم؛ وذلك لبيان أنّ نهيهم عن السؤال لصيانتهم عن المساءلة إذا لم يلزموا بما ينزله الله نتيجة ذلك وكذلك حماية لهم من العقوبات التي تلحق المخالفين.

وقد ورد في القرآن آيات كثيرة تدعو إلى طاعة الرسول ﷺ وتحث عليها، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَاٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ) (الأنفال:٢٠)، وقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ...) (الأنفال:٢٤)، وقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ) (محمد:٣٣)[3].

١٢- ولاء أهل الكتاب

وقد تحدثت الآيات عن أهل الكتاب السابقين، وكيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فلم يَنْهَوْا عن منكر، ولم يأتمروا بمعروف، فقال: (كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا

---

[1] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٨٧.
٢ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص٣٠.
٣ انظر: (الأنفال:٢٧)، (النساء:٥٩)، (الحجرات:١)، (الحجرات:٢)، (التغابن:١٢)

كَانُواْ يَفۡعَلُونَ) (المائدة:٧٩)، ثم انتقل السياق إلى أهل الكتاب المعاصرين للنبي ﷺ، فقال عنهم: (تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ) (المائدة:٨٠)، فهؤلاء اليهود مع معرفتهم بصدق النبي ﷺ لم يؤمنوا به ولم يتبعوه، بل صار ولاؤهم للكافرين المعادين للنبي ﷺ، ولهذه الآية إحالة سابقة تتمثل في قوله تعالى: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا) (النساء:٥١)، والمقصود هنا كعب بن الأشرف وحُيَيّ بن أخطب، يقولون لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بمحمد ﷺ[1]، حينما سألوهم لأنّهم أهل كتاب.

وحذّر الله ﷻ مولاة أهل الكتاب، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ۝) (المائدة:٥١-٥٣)، فالخطاب هنا للمؤمنين؛ وإن كان سبب وروده بعضًا منهم، ووصفهم بالإيمان " لحملهم على الانزجار عما نهوا عنه"[2]؛ ومن ثم نهاهم عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء، وخرج النهي للتكليف، وهذا الأمر ممتد إلى قيام الساعة ولا تختص به جماعة معينة.

وعلّل ذلك بقوله: (بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ)، وهذه الجملة تعليلية؛ جاءت لتأكيد إيجاب اجتناب الموالاة، وذلك لأنّ كل فريق منهم وليٌّ لفريقه، فاليهود أولياء اليهود، والنصارى أولياء النصارى، لأنّ كل فريق منهم يتقارب أفراده في الأخلاق والأعمال، فالتنوين في قوله: (بعضٍ) تنوين عوض؛ أي أولياء بعضهم، وهذا كناية عن نفي مولاتهم للمؤمنين، وكذلك نفي موالاة كل فريق منهم الآخر، فقد أشار تعالى في سياقٍ آخر إلى تفرُّقهم فقال: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ

---

[1] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٥، ص١٦١.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٤.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ (البقرة:١١٣)، ففيه إجمال؛ لظهور أنّ اليهود لا يوالون النصارى، والعكس كذلك.

واستخدم أسلوب الشرط في حال مخالفة أمر الله تعالى فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾؛ كأنّه صار واحدًا منهم، وذلك " للتشديد في الزجر؛ لأنّه لو كان المتولي منهم حقيقة لكان كافرًا، وليس بمقصود"[1]، فانظر كيف أدى الشرط المعنى بكل سلاسة ويسر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ظاهره العموم والمعنى على الخصوص، أي: "من سبق في علم الله أنه لا يؤمن ولا يهتدي"[2]. وهو تعليل لكون من يتولاهم منهم لا يهديهم للإيمان، ووضع الظاهر (الظالمين) موضع الضمير؛ " تنبيهًا على أنّ توليهم ظلم، لما أنّه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه"[3]، وهذا كناية أنّ اليهود والنصارى من القوم الظالمين.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ تركيب إسلامي، لأنّ المرض عادة يحدث في الأجسام، ويؤدي إلى الخلل في أفعاله، وقد يؤدي إلى الموت، وهو المرض الحقيقي، واستعير هنا لما في قلوبهم من الجهل، وسوء العقيدة، وعداوة النبي ﷺ، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى الهلاك الروحاني.

واختير القلب لأنّه لا بقاء للحياة مع مرض القلب[4]، واستخدم الاسم الموصول (الذين) موضع الضمير؛ " ليُشار بما في صلته إلى ما ارتكبوه من التولي؛ بسبب ما في قلوبهممن مرض النفاق، ورخاوة العقد في الدين"[5].

ووصفهم بأنّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾؛ أي مسارعين في موالاتهم، والمسارعة حقيقية في الأجسام، وهي كناية عن تنقل قلوبهم من بعض مراتب رغبة موالاتهم إلى بعضٍ آخر[6]، وهي مبالغة في بيان رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، لذلك آثر حرف الجر (في) ولم يقل (إليهم)؛ " للدلالة على أنّهم

---

[1] انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص١٥٧، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٠.

[2] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٤.

[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٤.

[4] وقد ذُكر في القرآن من المعاني السببية التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضًا؛ وهي: الرَّيْن، والزَّيْغ، والطَّبْع،والصَّرْف، والضِّيق، والحَرَج، والخَتْم، والإقفال، والإشراب، والرُّعب، والغَشاوة، والإصرار، وعدم التطهير، والنُّفُور، والاشمئزاز، والإنكار، والشكوك، والعمى، والإبعاد بصيغة اللعن، والتأبّي، والحميَّة، والبغضاء، والغفلة، والغمزة، واللهو، والارتياب، والنفاق، وكذلك الغلّ، والحقد، والحسد. انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج١، ص١٨٨.

[5] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٨٤.

[6] الشافعي، **تفسير حدائق الروح والريحان**، مصدر سابق، ج ٧، ص٣٧٨.

مستغرقون في المولاة، وإنّما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها؛ لأنّهم خارجون عنها متجهون إليها"[١].

وعادة ما يستعمل الفعل (يسارعون) مع الخير فقال تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ) (المؤمنون:٦١)، فكأنّ خلق المسارعة في الإثم والعدوان مُتأصل فيهم، وملاحظ عليهم، والمراد بهؤلاء عبدالله بن أُبيّ وأضرابه، وللآية إحالة مقالية خارجية تتمثل في أنّها نزلت في عبادة بن الصامت حيث أنه: لما حارب المسلمون بني قينقاع؛ تشبّث بأمرهم عبدالله بن أُبيّ بن أبي سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبي، فتبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أُبي نزلت الآيات[٢].

وعللوا ذلك كما قال تعالى: (يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ)، وهذا اللفظ محفوظ عن عبدالله بن أُبي، ولا محالة قال بقوله غيره من المنافقين[٣]؛ وهذا القول نفسيّ، أي يقولونه في أنفسهم، والدائرة المخشية هي أنْ تنقلب الأمور على المسلمين ويظهر مر اليهود والنصارى، ويؤيد أنّه قول نفسي قوله تعالى: (فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ)؛ وهو خطاب للنبي ﷺ، ووعد لهم، وقد استعيرت الدائرة لنوائب الزمان بملاحظة إحاطتها كما أن الدائرة تحيط بالشيء، وفيه مجاز بتسمية المحيط باسم، والفاء في (فيصبحوا) سببية، أي بما كانوا يكتمونه في أنفسهم من الشك والكفر في محمد ﷺ، وهذا هو الذي حملهم على موالاة الأعداء وعندها يقول المؤمنون: (أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ)؛ أي عندما يأتي الفتح والنصر من الله، والخطاب في (معكم) لليهود.

وقرئ: (ويقولَ) بالنصب عطفاً على (فيصبحوا)، وقيل على (يأتي) باعتبار المعنى، أي: عسى أنْ يأتيَ الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، والعطف على يصبحوا أوجه؛ لأنّ هذا القول إنّما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين؛ لا عند إتيان الفتح فقط، فالمعنى: يقول المؤمنون مخاطبين اليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم، ويرجون ظهورهم، ويحبونهم في السراء والضراء عند مشاهدة خيبة رجائهم، وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ما كانوا يترقبونه"[٤]،

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٨٤-٢٨٥.
[٢] انظر: السيوطي، **لباب النقول في أسباب النزول**، مصدر سابق، ج١، ص٨١.
[٣] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٤، ابن عاشور، **التحرير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٢.
[٤] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٦.

ولا شك أنّ العلامة الإعرابية تمثل جانبًا من جوانب تحديد الوظيفة النحوية أو المعنى النحوي الذي يترتب عليه تغيير في الدلالة.

وخرج الاستفهام للتعجب وإنكار ما فعلوه، فيظهر للمؤمنين من حال المنافقين يوم إتيان الفتح ما يُفتضح به أمرهم؛ فيتعجبون من حلفهم على الإخلاص للمؤمنين.

وقد ذكر الله مواقفهم في سورة أخرى فقال: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (الحشر:١١)، فحلفوا بهم بالمعاضدة والمناصرة، ولهذه الآية إحالة مقامية خارجية تتمثل في سبب النزول وهو أنّه أسلم ناس من أهل قريظة وكان فيهم منافقون، وكانوا يقولون لأهل النضير لئن أُخرجتم لنخرجن معكم فنزلت هذه الآية فيهم[١].

و (جهد أيمانهم) أي أقسموا إقسامًا مُجتَهدًا فيه، وهو مستعار من جهد نفسه إذا بلغ وسعها، والمعنى أهؤلاء الذين أكّدوا الأيمان وشدّدوها، يقول ابن عاشور: وجهد الايمان أقواها وأغلظها، وحقيقة الجهد التعب، والمشقّة، ومنتهى الطاعة، ثم أُطلق على أشد الفعل ونهاية قوته؛ لما بين الشدّة والمشقّة من الملازمة وشاع ذلك في كلامهم، ثم استُعمل في الآية في معنى أوكد الأيمان وأغلظها، أي: أقسموا بالله أقوى قسم، وذلك بالتوكيد والتكرير[٢]، فهو من المصطلحات الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم، فصار الجهد بإضافته إلى الأيمان بمعنى نوع اليمين.

وقوله تعالى: (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) يحتمل أن يكون إخبارًا من الله تعالى، كما يحتمل أنْ يكون من قول المؤمنين من جهة الدعاء أو من جهة الإخبار مما يعتقدونه عن حالهم[٣].

وفي قوله: (فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ) (المائدة:٥٢)، وقوله: (حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ) (المائدة:٥٣)، اختلاف في معنى (أصبح)، ففي الآية الأولى (٥٢)، وعد الله المؤمنين بالفتح، وأخبر عن اليهود والمنافقين أنّهم سيكونون من النادمين جراء ذلك الفتح، وستظهر خباياهم، أما الآية الثانية (٥٣)، فتعني أنّهم يصبحون خاسرين في الدنيا والآخرة؛ فقد حبطت أعمالهم، وظهرت خبايا نفوسهم، وبطل كل صالح عملوه؛ فخسروا دينهم.

١ انظر: السيوطي، **لباب النقول في أسباب النزول**، مصدر سابق، ج١، ص١٩٢.
٢ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٣٤.
٣ انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٧.

وكما حذَّر الله من مولاة أهل الكتاب فقد حذَّر من مولاة الكفارفقال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) (المائدة:٥٧-٥٨)، فنهى الله ﷻ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء؛ وأضاف إلى ذلك النهي اتخاذ الكافرين أولياء، وكرر ذكر اليهود والنصارى؛ وقد اندرجوا في الكافرين؛ " على سبيل النصّ على بعض أفراد العام؛ لسبقهم في الذكر في الآيات قبل ذلك؛ ولأنّه أوغل في الاستهزاء، وأبعد انقيادًا للإسلام، إذ يزعمون أنّهم على شريعة إلهية"[١].

ووصفهم بقوله (أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ) للاستهزاء بهم، وبيان كمال شناعتهم، وغاية ضلالهم؛ لأنّ إتياء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم.

ووصفهم بوصف يحمل النفوس على تجنبهم وذلك اتخاذهم دين المؤمنين هزوًا ولعبًا، أي سخرية وازدراء.

وخرج النهي للتحذير من مولاة غير المسلمين، وعلّل موجب النهي باستخدام الموصول وصلته بقوله: (ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا...)، فجاء ذكرهم بطريق الموصول لإبراز سوء صنيعهم، والتنفير من موالاتهم؛ فيسارع المسلمون إلى مجانبتهم وترك موالاتهم.

ومما اتخذوه هزوًا ولعبًا الصلاة، فقال تعالى: (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ)، فهذه الجملة ليست شرطية، بل جاءت للتوكيد، فقد اتخذوا أعظم شعائر هذا الدين هزوًا؛ فكيف بغيره، فوصفهم بأنّهم: (قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) كناية عن سوء منزلتهم.

وقد قدم أنّهم اتخذوا الدين هزوًا ولعبًا، واندرج في ذلك جميع ما انطوى عليه الدين، فجرد من ذلك أعظم أركانه، ونص عليه بخصوصه، وهي الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه، فنبّه على أنّ من استهزأ بالصلاة ينبغي ألا يُتّخذ وليًّا.

ولهذه الآية إحالة مقاميّة خارجيّة، وهي أنّ رجلاً من النصارى كان في المدينة، وكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أنّ محمدًا رسول الله، قال، حُرق الكاذب، فسقطت في بيته شرارة نار وهو نائم، فأحرقته، وأحرقت ذلك الكافر معه[٢].

---

[١] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٦.
[٢] انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص١٥١.

وقد ذكر الله معنى تلاعبهم بالدين واستهزائهم إظهارهم ذلك باللسان مع الإصرار على الكفر في القلب، فقال تعالى في سياق آخر: (وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ) (البقرة:١٤).

١٣- الولاية لله ورسوله والذين آمنوا

قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ۝وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) (المائدة: ٥٥-٥٦).

وهذه الآية تعلّل الآيات السابقة، فمن كان الله وليّه؛ فلن يكون أعداء الله أولياءه، وتفيد الآية تأكيد النهي عن ولاية اليهود والنصارى، وتنويه بأنّ بالمؤمنين هم أولياء الله ورسوله؛ من خلال تأكيد النفي والنهي بالأمر بضده وبأسلوب القصر[1].

وصار المعنى: لا تتخذوهم أولياء لأنهم أولياء بعض وأولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون، فقوله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ) خبر مستعمل في معنى الأمر يتضمن أمر بتقرير هذه الولاية ودوامها[2].

وقد قال (وليكم) بالإفراد ولم يقل: (أولياؤكم)، والمخبر به متعدد، " لأنّ وليّاً اسم جنس، أو لأنّ الولاية الحقيقية هي لله تعالى على سبيل التأصّل ثم نظم في سلكه من ذكر على سبيل التبع، ولو جاء جمعا لم يتبين هذا المعنى من الأصالة والتبعية"[3].

ثم مدحهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وقد مدحهم في الآية المتقدمة بقوله: (يحبوهم ويحبونه)، فإذا كان المعنى ولاية الله للمؤمنين بمعنى المحبة والنصرة كانت هذه الآية توكيد لتلك مطابقة لها مؤكدة معناها.

كما أكد المعنى مرة أخرى بقوله: (وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) (المائدة:٥٦)، فوضع الظاهر موضع المضمر، فالإضافة إلى الله تعالى زيادة تشريف لهم فجعلهم حزب الله تعظيمًا لهم وإثباتًا لغلبتهم[4]، ولذلك هم الغالبون.

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٣٩.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٣٩.
[3] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٥.
[4] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٨٩.

وكلمه (ولي) من المشترك اللفظي ومعناه النصرة والمحبة، يقول الرازي: " ولا شك أنّ لفظ الولي مذكور مرة واحدة، فلمّا أُريد ههنا معنى النصرة امتنع أنْ يراد به معنى التصرف"[١]، لأنّه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه معًا،ن فهو بمعنى النصرة والمحبة وليس بمعنى التصرف.

وقال تعالى في سياق النهي عن موالاة اليهود والنصارى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) (المائدة:٥٤)، وهذا الخطاب يمتدُّ معناه إلى العصر الحاضر، حيث يبين أنّ موالاة أهل الكتاب تستدعي الارتداد عن دين الله، والآية وعيد من الله أنه من ارتدّ من المسلمين فإنه تعالى سيستبدل بهم آخرين خيرًا منهم، ينصرون الدّين، ويغنون عن المرتدين، ومن صفاتهم حبّهم لله، وحبّهم لعباد الله، وبغضهم للكافرين، وحبّ الله لهم، كما أنّهم مجاهدون لإعلاء كلمة الله.

وفي قوله: (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ) مقابلة، وهي من صفات القوم جمع فيها الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين، و (على) الأولى بمعنى اللام أي أذلة للمؤمنين، " لِيُؤْذِن بأنّهم غلبوا غيرهم من المؤمنين في التواضع حتى علوهم بهذه الصفة؛ لكن في استفادة هذا من ذاك خفاء"[٢]، يُقال: تذلل له، ولا يُقال: تذلل عليه، لمنافاة التذلل للعلو، وبهذا تتضمن (أذلة) معنى العطف والحنو؛ لوجود (على) في السياق، فهو مجاز بمعنى لين الجانب وشدة الرحمة والسعي للنفع، وقد يكون استعمال (على) بالذات " لمشاكلة (على) الثانية في قوله: (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)"[٣]، وقد عُدِّيَت بعلى كما يقتضي استعمالها، والعزة بمعنى القوة والغلبة، وهما صفتا مبالغة، لأنّ أذلّة جمع ذليل، وأعزّة جمع عزيز، فليس كونهم أذلة أنهم أذلاء في أنفسهم؛ بل بإرادتهم. وقدم الوصف الذي بين المؤمنين على الوصف الذي بينهم وبين المشركين " لشرف المؤمن"[٤].

كما عبر عن هاتين الصفتين بالجملة الاسمية لأنّ الاسم يدل على الثبوت، كما قدّم الصفة التي تعبر عما بين المؤمن وربه على الصفة التي تعبر عما بين المؤمن وأخية المؤمن؛ لأنّ ما بين المؤمن وربّه أشرف مما بين المؤمن والمؤمن[٥].وذكر تعالى وصفًا لهم كذلك في قوله: (أَشِدَّآءُ عَلَى

---

[١] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٣١.
[٢] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٦٣.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٣٧.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٤.
[٥] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٢٤.

ﭐلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩)، فجاءت الآية القرآنية في غاية الدقة من خلال ماتحمله اللفظة القرآنية من دقة في وصف الأشياء، فالقرآن الكريم يصف الرسول ﷺ وأصحابه بأنّهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، فما تحمله لفظتا (أشداء، ورحماء) من دقة تنقل نفسيّة صحابة رسول الله ﷺ، وعلاقتهم بعضهم ببعض، فلفظة (رحماء) وما تحمله من جرس قوي يعبر عن مدى عِظَم الرحمة والتعاطف والأخوة، وتوحي لفظة (أشداء) التي تحمل نَفَسًا شديدًا في صيغتها وحروفها تعبر عن شدة موقف الرسول ﷺ وصحابته أمام أعداء الله، وفي دقة الوصف تقريب للمعاني القرآنية إلى مداركنا البشرية بالأوصاف الحسية.

أما الاختلاف بين السياقين فهو أنّ سياق سورة المائدة يتعلق باتخاذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ومن يتخذ أحدًا من الكافرين وليًا فالله سيستغني عنه وسيأتي بمن لا يقبل بغيره وليًّا، بالإضافة إلى أنّ العلاقة بينه وبين إخوانه المؤمنين تتسم بالعطف، ومع غيرهم تتسم بالعزّة ، بينما سياق سورة الفتح فهو مدح المؤمنين على صفة الرحمة بينهم، وصفة الشدة مع الكافرين.

ووصفهم بصفة أخرى وهي للمؤمنين الذي سيأتي الله بهم في حال ارتداد السابقين قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، بأنّهم يقاتلون أعداء الله كما أمر الله، وفيه تبيين لكيفية عزّتهم على الكافرين، وعطف عليه قوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ وفيه تعريض بذم المنافقين، لأنّهم إذا خرجوا في جيش المسلمين خافوا أولياؤهم اليهود؛ فلا يكادون يعملون شيئًا يلحقهم فيه لوم من جهتهم(١).

وقد فَصَل بين الصفات السابقة لبيان استقلال القوم بالإتصاف بكل منها، وفي تنكير (لائم) مبالغة؛ فالنكرة في سياق النفي تعمُّ إذا انضمّ إليها تنكير فاعلها، وهذا يستوعب انتفاءِ الخوف من جميع اللائمين " فيكون هذا تتميمًا في تتميم، أي لا يخافون شيئًا من اللوم من أحد اللوّام"(٢).يقول عبدالفتاح لاشين: " وهكذا نجد أنّ التعبير القرآني إذا وضع اسمًا معرفة في مكان، أو نكرة في موضع، فإنّما يكون ذلك لحكمة يعلمها الله، وسرّ تقتضيه اللغة، وهدف يقصده في المعنى، ولو حاولنا وضع أحدهما مكان الآخر، لاختل التناسق في الآية، وزال الانسجام المطلوب في التركيب"(٣)، وقد رأينا ما للكلمة من قيمة بيانية بمعنى العموم في سياقها.

---

١ المصدر السابق نفسه.
٢ الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٦٤.
٣ لاشين، **صفاءالكلمة**، مصدر سابق، ص٤٣.

وفي قوله (ذلك) إحالة مقالية إلى كل ما سبق من الأوصاف الجليلة، وفيها معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها في الفضل، وأظهر لفظ الجلالة (الله) في قوله: (وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) وهو في مقام الإضمار؛ للإشعار بالعلة، وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية[1].

وقد وردت كلمة (يرتدّ) بالإدغام، بينما جاء قوله تعالى: (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) (البقرة:٢١٧)، فما موجب الإدغام في سورة المائدة، وما الذي يميز سياق السورة؟

عند ملاحظة الآيتين نجد أنّ كلاً منهما يكمّل الآخر، فالمرتد يصير كافرًا، فلا أجر له ولا ثواب، وبالتالي فقد حبطت أعماله، وسيأتي الله بقوم آخرين على العكس منهم، فآية المائدة في سياق اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وبعض اليهود كانوا منافقين يظهرون الإسلام، ويحضرون مجلس رسول الله ﷺ، وهناك من الناس منافقون أيضًا، وهذا الأمر فيه خفاءٌ على المسلمين، فجاء السياق هنا ليشير إلى ارتداد المنافقين الذي هو خفي عن الآخرين، فجاءت (يرتدّ) بقوة، لأنّهم لم يدخلوا في الدين أصلا، فقال تعالى: (فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ...) (المائدة:٥٢)، أما سياق آية البقرة جاءت في الحديث عن الكفار فقال تعالى: (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ...) (البقرة:٢١٧)، وهنا يظهر الأمر الخفي في فك الإدغام، لأنّ ارتداد الكفار يتخذ جانب المجاهرة، وهو متكرر بتكرر أفعالهم المذكورة في الآية، أما القلقلة الحاصلة عند فكّ الإدغام فهي " توحي بالمجادلة، والحركة، وتكلف الارتداد، وإكراه النفس عليه، وهو أمور يتميز بها الكفار"[2]. وهي من الكلمات المتطورة دلاليًا[3]، وهذا من التوافق العجيب بين الصوت والدلالة.

١٤- التذكير بالنعمة (نعمة رد كيد الأعداء)

قال تعالى: (وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) (المائدة:٧)، وقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ

---

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٨٨.

[2] بني دومي، خالد (٢٠٠٦). **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، ط١، ص١٨٠، جدارا للكتاب العالمي، عمان- الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن.

[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٥، ص١٣٤.

أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) (المائدة:١١).

ففي قوله (واذكروا) خرج الأمر للتذكير بنعم الله عليهم تعريضًا بالحث على شكرها، وهي كثيرة، والميثاق هو العهد الذي أخذه الله عليهم، وقد استعمل هذا اللفظ في حقيقته ومجازه، فالميثاق على الحقيقة هو الحبل أوالشيء يُوَثق به[١].

ولهذه الآية إحالة مقاميّة خارجيّة تتمثّل في التذكير بما حصل من بيعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره كما جرى في بيعة العقبة وبيعة الرضوان.

وأمرهم بالتقوى لأنّها مقصودة لذاتها، وقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)، وهو تركيب إسلامي، ظهر في القرآن الكريم في سياق إظهار شمول علم الله حتى بما تخفيه صدورنا، خرج للتحذير من إضمار المعاصي، وإظهار لفظ الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم ولتقوية استقلال الجملة[٢].

واستعمال كلمة (اذكروا) مشعر بسبق النسيان، فكيف يعقل نسيانها مع أنّها متواترة ومتوالية، فقيل: " لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد؛ فصارت غلبة ظهورها وكثرتها سببًا لوقوعها في محل النسيان"[٣].

وقال نعمة الله بالإفراد وليس بالجمع؛ " لأنّه ليس المقصود منه التأمل في أعداد النعم، بل المقصود منه التأمل في جنس نعم الله، لأنّ هذا الجنس لا يقدر عليه غير الله"[٤].

كما ذكّر بآية أخرى نعمة تعالى على المؤمنين بقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ)؛ فأجمل النعمة وبيّنها بقوله: (إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ)، فهذه نعمة أخرى هي الإنجاء من الشرائر، ولها إحالة مقاميّة خارجيّة تتمثل في قصة الأعرابي في غزوة ذات الرقاع حين حاول قتل النبي ﷺ، وقيل:في بني النضير عندما حاولوا قتل الرسول ﷺ[٥].

وبسط اليد مجاز في البطش والفتك، وكف اليد مجاز في المنع والحبس وفيهما مقابلة.

وقدم الجار والمجرور على المفعول لصريح قوله: (يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ) للمسارعة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم؛ حملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمه دفعه".[٦]

---

١ الأزهري، **تهذيب اللغة**، مصدر سابق، مادة (وثق)، ج٩، ص٢٦٦؛ ابن منظور، **لسان العرب**، مصدر سابق، مادة (وثق)، ج١٠، ص٣٧١.
٢ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٣.
٣ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٨٣.
٤ انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٨٣.
٥ انظر: الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص١٢٩.
٦ الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص٨٤.

وكرر لفظ أيديهم في قوله: (فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ)، فوضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التقريع، والفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة، فجاءت نعمة الله مباشرة.

وإيثار صيغة أمر الغائب من خلال الفعل المضارع ولام الأمر وإسنادها إلى المؤمنين "لإيجاب التوكل على المخاطَبين، وللإيذان بأنّ ما وُصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داعٍ إلى ما أُمروا به من التوكل والتقوى، وازع عن الإخلال بهما"[١].

وفي الآية كان الابتداء بقوله: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)، والانتهاء بقوله: (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ) وفي هذا الابتداء بالمؤمنين على جهة الاختصاص وختمها بالمؤمنين على جهة التقريب[٢]، ويسمى الارتداد أو رد العجز على الصدر.

١٥- النهي عن السؤال عمّا لا فائدة فيه

قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ) (المائدة:١٠١-١٠٢)، وجاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن شعائر الله، وكيف أبقى الله البيت الحرام وما يتصل به من الشعائر، وهو مما كان كذلك منذ الجاهلية؛ وذلك لأجل أمن الناس، وصلاح حالهم ومعاشهم، فأدى ذلك إلى أنْ يعمد بعض الأشخاص إلى السؤال عن أمور أخرى منها الخاص، ومنها العام، ولهذه الآيات إحالة مقاميّة خارجيّة فعن ابن عباس قال: كان قوم يسألون النبي ﷺ استهزاء، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[٣].

لذا جاء النهي عن السؤال عما لم يرد به نصّ شرعي، ومن جهة أخرى جاء الأمر بالسؤال عما لم يُفهم مما نزل به نص شرعي، فالشرط هنا يحمل الوعيد لمن يسأل ويغلظ في السؤال[٤]، ثم عطف عليه شرطًا آخر وهو قوله: (وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ)، " وهو يقتضي

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٥.
[٢] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٥٣.
[٣] انظر: الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص١٤١-١٤٢.
[٤] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٤، ص٣٦.

التشريك فقط دون الترتيب"[1]، أي الجمع وليس عدم السؤال ثم السؤال؛ لأنّه أباح السؤال وقت الحاجة، وبعد أنْ نزل فيه نص قرآني، ويفيد ذلك تقييد السؤال بعد نزول القرآن لا قبله.

فالضمير (عنها) راجع إلى (أشياء)، ثم استأنف بقوله (عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ) " لبيان أنّ نهيهم لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة، بل لأنّها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها"[2]، والضمير (عنها) هنا يعود على المسألة، وقد تكون صفة أخرى لـ (أشياء) بمعنى لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم إياها، من قبيل التكاليف الشاقة.

وفي الآيات تظهر القصدية الإلهية في تربية المسلم، فلا يشترط الآيات، ولا يطلبها، ولا يسأل عنها، لأنّ ذلك قد يستتبع إيجابها أو وجودها؛ وتصير مما لا طاقة لمم فيه؛ وبذلك تقع المساءلة، ويلحقهم العقاب لتقصيرهم؛ وتركوا ما هو الأولى بهم من الاستسلام لأمر الله تعالى.

واتبع ذلك قوله لضرب المثل: (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ)؛ وهذا يدل على سؤال شيء، وليس عن استفهام عن شيء، وهذا الخطاب لتحذير المؤمنين من نحو تلك المسائل، فمن قبلنا سألوا آيات كقوم عيسى عليه السلام فأعطوها، وسألوا عبادات كقوم موسى عليه السلام فأعطوا يوم السبت، وكلاهما فرّط فيه؛ فلحقه العذاب الشديد، ونكّر (قوم) للمبالغة في التحذير[3].

(ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ)، وحرف العطف (ثم) للترتيب الرتبي لعطف الجمل، لا للتراخي في الزمن إنّما تفيد تراخي مضمون الجملة المعطوفة في تصوّر المتكلم عن تصور مضمون الجملة المعطوف عليها، فتدل على أنّ الجملة المعطوفة لم يكن يترتب حصول مضمونها حتى فاجأ المتكلم[4].

و في قوله: (لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ) ثم (قَدْ سَأَلَهَا) ولم يقل قد سأل عنها؛ لأنّ الضمير في (سألها) ليس براجع إلى أشياء حتى تجب تعديته بـ (عن)؛ وإنّما هو راجع إلى المسألة التي دلّ عليها (لا تسألوا)؛ يعني قد سأل قوم هذه المسالة من الأولين[5]، وهذا يدل أنّ معنى السؤال هنا يخالف معنى السؤال في الآية الأولى؛ لأنّ السؤال هنا طلب لشيء معين؛ وبما أنّ الآية الثانية جاءت لتوكيد التشديد والترهيب من السؤال، فلا بد أنْ يكون معنى السؤال في الآية الأولى هو معنى السؤال المقصود في الآية الثانية؛ وهو طلب شيء ما وهذا يكون لاتساق النظم القرآني.

---

[1] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٤، ص٣٦.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٢٥، وانظر: ابن عاشور، **التحرير** ،مصدر سابق، ج ٧، ص٦٧.
[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٢٨.
[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص٦٩.
[5] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٣.

١٦- الأمر بإصلاح النفس وسلامتها عن الغواية

قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (المائدة:١٠٥).

وهذه الآية جاءت في سياق التحذير من اتباع الآباء في التشريع الباطل، وظاهر الآية يدلّ على أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس بواجب؛ بل يكتفي الإنسان بإصلاح نفسه فقط، ولكن ما ورد في السنة وما جاء عن الصحابة يثبت أنّ هذا الأمر بعد القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، فمن لم يستجب من الناس فإثمه عليه، ولا يضر المبلّغ شيئًا من عدم استجابته.

ويفيد الأمر بقوله: (عليكم) تأكيد الوجوب[٢]، وهو أسلوب إغراء، أي أنْ يلزموا الطاعات ولا يتأثروا بأهل المعاصي، ثم جاءت الجملة بعدها: (لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ) تعليليّة لما قبلها، وتأتي أيضًا جوابًا للأمر؛ أي إن لزمتم أنفسكم؛ لا يضركم من ضلّ[٣].

ثم أخبر أنّ المرجع والمآل إلى الله، وذلك لإلقاء المهابة في نفوس السامعين، أمّا (ينبئكم) فهو كناية عن إظهار أثر العمل من ثواب المهتدي وعقاب للضال.

---

[١] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص ، الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٤، ص٤٢-٤٢، السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج٦، ص٤٣-٤٤، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٢١، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص٧٦-٧٧.

[٢] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص٧٧.

[٣] انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص ، وانظر: السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج٦، ص٤٤.

ثانيًا: خطاب الله ﷻ لبني اسرائيل

وقد خاطبهم الله ﷻ باسم (بني إسرائيل)، وهم ذرية يعقوب ؑ، وفيهم انحصرت سائر الأمة اليهودية، ولم يخاطبهم باسم (اليهود)؛ " لكون (بني إسرائيل) اسم قبيلة، أما اليهود فهو اسم النِّحلة والدِّيانة، ولأنّ من كان متبعًا دين اليهودية من غير بني إسرائيل كحِمْيَر؛ لم يُعَدّ منهم؛ لأنّهم تبعٌ لبني إسرائيل، فلو آمن بنو إسرائيل لآمن أتباعهم، ولأنّ هذا الخطاب للتذكير بنعمٍ أنعم الله بها على أسلافهم، وكرامات أكرمهم بها "[1]،وعندما يطلق القرآن لفظ بني إسرائيل فإنّ هذا يكون في معرض المدح لهم، والتذكير بفضل الله عليهم، ورضاه عنهم، وما ينبغي أنْ يكونوا عليه.

أمامصطلح (اليهود) فهو من الأسماء المشهورة، وقد ذُكر في القرآن الكريم حوالي ثمان مرات[2]، لم يُذكروا بها إلا " في معرض الذم؛ سواء أكان ذلك الذم من قول بعضهم لبعض، أم من ذم الله لهم ولمواقفهم"[3]، وهذا يدل أنّهم تلقّبوا بهذا اللقب بعد فساد حالهم وانحرافهم عن الدين.

واليهود اليوم يطلقون على أنفسهم بني إسرائيل؛ وذلك لدلالات دينيّة خاصّة؛ حيث يربطهم بيعقوب ؑ نسب، وحتى يخلعُوا على أنفسهم بهذا الوصف معنى القوة والقدرة، واكتساب صفة الغَلبة؛ ليتيسر لهم أنْ يَحْيَوْا الحياة التي يريدون، وبالأسلوب الذي يحبونه وتتعلق به عواطفهم[4].

كما خوطبوا في القرآن بـ (هودًا) حكاية عما يقوله بعضهم لبعض: (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ) (البقرة:١١١)، وقال: (وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ) (البقرة:١٣٥).

وكذلك بصيغة (الذين هادوا)؛ وهي " قريبة في دلالتها وإيحاءاتها من صيغة (الذين آمنوا)؛ حيث تُذكّر اليهود بتوبتهم من عبادة العجل؛ ليكون ذلك حافزا لهم لفعل الخير، واجتناب الشر"[5]؛ فيعبر بـ (الذين هادوا) في موضع المدح، وحينما يكون الكلام من قبل الله مباشرة دون حكاية لأقوال بعضهم في بعض، أو أقوال غيرهم فيهم، أو في موضع التشريع، فمن باب المدح عمومًا: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ...) (البقرة:٦٢، المائدة:٦٩، الحج:١٧) ومن باب المدح للبعض وذم البعض قوله: (مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ) (النساء:٤٦)، وقوله: (وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج١، ص٤٤٩.

[2] انظر: الشهرستاني (١٩٧٥)، الملل والنحل ، (تحقيق: محمد سيد كيلاني)، ط٢، ج١، ص٢١٠، الناشر مصطفى البابي الحلبي.

[3] فرحات، أحمد حسن، دراسات في مشكل القرآن؛ تأويل ثلاث آيات متشابهات، مصدر سابق، ص٢٥.

[4] انظر: طعيمة، صابر(١٩٦٩)، اليهود في موكب التاريخ، ص٥٤، القاهرة.

[5] فرحات، أحمد حسن، دراسات في مشكل القرآن؛ تأويل ثلاث آيات متشابهات، مصدر سابق، ص٢٥.

لِلْكَذِبِ) (المائدة:٤١)، حيث تشير الآيتان إلى أنّ من الذين هادوا من يحرّف الكلم، ومنهم سمّاع للكذب، وهذا وإنْ كان ذمًّا لمن يفعل ذلك، فإنّه يفيد أيضًا المدح لمن لا يفعل ذلك منهم.

وفي موضع التشريع قوله: (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) (النساء:١٦٠)، وقوله: (إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ...) (المائدة:٤٤)[1]. وقد خاطبهم الله تعالى تارة بأسلوب مباشر، وتارة بأسلوب غير مباشر.

أولاً: الخطاب المباشر لبني إسرائيل

وأول خطاب ظهر في السورة لبني إسرائيل جاء في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾) (المائدة:١٢-١٣)، إذ كان الخطاب موجهًا إلى النبي ﷺ، ثم انتقل إليهم؛ وهو من أساليب القرآن في نقل الحدث ماثلاً أمام القارئ.

وفي هذا الخطاب يخبر الله ﷻ النبيَّ ﷺ بخبرهم، ويعرّض بأفعالهم مع مواثيق الله وعهوده، فهو خطاب لمعاصري النبي ﷺ من خلال إظهار ما فعله أسلافهم، والأخبار عن قصصهم، لإرشاد المسلمين وحثّهم على الوفاء بالعهود، والتحذير من نقضها، وبدأ هذا الخبر بأسلوب القسم بالإضافة إلى أسلوب التوكيد بـ (اللام) و (قد)؛ " للاهتمام وليس ثَمّ متردد ولا منزل منزلته"[2]، فحال اليهود وسلوكهم يقتضي التوكيد دائمًا؛ لوُعُورَة مسلكهم في اتباع أمر الله وطاعته. كما أظهر لفظ الجلالة ولم يستخدم الضمير وهو تعالى المخاطِب؛ " لتربية المهابة، وتفخيم الميثاق، وتهويل الخطب في نقضه"[3].

---

[1] المصدر السابق، ص٢٣-٢٤.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٣٩.
[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٧.

أما الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل؛ فقد عُرض في ثنايا السور القرآنية، فأُجمل في السور المكية، وفُصّل في السور المدنية، ويظهر تفصيل المواثيق في السور المدنية في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾) (البقرة:٨٣-٨٥)؛ وهي إحالة قبلية.

وقد كلفهم الله بهذه المواثيق، وأقروا بصحتها، ثم خالفوا العهد ونقضوه، فهو سياق ذم لهم، فالآيات الواردة في توبيخ بني إسرائيل[1]، وهي على صيغة الخبر والمراد بها الأمر والنهي، وهذا آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنّ فيها معنى الامتثال والانتهاء؛ فهو يخبر عنه، كما أنه خطاب للأسلاف وتقريع للأخلاف، وكذلك وجدت هذه الصفات في المعاصرين للنبي ﷺ.

ومن المواثيق الأخرى التي ذكرها القرآن عن نقض بني إسرائيل قوله تعالى: (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾) (النساء: ١٥٤). ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾) (الأعراف: ١٦١-١٦٢).

وقتلوا الأنبياء فقال تعالى عنهم: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾) (المائدة:٧٠)، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، بل افتخروا بقتله كما في الآية، ورموا أمّه بالفاحشة والبهتان العظيم، وكل ذلك إفساد في الأرض،

---

[1] انظر: الأندلسي، أبو حيان (١٩٩٥)، **النهر الماد من البحر المحيط**، ط١، ج١، ص١٥٥، تحقيق: عمر الأسعد، دار الجيل، بيروت.

ونقض للمواثيق، وجاءت آيات كثيرة تأمرهم بالالتزام بها، وتحثهم على ذلك فقال تعالى: (خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:٦٣)، وقال: (خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسْمَعُواْ) (البقرة:٩٣)؛ " فالأخذ مجاز عن التلقي والفهم، والقوة مجاز على الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به، والذكر مجاز عن الامتثال"[١]، لكنّهم بدلاً من أن يلتزموا قالوا: (قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) (البقرة:٩٣)؛ وهذا يدل على أنّ طريقتهم مع محمد ﷺ هي طريقة أسلافهم مع موسى عليه السلام، وقد كرر كلمة (وبكفرهم)، يقول الزمخشري: " لأنّهم كفروا بموسى، ثم بعيسى، ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام؛ فعطف بعض كفرهم على بعض"[٢].

فهذا هو السياق القرآني لمواثيق اليهود، حيث ذُكرت هذه المواثيق في مواضع شتى، نزلت في أوقات كثيرة، وأحوال مختلفة، ويرتبط بعضها ببعض ارتباطًا عضويًا، فظهر من خلال ذلك "علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه "[٣]، وهذا يدل على أنّ القرآن الكريم وحدة واحدة ترتبط أجزاؤه فيما بينها، بل إنّ القرآن كله كالسورة الواحدة؛ لاتصال بعضه ببعض، والدليل على ذلك أنّه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كما نلاحظ في هذه الآيات وفي غيرها مما سيرد.

ومن المواثيق التي أخذت عليهم في هذه السورة قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١٢) (المائدة:١٢)، وقال في موضع آخر: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقْتُلُونَ ۝٧٠) (المائدة:٧٠)، فالبعث أصله التوجيه والإرسال، ويطلق مجازًا على الإقامة والانهاض، ثم شاع حتى بُني عليه مجاز آخر بإطلاقه على الإقامة المجازيّة كقوله تعالى: (إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولٗا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) (آل عمران:١٦٤)، ثم أطلق على إثارة الأشياء، وإنشاء الخواطر في النفس[٤]، فإذا كان

---

١ انظر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق،ج١، ص٥٤٢.
٢ الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٤.
٣ محمد، علي (١٩٨٢).**معجم علم اللغة النظري**، ط١، ص٥٧، مكتبة لبنان، بيروت.
٤ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٣٩.

النقباء بمعنى رؤساء الجيش يكون البعث بمعنى الإقامة، وإنْ كان النقباء بمعنى الجواسيس يكون البعث بمعناه الأصلي، أي التوجيه والإرسال، وقوله تعالى: (إِنِّي مَعَكُمْۖ) معيّة مجازيّة، تمثيل للعناية والحفظ والنصر[1].

وانتقل تعالى من الإخبار عنهم إلى مخاطبتهم بطريق الالتفات في قوله: (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ)، وقوله: (وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ)؛ حيث عدل عن الغيبة إلى التّكلّم، فالمواثيق التي أخذت عليهم هنا هي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بجميع الرسل الذين أرسلهم الله، ونصرتهم على من عاداهم، والصدقة، والقرض الحسن، فإن هم فعلوا ذلك؛ سيكفر الله عنهم سيئاتهم، وسيدخلهم الجنة، أما من كفر فقد ضلّ سواء السبيل، وعبر تعالى عن كل ما سبق باستخدام أسلوبي الشرط والقسم معًا؛ فقال: (لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ...)، لزيادة التوكيد.

وجاء تأخير الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، مع أنّه مقدم عليهما؛ لأنّ اليهود كانوا مُقِرّين بأنّه لا بدّ في حصول النجاة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لكنّهم كانوا مصرّين على تكذيب بعض الرسل، فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنّه لا بد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة[2].

وفي قوله: (وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) استعارة؛ حيث شبه الإنفاق في سبيل الله بالقرض؛ لأنّه إذا أعطى المستحق ماله لوجه الله فكأنه أقرضه إياه، وتخصيص القرض بالذكر تنبيهًا على شرفه وعلو مرتبته، ونلاحظ الدقة العظيمة في اختيار الألفاظ والأساليب، بما يحقق الهدف، ويصور المعنى، وبوصف القرض بـ (حسنا)؛ ترسم الاستعارة التمثيلية مشهدًا مشرقًا للمُقرض، فهو يقرض عن طيب نفس، وبشاشة وجه، وبعدٍ عن المنة والأذى.

وكذلك قوله: (لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ)، فتكفير السيئات استعارة بمعنى تغطيتها بالمحو والإذهاب، وتقديم: (لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ) على: (وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ) تقديم التخلية على التحلية، ثم ذكر جزاء من كفر بهذه المواثيق: (فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ)، فعدل عن الأسلوب السابق، ولعل تغيير السبك؛ حيث لم يقل وإنْ كفرتم عطفًا على الشرطية

---

[1] المصدر السابق، ج٦، ص١٤١.
[2] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١١، ص١٩، أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٨.

السابقة؛ " لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال، وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب، وليس المراد إحداث الكفر بعد الإيمان، بل ما يعمم الاستمرار عليه أيضًا"[١]، وعطف بالفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن، وذلك لتقوية الترغيب بالإيمان، والترهيب من الكفر، وجاء اللعن لأنّهم نقضوا الميثاق؛ فقال تعالى مؤكدًا: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً) (المائدة:١٣)،(فبما) زائدة للتوكيد، فلها دلالة في سياقها، فليس في القرآن لفظ بلا قصد، وذلك لأنّها " تؤكّد الكلام بمعنى تمكّنه في النفس من جهة حسن النظم، ومن جهة تكثيره للتوكيد"[٢]، وهنا ذمٌّ لها على طريق المجاز، فقاسية تعني غليظة يابسة، واستعير ذلك لعدم تأتّي القلوب بالمواعظ والنُّذُر.

وعبر عن النسيان بالفعل الماضي؛ لأنّ النسيان لا يتجدد، فإذا حصل مضى حتى يُذكِّره مُذَكِّر، وإنْ كان مرادًا به الإهمال فإنّ في صَوْغِه بصيغة الماضي ترشيحًا للاستعارة أو الكناية؛ لأنّهم متهاونون بالذكرى، وهذا ذم آخر لهم. وتنكير (حظًّا) للتعظيم أو التكثير بقرينة الذم.

ثم ينتقل من ذكر نقض عهودهم مع الله، إلى ذكر نقض عهودهم مع رسول الله ﷺ، فقال: (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ)، فاستعمل صيغة المضارع في الاطلاع الذي هو مجاز عن العلم بالأمر، وتطلع للمبالغة في الاطلاع، افتعال من طلع، والطلوع الصعود، وصيغة الافتعال لمجرد المبالغة؛ إذ ليس متعديًا حتى يصاغ له مطاوع، فاطلع بمنزلة تطلع، أي تكلف الطلوع لقصد الإشراف[٣]، فانظر كيف تعانق معنى الصيغة مع الدلالة وانسجما حتى فهمنا استمرار صدور فعل الخيانة منهم، إلا القليل الذين لم يكونوا كذلك، وهذا هو الانسجام النصيّ المعجز.

وقد فصّل الله في ميثاق بني إسرائيل بشأن الرسل فقال: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) (المائدة:٧٠)، فكرر: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)، والتكرار زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة؛ فإنّه يؤدي كذلك إلى تحقيق التماسك النصي؛ وذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النص حتى آخره، وهذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، كما في تكرار أخذ الميثاق هنا، وهذا الامتداد

---

١ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٨.
٢ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٦، ص١١٥.
٣ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٤٤.

يربط بين عناصر هذا النص، مع عوامل التماسك النصي الأخرى، وفي ذلك إخبار بما فعلوا بأنبياء الله، وتيئيس من هديهم بما جاء به محمد ﷺ، واستبعاد الإيمان منهم بالله تعالى[1].

والرسل يعني بهم الأنبياء، فالتعريف أفاد الجنس، وإطلاق الرسول على النبي الذي لم يجيء بشريعة إطلاق شائع في القرآن، لأنّه لما ذكر أنهم قتلوا فريقًا من الرسل؛ تعين تأويل الرسل بالأنبياء، فإنهم ما قتلوا إلا أنبياءً لا رسلاً، وربما كان هذا للتهويل، لأنّ الرسول مرسل من عند الله تعالى بشريعة الله، وقتلهم يعني رفض هذه الشريعة.

وبدأ ذلك بأسلوب القسم؛ لتأكيد الخبر، ثم الشرط بـ (كلما) الذي يفيد التكرار، " فإنّ استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات؛ دليل على أنّ التكذيب والقتل صارا سجيتين لا تتخلفان، وذلك أظهر في فظاعة حالهم"[2]، وفي قوله: (فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) تقسيم بغرض التفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل؛ باعتبار ما لا قوه من أقوامهم، ولهذه الآية إحالة مقالية سابقة، إذ يقول تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) (البقرة:٨٧).

وقدم المفعول (فريقًا) لشدة العناية والاهتمام، ولتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، واستخدم صيغة الماضي والمضارع، فجاء المضارع (يقتلون) على حكاية الحال الماضية؛ استفظاعًا للقتل، واستحضارًا لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها[3]، وللتنبيه على أنّ ذلك ديدنهم المستمر، وللمحافظة على رؤوس الآي الكريمة[4]، فذكر تعالى سوء اعتقادهم في الآخرة إذ لا يراقبون الله في ارتكاب المنكرات، فقال تعالى عنهم: (وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١).

وتضافرت كل أدوات التعبير عن السخرية في الخطاب منها: (عَمُواْ وَصَمُّواْ)، ثم تكرارها بقوله: (ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ)؛فهي تكرار للاستعارة التمثيلية: (عَمُواْ وَصَمُّواْ)، ومن خلالها بيان لتكرار أفعال اليهود على مر العصور، وتأكيد لطبيعتهم التي اعتادت العصيان والإعراض، وبعطف الاستعارة الثانية على الأولى باستخدام (ثم)؛ يجعل العمى والصمم فيها أشد منها في الأولى، وذلك لأنّ الله تاب عليهم بعد الضلال، وجاء التكرار في معرض التهديد بفضحهم، وكشف ما يسرون

---

[1] انظر: أبو السعود،**إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٣، ص٦٣، ابن عاشور، **التحرير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٢.
[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٣.
[3] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥.
[4] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٢.

من كيد وحقد، وهو يؤكد الإنذار؛ فأمْر فضحهم في الدنيا يخيفهم أكثر من ذكر ما سيحل بهم عند الموت، وذلك لأنّهم منافقون يهمّهم الحاضر، والظهور بثوب الإيمان، وهي استعارة " للإعراض عن دلائل الرشاد، لأنّ العمى والصمم يوقعان في الضلال عن الطريق، وانعدام استفادة ما ينفع، فالجمع بين العمى والصمم جمع في الاستعارة بين أصناف حرمان الانتفاع بأفضل نافع"[1]، فإذا أعرضوا غلبهم الهوى، فانعدم الوازع، فأفسدوا أعمالهم، " وبُدِئ بالعمى؛ لأنّه أول ما يعرض للمعرض عن الشرائع أنْ لا يبصر من أتاه بها من عند الله، ثم لو أبصره، لم يسمع كلامه، فعرض له الصمم عن كلامه، ولما كانوا قبل ذلك على طريق الهداية ثم عرض لهم الضلال نسب الفعل إليهم ، وأسند لهم"[2]، فإذا كانوا في غفلة فلم يَرَوْا، فلماذا لم ينتبهوا ويسمعوا عندما جاءهم البشير والنذير لينبّههم لذلك؛ (فَعَمُواْ وَصَمُّواْ) مناسبة جدًّا هنا.

وقد أسند الله العمى والصمم إليهم؛ بينما أسند التوبة إلى نفسه تعالى فقال: (فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ)، يقول ابن عطية: " ومن فصاحة اللفظ إستناد هذا الفعل الشريف إلى الله تعالى، واستناد العمى والصمم اللذين هما عبارة عن الضلال إليهم"[3]، لأنّ في إسناد الفعل (تاب) إلى الله إظهار لاعتناء تعالى ولطفه بهم، وقد عطف بـ (ثُمَّ) في قوله: (ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ) وذلك دليل على أنّهم تمادوا في الضلال زمانًا إلى أنْ تاب الله عليهم، لأنّ (ثم) تفيد الترتيب مع التراخي، بينما جاء قوله: (فَعَمُواْ وَصَمُّواْ) بالعطف بالفاء التي تفيد التعقيب، لأنّ ذلك متتابع، وفي الكلام حذف تقديره: "أي وقعت بهم الفتنة فتابوا، فتاب الله عليهم بكشف القحط، أو بإرسال محمد ﷺ"[4] وفي تكرار (عَمُواْ وَصَمُّواْ) دليل على أنّ "عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحقّ حصل مرتين"[5].

وقد ورد قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣) (محمد:٢٣)، في سياق الحديث عن المشركين، بينما آية المائدة في سياق الحديث عن اليهود، وفي سورة محمد قدّم الصمم على العمى، بينما في المائدة قدّم العمى على الصمم، كما اختلف الضمير المسند إليه في كل منهما، وذلك أنّ آية سورة محمد فيمن لم تسبق له هداية، وآية المائدة فيمن هداهم الله، ثم عرض لهم الضلال[6]، فالسياق مختلف لكن الحال واحدة، وهي الإعراض عن هدي الله.

---

[1] ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٦.
[2] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٣.
[3] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢١.
[4] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص١٦٠-١٦١.
[5] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٦.
[6] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٣.

ولذلك جاء التهديد الشديد في المائدة بقوله تعالى: (وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ)، والمقصود من هذا الخبر لازم معناه، وهو الإنذار والتذكير بأنّ الله لا يخفى عليه شيء، فهو وعيد لهم على ما ارتكبوه بعد أنْ تاب الله عليهم[1] وعبر عن ذلك باستعمال الفعل المضارع (يعملون) " لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها الفظيعة، ورعاية للفواصل"[2]. وقد نفى الله تعالى هذه الصفة عن المؤمنين فقال: (وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣) (الفرقان:٧٣).

والضمائر كلها في الآيات عائدة إلى بني إسرائيل؛ باعتبار أنّهم أُمّة يخلف بعض أجيالها بعضًا، وقد رسخت فيها أخلاق متماثلة، وعادات متّبعة بحيث يكون الخلف منهم فيها على ما كان عليه السلف، فلذلك أسندت الأفعال الواقعة في عصور متفاوته إلى ضمائرهم مع اختلاف الفاعلين، فالضمائر تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية، وتعمل على ربط أجزاء النص المختلفة شكلاً ودلالة، داخليًا وخارجيًا، وسابقةً ولاحقةً.

ثانيًا: الخطاب غير المباشر

وجاء هذا النوع من الخطاب من خلال مخاطبة الرسول ﷺ بكشف خفاياهم، وفضح أفعالهم معه ﷺ، وإرشاده إلى كيفية معاملتهم، ومنه الانتقال إلى تقريعهم وتوبيخهم لسوء صنيعهم، فقال تعالى: (مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ۝٣٢) (المائدة:٣٢)، فأخبر تعالى نبيّه ﷺ في سياق تشريع القصاص أنّه أرسل إليهم الرسل بالبينات؛ لكنهم أسرفوا في الأرض، وأفسدوا فيها، وهذا الخبر " كناية عن إعراضهم عن الشريعة، وأنهم مع ما شُدد عليهم في شأن القتل لا يزالون يقتلون"[3]، وفيه تعجيب؛ لأنّ مجيء الرسل بالبينات شأن عجيب، والإسراف في الأرض بعد تلك البينات أعجب، وفي ذلك إشارة إلى فعل اليهود، ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ.

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٧٩.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٣.
[3] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٩.

وقد أكد ذلك بالقسم، وحرف التحقيق (إنّ)؛ وفيه تنزيل غير المنكر منزلة المنكر، وذلك "أدلّ على تناهيهم في العتو والمكابرة"[١].

وقال: (جاءتهم)، ولم يقل: (أرسلنا)؛ لأنّ المجيء يعني الوصول الأكيد، بينما الإرسال لا يعني ذلك؛ إذ ربما حصل شيء ولم يتمكن من الوصول، وذلك للتصريح بوصول الرسالة إليهم.

وكما أكّد الأمر بالإرسال؛ أكّد تناهيهم في الإسراف والقتل، وقد استخدم حرف العطف (ثمّ) للتراخي في الرّتبة والاستبعاد، فصنيعهم هذا منذ الأزل إلى الحاضر.

واستخدم اسم الإشارة للبعيد (ذلك)؛ للإحالة إلى ما سبق فعله منهم، لبيان علوّ درجته، وبعد منزلته في عِظَمِ شأنه عند الله، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير؛" للإيذان بكمال تميّزه وانتظامه في سلك الأمور المشاهدة"[٢]. وقدّم (فِى ٱلْأَرْضِ)، لزيادة تفظيع الإسراف فيها.

كما خاطب النبي ﷺ كاشفًا له عن سرائرهم؛ فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞) (المائدة:٤١-٤٢).

فوصفهم بأنهم: (يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ)، فصوّر إظهار كفرهم عند أدنى مناسبة بالمسارعة فيه، فشبّه إظهاره المتكرر بإسراع الماشي إلى شيء ما، فهم مستغرقون فيه، إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها، " وأسرع في الشيء: وقع فيه سريعًا"[٣]، فهم مستغرقون في الكفر لا يبرحونه، بل يتقلّبون في مختلف فنونه وأحكامه، لذا آثر استخدام لذلك استخدم حرف الجر (في) بدلا من (إلى)؛ " لدلالة على أنّ الإسراع مجاز بمعنى التوغّل، فجعل الكفر بمنزلة الظرف، وجعل تخبّطهم فيه وشدة ملابستهم إياه بمنزلة جولان الشيء في الظرف جولانًا بنشاط وسرعة"[٤]، فهي استعارة

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦٤.
[٢] المصدر السابق نفسه.
[٣] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٥.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٩٨.

متكررة في القرآن، ونظيره: (يسارعون في الإثم) (المائدة:٦٢)، وهذا ذم لهم على قبول الخبر الكاذب من جهة، وعلى طاعة الكفار والمنافقين من جهة أخرى، فضمّن السماع معنى القول أو القبول، فهم يقولون الكذب ويقبلونه، فيكون قد " ذمهم على اتباع الباطل في نوعي الكلام: خبره وإنشاءه، فإن باطل الخبر الكذب، وباطل الإنشاء طاعة غير الرسل"[١].

وصيغة: (سماعون) صيغة مبالغة، فهي تحيط بكل سماع، مما يسمعونه من الرسول ﷺ؛ فينقلونه لغيرهم بزيادة وتحريف، ويسمعون من أحبارهم وإن كان مختلفًا عما جاء في التوراة، ويستزيدون من السمع، وقد كرر هذه الكلمة للتأكيد على أنهم يسمعون من الرسول ﷺ باختلاف الغرض الذي هو أن يَكْذِبُوا في نقل حديثه، وأن يسمعوه لينقلوا حديثه إلى يهود آخرين لم يأتوه، أو أنّهم ليسمعوا لهؤلاء الذين لم يأتوه في الاحتكام والمشورة، ومهما كان المعنى فهو ذمّ لهم؛ فعبّرت الصيغة عن تكرار السماع لأغراض سيئة تفضح حقيقتهم،واللام في (للكذب) للتعدية[٢].

وقد وصف الله ﷻ القوم الآخرين وهم اليهود الذين لم يحضروا مجلس النبي ﷺ ولم يأتوا إليه بأنّهم: (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟)، وقد ورد قبل ذلك قوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ) (المائدة:١٣)، فهناك (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ)، وهنا (يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ)، ويعلل الكرماني ذلك بقوله: " لأنّ الأولى في أوائل اليهود، والثانية فيمن كانوا في زمن النبي ﷺ، أي حرّفوها بعد أنْ وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زمانا "[٣]، بينما يرى الخطيب الاسكافي أنّ: " الآية الأولى في اليهود الذين حرّفوا ما أنزل الله تعالى من كلامه عمّا علموه تأويلا له، فيكون هذا تحريفًا من جهة التأويل، وحرفوا أيضًا من جهة التنزيل، فقولك (عن): موضوع لما عدا الشيء... أما الآية الثانية فهي في قوم من اليهود؛ أخبر الله تعالى عنهم أنّهم سمّاعون لما تقوله ليكذبوا عليك، ويخبروا بخلاف ما تقوله عنك، وينقلوا كلامك إلى قوم آخرين"[٤].

فالآية الأولى تدل على تحريف اليهود القدماء بطريقتين، أولاهما تحريف الألفاظ بالتبديل والتغيير، والزيادة والتنقيص، والثانية: تحريف المعاني بالتأويل، وحمل الألفاظ على غير ما وضعت له، ومن ذلك بقاء آية الرجم وتغيير حكمها، وآثر استعمال (عن) في هذا الموضع، وهي

---

[١] ابن تيمية، **دقائق التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٨.
[٢] المصدر السابق نفسه.
[٣] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص ٤٤.
[٤] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج ١، ص٤٣٥-٤٣٧.

بمعنى (بعد)، إلا أنّ الأصل في هذا المكان أنْ تستعمل (عن)؛ " لأنّ (بعد) قد تكون لما تأخّر زمانه عن زمان غيره بأزمنة كثيرة، وبزمن واحد، و(عن) لِمَا جاوز الشيء إلى غيره، وملاصقًا زمنه لزمنه"[١].

أما الآية الثانية فقد يكون ذلك التحريف في زمن الرسول ﷺ عند نقل كلامه للآخرين، وقد يكون " بعد موته ليجعلوه على خلاف ما سمعوه منه، وهذا موضع (بعد) لا موضع (عن)؛ لأنّه ليس يعدوه إلى المحرَّف إليه؛ فينفصل عما جاء عليه إلى الكذب مقارنًا له، وإنما ذلك بعده بأزمنة كثيرة يتوقّعون مضيّها ليسهل كذبهم بعدها"[٢]، فإدراج لفظ (بعد) للتنبيه على تنزيل الكلم منزلة هي أدنى مما وضعت فيه لأنّه إبطال النافع بالضار، لا بالنافع أو الأنفع، فكأنّ الحرف واقف في موضع هو أدنى من موضع الكلمة يحرفها إلى موضعه ولا يخفى بعده[٣].

فالتعبير بقوله: (عَن مَّوَاضِعِهِ) إشارة إلى إبعادهم للكلام عما وضعه الله تأويلاً أو تحريفًا أو إزالة، أما التعبير بقوله: (مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ) أي بعد أن ثبت، ففرض الله الفروض، وأحل الحلال، وحرم الحرام، واستقر الأمر، ثم بعد زمن غيّروه.

وقد ورد مثل الأولى في النساء، وذلك في قوله تعالى: (مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ) (النساء:٤٦)، وجاءت في سياق ذكر ضلال أهل الكتاب، فقال تعالى: (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝)، وخصّ فضائح اليهود بالذكر، فقوله: (عَن مَّوَاضِعِهِۦ)؛ إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، كأنّهم حرفوها من أول وهلة قبل استقرارها في مواضعها، وبادروا إلى ذلك، والمعنيان متقاربان كأنهم لم يبادروا إلى التحريف، بل عرض لهم التحريف بعد استقرار الكلم في مواضعها، فهما سياقان مختلفان[٤]؛ فسياق المائدة وصفهم بنقض الميثاق، وقسوة القلوب، وترديد الحكم إلى الرسول ﷺ، وإنْ لم يعملوا بحكمه، لذا فما جاء بعد الآية الثانية: (مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ) تفسيرًا لها وهو قوله تعالى: (يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ)، وهو ما ذكر في سبب نزول الآية من تحاكم بعض اليهود في قضية الزاني المحصن وقيل: في قضية

---

[١] المصدر السابق، ج١، ص٤٣٧.
[٢] المصدر السابق،ج١، ص٤٣٨.
[٣] انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق،ج٦، ص١٣٧.
[٤] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج١، ص٥٣٠. الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٦٦١.

قتل، وقد جاءت في صحيح مسلم[1]، وعبّر عن ذلك في موضع آخر فقال: (مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء:٤٦).

ومن ثم قال تعالى: (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ) وهذا تركيب مستعمل لدى العرب متعارف بينهم يدل على انتفاء الحيلة في تحصيل أمر ما، وذلك لتسلية الرسول ﷺ، والتخفيف من حزنه على مسارعتهم في الكفر، وقطعاً لرجائه من فلاحهم[2]، وتنكير (شيئًا) للتحقير.

وأكّد تعالى ذلك بقوله: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ)، فاستخدم اسم الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ) الذي يعود على المذكورين سابقًا من المنافقين واليهود، واختاره للبعد؛ " للإيذان ببعد منزلهم في الفساد"[3]، مما يدل على أنّ اعتيادهم سماع الباطل وقبوله؛ أكسبهم ذلك رفض الحق، وتحريفه عن مواضعه، فقال تعالى عنهم: (لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ). فالضمير (هم) في الجملتين يعود على المنافقين واليهود، وكرر (لهم) مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد، وفيه ذم لهم، وتهديد لما سيؤول إليه مصيرهم، فالمنافقون ظهر خزيهم و فضيحتهم وهتك سترهم بظهور نفاقهم، أما اليهود فظهر خزيهم بذلّهم، وافتضاح أمرهم؛ بإظهار كذبهم، وتحريفهم للتوراة، وبفرض الجزية عليهم.

وقد ورد في هذه الآية كثيرٌ من البديع الذي أضفى إيقاعًا صوتيًا رائعًا، وساهم في التعبير عن الدلالة النفسية للألفاظ، فيشعر القارئ من خلال اكتظاظ الأصوات بكواليس المؤامرة التي يتآمر بها الأعداء، ومن ذلك أسلوب المقابلة في قوله تعالى: (إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ)، فهذه الصورة التقابلية هنا طريقة في أداء المعنى لها آثارها البعيدة وأهدافها القيمة فهي تسهم في إبراز المعنى بما فيها من ثنائية وتضاد، وفيه طباق السلب في قوله: (أُوتِيتُمْ)، و (لَّمْ

---

[1] مسلم، **صحيح مسلم**،ط٢، ج٣، ص١٣٢٧، رقم ١٧٠٠، كتاب الحدود، باب رجم اليهود، دارالفكر – بيروت، لبنان، عن البراء ابن عازب ﷺ في حديث طويل جاء فيه: (... ائتوا محمدًا، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا). انظر: الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، ج١، ص ١٣٠- ١٣١.

[2] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠٠.

[3] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٣.

تُؤْتَوْهُ)، وقوله: (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ)، (ءَامَنَّا)، (وَلَمْ تُؤْمِن)، إذ نلاحظ إعادة العنصر المعجمي وتكرار الكلمة ذاتها بتغيير طفيف ليُعطي عكس المعنى السابق، ومن خلال تكرار الأصوات ينتج إيقاعًا موسيقيًا يعبر عن المعنى وعن الدلالة العامة.

وكذلك يظهر التقسيم والتفصيل، وتكرار بعض الكلمات وذلك في قوله: (لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، حيث بيّن حالهم في الدارين.

وفي تكرار (سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ) بعد ذلك تأكيدًا وتفخيمًا[١]، وليرتب عليه قوله: (أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ)[٢]، وبهذا تكررت كلمة (سَمَّٰعُونَ) ثلاث مرات، فجمع هنا بين غذائي الروح والجسد، فالدين غذاء للروح والقلب؛ فلا يسمعون الصدق، وأكّالون للسّحت، والأكل غذاء الجسد، فهم في غذائي الجسد والقلب يتغذّون بالحرام، بخلاف من يأكل الحلال ولا يقبل إلا الصدق[٣]، وفيه مقابلة بين حاجات الإنسان الجسدية والروحية، وفي سعيه لملئها لا بدّ أن يتحرّى، وهذا ذم لهم وتشنيع لفعلهم.

وجاءت صيغة المبالغة من الأكل في قوله: (أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ)؛ والمبالغة تكون إما في الحدث، وإما في تكرير الحدث، وعلى هذا المعنى؛ فأكلهم كله من السّحت، والسّحت هو: " القشر الذي يستأصل، ومنه السَّحْتُ والسُّحْتُ للمحظور الذي يلزم صاحبه العار؛ كأنه يسحت دينه ومروءته، "[٤]. وقال ابن عطية: " أصل السحت كلب الجوع، يقال فلان مسحوت المعدة إذا كان لا يلقى أبدًا إلا جائعًا يذهب ما في معدته فكان الذي يرتشي؛ به من الشره ما بالجائع أبدًا لا يشبع، والسّحت الذي عنى أن اليهود يأكلونه هو الرشا في الأحكام والأوقاف"[٥]. فالسّحت لفظ يعمم على كل كسب غير مشروع أعظمها الرشوة في الحكم، والأجرة على قتل النفس، وهذا هو ديدن اليهود، فهي تعني استئصال الشيء استئصالاً لا يتقي له أثرًا، "وقد انتقل هذا المعنى إلى المعنى الاصطلاحي؛ لارتباط السبب بالنتيجة، فكل ما محرم وكل ربح غير مشروع وكل عمل قبيح سوف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، وبذلك يسبب له السّحت الذي في الأصل الاستئصال وشدة

---

١ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص١١٩.
٢ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠١.
٣ انظر: ابن تيمية، **دقائق التفسير**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩.
٤ الراغب الأصفهاني، **مفردات غريب القرآن**، مصدر سابق، ص٣٩٩-٤٠٠.
٥ ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٣.

العذاب، وهو مصطلح قرآني جديد نبت في البيئة الإسلاميّة بسبب القوانين الجديدة التي سنّها الاسلام"[١]. فقوله: (أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ) استعارة " لأنّ الأكل استعارة لتمام الانتفاع"[٢].

ثم خاطب رؤساء اليهود وعلماءهم بطريق الالتفات من التكلم إلى الخطاب؛ فقال: (فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ)، والنهي هنا للتهديد والتحذير من عاقبة فِعْلِهم ولذلك فالأمر هنا للوجوب، كرر ذلك من خلال طباق السلب في قوله: (لَا تَخۡشَوُاْ) و (وَٱخۡشَوۡنِ)، لإظهار أهمية الخشية في الحكم لله وحده، وعطف عليها جملة: (وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ)، كناية عن أخذ الرشوة، وأخرج ذلك على سبيل الاستعارة، فالشراء يكون للسلع من خلال استبدال السلعة بالثمن، أي أَخْذُها بدلا منه؛ لا بذل الثمن لتحصيلها، والمعنى لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأنْ تخرجوها منها، أو تتركوا العمل بها، وتأخذوا الرشوة بدلاً منها، فالاشتراء استعارة لإيثار الضلال على الهدى والدنيا على الآخرة، وفيها يلحظ تعمد النفس في عملية الاشتراء لا يتم إلا عن قصد وارتياح، وكأن هؤلاء حين يقومون بذلك يستشعرون بالرضى التام على أمل الربح؛ لكنه ربحٌ موهوم ينتهي إلى الخسران، ولا شك أنّ هذه حالة نفسية مرضية يعيش المصاب بها في وهم وتخبط، لأنّه لا ينظر إلى عاقبة الصفقة، وإنّما ينظر إلى اللحظة الآنية في المبادلة المتعمدة[٣].

وقد قدّم أمر الرهبة على الرغبة؛ " لمّا كان الخوف أقوى تأثيرًا من الطمع"[٤]؛ ثم أتبع ذلك بالوعيد الشديد، فقال: (وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ)؛ لإقدامهم على تحريف حكم الله في حدِّ الزاني المحصن الذي ورد في التوراة، وفي قوله: (أُوْلَٰٓئِكَ) إحالة إلى الاسم الموصول (مَن) وقد "جمع اسم الإشارة باعتبار معناها، كما أن إفراد (مَن) باعتبار لفظها"[٥]، وهي إحالة قبلية لليهود.

ووصفهم بالكافرين لكونهم أخفوا هذا الحكم ولم يعملوا به؛ وكأنّه غير موجود؛ فهو وصف مناسب لصنيعهم من الكفر الذي هو التغطية والستر، فالذي لا يؤمن بآيات الله، ولا يعمل بها، ولا ينشرها ليعمل بها غيره؛ فيكون كمن سترها وغطّاها، فاستخدم اللفظ في معنييه اللغوي والاصطلاحي، إذ وقع عليه من التطور الدلالي بعد مجيء الإسلام فصار المعنى نقيض الإيمان.

---

[١] أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن**، مصدر سابق، ص٣٣٢.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠١.
[٣] انظر: عزيز، صالح ملا (٢٠١٠). **جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني**، ط١، ص١٥٤، دار الزمان.
[٤] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص، ص٦.
[٥] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٧.

ثم ذكر الله حكم القصاص في التوراة الموافق لحكم القرآن فقال: " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴿٤٥﴾) (المائدة:٤٥)، وهذا يدل على أن القضية التي احتكم بها اليهود للنبي ﷺ هي قضية القتل، وفي قوله: (أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ) وما بعدها مقابلة، وقد ذكر الله حكم القصاص في البقرة فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾) (البقرة: ١٧٨)، فالكَتْبُ هنا مجاز في التشريع والغرض؛ بقرينة تعدية بحرف الجر (على) أي فُرض وشُرع، وهو حكم لا يُستطاع جحده؛ لأنّه مكتوب، والكتابة تزيد من توثيقه[1]، وفي قوله: (فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ) يعود الضمير (بِهِۦ) على الجرح وما سبقه، ويعود الضمير (هُوَ) على التصدق، والضمير في (لَّهُۥ) لمرجع متصيّد هوالجاني، والمعنى: فذلك العفو والتصدق كفارة للجاني، يسقط عنه القصاص، وقيل: يعود على المتصدق؛ " أي من تصدق من المستحقين للقصاص بالقصاص بأنْ عفا عن الجاني، فهو كفارة للمتصدق، يكفر الله عنه بها ذنوبه"[2]، واختلاف المعنى ناتج عن الاختلاف في عود الضمير، لكونه لم يُذكر في النص.

وقد زجر من لم يحكم بما أنزل الله فقال: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)، فقدم في الأولى الكافرون، وجعل في الثانية الظالمون، وفي ذلك يقول الرازي: " ففي الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره في حق الخالق سبحانه، وفي هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير في حق نفسه"[3].

وقد ورد بعد ذلك قوله تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) (المائدة:٤٦-٤٧)، وذهب الخطيب الإسكافي إلى أنّ المراد بالكافرين اليهود الذين كانوا يبيعون حكم الله بالرشوة، وأما

---

[1] انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٦.
[2] الشوكاني (د. ت)، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، د. ط ج٢، ص٤٨، دار الأرقم.
[3] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١٢، ص٩.

الظالمون فهم اليهود الذين كفّرهم لتركهم دين الله، والحكم بما أنزل الله، ثم وصفهم بالظلم، وهي صفة زائدة على صفة الكفر بالله، أما الفاسقون فهم النصارى لخروجهم عن الحق، لدلالة السياق عل ذلك[١]، بينما ذهب ابن الزبير إلى أنّ الآيات الثلاثة في اليهود، وأنّ الله وصفهم بهذه الصفات الثلاثة من خلال الترقي والانتقال في الوعيد؛ حيث انتقل من الأخف إلى الأثقل، وهذا أسلوب مطرّد في القرآن، ففي الآية الأولى لم يتقدم ذكرهم بغير كفرهم وتحريفهم؛ بغير التفات إلى ذكر ظلمهم مع غيرهم، وإنّما مجرد كفرهم ظلم لأنفسهم؛ فقال عنهم: (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ)، وفي الآية الثانية اجتمع ظلمهم لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بمخالفتهم القصاص، فقال عنهم: (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) فهو أشد من وصف الكفر؛ لأنّه كفر وزيادة، ثم عقب بذكر إنزال الإنجيل، ووصفهم بالعتو في كفرهم حين تمردوا بأنْ حكموا بغير ما أنزل الله، والتمرد هو الفسق، فقال عنهم: (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)، وحصل من وصفهم به أنّه أعظم من الكفر والظلم؛ لأنّه كفرٌ جامع لكل شنيع من مرتكباتهم، وهو لا يقع إلا على ذوي التمرد من الكفره وأكثر ذلك في اليهود والمنافقين والكفرة في كتاب الله، ووصف به إبليس كذلك[٢].

ولعل الله وصفهم بالأوصاف الثلاثة باعتبارات مختلفة، فلإنكارهم وصفوا بالكافرين، ولِوضعهم الحكم في غير موضعه وصفوا بالظالمين، ولِخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين[٣]، وهذا من مناسبة النظم، ومن دقة اختيار القرآن لألفاظه وتراكيبه، فعمود هذه البلاغة " هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به؛ الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إمّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد المخاطب"[٤].

وإنْ كانت الآية الأخيرة تتحدث عن النصارى إلا أنّ الذين لم يحكموا بما في الإنجيل في زمن عيسى عليه السلام وما بعده إلى زمة البعثة المحمدية هم اليهود، إذ لم يكونوا يؤمنوا بأي كتاب سماوي آخر سوى التوراة، وبرغم ذلك لم يحتكموا إلى أحكامها.

واليهود يمثلون أشدّ عقبة حاولت الوقوف في طريق الدعوة، والقرآن بيّن موقعهم بالنسبة لأعداء الإسلام، فهم في المقدمة وهم في الترتيب النوعي أشد الناس عداء للإسلام إذ صرح القرآن

---

١ انظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٤٦٣-٤٦٦.
٢ انظر: ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٨-٢٧١.
٣ انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٤٦.
٤ الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ضمن (**ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**)، مصدر سابق، ص٢٦.

بذلك فقال: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝) (المائدة:٨٢)، فلم يتركوا بابًا إلا دخلوه لصد المسلمين عن دينهم، وبذل ما في قلوبهم من حقد تجاههم.

وخاطب الله ﷻ النبيّ ﷺ خطابًا موجها لليهود، ومن خلاله يأمره أن يخاطب بني إسرائيل أو أهل الكتاب المراد بهم اليهود في سياقات خاصة؛ وذلك من خلال فعل الأمر (قل)، الذي خرج لإيجاب مشافهة اليهود لما في الآية، وتبليغهم بمضمونها، لأنّ ما يقع بعد الفعل (قل) رسالة خاصة يجب الاهتمام بها وتبليغها على نحو خاص، فقال تعالى:(قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ۝قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ۝وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ۝)، ولقّبهم بأهل الكتاب مع أنّه يُستعمل لكلا الفريقين اليهود والنصارى؛ لأنّ السياق هنا سياق توبيخ، فأهلية الكتاب تعني القيام بموجباته وذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي، واتباع الشرع، فهم أهل التوراة التي فيها التبشير بمحمد ﷺ، والأمر باتباعه؛ لكنّهم تركوا كتابهم، واتبعوا أهواءهم، فذكّرهم الله بأنّهم أهلٌ للإيمان، لكنّهم رفضوا الإيمان وحاربوا أهله.

وقد تضمنت جملة جواب النداء الاستفهام مردفًا بالاستثناء، ولهذا قال السيوطي: " فإنّ الاستثناء بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنين من الإيمان؛ يوهم أن ما يأتي بعده مما يوجب أن ينقم على فاعله مما يذم به، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمنًا تأكيد المدح بما يشبه الذم"[1].

والاستفهام انكاريّ وتعجبيّ، فالإنكار دلّ عليه الاستثناء، والتعجب دلّ عليه أنّ مفعولات (تنقمون) كلها محامد لا يحق نقمتها[2]، فاليهود جعلوا الإيمان على الوصف المذكور موضعًا للذم والعيب، وأضاف المطعنيُّ التسفية؛ " لأنّ من عنده مُسكةٌ من رشاد لا يصدر منه هذا الفعل

---

[1] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مصدر سابق ، ج٣، ص٢٦٦.

[2] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٤٤، ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٠.

المنكر الظاهر عوره "[1]، فالمعنى: ما تنقمون منّا إلا إيماننا وفسق أكثركم، أي تنقمون تخالف حالينا فهو نقم حسد، وهو خبر يفيد التهكم، وذلك من باب المقابلة والازدواج، فلمّا نقم اليهود عليهم الإيمان بجميع الرسل وهو مما لا يُنقم، ذكر في مقابلة فِسْقهم وهو مما ينقم، ومن هنا يتحقق التماسك النصي عبر المقابلة، وهي واضحة بين المؤمنين وصفاتهم وأفعالهم وثوابهم، والكافرين وصفاتهم وأفعالهم وعقابهم، غير أنّ هذه المقابلة ليست بين كلمة وأخرى، أو جملة وأخرى بل بين وحدة دلالية ووحدة دلالية أخرى، فالنص القرآني يعكس الطبيعة التي جُبِل عليه البشر إما الخير أو الشر، وفي مثل ذلك حسن في الازدواج[2]، وظهرت قرينة التهكم وبهذا صار الاستفهام إنكاريًا تعجبيًا.

ثم اطّرد في التهكم بهم والتعجب من رأيهم فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مستفهمًا، والاستفهام للذم، والتقريع، والتهديد بسوء المصير، والنعي على من جرى توجيه هذا الاستفهام إليهم[3]، وهم اليهود؛ وحيث كان اليهود قد خرجوا من كل خير، ورفضوا الإيمان، فكان هناك جزاء ينتظرهم يسوقه القرآن في أسلوب ساخر متهكم، فيجعل كل هذا الشذوذ وكل هذه الجرائم من اليهود كأنّها أفعال حسنة تستحق الثواب؛ فيعبر عن العقاب بالثواب تهكمًا واستهزاء، وهذا الجزاء ينصب عليهم من كل جانب مصورًا في لغة الله لهم وغضبة عليهم، فتجسمه تجسيمًا في صورة أقبح حيوانين يضرب بهما المثل في القبح الجسمي والعقلي وهما: القردة والخنازير.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٧٢)، فاستعمل (هل) لما هو أقوى وآكد في الاستفهام، ففي سياق آية المائدة قوة وتبكيتًا لا تجده في سياق آية الحج، فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزوًا ولعبًا، وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنه لعنهم وغضب عليهم ومسخ منهم قردة وخنازير، ومضى في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف، وليس كذلك في آية الحج.[4]

والمثوبة مختصة بالإحسان، وقد جاءت هنا في الإساءة، وقوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ مشاكلة تقديرية في كلمة (شر)؛ لوقوعها في مقولة اليهود للنبي ﷺ: (ولا دينًا شرًّا من دينكم)، فعدل بها

---

[1] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦١.
[2] انظر: السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج ٥، ص٣٦٣.
[3] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦١.
[4] انظر: السامرائي، **التعبير القرآني**، مصدر سابق،ص١٥١-١٥٢.

عن كلمة (أنقم)؛ حيث كان مناط النقم هو شرِّيَّة المنقوم عليه، حقيقةً أو اعتقادًا، وكان مجرد النقم غير مفيد لشريته، فقال ذلك تحقيقًا لشريّته ما سيذكر وزيادة تقرير لها[1].

وكذلك العدول في قوله: (مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ) ولم يقل أنتم، أو باسمهم: اليهود، بل أتى بالاسم الموصول للعلم بالمعنيّ من الصلة، فهو من وضع الظاهر موضع الضمير؛ لأنّ اليهود يعلمون أنّ أسلافًا منهم وقعت عليهم اللعنة والغضب من عهد أنبيائهم، ودلائله ثابتة في التوراة، فالموصول كناية عنهم، وتنبيه على وصفهم بهذا الوصف؛ وهنا تظهر قوة الإعلاميّة، والقصديّة، فالمقصود الأصلي ليس مضمون الجملة الاستفهامية، بل هو مقدمة سيقت أمام المقصود لاستهزاء المخاطَبين، وتوجيه أذهانهم نحو تَلَقّي ما يُلقَى إليهم بعدها بجملة خبرية موافقة في الكيفية للسؤال الناشئ عنها، وهو المقصود إفادته وعليه يدور الإلزام والتبكيت.

وأظهر الله لفظ الجلالة بقوله: (مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ)؛ " لتربية المهابة، وإدخال الروعة، وتهويل أمر اللعن وما تبعه"[2]، والاسم الموصول يعود على المخاطبين وهم اليهود؛ إذ أبعدهم الله تعالى من رحمته، وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي، وهذا من دقّة النظم القرآنيّ، وأخّر عبادة الطاغوت عن العقوبات المذكورة؛ لئلا يتوهم اشتراك المؤمنين معهم في تلك العقوبات.

واستخدم اسم الإشارة للبعيد (أولئك) للتعبير عنهم بتلك القبائح والفضائح، إيذاناً باستحقاقهم ما وصفوا به من صفات مهدت لما سيذكر بعد ذلك، وهو قوله: (شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ)؛ فاستخدم صيغتي التفضيل (شر، وأضل)، فقوله (شر مكانًا) " إذا أريد به الأخرة فالمكان على وجهه: أي المحل إذ محلهم جهنم، وإنْ أريد به في الدنيا فهي استعارة للمكانة والحالة"[3]، ونسب الشر للمكان وهو لأهله مبالغة في الذم، وإثباتُ الشرارة لمكانهم أبلغ في الدلالة على شرارتهم، فكأن شرّهم أثّر في مكانهم أو صار مجسمًا، فاليهود شر كلهم حتى المكان الذي يحملهم نفسه شر، وهذا غاية المبالغة في وصف إنسان أو شيء بالشر، ولئن كان هناك آخرون يشاركون اليهود في الكفر والضلال؛ فإنّ اليهود أضل الناس قاطبة عن طريق الخبر: (وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ).

ومن ثم يتوجه الخطاب للنبي ﷺ مخبرًا عن حقيقة أمرهم فقال تعالى: (وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾) (المائدة:٦١)، فأخبر أنّهم دخلوا وهم كفار، وخرجوا وهم كفار، لم تنفعهم الموعظة ولا نفعهم التذكير، وهذا الخبر ذو إعلاميّة

---

[1] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق،ج٢، ص٢٩١.
[2] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق،ج٢، ص٢٩١.
[3] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٣

عالية جًدا، لكون هؤلاء اليهود منافقين من جهة، ولكونهم لا يفقهون ما يسمعون من جهة أخرى؛ لعدم رغبتهم في ذلك، وهذا من علم الله وحده، وهو غير متوقع لمن يعايشهم، وربما يرى حرصهم على السماع من النبي ﷺ، وأكّد ذلك باستعمال الضمير (هم) في قوله: (وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ)، أي خرجوا بالكفر باختيارهم؛ وليس أنّ النبي ﷺ هو الذي تسبب في بقائهم على الكفر، فكان المناسب أنّهم وإنْ كانوا دخلوا بالكفر ألا يخرجوا به، بل يخرجون مؤمنين بالرسول ظاهرًا وباطنًا، وهذا معنى الدخول والخروج على الحقيقة.

ودخول (قد) في الجملة الحالية الماضوية؛ لتقريب الماضي إلى الحال، " فتكسر سَوْرَةَ استبعاد ما بين الماضي والحال في الجملة، وإلا فـ (قد) إنّما لتقرب إلى حال التكلم"[1]، والباء تفيد الملابسة أي " بقاء الكفر معهم في حالتي الدخول والخروج من غير نقصان ولا تغيير"[2]، ولا أدلّ على دور الحروف في إبراز المقاصد من خلال تغيير دلالة اللفظ الواحدة بسبب تغيير الحرف الواصل به، بل قد يؤدي تغيير الحرف المتعلق باللفظ الواحد إلى النقيض من الدلالة، ذلك أنّ للحروف " معاني تخرج بها عن عملها النحوي وأنّ هذه المعاني لا تكتسب وجودها من الدلالة المعجميّة، وإنّما من السياق الوظيفيّ، فمعنى هذه الحروف هو وظيفتها في آنٍ واحد، فانظر إلى روعة استخدام هذا الحرف ليصوّر حقيقة هؤلاء المنافقين الذين طغى عليهم الكفر فلا يفقهون شيئًا من حديث رسول الله ﷺ، ولم تهتز قلوبهم عند سماع كلام الله ﷻ؛ لذلك قال تعالى مؤكدًا بالقسم: (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ)؛ فهو يخبرهم بكمال علمه؛ بقصد التهديد والوعيد للمنافقين، وكذلك لإخبار المسلمين عن شدة مكرهم، وبيان اجتهادهم في المكر بالمسلمين، والكيد بهم، وبغضهم وعداوتهم لهم.

كما يخبر الله عن جراءة اليهود على الله تعالى ووصفهم إياه بما ليس من صفته فقال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤)، لتوبيخهم، ولتعريف النبي ﷺ بقديم جهلهم، وإنكارهم إحسان الله لهم، ولتأكيد أنّ النبي ﷺ رسول مرسل؛ فهذه الأنباء من خفيِّ علومهم، وأخبارهم التي لا يعلمها إلا أحبارهم وعلماءهم، فلما أخبر عن أفعالهم انتقل إلى بيان سوء معتقدهم.

---

[1] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٨.

[2] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٤١.

ومعنى يد الله مغلولة: وصفه بالبخل في العطاء، لأنّ العرب يجعلون العطاء معبرًا عنه باليد، ويجعلون بسط اليد استعارة للبذل والكرم، ويجعلون ضد البسط استعارة للبخل، فيقولون أمسك يده وقبض يده، ولم يسمع منهم غلّ يده إلا في القرآن كما هنا[١]، فاستعار الغل للبخل، فاشتق منه مغلولة بمعنى بخيلة، أما قوله تعالى: (غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ) فهو دعاء عليهم بغل الأيدي، قد يكون حقيقة في الدنيا بغل الأيدي كأُسارى، وفي الآخرة معذّبين بأغلال جهنم[٢].

وهناك فصل بين قوله: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ) وقوله: (غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ)؛ حيث حذف العطف فلم يقل: فغلت أيديهم، لأنّه " لمّا حذف كان قوله كالكلام المبتدأ به، لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به، وقوة الاعتناء بتقريره"[٣]، وهذا ما أدّاه الفصل في هذا السياق.

وأضاف تعالى: (وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ)، أي لعنهم لأجل قولهم هذا، فالباء هنا سببية، بيّنت سبب اللعن.

واتبع ذلك بقوله: (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ)، وبل حرف عطف يفيد الإضراب، أي: كلا ليس كذلك؛ بل هو في غاية الجود، " فالعلاقة بين المعطوف والمعطوف عليه دلالية، فالتماسك إذن شكلي الأداة، دلالي المضمون، ولا تكتسب أداة العطف معناها إلا من خلال وقوعها في تركيب العطف"[٤]، واستعار البسط للدلالة على الكرم، وقد يكون من المجاز المرسل، لأنّ اليد آلة لكل الأعمال؛ لا سيّما لدفع المال، وإنفاقه، وإمساكه؛ أسند البخل والجود إليها مجازًا؛ إسنادًا للشيء لسببه.

ولم يقل يده، بل أشير بتثنية اليد، " ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدلّ على إثبات غاية السخاء له، ونَفْيِ البخل عنه"[٥]، فالتثنية هنا لزيادة المبالغة في الجود، وكذلك " للتنبيه على منحه تعالى لنعمتي الدنيا والآخرة، وقيل: على إعطائه كرمًا وعلى إعطائه استدراجًا"[٦].

وقوله: (يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ) تأكيدٌ للوصف بالسخاء وبكماله وجوده، و (كَيۡفَ) هنا شرطية، والمعنى " ينفق كما يشاء أنْ ينفق، ويبسط في السماء كيف يشاء أن يبسطه يبسطه"[٧].

---

[١] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٤٩، وانظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٦-٣٧.
[٢] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٦.
[٣] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق،ج١٢، ص٤٤-٤٥.
[٤] الفقي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق**، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٩.
[٥] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦٧.
[٦] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق،ج٢، ص٢٩٥.
[٧] السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج٥، ص٤٧.

فاليهود ينظرون إلى علاقتهم بالله نظرة ماديّة بحتة، لا كما ينظر المخلوق إلى فضل خالقه ونعمه عليه، وهذا التعبير الذي ينقله القرآن عنهم إشارة إلى ذلك، فاتهموا الله سبحانه بالبخل حين لم تتحقق لهم أمانيهم في أنْ تكون كل صلة الله لهم هي النفع المادي الدائم.

ثم يخبر تعالى عما فعل بهم فقال: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ) والإلقاء هنا على سبيل الاستعارة، لأنّ الإلقاء في الأجسام، " والعداوة أخصّ من البغضاء، لأنّ كل عدو يبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، وكأن العداوة شيء مشتهر يكون عنه غلّ وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل"[١].

لكن الله يحمي المسلمين منهم، وعبر عن ذلك بقوله: (كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ) وكلما ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط، فكلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ؛ ردّهم الله تعالى، وقهرهم بتفرق آراءهم، وحلّ عزائمهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وهو تشبيه تمثيلي، شبه حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها بحال من يوقد النار لحاجة لها فتنطفئ، وشبه حال انحلال عزمهم وانهزامهم، وسرعة ارتدادهم عنها، بحال من انطفأت ناره التي أوقدها، والمعنى أنّه لا يتحقق لهم أمر الحرب ولو حاربوا انهزموا، وقد شبهت الحرب بالنار لأنّها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها.

وقد تكون على الحقيقة وليس استعارة، وقد ذكر أبو حيان : " أنّ العرب كانت تتواعد للقتال، وعلامتهم إيقاد نارٍ على جبلٍ أو ربوةٍ، فيتبادرون؛ والجيش يسري ليلاً، فيُوقِد من مرّ بهم ليلاً النارَ؛ فيكون إنذار، أو هذه عادة لنا مع الروم على جزيرة الأندلس، فإذا خرج الكفارُ لحرب المسلمين أوقدَ نارًا، فإذا رآها رئيّة آخر قد أعدّ للمسلمين في قريب من ذلك الجبل أوقد نارًا، وهكذا إلى أن يصل الخبر للمسلمين في أقرب زمان، فيعدّ المسلمون للقائهم، وقيل إذا تراءى الجمعان، وتنازل العسكران، أوقدوا بالليل نارًا مخافة البيات"[٢]، فاستمد أبو حيان من العرف تحديدَ المعنى، وعلى كون النار حقيقة يكون معنى إطفاؤها أنّه ألقى الرعب في قلوبهم؛ فخافوا أنْ يغشوا منازلهم، فلّما تقاعدوا عنهم أطفؤوها، وأضاف الله الإطفاء إليه إضافة المسبب إلى سببه الأصلي.

وفي: (أَوْقَدُواْ نَارًا)، و (أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ) مقابلة، نستشف من خلالها مدى الجهد والمشقة التي لحقت باليهود في محاولاتهم لإشعال نار الفتنة والحرب على الإسلام والمسلمين، وبلا يأس من التكرار، بمقابلة ذلك السهولة واليسر في إطفاء الله لها في كل مرة، وضرب الإطفاء مثلاً لإرغام أنوفهم وخذلانهم في كل موطن، وهي تبشير للرسول ﷺ بأنّهم كلّما حاربوه نصره الله عليهم،

---

[١] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٦.
[٢] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٣٦.

وعبّر عن فعلهم هذا بالسعي، فقال: (وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا)، الذي يعني الانتقال من مكان إلى آخر، لكن القرآن وسّع من دلالته، فصار معناه العمل الجاد الذي يصاحبه التفكير والتخطيط، ولا يتم إلا ببذل الجهد والمعاناة، مقرونة بالعزيمة والثبات على الأمر لحين تحققه[1]، وهذا هو صنيع اليهود إلى الآن للصدّ عن الإسلام، والإفساد في الأرض، وشهرتهم في الغدر واضحة في كل العصور حتى ضُرب بهم المثل.

وفي قوله: (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) وضع المظهر مقام الضمير؛ للتعليل، وبيان كونهم راسخين في الإفساد، وكل ذلك تعريض بذمهم[2].

ثم تلاها ترغيب في الآخرة فقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾)، ثم ترغيب في سعة الرزق وبسط العيش في الدنيا، فقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) (المائدة:٦٦).

وقد أنصف الله الذين آمنو منهم فقال تعالى: (مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ) (المائدة:٦٦)، فليس جميع قوم موسى ﷺ ومن جاء بعدهم حتى زمن عيسى ﷺ كانوا سيئين، فالمراد بقوم موسى هم الذين اتبعوه وليس الذين دعاهم إلى الدين الحق، فمن بني إسرائيل من لم يؤمن، أما الذين بقوا من بني إسرائيل على يهوديّتهم بعد بعثة عيسى ﷺ فلم يؤمنوا به، ولم يتبعوا ما أُنزل عليه من ربه، فليس فيهم حتمًا أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون؛ لأنّهم أخرجوا أنفسهم من قوم موسى بالكفر بعيسى ﷺ، وكذلك الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد بعثته من بني إسرائيل الذين آمنوا بعيسى ﷺ واتبعوه؛ بسبب كفرهم بما يجب عليهم أنْ يؤمنوا به، وبسبب عدم اتباعهم ما أُنزل إليهم من ربهم على رسوله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين[3].

---

[1] انظر: أبو عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم**، مصدر سابق، ص٥٢٩- ٥٣٠.
[2] انظر: أبو السعود، **إرشاد** العقل السليم، مصدر سابق،ج٢، ص٢٩٧.
[3] انظر: الميداني، ابن حبنّكة (٢٠٠٠)، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، ط١، ج٤، ص٦٣٥، دار القلم، دمشق.

ثالثًا: خطاب الله ﷻ للنصارى

ابتدأت السورة حديثها عن النصارى، وبيّنت وموقفهم من مواثيق الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١٤﴾ (المائدة:١٤)، وأتى بقولهم: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ منسوبًا إليهم؛ " توبيخًا لهم، وتنبيهًا على كذبهم في مقالته؛ لاقتضائه نصرة دين الله، وهم لم يفعلوا ذلك"[١]، "وللإيماء إلى أنّهم على دين النصرانية بزعمهم، وليسوا عليها في الحقيقة؛ لعدم عملهم بموجبها، ومخالفتهم لما في الإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ"[٢]، فهو اسم شرعي يقتضي نصر الله ونصر دينه، ولا مشابهة بين قولهم وفعلهم، إذ زعموا ذلك ولم يؤيّدوه بفعلهم، وهو تأكيد الذم بما يشبه المدح، فهو في الحقيقة اسم مدح؛ لكنّه خرج هنا مخرج الذم، وتُعد هذه الإشارة إحالة مقالية داخلية، توضح سبب تسميتهم بهذا الاسم.

وخصّ الله النسيان لواحد وهو مجاز عن الترك فقال: ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا﴾، وإنما خصّ هذا الواحد بالذكر وقد تركوا الكثير مما أمرهم الله به؛ " لأنّ هذا هو المُعظم والمهم"[٣]، وتنكير حظٌّ يدلّ على أنّ المراد به حظ واحد؛ وهو الإيمان بمحمد ﷺ.

ثم تفرّقوا فِرَقًا فقال تعالى فيهم: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ وفي قوله: ﴿أَغۡرَيۡنَا﴾ كناية عن إيقاع العداوة بينهم، والتصاقها بهم، فالإغراء: "حثُّ أحدٍ على فعل وتحسينه إليه حتى لا يتوانى في تحصيله"[٤]، واستعير لتكوين ملازمة العداوة والبغضاء في نفوسهم، أي: لزومها فيما بينهم، فشبّه تكوين العداوة والبغضاء مع استمراها فيهم بإغراء أحدٍ أحدًا آخر بعمل يُعمل.

والعداوة والبغضاء اسمان لمعنيين من جنس الكراهية، وهما ضدان للمحبة، وهما ليسا من الأسماء المترادفة؛ لأنّ العطف يوجب التغاير، بل هما لمجرد التأكيد، فالقرآن ينأى عن الترادف، وفي حال استبدال مفردة بأخرى يحدث التغيير في الظلال والإيحاء، ويظهر التأثير المطلوب لأنّ ثمة بواعث دلالية تدعو إلى تفضيل مفردة على أخرى في حال التقارب بين دلالتها.

---

[١] ابن عرفة، **تفسير ابن عرفة**، مصدر سابق، ج٢، ص١٠١.
[٢] انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص٩٦.
[٣] الرازي، **التفسير الكبير** (مفاتيح الغيب)، مصدر سابق، ج١١، ص١٩٣.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٤٧.

ويرى ابن عاشور أنّ بينهما تضاد، فالعداوة كراهية تصدر عن صاحبها معاملة بجفاء أو قطيعة، والبغضاء هي شدّة البغض غير مصحوبة بعداوة، فهي مضمرة في النفس، ولذلك لا يصح أنْ يجتمع هذين المعنيين في موصوفٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ؛ وإنّما كان إلقاؤهما بينهم على معنى التوزيع، أي أغرينا العداوة بين بعضهم، والبغضاء بين بعضهم الآخر، وهذا من الإيجاز[1].

ثم أخبر تعالى عن عاقبتهم بقوله: (وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)؛ فهو خبر خرج للوعيد والتهديد، وفيه تقرير وتوبيخ لهم لسوء أعمالهم، إذ موجب ما صنعوا إنّما هو الخلود في النار[2].

وقد أخبر تعالى في سياق إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل بأنْ أرسل على هديهم بعيسى ﷺ، فعبّر بالتقارب بين إرسال الرسل بالفعل: (قَفَّيْنَا)، فقال تعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ۝) (المائدة:٤٦)، أي ما جاء به عيسى ﷺ مصدقٌ لما تقدمه مما جاء في التوراة من قبل؛ وفق شريعة موسى ﷺ، وانحصرت شريعة عيسى ﷺ في إحياء أحكام التوراة، وإحياء ما تركوا تطبيقه منها، مع القليل من التخفيف في المحرّمات.

وقد وصف الله الإنجيل بخمس صفات هي: أنّه هدى، ونور، ومصدق لما بين يديه من التوراة، وهدى، وموعظة للمتقين، وكرر الوصف بـ (هدى)؛ لاختلاف المعنى في كل منهما، فالأولى بمعنى أنّه " اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراءة الله عن الصاحبة والولد والمثل والضد وعلى النبوة وعلى المعاد، والثانية لاشتماله على البشارة بمجيء محمد ﷺ؛ فهو سبب لاهتداء الناس إلى نبوته ﷺ، ولوجود المنازعة القائمة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك[3].

كما كرر قوله: (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ)، وذلك لاختلاف صاحب الحال من جهة، ولاختلاف كيفيّة التّصديق من جهة أخرى، فالمرة الأولى كان المسيح هو الذين يصدّق التوراة، وفي المرة الثانية كان الإنجيل هو الذي يصدق التوراة، فتصديق عيسى للتوراة أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديق حقيقي، وتصديق الإنجيل التوراة اشتماله على ما وافق أحكامها، فهو تصديق مجازي، وإنّما جاء الإنجيل ببعض النسخ لما في التوراة لأنّ عيسى ﷺ جاء بالتسهيل لنبي إسرائيل.

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير** والتنوير، مصدر سابق، ج ٦، ص ١٤٧-١٤٨.
[2] انظر: الأندلسي، **البحر** المحيط، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٣.
[3] انظر: الرازي، **التفسير** الكبير **(مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٠-١١.

ثم أمر بذلك وعقّب بالوعيد الشديد لمن خالف حكم ما أنزل الله؛ فقال تعالى: (وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾) (المائدة:٤٧)، فالأمر من خلال لام الأمر، وجزم الفعل المضارع يعني احكموا، وهو أمر تشريع يفيد الوجوب وذلك قبل البعثة، وإن كان بعد البعثة؛ فالإنجيل يدعوهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، وعليهم العمل بما جاء فيه، وفيه الأمر بالدخول في الإسلام واتباع النبي ﷺ، فشريعته ناسخة لجميع الشرائع.

وفي قوله: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ)؛ وعيد للمتمردين الخارجين عن الإيمان، وفيه تأكيد لوجوب الامتثال بالأمر.

١ـ موقف النصارى من عيسى عليه السلام والردّ عليهم

ذكر الله أقوال طوائف النصارى في سياقات أخرى كقوله تعالى: (وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾) (البقرة:١١٦)، فعرض الموضوع بشكل عام ولم يصرّح باسمهم، كما ردّ على ذلك باقتضاب من جانب عقليّ؛ أمّا هنا فقال: (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾) (المائدة:١٧)، وهذا الخطاب للرسول ﷺ، أمره أنْ يعلن للوجود كلّه لا للنصارى وحدهم؛ أنّ الله واحدٌ لا شريك له، له ملك السموات والأرض، ولن يملك أحد من أمره شيئًا إنْ أراد الله إهلاكه؛ وإن كان المسيح الذي ادّعوا ألوهيّته، أو كانت أمه، بل وإن كان جميع أهل الأرض؛ فلن يملك أحدٌ ردّ إرادة الله ﷻ، والله ﷻ "لا يعوّل على التسمية؛ فلا يذكر النصارى هنا باسمهم الخاص بهم، فليست التسمية من موجبات الحكم، وإنّما موجب الحكم هو الوصف، والوصف بيّنة القرآن الحكيم، بقوله: (الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ)"[1]، ولقوة هذه القرينة فقد بدأ الله ذلك بالقَسَم، وذمّهم لضلالهم عن سبل السلام، واحتج الله بذلك لنبيّه ﷺ في فِرْيَتِهِم عليه؛ بادّعائهم له الولد، وكُفرُهم جاء من تغطيتهم الحق في نفي الولد عن الله ﷻ، وادعائهم أنّ المسيح هو الله فريةً وكذبًا.

---

[1] المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، مصدر سابق، ج ١، ص٢٤١.

ووصَفهم باستخدام الموصول وصلته؛ " لأنّ المقصود بيان ما في هذه المقالة من الكفر، لا بيان ما عليه النصارى من الضلال؛ لأنّ ضلالهم حاصل لا محالة؛ إذ كانت هذه المقالة كفرًا"[١].

وعبر عن قولهم باستخدام أسلوب القصر؛ أي أنهم قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم لا غير؛ من خلال تعريف الخبر وهو (المسيح)؛ فالخبر إذا عُرِّف بالألف واللام أفاد القصر مهما كان نوع التعريف فيه عهديًا أو جنسيًا، فإذا جاء معه ضمير الفصل؛ ضاعف تأكيد معنى القصر، وإذا صُدرت الجملة بـ (أنّ) بلغ الكمال في القصر، بل زاد المعنى إلى الاتحاد بواسطة تعريف المسند والمسند إليه، وباستخدام ضمير الفصل، أي إنّ الله هو المسيح هو هو[٢]، فزاد معنى كلامهم على القصر إلى الاتحاد بين ذات الله ﷻ، وذات المسيح عليه السلام، وبهذا التركيب المؤكد بأربعة مؤكدات وهي: (إنّ)، والجملة الاسمية، وتعريف المسند والمسند إليه، واستخدام ضمير الفصل - يُدرك أنّ قائلي هذه العبارة يعتقدون اعتقادًا جازمًا أنّ عيسى عليه السلام هو الله ﷻ، والله ﷻ هو عيسى عليه السلام، وقال المفسرون إنّهم اليعاقبة، سموا أنفسهم باليعقوبية وهم الأرثذوكس في أيامنا هذه[٣].

وقد رَدّ الله عليهم بقوله: (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا)، "والجملة معطوفة على جملة محذوفة والتقدير: قل كذبوا، وقل ليس كما قالوا فمن يملك؟"[٤]، وهذا الحذف عَمِل على تكثيف الدلالة، إذ انتقل من ادّعائهم إلى محاجّتهم بالخطاب، لِيُعْمِلوا فكرهم بما قيل، ثم يصلوا إلى الإجابة الموبِّخة لهم، أي إنْ كان الأمر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئاً، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ، ويفيد النفي كذلك؛ كأنّ نفي الشيء القليل يقتضي نفي الكثير بطريق الأولى، فالمعنى: فمن يقدر على شيء من الله؟ والجواب: لا أحد[٥]، وكل ذلك ظهر من خلال الحذف والاستفهام؛ فللحذف أهمية في اللسان العربي وله جمالياته الأسلوبية والتعبيرية، وأشاد به عبد القاهر الجرجاني بوصفه شكلاً من أشكال التعبير يتكثف من خلاله المضمون الدلالي فصاحةً وبيانًا وفائدةً، فيقول: " هو باب دقيق المسلك، ليطف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنّك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ"[٦].

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٢.
[٢] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٢.
[٣] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٥٧.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٥، وانظر: السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج ٥، ص٢٦٣.
[٥] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٢، السمين الحلبي، **الدر المصون**، مصدر سابق، ج٥، ص٢٦٣، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٤.
[٦] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص١٤٦.

وقد نكّر (شَيْـًٔا) للتقليل والتحقير[١]، وكرر اسم (ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ) وأظهره في مقام الإضمار؛ "لزيادة التقرير والتنصيص على أنّه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته"[٢]، كما أنّ تخصيص أمه بالذكر مع أندراجها ضمن قوله (وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ)؛ " لزيادة تأكيد عجز المسيح ﷺ مع تحقق هلاكها قبل ذلك؛ لتأكيد التبكيت، وزيادة تقرير مضمون الكلام"[٣].

وقد عطف عليهما قوله: (وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ)؛ وهو من "عطف العام على الخاص، ليكونا ذا ذكرٍ مرتين، مرة بالنص عليهما، ومرة بالاندراج في العام؛ وذلك على سبيل التوكيد، والمبالغة في تعلق نفاذ الإرادة فيهما، وليعلم أنّهما من جنس مَن في الأرض، لا تفاوت بينهما في البشرية"[٤]، وهذا تعميم إرادة الإهلاك للجميع؛ وكناية عن حلول الحوادث بالمسيح ﷺ، وبأمّه، والله تعالى مُنَزّه أنْ تحلّ به الحوادث، فأظهر الله المعنى من خلال جملة الشرط؛ وقدّم بها الجزاء على الشرط، والتقدير: إنْ أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعًا، فمن الذي يقدر على أنْ يدفعه عن مراده ومقدوره، فأفصح عن المعنى بأسلوب عجيب من غرائب استعمال الشرط في العربية، وذلك لاستعمال " صيغة الشرط في معنىً حقيقي، ومعنى مجازيّ؛ تغليبًا للمعنى الحقيقي"[٥].

وقد قال تعالى في سورة الفتح (آية:١١): (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝) بزيادة لكم فيها، وحذفه في المائدة، وفي ذلك يقول ابن الزبير الغرناطي: " إنّ في آية المائدة عمومٌ يستدعي الإطلاق وعدم التقييد بالمخاطَبين، وفي سورة الفتح خصوصٌ يستدعي التخصيص، وذلك أنّ الإخبار في سورة المائدة إنّما هو عن النصارى، ثم أعلمَ تعالى بقدرته وقهره للكل، ثم ذكّر سبحانه خَلقَه المقهورين من سكان الأرض؛ فبدأ بالمسيح وأمّه عليهما السلام، ثم قال: (وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ) فعمّم الكلّ، فلم يكن ليناسب هذا العموم أداة خطاب تخصّ، أما آية الفتح، فقبلها إخباره سبحانه عن المتخلّفين في غزوة الحديبية، فورد بخطاب المواجهة (لكم) ليُعلم أنّ الإخبار عنهم، والخطاب بما يعدّ لهم"[٦].

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٤.
[٢] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٢.
[٣] المصدر السابق نفسه.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٥.
[٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٥٥.
[٦] ابن الزبير، **ملاك التأويل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٧-٢٤٨، وانظر: الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٥-٢٤٦.

وأكّد تعالى قدرته على ذلك بقول: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ۝١٧)، وذلك لِيُبَيِّنَ " أنّ المسيح مخلوقٌ ومملوكٌ، وليس بإله، ولا بابن الله، إذ لو كان إلهًا كما زعموا؛ لما كان الله مالكًا لجميع السموات والأرض وما بينهما، ولما تهيّأ إهلاك المسيح، وكان هذا احتجاجًا عليهم خاصة بأنّه مخلوق، وأنّ الله يخلق ما يشاء من أمثاله، بدلالة أنّه قادر على إهلاكه"[1]، والتجاور بين لفظتي السماوات والأرض مظهر من مظاهر الاتساق المعجميّ، وهو ما يُسمى التضام.

وقوله: (يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ) إشارة إلى خلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، وخلق عيسى عليه السلام بلا أب، وخلق حواء بلا أم، وقد مهّد القرآن تمهيدًا بديعًا لذلك؛ إذ بدأ بسورة البقرة التي تحدثت عن خلق آدم عليه السلام، ثم جاءت سورة آل عمران وتحدثت عن خلق عيسى عليه السلام بلا أب، ثم تلاها سورة النساء التي تحدثت عن غلوّ اليهود في كرهه، وتفريطهم في حقه، ومحاولتهم قتله، ومن بعدها سورة المائدة التي تتحدث عن غلوّ النصارى في حبّه، والإفراط في تعظيمه، حتى جعلوه وأمّه إلهين من دون الله، وفيها ردٌّ على من اتخذ المسيح إلهًا وغلا في تعظيمه.

وقد كرر الله تعالى قولهم هذا في قوله: (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ) (المائدة:٧٢)؛ " لتكرير الشهادة عليهم بالكفر، وللإعلام بأنّهم كانوا بمكان من الكفر"[2]، ففي الآية السابقة كان الرد عليهم من الله سبحانه وتعالى أمّا في هذه الآية فجاء الرد عليهم من المسيح عيسى عليه السلام، فخاطب قومه، فقال تعالى: (وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ۝٧٢) (المائدة:٧٢)؛ فخاطبهم ليعيد إلى أذهانهم عقيدة التوحيد، فأمرهم بعبادة الله معلنًا عبوديته لله أولاً، ثم ربوبية الله لهم، وحذّرهم من الشرك، وكلامه هذا فيه ردعٌ عظيمٌ منه عن عبادته، وتعريضٌ بأنّ قولهم قد أوقعهم في الشرك وإنْ كانوا يظنون أنّهم اجتنبوه حذرًا من الوقوع فيه، وقد يكون هذا القول من كلام الله على سبيل التهديد والوعيد[3]، والضمير المقترن بـ (إنّ) ضمير الشأن، يدل على العناية بالخبر الوارد بعده، أما قوله: (وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ)، فإنْ كان من كلام المسيح عليه السلام فهو " زجر لهم عن قولهم الفاسد

---

[1] الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج ١، ص٤٤٧-٤٤٨.
[2] تفسير الشافعي، **تفسير حدائق الروح والريحان**، مصدر سابق، ج ٧، ص٤٤٤.
[3] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٣، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٨٠.

بما ذكر من عدم الناصر والمساعد"[١]، وإنْ كان من كلام الله فهو إخبار بأنّهم " ظلموا وعدلوا عن الحق في أمر عيسى عليه السلام، وتقولهم عليه، فلا ناصر لهم على ذلك"[٢]، وهو بذلك تأكيد لمقالة عيسى عليه السلام وتقرير لمضمونها.

والجمع في (أنصار) لمراعاة المقابلة بالظالمين، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقد ذكره من قبل؛ " لتهويل الأمر وتربية المهابة"[٣].

وكما دعاهم إلى العبودية ونبذ الشرك؛ دعاهم إلى التصديق به، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦). فاحتج لصدق دعوته بأنّه نبيّ، وجاء مصدقًا لما في التوراة، وحجته الثانية تبشيرهم بنبيٍّ آخر يأتي بعده اسمه أحمد، وقد عهد بنو إسرائيل توالي الأنبياء، فخبرٌ كهذا يؤكّد لهم صدق ما جاءهم به، وقد أفرد الله عيسى عليه السلام بالذكر في هذا الموضع؛ " لأنّه آخر نبي قبل نبينا ﷺ، فبين أنّ البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد؛ حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام"[٤].

وعيسى عليه السلام لم يخاطب بني إسرائيل بقوله: يا قومِ؛ كما قال في موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ بل قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ " وذلك أنّ عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم؛ فيكونوا قومه إذ لم يكن له أب"[٥]، وأضاف ابن عاشور بأنّ: " بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام اشتهروا بعنوان (بني إسرائيل)، ولم يطلق عليهم (قوم موسى) إلا في مدّة حياة موسى عليه السلام خاصة، فإنّهم صاروا أمةً وقومًا بسببه وشريعته، فأمّا عيسى عليه السلام فإنّما كان مرسلاً بتأييد شريعة موسى عليه السلام والتذكير بها، وتغيير بعض أحكامها، ولأنّ عيسى عليه السلام حين خاطبهم لم يكونوا قد اتبعوه ولا صدقوه، فلم يكونوا قومًا له خالصين"[٦].

وترى الباحثة أنّ موسى عليه السلام كان أول أنبياء بني إسرائيل، وقد عرفوا بذلك في عهد فرعون إذ جاء على لسانه: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الأعراف:١٠٥)، فكلّما خاطبهم موسى عليه السلام قال متحبّبًا: (يا قومِ)، ليجرّهم إلى الطاعة، وليعلّمهم أنّه إنّما يريد لهم الخير فيما يأمرهم به

---

١ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٥.
٢ الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٤.
٣ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٤
٤ الأندلسي، **البحر المحيط** مصدر سابق، ج ٨، ص٢٥٩.
٥ السيوطي، **معترك الاقران**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣٠.
٦ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢٨، ص١٨٠.

وينهاهم عنه، إذ هم أهله وعشيرته، ولم يعد الأمر كذلك بعد فترة من الزمن، فلم يخاطبهم نبي آخر بـ (يا قومِ)؛ وإنْ كان أقرب عهدًا بهم من عيسى عليه السلام.

وهذه الآية تتحدث كذلك عمّن قالوا بالحلول والاتحاد؛ وهم اليعاقبة أو الأرثدوكس، يقال لهم أصحاب الطبيعة الواحدة، والفرقة الأخرى هم الملكانيّة وهم الذين قالوا بالتثليث، وهم المعروفون الآن باسم الكاثوليك، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: " إنّ الله هو مجموع ثلاثة أشياء، وإنّ المستحق للاسم هو أحد تلك الثلاثة أشياء؛ فقولهم ثالث ثلاثة أي واحد من تلك الثلاثة، فالإله عندهم مجموع ثلاثة أشياء، أرادوا بذلك أنّ الله وعيسى وأمه آلهة ثلاثة؛ ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (المائدة:١١٦)"[١].

وهؤلاء فنّد الله مقالتهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة:٧٣-٧٤)، فاحتوى التركيب على مؤكدات عدة، بدأت بقوله ﴿لَّقَدْ﴾، وتكرير جملة: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾؛ " لقصد تكرير تسجيل كفرهم، وليكون الاسم الموصول مومئًا إلى سبب الحكم المخبر به عنه"[٢] فعُدل عن التعبير عنهم بضميرهم إلى الصلة المقررة لمعنى كفرهم، ثم حصر تعالى إلهيّته في صفة الوحدانية فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فعدل في النفي عن (لا) التبرئِيَّة؛ فلم يقل: (ولا إله إلا إله واحد)؛ " اهتمامًا بإبراز حرف (من) الدال بعد النفي على تحقيق النفي، فإنّ النفي بحرف (لا) ما أفاد نفي الجنس إلا بتقدير حرف (من)، فلما قُصدت زيادة الاهتمام هنا؛ جيء بحرف (ما) النافية، وأظهر بعده حرف (من) "[٣]، التي تفيد الاستغراق، وبهذا ينتفي التثليث المحكي عنه، وثبتت الوحدانية لله، وهذا هو المقصود هنا، إذ متفق على إلهيّته تعالى، لكن المختلف به هو إشراك غيره معه، لذا جاء في آل عمران (٦٢) قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، " إلا أنّ ذكر اسم الله تقدم هنا، وتقدم قول المبطلين: (إنه ثالث ثلاثة)؛ فاستغنى بإثبات الوحدانية عن تعيينه، ولهذا صرّح بتعيين الإله الواحد في سورة آل عمران؛ إذ المقام يقتضي تعيين انحصار الإلهيّة في الله تعالى دون عيسى عليه السلام، ولم يجرِ فيه ذكرٌ لتعدد الآلهة"[٤]. فالسياق

---

١ الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٤.
٢ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٨٤.
٣ المصدر السابق، ج٦، ص٢٨٣.
٤ المصدر السابق نفسه.

في سورة آل عمران بعد آية المباهلة، فلا داعي لذكر فرق النصارى، إذ الأمر مقصور على ألوهيّة الله، وهذا ما دعت إليه الآية، فقال تعالى: (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝) (آل عمران:٦١)، ولذا توعّد الله القائلين بالتثليث بقوله: (إِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، أوعدهم بإصابة العذاب الأليم في الدنيا، وفي الآخرة بالخلود في النار، وقدّم الوعيد على الاستدلال بسمات الحدوث إبلاغًا في الزجر، فلذلك توعد أولاً عليها بالعذاب، ثم أتبع الوعيد بالاستدلال بسمات الحدوث على بطلانها"[1]، وتضمن ذلك أسلوبين: أسلوب قسم، وأسلوب شرط، وأقام الظاهر مقام المضمر، فكان يمكن أنْ يقول: ليسمنّهم " لتكرير الشهادة عليهم بالكفر، وللإعلام بأنّهم كانوا بمكان من الكفر"[2]، ولم يقل ليمسنّ الكافرين، فجعل الفعل في صلة الذين، وهي تقتضي كونها معلومة للسامع، مفروغًا من ثبوتها واستقرارها لهم، وفي قوله: (لَيَمَسَّنَّ) مجاز، فالمس حقيقة وضع اليد على الجسم، واستعمل مجازًا في الإصابة، بجامع الاتصال، فهو دال على مطلق الإصابة من غير تقييد بشدة أو ضعف، وإنما يرجع في الشدة أو الضعف إلى القرينة مثل (أَلِيمٌ).

وجاء بالمضارع في: (عَمَّا يَقُولُونَ) لأنه المناسب للانتهاء في: (إِن لَّمْ يَنتَهُواْ)؛ فالانتهاء يكون عن شيء مستمر، كما ناسب قوله: (قَالُوٓاْ) قوله: (لَّقَدْ كَفَرَ)؛ لأنّ الكفر حصل بقولهم هذا من الماضي[3].

ثم يعقب الله على قول النصارى: (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ)، وقولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ)؛ بقوله: (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)؛ فيحثّهم على التوبة ويحضّهم عليها، فأعقب الوعيد بالترغيب، فخرج الاستفهام عند بعض المفسرين[4] بمعنى الأمر، كأنّه قال: توبوا واستغفروا، وبعضهم الآخر قال: إنّه خرج للتعجب من كونهم لا يتوبون من هذا الجرم، وفصّل أبو السعود ذلك بقوله: " لإنكار الواقع واستبعاده، لا لإنكار الوقوع، وفيه تعجيب من إصرارهم؛

---

[1] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٤.
[2] المصدر السابق نفسه.
[3] انظر: ابن عاشور، **التحرير** والتنوير، مصدر سابق،ج٦، ص٢٨٣- ٢٨٤.
[4] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص٥١، الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٤٥، السمين الحلبي، الدر **المصون**، مصدر سابق، ج ٥، ص٤٢٠.

أي: ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، والأقاويل الباطلة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول، فمدار الإنكار والتعجب عدم الانتهاء وعدم التوبة معًا"[١].

وفي عطف (يَسْتَغْفِرُونَهُۥ) على (يَتُوبُونَ) عطف للخاص على العام، فالتوبة عمل القلب بالندم، والإنابة إلى الله، والاستغفار هو عمل اللسان بطلب المغفرة ومحو معاصي الماضي[٢].

وقد تشابهت هذه الآيات مع آيات أخرى من سورة النساء، وهي قوله تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾) (النساء:١٧١)، فهذه الآية سيقت لردِّ النصارى، وغلوهم في رفع درجة المسيح عن رتبة العبودية، وففيها إحالة مقالية سياقية، إذ رُوي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ لِمَ تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى عليه السلام، قال: وأي شيء قلت؟ قالوا: تقول إنّه عبدالله ورسوله، قال: إنّه ليس بعارٍ أنْ يكون عبد الله، فنزلت هذه الآية[٣]، ونهاهم الله فيها عن الغلو، وأثبت أنّه ولد مريم من غير أب، وأنّه رسول الله ﷺ.

وقد أثبت الله الرسالة لعيسى عليه السلام بصورة الحصر فقال: (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) (المائدة:٧٥)، أي ما المسيح ابن مريم شيءٌ مما تدّعيه النصارى من كونه إلهًا، أوكونه أحد آلهة ثلاثة، بل هو رسولٌ من جنس الرسل الذين خَلَوْا وتقدّموا؛ وأمه صدّيقة؛ وصفها بذلك لنفي أنْ يكون لها وصف أعلى؛ لأنّ المقام مقام إبطال قول الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، إذ جعلوا مريم الأقنوم الثالث، وقد استدل على بشريتهما بإثبات صفة من صفات البشر، وهي أكل الطعام، واختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة لأنّها " واضحة للناس، ولأنّها أثبتتها الأناجيل"[٤]، وهذه الصفة تنبّه على نقص البشريّة وضعفها، فعندما تحتاج إلى الطعام؛ سيؤدي ذلك إلى لواحق أخرى، كناية عن قضاء الحاجة، " وهذا أمرٌ ذوقًا في أفواه مدعي ألوهيّتهما؛ لما في ذلك من

---

١ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٥.
٢ انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦٤.
٣ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٥.
٤ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٨٦.

الدلالة على الاحتياج المنافي للألوهية بشاعة عرفيّة"[١]، فالقرآن يسمو في لفظه ومعناه على ما تجفوه النفوس، ويركز على المضمون وعلى الهدف فقط، وغاية السخرية أنْ يُقال لمدّعي الألوهية للمسيح: تصوّروا أنّ إلهًا يأكل الطعام، ثم يأتي الغائط وسائر ما يأتيه الناس، وهذا بالغ الرد والتهكم بالقائلين، لردهم إلى المنطق السليم والتفكير القويم[٢].

ثم أمر النبي ﷺ بالنظر والتدبّر في ذلك في قوله تعالى: (ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)، وهو يفيد معنى التعجيب، واستعمل اسم الاستفهام كيف، وهي ليست سؤالاً عن حال؛ لكنها عبارة عن حال؛ شأنها أن يُسأل عنها بكيف؛ أي انظر تجد أنه بيانٌ عظيم الجلاء، وفي الآية استعارة مكنيّة للحجة والبرهان، شُبهت بآيات الطريق الدالة على المكان المطلوب[٣].

وقد كرّر الأمر بالنظر؛ لاختلاف المتعلق، فالأول: النظر في كونه تعالى أوضح لهم الآيات وبيّنها فلا يقع معها لبس، والثاني: النظر في كونهم يُصرفون عن سماع الحق وتأمّله، أو في كونهم يَقْلِبُون ما بيّن لهم إلى الضد منه، وهذان أمرا تعجيب، وأنّى بمعنى كيف، عُدل عن إعادتها تفنّنا، ويجوز أنْ تكون بمعنى (أين)، أي التعجيب من أين يتطرق إليهم الصّرف عن الاعتقاد والحق بعد ذلك البيان البالغ غاية الوضوح[٤]، فأمْرُ بيان الآيات بلغ الغاية من الوضوح، وإعراضهم عنها أعجب.

ثم أمر الله رسوله بعد ذلك بتبكيتهم بقوله: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) (المائدة:٧٦)، فأُمِر الرسول أنْ يواجه دُعاة التثليث، ودُعاة الحلول والاتحاد، وبدأت بالاستفهام الإنكاري، من حيث عجزه وعدم اقتداره على دفع ضرّ، وجلب نفع، وإنّ من كان لا يدفع عن نفسه حري ألا يدفع عنكم، فالخطاب للنصارى؛ يناههم عند عبادة عيسى عليه السلام وغيره، وهذا توكيد في المعنى لقوله: (قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ)، ويرى أبو السعود أنّ الاستفهام في قوله: (أَتَعْبُدُونَ) للإنكار، والتوبيخ، ومؤكّد للإلزام والتبكيت[٥]، فالمُنْكَر ليس مجرد العبادة، ولكن عبادة غير الله، وقدّم

---

[١] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٠٩.
[٢] انظر: حنفي، **السخرية في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ص ١٢٧.
[٣] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٨٧.
[٤] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٨٧.
[٥] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٦.

الضرر على النفع لأنّ " التحرز عنه أهم من تحري النفع، ولأنّه أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير "[١].

ولم يُصرِّح الله ﷻ باسم عيسى ﷺ، بل عبّر عنه باستعمال الموصول (ما) التي لغير العاقل على (من) التي للعاقل؛ " ليتناول كل معبود غير الله سواء عيسى ﷺ أو غيره من الأصنام والأوثان، وكذلك لتحقير أي معبود غير الله أمامه ﷻ "[٢]، وذلك لأنّه بمعزل من الألوهية بانتظامه ﷺ في سلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيءٍ أصلا، وإنْ كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه؛ وليس من ذاته.

وآثر المضارع (تَعۡبُدُونَ) على الماضي؛ ليقع الإنكار على عبادتهم لغير الله في الحال والاستقبال معًا، وهو إنكار للواقع لا للوقوع؛ وهي كون العبادة لغير الله.

وجاء تنكير (ضَرًّا) و (نَفۡعًا) للتحقير، أي ولو شيئًا يسيرًا، وبينهما تضامٌّ وتضاد، وذلك ليظهر أنّه لا يمكنهم أنْ يجلبوا النفع ناهيك عن دفع الضر، فبأي شيء استحقوا العبادة؟

ومن ثم أكّد أحقيته تعالى للعبادة بأسلوب القصر فقال: (وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ)؛ بواسطة تعريف الجزأين، وضمير الفصل، وكونها جملة حال باعتبار ما تفيده من مفهوم مخالفة[٣]، وذلك لتحقيق إبطال عبادتهم لعيسى ومريم عليهما السلام، إذ فيها تعريض بما يُعبد من دون الله بأنهم في منزلة الصمّ البكم العمي، فلا يسمعون دعاء، ولا يعلمون احتياجًا، وفيه " تهديد ووعيد على ما يقولونه ويعتقدونه "[٤]، فهو سميع بكفرهم عليم بضمائرهم.

فاستخدم القرآن أساليب متعددة لدحض مزاعم تأليه المسيح ﷺ؛ أولها أسلوب التقرير المباشر من خلال الآيات التي تدل على توحيد الله، وتدحض ما عداه، وهي الآيات (١٧، ٧٣، ٧٥)، حيث ضرب مثلاً لما تحتاجه البشرية من أمور حياتية لا تصلح أن تكون لإله، وكذلك من خلال الحوار الذي عُرض في آخر السورة (١١٦-١١٩)، وكذلك من خلال ترديد اسمه مع اسمه أمه، فقال تعالى: عيسى ابن مريم، أو المسيح ابن مريم، أو المسيح عيسى ابن مريم، ولم يحدث ذلك لغير من الأنبياء، يقول السيوطي في تسميته المسيح عيسى ابن مريم: " ذكره بلقبه ثم اسمه ثم نسبه، ونسبه إليه مع أن الخطاب معها لأنّ الأنبياء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، فأُعلمت

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٦.
[٢] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٦٦.
[٣] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٨٩.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٦.

بنسبته أنّه يولد من غير أب، فلا ينسب إلى أمه، وذكره بمجموع هذه الثلاثة؛ لأنّ الاسم للمسمى علامة؛ يُعرف بها ويتميز، فكأنه قيل: الذي يُعرف به ويتميز عمن سواه مجموع هذه الثلاثة"[١].

٢. موقف الفئة المسلمة:

وهناك فئة من النصارى سمعت دعوة محمد ﷺ؛ فآمنت به لما وجدته من التطابق فيما في الإنجيل، وما جاء به النبي الكريم ﷺ، وتحققت من وصفه ﷺ الذي جاء في الإنجيل، فقال تعالى فيهم: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾)؛ فقد ذكر في أول السورة قوله: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) (المائدة:١٤) ، فما ذكره هنا تنبيهٌ على انقيادهم، وأنّهم لم يكافحوا الأمر بالرد كما فعل اليهود، وما ذكر هناك تنبيهٌ على أنّهم لم يثبتوا على الميثاق، ويصعب تفسير معنى الخطاب دون الإحالة إلى مقام التواصل؛ لمعرفة أبعاد هذا الخطاب من حيث القائل، والمتلقي، والأحوال المحيطة به، والسياق الخارجي له، وهذا النشاط التفاعليّ للغة يبين لنا دلالة الآيات، ويوضح لنا المقصود من النصارى المراد بهم ههنا؟ فقد قيل في سبب نزولها أنّ رسول الله ﷺ بعث بكتاب معه إلى النجاشي؛ فقرأه النجاشي، ثم دعا جعفر بن أبي طالب ﷺ والمهاجرين معه، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر ﷺ أنْ يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع.

وقيل: بعث النجاشي وفدًا إلى رسول الله ﷺ، عليهم ثياب الصّوف، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن، وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ﷺ[٢].

والتنكير في قوله (قِسِّيسِينَ) و(رُهْبَانًا) للتكثير، وهو امتنان من الله بأنْ جعل منهم القسيسين الذين يُعلّمون، والرهبان الذين يُنَفِّذون منطوقات العلم، أي يعبدون الله تطبيقًا للعلم بالله[٣].

فهذه القصة امتزجت بموضوعات السورة التي وردت فيها امتزاجًا عضويًا؛ لا مجال للفصل فيها بينها وبين غيرها من موضوعات السورة؛ بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في أول السورة لاختل المعنى، لأنّ هذه القصة تسهم في بيان مضمون النص، وإيضاحه

---

[١] السيوطي، **قطف الأزهار**، مصدر سابق، ج١، ص٥٩١.

[٢] انظر الواحدي، **أسباب نزول القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص١٣٦ -١٣٧، السيوطي ، **لباب النقول في أسباب النزول**، مصدر سابق، ج١، ص٨٤.

[٣] انظر: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج ٦، ص٣٢٣٧.

للقارئ[1]، وهي قصة قصيرة جدًا مما تميزت به السور المدنية؛ لتتناسب مع أهداف التشريع وأموره التي غلبت على القرآن المدني؛ فأحداث هذه القصة تطلع من آفاق القرون الماضية؛ والأزمان الخالية؛ فتعطي مستمع القرآن أو قارئه إحساسًا خاصًا، إذ تختفي الشخصيات ويتبعها الزمن، فلا نجد سوى أثر ما سمعه أولئك الأشخاص من خلال كلامهم، ومنظر دموعهم؛ " من انفعال البهجة؛ بأنْ حضروا مشهد تصديق عيسى ﷺ فيما بشّر به، وأنْ حضروا الرسول الموعود به؛ ففازوا بالفضيلتين"[2].

وفي اختيار كلمة (تفيض) دون تمتلئ لأنّها أدل على التأثر النفسيّ الذي لا يفي به القول، وأدلّ على عمق الإيمان؛ لأنّ الفيض يعني كثرة التدفق كأنّها معين لا ينضب، واستعار الفيض الذي هو الانصباب، لامتلاء العين حتى تفيض مبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنّها تفيض بأنفسها، لأنّ الفيض أنْ يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، " فأسند الفيض إلى الأعين، وإنْ كان حقيقة للدموع، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، لأنّ الفيض مسبَّب عن الامتلاء؛ فالأصل ترى أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأنّ الفيض على جوانب الإناء ناشئ عن امتلائه"[3]، وهي أبلغ عبارة للتعبير عن حقيقة ما أصابهم، وتصويره أبلغ تصوير، فعبّر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعبر عن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشريّة، ثم ارتقى بالصورة التي رسمها فمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنيّ هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسيّة مجسمة مرئية، أما الحوادث، والمشاهد، والمناظر فيردها شاخصة حاضرة في الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل[4]، فمن أدق ما تتماز به صور القرآن الكريم مقدرتها على إبراز المشاعر النفسية في وضع ظاهر كأننا نراه بأعيننا.

و(مِنَ) في قوله: (مِنَ ٱلدَّمۡعِ) بيانية، و(مِنَ) في قوله: (مِمَّا عَرَفُواْ) تعليلية، أما (مِنَ) في قوله: (مِنَ ٱلۡحَقِّۖ) تبعيضية؛ أي بعض الحق أبكاهم؛ فكيف لو عرفوه كله، فانظر إلى طاقات حروف الجر وقدراتها الأسلوبية على التعبير عن الظلال النفسية للمعاني في السياقات المختلفة.

---

[1] انظر: العمري،عبد الحفيظ أحمد، **مقالات في القصة القرآنية**، ص ٣٧، إصدارات موقع عيون المعرفة، شبكة الإنترنت. knoweyes.blogspot.com/p/blog-page_٢٩.html

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٠.

[3] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٨، وانظر الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج١، ص٦٧٠، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠.

[4] انظر: قطب، سيد (١٩٨٢)، **التصوير الفني في القرآن** ، ط ٧، ص ٣٤، دار الشروق، بيروت – القاهرة.

وقد قال الله على لسانهم في آل عمران قولهم: (رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ) (آل عمران:٥٣)، فآية المائدة متضمّنة في آية آل عمران لوجود الشرط الذي اختُزل في آل عمران، وخرج النداء هنا إلى غرض آخر وهو الدعاء، وقد حذفت أداته؛ فالنداء هو بناء جسر من التواصل بين المخاطِب والمخاطَب، ولمّا كان من الأدنى إلى الأعلى، والأعلى هو الله سبحانه لم يحتمل سوى الدعاء، والدعاء لا يتحقق إلا بالنداء؛ فيكون صوت خافت يمتد ليتحمل المقصد من الدعاء بالغرض المطلوب، وحَذْف الأداة لتوحي بمعنى القرب منه تعالى؛ وقربه أيضًا من عباده.

ثم استأنفوا قولهم: (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ)، فالاستفهام في قولهم: (وَمَا لَنَا) للإنكار والنفي إلى السبب والمسبَّب جميعًا[١]، ومعناه هنا: أيّ شيء يمنعنا من الإيمان بالله، والقرآن يستخدم هذا الأسلوب الاستفهامي في مقامين أحدهما: فِعْل شيء كان ينبغي ألا يكون، والثاني: مقام الظن أو توقع عدم فعل ما من الأفعال[٢]، فأسلوبهم في الإجابة يشير إلى مقاومة خارجية ألجأتهم إلى الاستنكار المتضمن النفي في عدم الإيمان، واستعير الإدخال وهو حسي؛ للجعل وهو معنوي؛ اعتناءً به وتصويرًا له بالإدخال المحسوس رغبة في تأكيد حصوله[٣].

وجاءهم الرد مباشرة بقوله: (فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ) (المائدة:٨٥)، من الإثابة؛ ولم يقل: (فآتاهم) من الإيتاء بمعنى الإعطاء، "والإثابة أبلغ من الإعطاء؛ لأنه يلزم أن يكون عن عمل، بخلاف الإعطاء فإنه لا يلزم أن يكون عن عمل؛ ولذلك جاء أخيرًا: (وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ)؛ نبّه إلى أنّ تلك الإثابة هي جزاء، والجزاء لا يكون إلا عن عمل"[٤].

ثم ذكر الله جزاء المكذبين فقال: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ) (المائدة:٨٦)، أي الذين كفروا من النصارى، وكذبوا بالقرآن هم بضدّ الذين آمنوا قولاً وعملاً، وبينهما مقابلة؛ للجمع بين الترغيب والترهيب.

---

[١] انظر:أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣١٢، الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ١، ص٦٧٠.
[٢] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٦٧.
[٣] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٦٨.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص٦.

ومما زاد الانسجام بين الآيات وموضوعها؛ ما كان متعارفًا بين الناس؛ إذ كان وجود القسيسين والرهبان بينهم سببًا في اقتراب مودّتهم من المؤمنين؛ فقد عُرفوا بحسن أخلاقهم، وتواضعهم، وتسامحهم، يعمّرون الأديرة، والصوامع، والبِيَع، وعرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس، فتعاليم الإنجيل تأمرهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها.

رابعًا: خطاب الله ﷻ لأهل الكتاب

وقد كان الخطاب في السورة موجهًا لأهل الكتاب بصورة مباشرة حينًا، وعن طريق النبي ﷺ حينا آخر، وهذا المصطلح "مما أطلق على اليهود ويشترك معهم فيه النصارى، وقد ورد ذكره في القرآن إحدى وثلاثين مرة، وهم الخارجون عن الملّة الحنيفيّة والشريعة"[1].

ويقول الألوسي: " والتعبير عنهم بعنوان أهليّة الكتاب للتشنيع، فإنّ أهليّة الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام"[2].

١. الخطاب المباشر

وهو خطاب من الله تعالى موجّهٌ إليهم مباشرة كما في قوله تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾) (المائدة:١٥-١٦)، وقوله: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾) (المائدة:١٩).

فالخطاب هنا لليهود والنصارى معا على طريق الالتفات؛ يراد به الوعظ لكلا الفريقين، يتضمن الترغيب في الإيمان، فالتعريف في (الكتاب) يراد به الجنس، بمعنى الكتب، وبالتالي يشمل التوراة والإنجيل؛ لأنّ كلا منهما أنزل على فريق منهما، وقد تكررَ قوله تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ)؛ وتتضمن طلب تجديد الإيمان، وهذا " لأنّ الأولى نزلت في اليهود حينما كتموا صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، وفي النصارى حين كتموا بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ في الإنجيل؛ وهو قوله: (يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) (المائدة:١٥)، ثم قال: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ) (المائدة:١٨)؛ فكرر (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ) أي شرائعكم؛ فإنّكم على ضلال لا يرضاه الله؛ (عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ) (المائدة:١٩)؛

[1] الشهرستاني، **الملل والنحل**، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٧.
[2] الألوسي، روح **المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص٩٧.

أي على انقطاع منهم ودروسٍ ما جاءوا به"[١]، ولذا فإنّ محمدًا ﷺ جاء لِيصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وتحريف، ولِيَهْدِيَ الأمم القادمة إلى طريق دين الله ﷻ الذي أتمه بمحمد ﷺ، فالآية الأولى جاءت بعد الحديث عن أخذ الميثاق على اليهود والنصارى، ونقض كل فريق ميثاقهم، والآية الثانية جاءت بعد ادّعاء اليهود والنصارى بُنُوّتهم لله، وحبه لهم؛ فلا يعذبهم بذنوبهم؛ فنسوا الشرائع، واستهانوا بالمعاصي، فردّ الله عليهم بأنّ الرسول ﷺ سيخبرهم بشرع الله ﷻ، وأنّه تعالى محاسبهم على أفعالهم. وقد أكد هذا الخبر بقد، فقال: (قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا)، والضمير في: (رَسُولُنَا) يعود إلى الله تعالى، وذلك الإسناد ليدل على صدق نبوته ﷺ.

وقد ذُكر الرسول ﷺ بوصف مجيئه على فترة من الرسل؛ " ليذكّرهم بأنّ كتبهم مُصرّحة بمجيء رسولٍ عقب رسلهم، وذِكْرُ الرسول هناك بوصف تبيينه ما يخفونه من الكتاب؛ لأنّ ما ذُكِرَ قبل الموعظة هنا قد دلّ مساواة الرسل في البشرية، ومساواة الأمم في الحاجة إلى الرسالة، وما يخفون عِلْمَه عن الناس لما فيه من مساويهم وسوء سمعتهم"[٢].

كما آثر الجملة الفعلية (يُبَيِّنُ لَكُمْ)؛ " للدلالة على تجدد البيان"[٣]، وحذف مفعول (يبين)، وهو من أجمل مواطن الحذف؛ لأنّه أعمّ فائدة[٤]، وقد حسُن حذفه لتقدّم ذكره، وهو قوله: (ما تخفون).

وقد جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله: (جَآءَكُمْ ، يُبَيِّنُ لَكُمْ)؛ " للدلالة على استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي يبيّن لكم كثيرًا من الذي تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذي أنتم أهله والمتمسكون به"[٥]، فقوله: (يبين) بمعنى الإظهار، و(يعفو) بمعنى الستر، وبينهم طباق؛ أظهر تعالى من خلاله أنّ إظهار ما في التوراة أو إخفائه ليس من شأنهم؛ وإنْ فعلوا ذلك على سبيل تغيير شرع الله؛ فإنّ الله يفعله لما تقتضيه طبيعة التشريع الإسلامي، وهو ما انتهى به كل تشريع.

ثم كرّر (قد جاءكم) ليتحدث عن القرآن؛ لبيان أنّ فائدة مجيء الرسول ﷺ ليس منحصرة فيما بيان ما كانوا يخفونه، بل له منافع لا تحصى[٦]، والمجيء مستعار لأمر الرسول بتبليغ الدين.

---

[١] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق،ص ٤٤.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق،ج ٦، ص١٥٨.
[٣] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥.
[٤] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٩٩.
[٥] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق،ج ٢، ص٢٥١.
[٦] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥١.

وفي هذه الآية ما يسمى: اللف والنشر في البلاغة، " فـ (نُورٌ) راجع لقوله: (يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ)، وقوله: (وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ) راجع لقوله: (وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ)؛ لأنّ النور كاشف لما وراءه، فكشف باعتبار معناه، وباعتبار محله، وكونه في كتبهم وأخفوه، وكونه كتابًا مبينًا إشارة إلى استبانة معناه فقط"[١]، فالله تعالى ينقلنا من النور الحي إلى النور المعنوي، فالنور الحي يبدد ظلم الطريق، والنور المعنوي يهدي إلى سواء السبيل؛ ففي قوله: (جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ) استعارة مكنية، حيث شبه النور بإنسان يهدي الناس إلى الخير بجامع الهداية في كلٍّ منهما، وحذف المشبه به؛ ورمز إليه بشيء من لوازمه وخصائصه وهو المجيء.

وإيثار الحرف (على) بمعنى (بَعْد)، للاستعلاء المجازي، " لأنّ المستعلي يستقر بعد استقرار ما يستعلى هو فوقه، فشبه استقراره بعده باستعلائه عليه، فاستعير له الحرف الدال على الاستعلاء"[٢]

وفي قوله: (أن تقولوا) تعليلٌ لمجيء الرّسل؛ وهو " قطع معذرة أهل الكتاب عند مؤاخذتهم في الآخرة، أو تقريعهم في الدنيا على ما غيّروا من شرائعهم؛ لئلا يكون من معاذيرهم أنّهم اعتادوا تعاقب الرسل؛ لإرشادهم، وتجديد الديانة"[٣]، وهذه العلاقة التعليليّة من أبرز علاقات الانسجام في النص.

والضمير في قوله: (يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ) يعود إلى الرسول أو إلى الكتاب المبين، " وتوحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات، أو لكونهما في حكم الواحد، أو أريد يهدي بما ذكر"[٤].

وقد كرّر تعالى الفعل المضارع (يَهْدِى) في قوله: (يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ)، و (يَهْدِيهِمْ)، وجمع بينهما بالعطف، فالهداية الثانية إلى الصراط المستقيم هي نفس الهداية إلى سبل السلام، " وإنما عطفت عليها تنزيلاً للتغاير الوصفيّ منزلة التغاير الذاتيّ"[٥].

وهذه الآية غنيّة بالاستعارات، ففي قوله: (سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ) استعارة لطرق الحق، وقوله: (وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ)؛ استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان، وبينهما طباق ظهر من خلاله تصوير تراكم الظلام وشدة حلكته، فبرزت المعاني المعقولة بصورة حسية؛ بتصوير الواقع الذي تعيشه كل فئة منها مما زاد المعنى إشراقًا وجمالاً.

---

١ ابن عرفة، **تفسير ابن عرفة**، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٢.
٢ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٥٨.
٣ المصدر السابق، ج ٦، ص١٥٩.
٤ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥١.
٥ المصدر السابق، ج ٢، ص٢٥٢.

وجاء لفظ الظلمات بالجمع، والنور بالإفراد؛ وذلك لما يعطيه الجمع من إيحاء عجيب، وتصوير دقيق لواقع من يتخبط في ظلمات الكفر والشرك، إذ يعيش في ظلام دامس، ويتخبط في الشهوات ويتعثر في الملذّات، كلّما خرج من ظلمة دخل بغيرها فلا يصل إلى غايته[١]، أما النور فجاءت مفردة لتعبر عن الواقع الذي يعيشه المهتدون، فنور الإيمان يكشف لهم الطريق، وتبين لهم الدرب ليسلكوه، فبسيرون على بيّنة ووضوح، لأنّ غايتهم واحدة مهما تعددت المسالك، فيصلون إلى مرادهم[٢].

وفيهما إشارة إلى نهاية كل فريق ومنزلته في الآخرة، فمن سار في الطريق الصحيح بنور من الله سيصل به إلى الجنة، ومن تخبط في الظلمات ستقوده إلى النار، وفي هذه الاستعارة التصريحية ترغيب في الإيمان، وترهيب من الكفر، وظهر ذلك من خلال التضاد الحاصل بين واقع الكفر وسالكه، وواقع الإيمان وجزاء المؤمنين.

وقوله: (صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) مستعار للإيمان، وهناك فرق بين الصراط والسبيل، فالصراط هو أوسع الطرق، وهو الطريق المستقيم ولا يأتي إلا مفردًا، أما السبيل فهو الطريق، ويأتي مفردًا ويأتي جمعًا وقد يكون للخير، كما في قوله تعالى: (يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ) (المائدة:١٦)، ويأتي للشر كقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) (الأنعام:١٥٣)، فاستعيرت لفظة (الصراط) المفردة للدين الحق؛ وهو الإسلام، وهو الطريق الوحيد المؤدي إلى الله تعالى، وتوحي هذه اللفظة بطبيعة الدين الذي لا يزيغ صاحبه ولا يضل إنْ وصل إليه؛ وذلك بعدة طرق؛ عبر عنها في الآية بلفظ (السبل)؛ وهي وسائل كثيرة ومتنوعة، يؤدي أيّ منها للوصول إلى الله ﷻ.

كما أخبر تعالى عنهم كاشفًا فضائحهم في عدة مواضع، فقال: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾) (المائدة:١٨).

ومن أبرز ما ادّعوه أنّهم أبناء الله وأحباؤه فقالوا: (نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ)، وفي الكلام لفٌّ وإيجاز، يُحال المستمع على تفريقه بذهنه، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع اليهود

---

[١] انظر: شيخون، محمود السيد(١٣٩٨هـ) **الإعجاز في نظم القرآن**، ط١،ص١٠٤، مكتبة الكليات الأزهرية.
[٢] انظر: العمار، عبد العزيز بن صالح(٢٠٠٧)، **التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن**، ط١، ص٧٠، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

والنصارى يقولون عن جميعهم: (نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ)، وليس الأمر كذلك، بل كل فرقة تقول خاصة: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ إذ هما فرقتان متعاديتان؛ فللآيات إحالة قبليّة في سورة البقرة تبين موقف كل من اليهود والنصارى بعضهم من بعض، فقال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ) (البقرة:١١٣)، والبُنُوّةُ هي بُنوة الحنان والرأفة، فمصطلح (ابن الله) " يستعمل في كتب القوم بمعنى حبيب الله، الذي يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم، فعطف أحباء الله على أبناء الله للتفسير والإيضاح، وإنّما تحكّم النصارى بهذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقي بالنسبة للمسيح، وبالمعنى المجازي بالنسبة إلى غيره من الصالحين"[١].

وردّ الله عليهم مكذبًا لهم: (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ)، فكلامهم يعني أنّهم فوق البشر، ولا يعني أنّهم ليسوا بشرًا، فما يجري على أيديهم من المعاصي وإيذاء الآخرين لا بأس به عندهم لمنزلتهم من الله، وعلى هذا يكون قوله تعالى: (بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ) إضراب، أي أنتم مساوون لغيركم في منزلتهم البشرية من وقوع العذاب والمغفرة عليهم في الدنيا والآخرة.

وجاءت الفاصلة بقوله: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ)، وقد تكررت مثل هذه الآية، فقد جاء قبلها قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة:١٧)، حيث كان الحديث عن الخلق، إذ ذكر خلق عيسى ﷺ بلا أب، ولذلك جاءت نهاية الفاصلة: (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)، أما في هذه الآية التي نفت محبة الله لبني إسرائيل وذكرت إمكانية تعذيبهم في الدنيا والآخرة، وأنّه سبحانه وتعالى يجازي كلاً بما عمل؛ ناسب أنْ تكون الفاصلة: (وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ).

وأخبر سبحانه وتعالى بما وصل إليه الأمر بين هاتين الفئتين وأنبيائهم وقال: (لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا

[١] رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج ٦، ص٣١٤.

ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾) (المائدة:٧٨-٨١)، فأنبياؤهم أول من صبّ اللعنات عليهم؛ وقيل: " الذين لُعنوا على لسان داود ﷺ الذين اعتدوا في السبت، والذين لعنوا على لسان عيسى ابن مريم الذين كفروا من أهل المائدة، وعليه فلعن الأوّلين مسخهم قردة؛ بيّنه تعالى بقوله: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ) (البقرة:٦٥)، ولَعْنُ الآخرين هو المذكور في قوله: (فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ) (المائدة:١١٥)، وذكر غير واحد أنّه مسخهم خنازير"[١].

و(على) هنا للاستعلاء المجازي المستعمل في تمكّن الملابسة، ولم يقل بلسان داود وعيسى عليهما السلام، قُصد منها المبالغة في الملابسة؛ أي بكلامهم الملابس للسانهم[٢]، وأفرد اللسان ولم يقل على لساني داود وعيسى عليهما السلام، ولا على ألسنة داود وعيسى عليهما السلام؛ " فلو كان المُنْضَمّان غير متفرقين؛ اختير لفظ الجمع على لفظ التثنية، وعلى الإفراد"[٣]؛ لكن لتفرقهما وطول العهد بينهما اختير اللفظ المفرد، فإن ما بين داود وعيسى عليهما السلام أكثر من ألف سنة.

وعدل عن المصدرين إلى الفعلين مع (ما) المصدرية؛ ليفيد الفعلان (عصوا)، و(يعتدون) معنى تجدد العصيان، واستمرار الاعتداء منهم، وتفيد صيغة المضيّ أنّ ذلك أمر قديم فيهم، وتفيد صيغة المضارع أنّه متكرر الحدوث، فعبر عن العصيان بالماضي؛ لأنّه تقرر فلم يقبل الزيادة، وعبّر عن الاعتداء بالمضارع لأنّه مستمر؛ إذ اعتدوا على محمد ﷺ بالتكذيب والمنافقة ومحاولة الفتك والكيد[٤]، فالوصف الأول يبيّن صلتهم بالله، والوصف الثاني يبين صلتهم بالناس.

وكانوا يتجاهرون بالمعاصي ولا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر، فقال تعالى: (كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ)؛ وجاءت صيغة (يَتَنَاهَوْنَ) على (تفاعل) التي هي بمعنى الاشتراك، لأنّهم " جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به، وعدم النهي عنه[٥]، وقيل: التفاعل بمعنى الافتعال أي: التناهي بمعنى الانتهاء، تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع عنه وتركه[٦]؛ فعلى التقدير الأوّل: تفيد استمرار انتفاء النهي عن المنكر؛ لعدم وجود من يتولاه، وبالتالي استمرار فعل المنكر، وهذا مصداق لقوله تعالى: (لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ) (المائدة:٦٣)،

---

١ الشنقيطي، محمد الأمين (د. ت)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، د. ط، ج ٢، ص٩١، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد.
٢ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٩٢.
٣ الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٨.
٤ المصدر السابق، ج ٦، ص٢٩٣.
٥ انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤٨.
٦ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٨.

أي لم يكونوا لينهونهم، وعلى التقدير الثاني: تكون الجملة مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء، ومفيدة لاستمرارهما، ورجح ابن عاشور الرأي الأول فقال: " وأطلق التناهي بصيغة المفاعلة على نهي بعضهم بعضًا باعتبار مجموع الأمة، وأنّ ناهيَ فاعل المنكر منهم هو بصدد أنْ ينهاه المنهي عندما يرتكب هو منكرًا، فيحصل بذلك التناهي، فالمفاعلة مقدرة وليست حقيقية، والقرينة عموم الضمير في قوله (فعلوه) فإنّ المنكر إنّما يفعله بعضهم، ويسكت عنه البعض الآخر"[١].

وتنكير قوله: (مُّنكَرٍ) يفيد العموم، منكر فعلوه أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، ووصفه بقوله (فَعَلُوهُ)، ولا يكون النهي بعد الفعل، وذلك لشدة تأصله فيهم، ثم ذمّهم الله مؤكدًا قبيح فعلهم بقوله (لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ)، واللام هناك لام القسم، لتأكيد التعجيب، أو لفعل المتعجب منه، وفي هذه الآية زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢].

ثم يذكر شيئًا آخر من سوء أفعالهم ويذمهم عليها؛ وهو تَوَلّيهم الكافرين من دون المؤمنين، فقال تعالى: (تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)، والفعل (تَرَىٰ) يحتمل الرؤية البصريّة والقلبيّة، فإذا كانت الرؤية بصريّة فالضمير في: (منهم) يعود على بني إسرائيل المنافقين، أما إذا كانت قلبيّة، فيكون المقصود أسلاف اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، والراجح قول الرازي أنّهم المعاصرون، إذ قد تقدم وصف أسلافهم قبل ذلك، وظهر للمسلمين كيف أنّ اليهود تولوا المشركين[٣]،فالمخصوص بالذمّ هو قوله: (أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ)، وكذلك (وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ)؛ أي سَخَطُ الله وعذابه ممّا يُذَمّون به، ويفيد هذا الذمّ أنّ الله قد غضب عليهم غضبًا خاصًا لموالاتهم الذين كفروا، وذلك غير مصرّح به في الكلام فهذا من إيجاز الحذف، وفي هذه الآية إحالة إلى سابق هو قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝) (النساء:٥١)، ثم ردّ الله على دعواهم الإيمان بالله، وبموسى عليه السلام بأنّهم لو كانوا كذلك ما اتخذوهم أولياء، لأنّ التوراة تنهى عن ذلك، وهذا يعني نفي الإيمان عنهم، فقال تعالى: (وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ)، فالنبيّ هنا موسى عليه السلام لأنّهم أصلاً لا يؤمنون بمحمدٍ ﷺ، وتخصيص الكثير منهم

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٩٤.
[٢] انظر: الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٦، ص٢١٢.
[٣] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص٦٩.

بالفسق إذ منهم قليل قد آمن[1]، وهذا براعة في دقة الوصف.

ثم أخبر تعالى عن موقف الطائفتين اليهود والنصارى من ناحية العداء للمسلمين فقال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝) (المائدة:٨٢-٨٤)، فالآيات تخبر عما تُكِنُّه ضمائر الفريقين للمسلمين، وأُكِّدت بالتوكيد القسميّ وبنون التوكيد؛ لبيان تحقّق مضمونها في قوله: (لَتَجِدَنَّ).

وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدّمهم عليهم في العداوة، ومناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين بغض الإسلام، فاليهود للحسد على مجيء النبوة من غيرهم، والمشركون للحسد على أن سبقهم المسلمون بالاهتداء إلى الدين الحق ونبذ الباطل[2].

أما النصارى فالآية خاصة فيمن جاء مسلمًا منهم إلى النبي ﷺ، قال البغوي: " لم يُرد جميع النصارى، لأنهم في عدواتهم للمسلمين كاليهود في قتلهم للمسلمين، وأسرهم وتخريب بلادهم، وهدم مساجدهم، وإحراق مصاحفهم، لا ولاء ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل: النجاشي وأصحابه"[3]، فالصالحون من أهل الكتاب الذين عرفوا صفات النبي ﷺ كما هو عندهم في التوراة والإنجيل؛ آمنوا به وأوفوا بميثاقهم مع الله في اتباعه ونصرته.

٢. الخطاب غير المباشر:

جاء الخطاب عن طريق الرسول ﷺ من خلال فعل الأمر (قل)؛ وذلك في عدة مواضع، فقوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝) (المائدة: ٥٩-٦٠)؛ خاصة في اليهود، وجاءت في سياق نهي المؤمنين عن موالاتهم، إذ كانوا يتخذون من الدين هزوًا ولعبًا،

---

[1] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٥٠.
[2] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣١١، ابن عاشور، **التحرير**، مصدر سابق، ج ٧، ص٦.
[3] البغوي، **تفسير البغوي**، مصدر سابق، ج٣، ص ٨٥.

ومن هنا جاء الرد عليهم لسوء صنيعهم، ومحاولتهم صدّ المسلمين عن دينهم، وهنا استخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجبا للإنكار.

أما قوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾) (المائدة:٦٨)؛ فقد جاءت في سياق أمر الرسول ﷺ تبليغ الدعوة إلى الناس، فالخِطاب للنبي ﷺ؛ يأمره أنْ يقول ذلك لأهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، ويأمرهم بإقامة التوراة والإنجيل، وكذلك القرآن المنزل عليه ﷺ على سبيل الوجوب؛ " فجمع الضمير؛ والمقصود به التفصيل، أي حتى يقيم أهل التوراةِ التوراةَ، وأهل الإنجيل الإنجيلَ "[١]، وقدّم إقامة الكتابين، التوراةِ والإنجيلِ على إقامة القرآن لرعاية حق الشهادة، فما جاء في كل منها دعوة إلى الإيمان بالنبي واتباعه، ومنها الإيمان بالقرآن.

والتنكير في قوله: (عَلَىٰ شَىْءٍ) للتحقير والتصغير[٢]، وكانت المفاجأة هنا بإخبار النبي ﷺ عن موقف هؤلاء من دعوتهم إلى الإيمان فقال تعالى مؤكدًا: (وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا) وقد تكرّرت للتأكيد، وقد قال تعالى قبل ذلك: (مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ)، وهنا (مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)؛ فنسب الإنزال هنا إلى النبي ﷺ مع نسبته فيما سبق إليهم؛ " للإنباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة"[٣] ومن ثم جاء ينهاه عن الحزن عليهم، وهذه تسلية للنبي ﷺ ونهي عن التَعرض للحُزْن.

وفي قوله تعالى: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) وصفهم بالكفر، بينما قال في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) (المائدة: ٢٦)، فوصفهم مرة بالكفر ومرة بالفسق، وذلك لأنّ قوله تعالى: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) خطاب لموسى عليه السلام، قالها في قومه الذين نكلوا عن قتال الجبارين، وقالوا: (يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا...)، وقوم موسى عليه السلام ليسوا بكافرين وإنّما هم فاسقون؛ لمخالفة أمر الله في القتال، ثم إنّ هذا الوصف مجانس لما وصفهم به موسى عليه السلام بقوله: (فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ)

---

[١] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٤١.
[٢] انظر: الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٧٢.
[٣] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٠٠.

(المائدة:٢٥)، أما الآية الثانية: فهي خطاب لرسوله محمد ﷺ بخصوص أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا به؛ وهؤلاء كافرون لأنّهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، وذكر تعالى أنّه سيزيدهم ما أنزل إليه طغيانًا وكفرًا فقال فيهم: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)[1].

وقد نهاهم الله بطريق الالتفات فقال: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾) (المائدة:٧٧)، والمراد من النّهي في الآية لكل فرقة منهم؛ وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة الرسالة، حيث عظّموه، وجعلوه إلهًا أو ابن إله، ونَهيٌ عن رفع أمه عن رتبه الصديقة، فجعلوها أمًّا للإله، بينما النهي لليهود عن وضعهم لعيسى عليه السلام وأمه؛ وما تقوّلوه عليهما من الكلام الشنيع، فجعلوه مولودًا من الزنا، وبغضوه، وكفروا به، ولهذه الآية إحالة إلى سابق وهو قوله تعالى: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾) (النساء:١٧١)، فالله تعالى حكى مبالغة اليهود في الطعن في المسيح عليه السلام، ومبالغة النصارى في تعظيمه، وكلاهما على خطأ.

وقد نهاهم الله تعالى عن اتباع الضّالين المضلّين؛ وهم أسلاف اليهود والنصارى؛ ضلّوا أنفسهم، وأضلّواغيرهم ،ووصفهم بثلاث درجات في الضلال، فبيّن أنّهم كانوا ضالين من قبل، ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنّهم استمروا على تلك الحالة حتى أنّهم الآن ضالون كما كانوا؛ فتكرار (ضَلُّواْ) للتأكيد[2]، وقد بيّن تعالى انتشار الضلال وتفشيه في المجتمعين اليهودي والنصراني من خلال جناس المماثلة الوارد في قوله: (قد ضلّوا) و (أضلّوا) ، (وضلّوا)، فتكرار هذه الأصوات يوحي بتفشي الضلال فيهم وفيمن حولهم، وما ضلوا عنه هو السّبيل السّوي الذي هو وسط الدين، وهو خيره.

وحثهم الله على اتباع الرسول ﷺ، والإيمان به، وبما أُنزل إليه، وذكر أنّ ذلك سبيل تغيير حالهم إلى الأفضل في الدنيا والآخرة؛ فقال: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ

[1] انظر: السامرائي، فاضل،**أسئلة بيانية في القرآن الكريم**، ط١، ص٥٣-٥٤، ٢٠٠٨، مكتبة الصحابة- الإمارات- الشارقة- مكتبة التابعين- القاهرة.
[2] المصدر السابق نفسه.

وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ (المائدة:٦٥-٦٦)، وهم كلا الفريقين من اليهود والنصارى، المعاصرين للنبي ﷺ؛ حثهم على الإيمان والتقوى بطريق التعريض، وذلك باستخدام الشرط بـ (لو)، وجاءت الآيتان في سياق ذمِّهم، وبيان قبائح صنائعهم، وفيه إعلام بِعِظَم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم، كما أنّ فيه دلالة على سعة رحمة الله تعالى، ورتب على الإيمان والتقوى شيئين عظيمَيْن هما تكفير السيئات، ودخول الجنات، وقابل الإيمان بتكفير السيئات، وترتب على التقوى وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي دخول الجنات[١]، وجاء ذلك مقترنًا بلام التوكيد المكررة في كل مرة؛ لتأكيد الوعد.

وجاءت (السيئات) جمع قلة؛ " إما باعتبار الأنواع، وإما باعتبار أنّه وإن كثرت قليلة بالنسبة إلى كرم الله تعالى"[٢]، ومن ثم قابل الآية السابقة بقوله: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ...)، وذلك لأنّه رغّبهم في الآية قبل في موعود الآخرة من تكفير السيئات وإدخال الجنات؛ رغبهم في هذه الآية في موعود الدنيا؛ وهو سعة الرزق، ليجمع لهم خيري الدنيا والآخرة[٣]، وقدم موعود الآخرة بالرغم من أنّ اليهود يهمُّهم أمر الدنيا، لأنّ الأصل أنْ يكون إيمان المرء وعمله الصالح ابتغاء مرضاة الله ودخول الجنة، وتقديم موعود الآخرة للأهمية؛ " لأنّه هو الدائم الباقي، والذي به النجاة السرمديّة، والنعيم الذي لا ينقضي"[٤]، والمراد من ذلك المبالغة في سعة الرزق وزيادة البركة.

وإقامة التوراة إظهار أحكامها، وكذلك الإنجيل، ويشمل ذلك ما فيهما من التبشير بمحمد ﷺ، ووجوب اتباعه، والدخول في دينه، واستعيرت الإقامة لعدم الإضاعة؛ لأنّ الشيء المُضاع يكون مُلقى، ولأنّ الإنسان في حالة قيامه يكون أقدر على الأشياء[٥]، والإضافة إلى كلمة (رب) من أجل "اللطف بهم في الدعوة إلى إقامة الدين"[٦].

وعبّر عنهم بقوله: (سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ)، وفيه معنى التعجب؛ كأنّه قيل: ما أسوأ عملهم؛ أي من العناد والمكابرة والإعراض عن الحق وتحريفه ومعاداة أهله، ويرى ابن عاشور أن: (مَا يَعْمَلُونَ) مخصوص بالذم، والذي دعاه إلى ذلك أنّه رأى حمله على معنى إنشاء الذم أبلغ في ذمهم، أي يقول ذلك فيهم كل قائل[٧].

---

[١] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣٧.
[٢] الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٨٤.
[٣] الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج ٣، ص٥٣٧.
[٤] المصدر السابق نفسه.
[٥] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٥٣.
[٦] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٩٧.
[٧] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص٢٥٥.

والاقتصاد مصطلح قرآني يعني الحذر من الذنوب، " واختير المتقصد؛ لأنّ المطيعين قبل الإسلام كانوا غير بالغين غاية الطاعة"[1]، ويقابله الإسراف، ونلاحظ أنّ هاتين الآيتين احتوتا على الحث والتحضيض الشديدين على الإيمان الذي جاء به النبي محمد ﷺ، مع الوعد المؤكد بخيري الدنيا والآخرة، وقد كان يسبقهما الذمّ الشديد لليهود، وكشف فضائحهم، وتَقَوُّلِهم على الله ﷻ، ومن المتوقع أنْ يأتي الترهيب الشديد، والوعيد بالعذاب اللامحدود لما قالوه وما فعلوه، ومن هنا نلاحظ قوة الإعلامية ومفاجأتها لهذا الصنيع القائم لدى اليهود؛ من خلال دعوتهم بكل لُطف إلى ترك ما سبق من المنكر، والبدء بحياة دينية جديدة، مع الوعد بتكفير سيئات ما سبق، حتى لا يبقى عائق يمنع من الإيمان، والدخول في الإسلام.

---

[1] المصدر السابق، ج٦، ص٢٥٤.

المبحث الثالث: خطاب الأقوام

١. خطاب الأقوام لأنبيائهم:

أولا: خطاب المؤمنين مع النبي ﷺ:

ورد الخطاب من المؤمنين للنبي ﷺ في قوله تعالى: (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (المائدة:٤)، في سياق السؤال عما أحله الله لهم من الطيبات؛ حيث أمر الرسول ﷺ بقتل الكلاب، فسأله بعض الصحابه عما أحله الله منها، فنزلت الآية.

واستعمال صيغة المضارع (يسألونك)؛ له مغزيان بلاغيان: **الأول :** عام في كل مضارع، وهو استحضار صورة الحدث – السؤال– في الذهن، وكأنه يجري الآن : أي وقت نزول هذه الآية، **والثاني:** الدلالة على أنهم كانوا يلحون عليه في السؤال؛ تحصيلاً للعلم بما يجهلونه من آداب الإنفاق وضوابطه[1].

وورد الاستفهام في القرآن الكريم على أصل معناه : وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، وأجيب عنه بـ (قل) وفعل الأمر (قل) في النظم القرآني الحكيم يؤذن بأهمية المقول.

ثانيًا: خطاب النصارى مع النبي ﷺ

ومنه خطاب النصارى الذين جاءوا إلى النبي ﷺ مسلمين، فقال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ۝ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ) (المائدة: ٨٣- ٨٤)، والظاهر من الآيات أنهم خاطبوا الرسول ﷺ بعد أنْ تلا عليهم القرآن، حيث تظهر مشاعرهم النفسيّة من خلال الآيات، فهذه حادثة ذُكرت باقتضاب، والأحداث فيها كثيرة يمكن أنْ تجري في آن واحد، وعلى السامع أنْ يرتبها ترتيبًا متتاليًا يأتي الواحد فيها بعد الآخر، بحيث يظهر المغزى في النهاية.

---

[1] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج١، ص١٢٦-١٢٧.

والحذف الحاصل في أحداث القصة للتركيز علي الغرض المقصود من ذكرها في هذا السياق، وهو إصرارهم على اتباع الهدى،كما نستشف عدم التفاتهم إلى كل ما من شأنه أنْ يغيّر قرارهم من أحاديث النفس وغوايتها، وأحاديث الأصدقاء المؤثرين، بل الرد عليهم لتثبيت أنفسهم، والردّ على الآخرين.

ثالثًا: خطاب اليهود مع النبيّ ﷺ

لا تذكر الآيات خطابًا مباشرًا دار بين النبي ﷺ وبين اليهود، لكننا نلمس كثرة المواقف والحوارات من خلال الردّ الرباني عليهم، وكشف مكرهم وخداعهم للنبي ﷺ، وإظهار كيدهم للإسلام والمسلمين، وكيفية تشكيكهم في صدق الرسالة المحمدية؛ مع يقينهم بنبوّته مما عرفوا من صفاته التي اخفوها وكتموها عن اللآخرين حسدًا من عند أنفسهم، كما نلمس أفعالهم من خلال أسباب نزول الآيات، وقد دُرست هذه الأمور في البحث من قبل بشكل مفصّل.

أما خطاب بني اسرائيل لكلٍّ من موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام؛ فلم يرد سوى في معرض القصص التي ستُدرس لاحقًا.

٢. خطاب الأقوام لبعضهم

أ- خطاب المؤمنين مع اليهود:

لم يظهر خطاب مباشر بين المؤمنين واليهود من خلال الآيات؛ لكنّنا نلاحظه من خلال الخطاب الرباني مع المؤمنين إذ قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾) وقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾)، وقال: (﴿٦١﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴿٦١﴾)، وكلها تنبئ بوجود حوار محذوف، وهذا ما يسمى الاحتباك؛ لوجود ما يدل عليه، وهذا الاحتباك يكشف عن أهمية الإيمان الحقيقي للمؤمنين، وتلزمهم بطاعة الله بغض النظر عن الطرف الآخر من يكون، ظهر من خلال حذف ما قاله اليهود وما فعلوه معهم، فالهدف الأسمى هو طاعة الله وحده في أمره ونهيه، فيما أحل وفيما حرّم.

ب- خطاب المؤمنين مع النصارى:

لم يرد ذلك في هذه السورة، وربما يعود ذلك لعدم وجود هم في المدينة آنذاك، إذ كانت إقامتهم في أماكن محددة من الجزيرة العربية وبلاد الشام.

المبحث الرابع: الخطاب القصصي:

يُعد الخطاب القصصيّ القرآنيّ من أرقى النصوص التي يُمارَس فيها نشاط الخطاب، فنلمس حيويّته، وحضور شخوصه، ومسايرته الحدث في بعديه الزمانيّ، والمكانيّ، ويدور الخطاب بين أقطاب ثلاثة هي: المُخاطِب والمخاطَب والخطاب، وتتحرك الأحداث بطريقتين: طريق السرد وهو وصف الأحداث والأشخاص والمشاعر وغيرها، وطريق الحوار الذي ينطق به أشخاص القصة.

وذكرت القصص في السورة أخبارًا لليهود بما احتوته التوراة تارة، وبأخبارهم تارة أخرى، وكذلك أخبار النصارى وإن لم تكن في كتبهم، لكنها حقيقةٌ أخفاها علماؤهم، وهو بذلك يصحح الأخطاء والخرافات التي وقع بها كل فريق، ويكشف حقائق أخفاها أحبارهم وعلماؤهم ورهبانهم، وطرحها للمسلمين لأخذ العبرة والعظة من نتائج الأفعال السابقة للأقوام، وكيف كان الرد من الله سبحانه وتعالى.

ومن هذه القصص:

أولا: قصة موسى ﷺ مع قومه:

قصة موسى ﷺ من أكثر القصص تكرارًا في القرآن الكريم ، فهي قصة ممتدة، ذُكرت بجميع تفاصيلها، إذ عُرضت حلقات شتى، تبدأ من ولادته ﷺ، وتحركت شخصية موسى ﷺ في أماكن عدة ؛ مع أهله، ثم في التابوت، ثم في اليمّ، ثم في قصر فرعون، ثم عاد لأمه مرة أخرى.

وبعد أنْ كَبِر يكون في قصر فرعون، ثم في المدينة، ثم في مدين، ثم في جانب الطور، ثم في قصر فرعون ثانيةً؛ ليدعوه وليأخذ بني اسرائيل، ثم قرب اليمّ حيث غرق فرعون وجنوده.

ولم يذكر في هذه السورة قصة موسى ﷺ مع فرعون، فغرض هذه السورة كان توبيخ بني إسرائيل وذمّهم على عصيانهم، وانفردت هذه السورة بقصّة التيه، أما القصص مع فرعون فوردت في السور المكيّة، بغرض تثبيت الدعوة وتسلية الرسول ﷺ والوعظ بما حصل للكفار.

وتعرضت هذه الآيات لقصة ظهر فيها قلّة توقيرهم لنبيهم، وإعناتهم في المسألة، وامتناعهم عن امتثال أمر الله، واستخفافهم به، وحوار موسى مع قومه يكشف عن معدنهم الخبيث، ويؤكد ما طبعوا عليه من شقاق وعناد، كما أنّ هذه القصة تموج بالحركة والخطاب، وتزخر بالانفعالات النفسيّة، وتتخللها التوجيهات، والدعوة إلى طاعة الله، ويظهر لنا مدى شعور اليهود بالضعف مع

ما عندهم من حب العدوان؛ حين أُمروا بدخول الأرض المقدسة لجهاد الأعداء، وأحداث القصة هي:

- سرد:(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ).

- حوار موسى عليه السلام مع قومه: (يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾).

- حوار القوم مع موسى عليه السلام: (قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾).

- سرد: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا).

- حوار الرجلين الصالحين مع القوم: (ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾).

- حوار القوم مع موسى عليه السلام: (قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾).

- حوار موسى عليه السلام مع الله عز وجل: (قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴿٢٥﴾).

- حوار الله عز وجل مع موسى عليه السلام: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴿٢٦﴾).

جاء الخطاب بداية للنبي ﷺ من خلال عملية السرد؛ فكل ما في القرآن موجّه له ﷺ ليبلّغه للناس، فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ)، وفي هذا الخبر تسلية للرسول ﷺ، فأسلاف اليهود الموجودين في عصر محمد ﷺ تمردوا على موسى عليه السلام وعصوه، كما تمرد أبناؤهم على نبينا محمد ﷺ.

وقوله هذا معطوف على قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) (المائدة: ١٢)، أي إنّه تعالى أخذ عليهم الميثاق، وذكّرهم موسى ﷺ بنعم الله تعالى عليهم، وأمرهم بمحاربة الجبارين؛ فخالفوا في تطبيق الميثاق والعمل به، وخالفوه في محاربة الجبارين، فالعطف يعمل على تماسك النص فيما بين الأبنية والتراكيب مهما وقع بينها من فواصل، وكلما ازداد عدد أدوات العطف؛ ازدادت قوة التماسك بين مكونات النص القرآني، بين كلماته، وعباراته، وجمله، وقصصه، لتخرج في النهاية نصًّا محكمًا متماسكًا.

ثم تنتقل القصة على طريق الحوار بين موسى ﷺ وقومه، فالخطاب هنا من موسى ﷺ إلى قومه، وهو خطاب لينٍ، تكسوه المحبة والشفقة، ويُظهر ما يكتنف الشخصيات من عواطف ومشاعر، مما يُكْسِبُ المواقف طابع الحيويّة، إذ بدأ خطابه ﷺ بمناداتهم، لاستدعاء الأسماع، واستحضار الأذهان؛ لأهميّة ما سيُلقى، فخاطبهم بوصفهم قومه، وأضافهم لنفسه؛ لأنّهم كذلك قومه وعشيرته، وأراد إثارة انتباههم ومشاعرهم، فأظهر لهم التلطّف في العبارة، من خلال الألفاظ الدالة على الانتماء القومي والقرابة، فلا يريد لهم إلا الخير؛ ليشدّهم إلى ما سيخبرهم به، وهو تذكيرهم بنعم الله عليهم تمهيدًا للأمر الربانيّ بدخول الأرض المقدسة، فالأمر هنا للتذكير.

وقد ابتدأ بأرفع النعم قدرًا، وهي النبوة ثم الملك، ثم عموم النعم، على جهة الامتنان ابتداءً بجعل الأنبياء فيهم مع كونه قد جعل أنبياء من غيرهم؛ لكثرة من بعثه من الأنبياء منهم، كما جعل منهم ملوكًا، وحذف حرف الجر لظهور أنّ معنى الكلام على تقديره، ويمكن أنْ يقال: إنّ منصب النبوة لمّا كان لعظم قدره، وجلالة خطره بحيث لا ينسب إلى غير من هو له قال فيه: (إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ)؛ ولما كان منصب الملك مما يجاوز نسبته إلى غير من قال به كما تقول قرابة الملك، نحن الملوك قال فيه: (وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا)، وكل هذه الدلالة ظهرت من تأثير معنى حرف الجر في كل سياق.

وأضاف على هذه النعم قوله: (وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ) أي عالمي زمانهم، إذ إنّ (أل) فيها هي (أل) العهدية، ولا يلزم تفضيلهم على الأمة المحمدية[1]، وفي ذلك إحالة إلى جميع الآيات التي ذكر فيها نعم الله عليهم من فلق البحر، وإهلاك العدو، وإنزال المن والسلوى، وإخراج المياه العذبة من الحجر، وتظليل الغمام، وهي إحالة لمرجع متصيّد، نجده ممتدًا في كثير من السور.

[1] انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، مصدر سابق ، ج٢، ص٢٨.

وفي قوله: (وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا) تشبيه بليغ، أي كالملوك في تصرفكم في أنفسكم، وسلامتكم من العبودية، وكونكم سادة الأمم التي كنتم متزامنين معها.

كما أنّ كلمتي: (نعمة) و(أنبياء) يراد بكل منهما الجنس، أي الكثير مما يُطلق عليه نعمة، والكثير ممن يُسمَّوْن أنبياء، وتكرير الفعل (جعل) لربط النظم في الآية، وقد تكون " بمعنى الاستقبال، قصدًا لتحقيق الخبر، فيكون الخبر بشارة لهم بما سيكون"[1]، أيبعد أنْ أنجاهم الله من فرعون وأهلكه، يخبرهم موسى ﷺ بما سيكون من نعم الله عليهم، يقول أبو حيان: " لا يراد بها حقيقة الماضي بالفعل إذ بعضهم كان قد ظهر عند خطاب موسى ﷺ إياهم وبعضهم لم يخلق، بل أخبر أنّه سيكون منهم"[2].

وهذا ما يعرف بالاستباق في القصة، وهو وضع حدثٍ ما في غير زمانه قبل أنْ يقع من قبيل الاستشراف أو التطلع لهذا الحدث، وهو يتجه إلى الأمام في الزمن، وهو بهذا يخاطبهم خطابًا حجاجيًا، فيقيم الحجة عليهم ليهيّء نفوسهم لقبول الأمر، فوعدهم بالنصر، وأنهم سيكونون سادة الدنيا، بل وسيعَمَّرون حتى يعاصروا الكثير من الأنبياء؛ لما يعلمه من طبيعة الخوف من الموت عندهم.

أما العطف بحرف الواو بين الجمل الثلاثة لتدل على الجمع بين هذه النعم، وهذه العناصر تؤدي غايتها حسب وظيفتها السياقية، فهي وسائل تربط أجزاء الجمل المتعددة المتنوعة، وتهدف إلى توضيح العلاقات بين الجمل، وعدم اللبس في أداء المقصود منها، وهو مطلق الجمع بين مُختلف أنواع النعم.

ويكرر النداء متلطفًا بقوله: (يَٰقَوْمِ)؛ لازالة نفورهم من الاستجابة؛ من خلال الإسناد لنفسه مرة أخرى، وتكرار: (يَٰقَوْمِ) يحدث توازيًا صوتيًا في بداية كل نصيحة، ويشير إلى الموقف الشعوريّ الانفعاليّ لموسى ﷺ وهو يحاول إقناع قومه بالجهاد في سبيل الله، فالتكرار إشارة نصية تساعد القارئ على الاطلاع على ما في نفس هذا النبي الكريم من مشاعر المودة والحرص على قومه.

ثم يجئ الأمر بالوجوب والإلزام وهو قوله: (ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ)؛ فما زال يعدهم بتحقيق هذا الأمر، وحصول النصر من خلال استخدام صيغة الماضي في قوله: (كتب) وهو مجاز بمعنى قضى وقدّر، يقول الشعراوي: " الكتابة هنا تشريعيّة وليست كونيّة، فلو

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٦، ص١٦١.
[2] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٦٨.

كان الأمر كونيًّا؛ لدخلوا الأرض المقدسة بدون عقبات، والدليل هو قوله: (وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ)، أي إنّكم إنْ ارتددتم على أدباركم؛ انقبلتم خاسرين"[١]، وقال: (لكم)، ولم يقل: (عليكم)؛ لأنّ " دخولهم إيّاها يعود عليهم بنفع في الآجل والعاجل، فيكون ذلك لهم لا عليهم"[٢]، وهذا من المناسبة والاتساق في استخدام حروف الجر بحيث تؤدي المعنى المقصود كما أراده الله، بلا التباس بمعنى آخر، فحروف الجر تكتسب معانيها في الغالب بناء على السياق الذي ترد فيه، ومن الطبيعي أنْ تكون هناك علاقة دلاليّة تربط بين معنى حرف الجر والسياق الذي وردت فيه.

والارتداد كناية عن الهرب؛ فجمع بين الأمر والنهي في قوله: (ادخلوا، ولا ترتدوا) أمرهم بالدخول على جهة الإلزام، وحذّرهم من الهرب من المعركة، وليس من عدم الدخول، لأنّ الدخول واجب لا جدال فيه، وفي الارتداد صورة حركية، وهي من سمات التصوير القرآني، ليست مقصورة على القصص والحوادث، ولا على مشاهد يوم القيامة، وهي كناية عن الارتداد المعنوي، والرجوع من الإيمان إلى الكفر، وتُلقي في النفس حركة حسيّة لمن يمشي ثم يرتدّ على أعقابه إلى الخلف متعثرًا، يقول سيد قطب: " وفي التعبير تصوير للارتداد، فهذه الحركة الحسيّة في الانقلاب تجسم معنى الارتداد عن هذه العقيدة؛ كأنّه منظر مشهود، والمقصود أصلاً ليس حركة الارتداد الحسيّة بالهزيمة في المعركة؛ ولكن حركة الارتداد النفسيّة التي صاحبتها"[٣]، وقد اكتسب هذا التركيب دلالات إسلاميّة ضمن استخدامه في النسج القرآنيّ وهي دلالة شرعيّة وعرفيّة جديدة.

ونلاحظ أنّ " بسط الحوار من جانب موسى ﷺ على هذا النحو يناسب شخصيّة بني إسرائيل التي لا يكفي معهم إلقاء الأمر مختصرًا مجردًا، مما يحض على المسارعة إلى تنفيذه، لأنهم أبعد الناس عن سرعة الامتثال لأوامر الله ولأوامر أنبيائهم، وليسوا كأصحاب محمد ﷺ "[٤]. فهذا مناسب لمقامهم ومقتضى حالهم.

وهذه الآية يتنوع فيها الخطاب، فالخطاب القرآنيّ لا يلتزم نوعًا واحدًا من أنواع الخطاب، ففيه الخطاب العقليّ من حيث إنّه قدم له بذكر النعم ثم ذكر أمر الله بالجهاد وعدم الارتداد عنه، وفيه الخطاب التشريعي بأنّ الله كتب لهم هذه الأرض؛ فلا بد من دخولها مجاهدين وهذا تشريع للجهاد وتشريع لمن خالف فهرب منه، وفيه الخطاب النفسيّ الذي تمثّل في استمالة قلوبهم إلى طاعة الله، وتبشيرهم بنصر الله من خلال ما ذكره لهم من الأمور التي لم تحدث بعد.

---

١ الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج ٥، ص٣٠٥٧.

٢ السمين الحلبي (١٩٩٦). **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، (تحقيق: محمد باسل عيون السود)، ط ١، ج٣، ص ٣٧٣، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ قطب، **في ظلال القرآن**، مصدر سابق، ج١، ص٤٨٦.

٤ دبور، محمد عبد الإله عبده (١٩٩٦م)، **أسس بناء القصة من القرآن الكريم**، دراسة أدبية ونقدية، رسالة دكتوراة، إشراف: فتحي محمد أبو عيسى، جامعة الأزهر، ص٢٢٥.

وجاء رد بنو إسرائيل وهو: (قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ)، مصرّحين برفضهم بلا سبب، وأكّدوا معصيتهم بالامتناع من دخول أرض العدو بأنواع شتى من التوكيد، فأكّدوا بواسطة (إنّ)، في قولهم: (إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ)، كما أكّدوا الامتناع مرة أخرى بقوة بواسطة (إنّ) و (لن)، فصدّروا الجملة بحرف التأكيد (إنّ)، ثم حقّقوا النفي بأداة (لن) الدالة على نفي المستقبل في قولهم: (وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا)، أي لن ندخلها الآن ولا في المستقبل، وهذا للنفي التأبيديّ، ثم علّقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها، فقالوا: (حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا)، وهذا مما له دلالة قويّة في الامتناع عن مقاتلة الجبارين، وبالتالي من دخول الأرض المقدسة، حيث يدور خطابهم حول توكيد هذا الأمر، وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد من خلال الشرط، فقالوا: (فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ)، وجاءوا في الجزاء بالجملة الاسميّة المصدرة بحرف التحقيق والتأكيد؛ للدلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط، وإظهارًا لكمال الرغبة في الدخول، وفي الامتثال للأمر الإلهيّ بتحقق الشرط، فالنفي مرتبط بغاية هي خروج الجبارين ، فكانت هذه الجملة تكرارًا لما سبق بالمعنى.

وقد استخدموا أساليب كثيرة لإثبات رفضهم القاطع من خلال الطباق في قولهم: (يدۡخُل، يَخۡرُجُ)، وطباق السلب والجناس المغاير في قولهم: (لَن نَّدۡخُلَهَا، دَٰخِلُونَ)، والجناس المماثل في قولهم: (حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا)، (فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا)، حيث تكررت التراكيب بصور جمالية، بالإضافة إلى إضافة معنى التوكيد الذي بدوره يبرز التماسك النصي، من خلال تأكيد موقفهم، وتأكيد شرطهم بخروج الجبارين، وكذلك المقابلة في قولهم: (فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا)، (فَإِنَّا دَٰخِلُونَ)، التي تصوّر تحقق الشرط، وهذا يفسر ما في نفوسهم الضعيفة من كون هؤلاء القوم عتاة لا يمكن قهرهم، لذا لن يقاتلوهم.

وقد وُظِّفت صيغة جبار، وهي صيغة مبالغة، وتعني: " العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد"[1]، وقيل إنّه مشتق من الجبّارة وهي النّخلة الطويلة المرتفعة التي لا تصلها الأيدي[2]، وقيل

---

[1] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص٢٠٣.
[2] انظر: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج ٥، ص٣٠٥٨، الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص٢٠٣.

إنّها مشتقة من الجَبْر وهو الإلزام[١]، فاستخدامهم لوصف القوم بالجبارين يرجع إلى تخيّلهم لهذة الهيئة التي تصوّر الطول، والضّخامة، والقوة، والمنعة؛ وهذا التصوّر سببه خَوَرٌ في طباعهم وقلّة يقين في نبيّهم.

ويعود السرد القرآني لينقل الحوار إلى شخصيات أخرى، فقال تعالى: (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ). فهذا الخطاب من رجلين صالحين، وصفهما بقوله: (مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ)؛ أي: يخافون الله دون العدوّ، وكذلك بقوله: (أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا)، أي بطاعة الله ورسوله، فوصفهما في الأولى بالجار والمجرور باستخدام الموصول والجملة الفعلية، وفي الثانية بالجملة الفعلية؛ مدحًا لشجاعتهم، وذمًّا لبني إسرائيل لخوفهم من العدوّ وعدم شجاعتهم، وبالتالي انتفاء نعمة الله عليهم بالطاعة، " وقدّم الوصف بالجار على الوصف بالجملة لقربه من المفرد"[٢]، وفي ذلك مراعاة للاتساق النحوي في التركيب.

وقد نُكِّرت (رَجُلَانِ)؛ لأنّ الهدف ليس من هما، لكن المقصود ما بدر منهما، " فالشخصيات النّكرات لا تدعو ضرورة إلى تعريفها، لأنّها تؤدي دورها في الحدث القصصيّ باعتبارات خاصة مميزة لها، وإنما هي مَثَلٌ عامٌ لجنسها كله في صلاحيته للقيام بهذا الدور، ومن هنا تكون عمومية المثل وصلاحيته الشاملة لجميع أفراد الجنس فيما ضرب له وسيق من أجله"[٣].

والضمير في (ادخلوا) يعود على بني إسرائيل، وخرج الأمر للحث والإرشاد، أما الضمير في (عليهم) فيعود إلى الجبارين، وهي تقوم بدور بارز في تماسك أجزاء الجملة.

والباب المقصود هو باب مدينتهم وعرفه بـ (أل) العهدية؛ لأنّه معروف فيما بينهم؛ وربما مُشاهد أيضًا، ثم كرّرا أمر الدخول فقالا: (فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ)، سيرًا على نهجهم في الحوار، إذ قالوا من قبل ما هو مكرر، وهو: (وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ)، مستعملين الجملين الشرطية، جوابها جملة اسميّة مؤكدة هي قولهم: (فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ).

ونلاحظ كثافة حضور الضمير في عبارتهم، وكل ذلك لإحداث الاتساق والانسجام من خلال مرجعية كل ضمير إلى ما يناسبه، وختما قولهما بالشرط: (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، وتقدير جوابه:

---

[١] انظر: البيضاوي (١٩٨٨)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط١، ج ١، ص٤٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[٢] الجمل، سليمان بن عمر، (د.ت)، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، (د.ط)، ج ٢، ص٢٠٣، دار الفكر للطباعة والنشر.
[٣] الخطيب،عبد الكريم (١٩٦٤). **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، ط١، ص ١٠٠، مطبعة السنة المحمدية.

فتوكلوا على الله، وقد تقدم ذلك بقولهما: (وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ)؛ حرصًا منهما على تقديم لفظ الجلالة، للاهتمام به، ولتربية مهابته في نفسهم بأنّه القادر على كل شيء.

لكن موقف بني إسرائيل لم يتغير، ومحاولة الرجلين الصالحين باءت بالفشل، وكان ردّهم: (قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ)، فلما كُرِّر عليهم أمر القتال؛ كَرَّرُوا الامتناع على سبيل التوكيد لما قالوه من قبل، فأكّدوا الامتناع الثاني بثلاث مؤكدات دليلاً على شدتها وأنه أمر منتهٍ عندهم، وهي: (إنّ)، (لن)، (أبداً)، وأكدوا امتناعهم باستخدام (إنّ) وعظّموا توكيدهم بقولهم (لَن نَّدۡخُلَهَا) وزادوه تأكيدًا بقولهم: (أَبَدٗا)، وقيدوا ذلك بقولهم: (مَّا دَامُواْ فِيهَا)، يقول أبو حيان: " قيّدوا أولاً نفي الدخول بالظرف المختص بالاستقبال وحقيقته التأبيد، وقد يطلق على الزمان المتطاول، فكأنّهم نفوا الدخول طول الأبد، ثم رجعوا إلى تعليق ذلك بديمومة الجبارين فيها فأبدلوا زمانًا مقيدًا من زمان هو ظاهر في العموم في الزمان المستقبل"[1]، فقولهم: (مَّا دَامُواْ فِيهَا) بدل بعض من كل من (أبدًا)، وهو من أشكال الربط النحوي، يعمل على تحديد المعنى وتوضيحه.

ثم قالوا: (فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ)، وخرج الأمر هنا للاستهانة والاستهزاء[2]، وأكّدوا ذلك بالضمير المنفصل (أنت)، الذي يعود على الضمير المستتر في (اذهب)، وعطفوا عليه قولهم: (ربك)، كما عطفوا (قاتلا) على جملة (اذهب)، فهذا قول المتقاعس المتردّد عن نصرة الحق، كأنهم أرادوا أنْ يختبروا علاقته بربه، ومدى تأييد الله تعالى له في مثل هذه المواقف، ثم أكّدوا موقفهم بقولهم: (إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ)؛ فقابلوا ذهابهما بقعودهم، وهي كناية عن عدم التقدم للحرب.

ومن خلال قوم موسى عليه السلام تظهر الشخصيّة الجماعيّة، وهي شخصيّة واحدة في التصرفات والسلوك، وظهر كذلك من خلال اتحاد قولهم وتصرفهم؛ " فالقرآن حين يُنْطِقُ شخصيّةً من الشخصيّات؛ فإنّما يحمل على لسانها ما يدور في خاطرها "[3]، فالشخوص في القصّة انقسمت إلى فريقين: أحدهما: مجموعة الشخوص الإيجابيّة التي اتبعت النبي ووقفت في صفّه، وعملت بشريعته، وثانيهما: مجموعة الشخوص السلبيّة المناوئة للنبي، الذين رفضوا تعاليم الشرع وتمردوا عليه.

---

[1] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٧١.
[2] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٧.
[3] الخطيب، **القصص القرآني**، مصدر سابق، ص١٢١.

وما كان من موسى عليه السلام إلا أنْ لجأ إلى ربه ليبث له شكواه وحزنه وعجزه، وهنا ينتقل الخطاب إلى الله سبحانه وتعالى، وهو خطاب تحسُّرٍ وتحزُّنٍ واستجلابٍ للنصر من الله عز وجل[1]، فقال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ)، فحذف حرف النداء، لأنّه نداء الخلق لخالقهم، ولم يقل يا رب؛ وغالبًا ما يُساق هذا اللفظ في القصص القرآني على ألسنة المضطرين الذين ألجأهم أقوامهم إلى ذلك، فلم يُستعمل هذا الحرف في ندائه سبحانه وتعالى إلا مقترنا بالدعاء، لتدل على افتقار الخلق بمختلف أنواعهم إلى الخالق، فالنداء " فيه طرف من معنى الأمر؛ لأنّك إذا قلت: يا زيد فمعناه تعال يا زيد، أدعوك يا زيد، فحذفت (يا) من نداء الرب ليزول معنى الأمر وينقص، لأنّ (يا) تؤكده وتظهر معناه، فكان في حذف (يا) الإجلال والتعظيم والتنزيه"[٢].

وفي قوله: (فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ) " كناية عن الفصل والحكم بينهم"[٣]، فخرج الأمر في قوله: (فَٱفْرُقْ) للدعاء، فجاءه الجواب الإلهي مباشرة: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِين)، فالخطاب هنا من الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام إجابة للدعاء، فصرّح بعقابهم وهو التيه، وكان الخطاب الرباني مبتدئًا بالتوكيد بعد فاء التعقيب، وهذا الجواب جامع لكل ما تضمنه كلام موسى عليه السلام.

و(يَتِيهُونَ) مشتقة من التيه وهي: " المفازة التي يحير سالكها فيضل عن وجه مقصده"[٤]، ثم نهاه بقوله: (فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِين)، للتسلية، وقيل إنّ الخطاب للنبي ﷺ، والقوم الفاسقين هم معاصروه من اليهود، أي: هذه أفعال أسلافهم، فلا تحزن بسبب أفعالهم الخبيثة معك[٥]، وفيه التفات إلى النبي ﷺ.

وفي هذه القصة نلاحظ السرد التاريخي للوقائع، ويتم التعامل معها بشكل انتقائي وبلا تفصيل، وقد دخلوا الأرض المقدسة بعد مضيّ السنين الأربعين، وقد هلك كل من هارون وموسى عليهما السلام، وأرسل الله نبيًّا آخر غيرهما؛ أَذِنَ لهم بالخروج من التيه على يديه، وطلبوا منه أنْ يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله ويدخلوا الأرض، فبشّرهم نبيهم بطالوت ملكًا، لكنهم عادوا إلى الشقاق والعناد؛ فأنكروا إِمْرَتَهُ عليهم لأنّهم يرون أنّ مقومات المُلْك هي الغنى والمال، فأخبرهم

---

[١] انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠.
[٢] السمين الحلبي، الدر **المصون**، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٥٣.
[٣] الشافعي، **تفسير حدائق الروح والريحان**، مصدر سابق، ج٧، ص٢٢٤.
[٤] البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٧.
[٥] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٧٣، وابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٧٧.

بأنّه استحق المُلْك بالعلم والقدرة، وفي ذلك يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...) (البقرة:٢٤٦-٢٥٠)، وفي ذلك إحالة قبليّة لما حلّ بهم بعد التيه.

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يقل لنا إنّ بني إسرائيل أهل شقاقٍ، وعَنَتٍ، وعِناد، ولكنه "ترك كلامهم ينبئ عنهم، ويبيّن مقدار ما سبّبوه لأنبيائهم من عنت وإرهاق، وإنّ حوارهم مع أنبيائهم ناطق بأوصافهم، مظهر طبيعتهم المتبجّحة، ومعدنهم الخبيث"[1].

---

[1] دبور، **أسس بناء القصة في القرآن الكريم**، مصدر سابق، ص٢٢٧.

ثانيًا: قصة ابنيْ آدم عليه السلام

وهي رواية الله ﷻ لتلك المأساة الدامية التي وقعت بين أخوين؛ فقصة ابني آدم نموذج على حدّة الصراع بين قوتي الخير والشر، أو بين النفس المطمئنّة والنفس الأمّارة بالسوء؛ وتكشف ما عند الإنسان من قدرة على الارتفاع والسمو، وما لديه من استعداد إلى التدنّي والهبوط، وقد وردت مرة واحدة في القرآن الكريم في هذه السورة ولم تتكرر، وأحداثها هي:

- سرد: (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ).
- حوار (الأول) : (قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ).
- حوار (الثاني) : (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ، لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾).
- سرد: (فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ).
- حديث النفس (الأول): (قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى).
- سرد: (فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ).

ويظهر التماسك النصيّ من خلال أسلوب الحوار، ومن خلال تكرار فعل القول (قال)، ولا يخفى ما في لغة الحوار من تماسك نصِّي بين المخاطِب، والمخاطَب، والنص، وكذلك بين جزئيات النص وعناصره من خلال تبادل الحديث المعبِّر عن قصد معين، وإخباريّة تظهر بتنامي الحدث، ناهيك عن أساليب التماسك والانسجام اللازمة لإيصال الخطاب، وما يدخل فيه من سياق الحال.

وهنا يخاطب اللهُ ﷻ الرسولَ ﷺ يأمره بأنْ يتلو هذه القصة، لإقامة الحجّة على بني إسرائيل؛ فهي موجودة في التوراة؛ ضُربت مثلاً لتوضّح تأثير الحقد والحسد في النفوس، وأثره في المجتمع، وأعيد ذكرها في القرآن الكريم، وهي مما لا يعرفه سواهم؛ فكيف عرفها هذا النبي ﷺ إنْ لم تكن وَحْيًا من عند الله الذي أنزله قبل ذلك على موسى عليه السلام، فبرهن على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة؛ لأنّه لا يعلم ما في كتابهم، ومدللاً على أثر الحسد ودواعيه في النفوس من

جهة أخرى، وفي هذا تصوير لما يمكن أنْ يجول في نفوس بعض بني إسرائيل تجاه الرسول ﷺ، وتعريض بأنّ اليهود يحسدون الرسول ﷺ على رسالته واختيار الله له، كما يحسدون المسلمين على دينهم ورسولهم، واصطفاء الله لهم.

وهنا نلاحظ عطف قصة على قصة، فالقصة الأولى هي قصة موسى عليه السلام مع قومه، والقصة الثانية هي قصة ابني آدم؛ وكلاهما يمثل شيئًا خاصًا ببني إسرائيل.

وبدأت القصة بالسرد، ولم يصرح القرآن باسم ابنَيْ آدم، فاختفت الأسماء كما اختفت سمات الشخصية، وكان التركيز على الأحداث، وذكر بداية القصة بتقريب كل منهما قربانًا لأمر ما، فقال تعالى: (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ) بلا تفصيل لسبب تقريب هذا القربان، فتُقبل من أحدهما ولم يُتَقبَل من الآخر، والفعل (قرّب) " مشتق من القربان الذي صار بمنزلة الاسم الجامد، وأصله مصدر، وهو ما يتقرب به المرء إلى ربه من صدقة أو نسك أو صلاة"[1].

وبني الفعل للمجهول في قوله:(فَتُقُبِّلَ)، (وَلَمْ يُتَقَبَّلْ)؛ ليبين أنّ القبول والرفض أمرٌ موكول إلى الله.

وبالرغم من أنّ كلاً منهما قدّم قربانًا؛ إلا أنّه أفرده في الآية لإرادة الجنس، فليس القربان هو مغزى القصة حتى يلتفت إلى تفصيل خبره، بل هو النهاية التي أظهرت مكنونات القلوب المدفونة منذ زمن، وبدأت القصة من النهاية لتصل إلى نهاية النهاية، حيث تظهر نوازع الحسد والحقد في نفس الآخر، ويُظهر الخطاب القرآني لنا هذا الأمر من خلال تصوير الأحداث، إذ صوّر المعاني النفسية التي جالت في النفس بعبارة القاتل لأخيه بقوله: (لَأَقْتُلَنَّكَ)، وهي كلمة واحدة توحي بالإصرار العنيد، والتوكيد الجازم بما احتوته من أساليب التوكيد المتنوعة، وهي كلمة تحمل في ثناياها الوعيد والتهديد الشديدين، معبرة عن حال قائله ومشاعره من الأعماق.

ونلاحظ هنا تكرار صوت القاف من خلال تكرار الفعل (قتل) ومشتقاته، وكما هو مُتَّفَقٌ عليه أنّ العربية تنفر من توالي الأمثال، سواء من خلال تكرارالحروف، أو الحركات،أوالسكنات؛ فقد تكرر حرف القاف عشر مرات في هذه الآية، وهذا مما لا يستطيعه بشر؛ أنْ يكرر هذا الحرف ويجعل الكلام بهذه السلاسة، فلا تنافر بين الكلمات ولا تعقيد فيها، وذلك لأنّ التجمُّع الصوتي بهذا الحرف يؤدي دورًا في الكشف عن هول الموقف، بل إنّ تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبيرشكّل نغمًا موسيقيًا مؤثرًا وهو قوله: (لأقتلنّك، تقتلني، لأقتلك)، إذ يظهر جرس الجمل وإيقاعها الصوتي الحاصل من التلازم بين كلماتها، وتوافق أصواتها؛ فهذه الموسيقى الداخلية تتناسب وطبيعة الموضوع، وتوحي بالحالات الشعورية والوجدانية للموقف؛عن طريق تشكيلها

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٦٩.

للكلمات، ودرجة تكرارها، وهذا ما فعله صوت القاف المقلقل الشديد؛ الذي يصور ما يجيش في صدر المقتول من الشدة والاضطراب، وما يوحي به هذا الصوت في نفسه من دلالات نفسية، تعكس شعورًا يسيطر عليه وهو بصدد تعرضه للقتل، ولا يستطيع ردّ ذلك.

وهكذا وصلنا بسلاسة ويسر وبكلمة واحدة إلى قلب الحدث، وبهذا الحوار الذي يصور المشهد تصويرًا حيًا، قال: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ)...(وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ)، وبالجملة الأولى يذكر علّة تقبل القربان، وبها كذلك يبدأ مخاطبته خطابًا حجاجيًا، يظهر من خلاله الحجج والعلل التي تدفع عنه القتل، وتعيد الأخ إلى رشده، إلى جانب التلطُّف في الخطاب، وتذكيره بالله، وبجزائه، أما القاتل فلم يظهر موقفه أثناء ذلك، بل يبدو أنّه ظل يستمع لمقالة أخيه دون أنْ تؤثر في نفسه.

وقد خلا الخطاب بينهما منْ أي رابط، سواء من حروف العطف، أو من حروف النداء، فكلاهما مقابل للآخر وقريب منه، والأمر جلل لكليهما، فالأول يريد القتل وهو عمل صعب، والثاني يريد دفعه عنه وهو أمر صعب كذلك، ويحتاج إلى دقة وسرعة في التفكير.

ومن ثم يكمل مقالته مبديًا تقواه وخوفه من الله ﷻ، لعلّ الأخ أنْ يثوب إلى رشده، فقال نافيًا أنْ يسلك مسلكه وهو قادر على ذلك؛ لخوفه من الله تعالى، فأخبره بالجملة المبدوءة باللام الموطئة للقسم للتأكيد، وجعل جواب القسم جملة اسمية، وهي قوله: (مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ) مصدرة بما النافية لتأكيد النفي كذلك، وكل ذلك " مبالغة في إظهار براءته عن بسط اليد؛ من خلال بيان استمراره على نفي البسط، فالجملة الاسمية الإيجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبات؛ كذلك السلبية تدل بمعونة على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام "[1]، فكما يصر أخيه على قتله؛ يصرُّ هو على عدم الإقدام على دواعيه، وقدّم الجار والمجرور على المفعول الصريح بقوله: (لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي)؛ " إيذانًا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه"[2]، وقد كانت أنماط من البناء في الجملة القرآنيّة تثير الانتباه وتحرك العقول للتأمل فيها وعدم الخلط بين عناصرها، حيث استعمل الجملة الفعليّة المثبتة مع القاتل: (بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ)، والجملة الاسميّة المنفية مع المقتول: (مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ)، وهذا التحول في الصيغ في السياق القرآني، أو العدول من صيغة إلى أخرى؛ يمثل أحد الوسائل التي تساعد على التماسك الشكلي، وتمثّل مدخلاً للتحليل اللغوي للنص للوصول إلى المعاني الدلالية من تشاكل الألفاظ، ويقول الجرجاني: " إن موضوع الاسم يثبت به المعنى للشيء

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦٠.
[2] المصدر السابق نفسه.

من غير أنْ يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء، وأما الفعل فموضوع على أنْ يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء"[١].

وأعاد مرة أخرى تأكيد خوفه من الله، ومُعَرِّضًا بأنّ أخاه لا يخاف الله: (إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ)؛ وقد فَصَل بين الجملتين ولم يجمع بينهما بالعطف؛ " تنبيهًا على كفاية كل منهما في العِلِّيَّة "[٢]، ففي كل منهما ما يكفي أنْ يردع الأخ عما أراد.

أما الإرادة فهي مجاز، وتعني " التخيير في شرَّيْن، والمعنى إنْ قتلتني وسبق بذلك قدر؛ فاختياري أنْ أكون مظلومًا ينتصر الله لي في الآخرة "[٣].

ثم يجيء السرد مرة أخرى ليصف ما اعترى الأخ الظالم، مُظهرًا الصراع الداخليّ الحاصل في نفسه بعد كل ما سبق من الوعظ الشديد، فقال تعالى: (فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ)؛ فالفعل (طوّعت) يوحي بالصراع النفسي الحاصل في نفس قابيل، وهي صيغة تفيد التكلف، وتدل على حدوث تردد في نفس القاتل ومغالبة لها، لكن نفسه الأمارة بالسوء ردته طائعًا منقادًا، وهذا التطويع حصل بعد وساوس النفس الكثيرة، التي ربما ردّت كل ما قاله هابيل من الحجج والأدلة القاطعة ليردّه عن رغبته.

كما قرئ: (فطاوعت) على أنه " فَاعَل بمعنى فَعَل، أو على أنّ قتل أخيه كأنّه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته "[٤]. وهي مشتقّة من طاع له المرتع إذا اتسع[٥]، وقد بيّن الرازي كيفية هذا التطويع بقوله: " إنّ الإنسان إذا تصوّر من القتل العمد العدوان كونه أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفًا له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المترد عليه الذي لا يطيعه البتة، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأنّ النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أنْ كان كالعاصي المتردد عليه"[٦]، وهي استعارة تمثيليّة بمعنى أنّ نفس قابيل سهلت له قتل أخيه بعد ممانعة، فشُبِّهَ القتل بشيء متعاصٍ عن قابيل ولا يطيعه

---

[١] الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، مصدر سابق، ص١٢٢.
[٢] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦١.
[٣] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٧٧.
[٤] البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مصدر سابق ،ج ١، ص٤٣٣.
[٥] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦١.
[٦] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١١، ص١٢٣.

بسبب معارضته التعقل والخشية، وشبهت داعية القتل في نفس قابيل بشخص أعانه وذلل له القتل المتعاصي.

أما اختيار الفعل طوّع ولم يقل سوّل كما في غيرها من الآيات كقوله: (وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) (طه:٩٦)، " لأنّ سوّلت بمعنى زيّنت، أما طوّعت فبمعنى سهلت ووسعت، وهي أشدّ من سوّلت، إذ فيه جهد ومبالغة؛ حتى تروضه وتذلّل له، وهذا يحتاج إلى وقت وجهد، والتسويل لا يحتاج إلى ذلك، بل يأتي بسهولة ويسر ومباشرة؛ لأنّه مجرد تزيين، فأحد ابنيْ آدم حين كان يفكر في قتل أخيه احتاج وقتًا طويلاً في ذلك، فالفعل يدل على تردد طويل، ثم الإقدام على هذه الفعل"[١].

وقد سلك في وصف ذلك مسلك الإطناب، وكان يكفي أن يقول: فقتله، " لقصد تفظيع حالة القاتل في تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه؛ إذ حدّثته بقتل من كان شأنه الرحمة به "[٢].

وقد صرّح بأخوّته فقال: (فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ) لتقبيح فعلته، وقدم الجار والمجرور للاهتمام، وهنا يظهر عنصر المفاجأة في قصة ابنيْ آدم، وتتمثل في قتل قابيل لأخيه بعد كل ما قاله له، ونلاحظ تكرار حرف العطف (الفاء)، الذي يعني الترتيب والتعقيب، فالأمور حصلت بسرعة وبصورة متتابعة، فقال: (فطوّعت، فقتله، فأصبح، فبعث).

فالأخ الذي قتل أخاه لا يدري الآن ماذا يفعل به، ويظهر عنصر المفاجأة مرة أخرى؛ وهو أنّ عناصر غير بشرية متمثلة في الغراب؛ يُعلِّم قابيل كيف يدفن أخاه، ولا يَستغرب القارئ الذي ينتظر حلاً لمعضلة الجريمة، إذ القصة حصلت في بداية الحياة البشرية، وهابيل أول ميّت على وجه الأرض، فيكيف سيُعرف ماذا يُفعل به، فتتدخل العناية الإلهيّة لموارة جسده.

وربما يكون في اختيار كلمة الغراب دون غيره من الطيور في هذا السياق؛ أنّ لونه الأسود يُذْكر في سياق الحزن والتشاؤم، وهو هنا " يلائم الحالة النفسيّة التي يتلبس بها القاتل حين يقدم على جريمة القتل؛ حيث يكون قلبه ملفعًا بسواد الحق، محاطًا بظلام نفسيّ، ولا شك في أن هذه الرغبة السوداء تقضي على نور الحياة نهائيًّا؛ إذ لم يكن ثمة دافع أقوى منه يحول دون تحقيقها"[٣]، فالتعبير عن الحالة النفسيّة من خلال اللون في صورته الإشاريّة دون ذكر اللفظ الدال عليه يتطلب من المتلقي تأويلاً يتجاوز الدلالات المعجميّة إلى الدلالات الإشاريّة في محتواها

---

[١] فاضل السامرائي، **لمسات بيانية**، سورة المائدة، مصدر سابق، شبكة الانترنت.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٦، ص١٧٢ .
[٣] عزيز، **جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني**، مصدر سابق، ص ١٨٣.

النفسيّ، وهذا التفسير النفسيّ وما يحويه من الدلالات النفسيّة الملاحظة من وسائل التحليل النصيّ التي عُرِفت في العصر الحديث، بل من أسباب الدعوة إلى الاتجاه نحو علم النص.

وخص السّوأة بالذكر مع أن المراد الجسد كاملاً؛ " للاهتمام بها وأنّ سترها أوكد "[١]. وهي مجاز مرسل بإطلاق اسم البعض على الكل. وفيها استعارة تصريحيّة حيث شبهت فيها الجثة بالسوأة (أي العورة) بجامع ما يجب في كل من الإخفاء للسوأة بالثوب والجثة بالثرى[٢].

وفي قوله: (**فبعث**) استعارة تصريحيّة؛ حيث شُبِّه فيها التسخير بالبعث، بجامع ما في كل منهما من الحصول والنفع، وكذلك في (**يبحث**) استعار البحث للحفر، بجامع ما في كل منهما من ترتب شيء على شيء والظفر بالغاية[٣].

ثم يعود إلى الحوار قابيل لنفسه: (قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ)، وهو حوار مع نفسه، ويسمى الحوار الداخليّ، وهي من صيغ الاستغاثة المستعملة في التعجب وأصله يا ويلتي، فعبَّر هنا عن الصراع النفسيّ بطريقة العدول عن الأصل، حيث عدل عن مناداة العاقل إلى مناداة غير العاقل، تعبيرًا عن فظاعة جرمه، لأنّه لا يفعل ذلك إلا من استحق الويل والثبور، يوضحه ما جاء بعده من استفهام؛ " يتعجب فيه من عدم اهتدائه لما اهتدى إليه الغراب"[٤]، إذ استقلّ إدراكه وعقله في عدم معرفته ما يصنع بأخيه بعد قتله، وتعلّم ذلك من طائر لا يعقل.

وفي قوله: (مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ) تشبيه بليغ حيث كان " المشبه هو الضمير المستكن في أكون، والمشبه به هو الغراب، ووجه الشبه هو الحذق وحسن التدبير"[٥]، أي يصنع صنيعه في المواراة، فيدفن أخاه ويواريه.

وقد تنوّعت الأساليب البلاغيّة في هذا النصّ ما بين تشبيه واستعارة ومجاز، وهذا مما يكسب النص القرآني روعة واستقامة وهو ضروري لأداء المعنى القرآنيّ متكاملاً من الوجوه كلها.

ثم عاد الخطاب القرآنيّ مرة أخرى إلى السرد فقال تعالى: (فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ)، وهي مع قوله: (فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) تَنْقُلان الصورة النفسيّة التي ملأت قلب قابيل وكيانه بعد أنْ تمت جريمة القتل، فقد خسر إيمانه وأخيه، ثم صار نادمًا، وأشار السياق إلى جزئيات من الزمن،

---

[١] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٨١.
[٢] المصدر السابق نفسه.
[٣] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٤٩.
[٤] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٦١.
[٥] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠.

وخصّ الصبح بذلك، فكرر أصبح في كلا الحالتين مع تغيير الوصف، والمقصود "جميع أوقاته، وأقيم بعض الزمان مقام كلّه؛ وخصّ الصباح بالذات لأنّه بدء النهار والانبعاث إلى الأمور ومطيّة النشاط"[١].

وهكذا " يتآزر الحوار مع السرد في القصة القرآنيّة لا من أجل تصعيد الحدث فحسب؛ بل من أجل إبراز البشاعة المختفية وراء شخوص القصة وفي حنايا نفوسهم"[٢]، ومن خلال الأصوات والتراكيب يظهر تصوير الوجدان البشريّ تصويرًا عميقًا وموحيًا وكاشفًا عن جوهر النفس وطبيعة الذات البشريّة.

ولشناعة القتل وغلظ جرمه عقب القرآن على الأحداث، وشرع من خلال هذه القصة بتشريع القصاص فقال: (**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**)، فجاءت هذه الأحكام لتعديل السلوك وتقويمه، وضبط العاطفة وكبح انفعالاتها، فهذه الأحكام تنظم حياة المسلمين، الأفراد منهم والجماعات، وتضع العقاب الملائم للقتل ومن ثم النهب والسرقة، لذا فقصة ابنيْ آدم جاءت متنامية من السياق القرآنيّ ومدخلاً ملائمًا للتشريع.

---

[١] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص١٨٠.
[٢] الظواهري، كاظم (١٩٩١). **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، ط١، ص٨٠، د. ن.

ثالثا: قصة عيسى عليه السلام

اشتملت قصة عيسى عليه السلام على ثلاثة مشاهد، ذُكِر اثنان منهما في سياق يوم القيامة، أمّا المشهد الثالث فهو بين سياقي الدنيا والآخرة؛ وذلك لأنّ أحداثه حصلت في الدنيا، وجاء التذكير بها ومناقشتها في الآخرة، وهذا يدل على أنّ سياقي الدنيا والآخرة لا ينفصلان أثناء الحساب والمُساءلة، وسأذكر الآن هذه المشاهد على شكل حوار كما وردت في السورة:

المشهد الأول:

- سرد: (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ).
- حوار الله ﷻ مع الأنبياء: (فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ).
- حوار الأنبياء مع ربهم: (قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ).
- سرد: (إِذْ قَالَ ٱللَّهُ).
- حوار الله ﷻ مع عيسى عليه السلام: (يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾).

المشهد الثاني :

وهو عبارة عن التذكير بنعم الله في الدنيا، ذُكِرت لأنّ الله أخذ العهد والميثاق على أصحابها بالإيمان والطاعة، وحذّر من يكفر منهم بالعذاب الشديد الذي سيكون خاصًّا بهم لكفرهم بعد نزول هذه المعجزة، وهذه القصة هي قصة نزول المائدة من السماء، أما أحداثها فهي:

- سرد: (إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ).

- حوار الحواريين مع عيسى عليه السلام: (يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ).

- سرد: (قَالَ).

- حوار عيسى عليه السلام مع الحواريين: (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ).

- حوار الحواريين مع عيسى عليه السلام: (قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ).

- سرد: (قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ).

- حوار عيسى عليه السلام مع ربه عز وجل : (ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ).

- سرد: (قَالَ ٱللَّهُ).

- حوار الله عز وجل مع عيسى عليه السلام: (إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ) (الآيات: ١١٢- ١١٥)

المشهد الثالث:

وهو مشهد سؤال عيسى عليه السلام عمّا أُلحق به من ادّعاء الألوهية، وجاء هذا المشهد بعد سياق تعداد النعم عليه، وذكر سائر المعجزات التي أيّده الله بها، وأحداثه هي:

- سرد: **(وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ).**

- حوار الله عز وجل مع عيسى عليه السلام: **(يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ).**

- سرد: **(قَالَ).**

- حوار عيسى عليه السلام مع الله ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾.
- سرد: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾.
- حوار الله ﷻ مع الجميع: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾.

أولا: تحليل المشهد الأول:

تبدأ قصة عيسى عليه السلام بالسرد من خلال نقل الموقف إلى الآخرة بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وهي أبلغ مما لو قيل: يوم القيامة يجمع الله الرسل، " لما فيها من إعمال فكر في معرفة هذا اليوم"[١]، فأخبر عن زمان ولم يصرّح به؛ للتعبير عن شدة أهوال ذلك اليوم، وعبّر تعالى عن ذلك بأسلوب الحذف، فذكر جمع الرسل وسؤالهم، وحذف جمع الخلق وسؤالهم، لدلالة الأول عليه، وهو من أنماط الحذف المهمة في التحليل النصيّ، فحذف بعض الأحداث في التسلسل الزمني للقصة، وحذف بعض الشخصيات، إذ لم يرد ذكر شيء عنهم، ومنها حذف الزمان والمكان أو عدم تحديدهما.

وخصّ الرسل بالذكر " لأنّهم قادة الخلق، وفي ضمن جمعهم جمع الخلائق، وهم المكلّمون أولاً"[٢]، وأيضًا " لإبانة شرفهم وأصالتهم، والإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم؛ بناء على ظهور كونهم أتباعهم؛ ولإظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام في سلك جمع الرسل"[٣]، وعلاقة التخصيص من أهم علاقات الانسجام النصي، إذ أظهرت علّة اصطفاء الرسل

---

[١] المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٠.
[٢] ابن عطية، **المحرر الوجيز**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٦.
[٣] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٣٦.

بالذكر في ذلك اليوم خاصة، وأشارت إلى من عداهم، وإنْ لم تذكرهم للتمييز بينهم، ولإظهار فضل الرسل على غيرهم.

ثم يتشكل الحوار بين الله تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، ويبدأ بالاستفهام؛ "التفخيم شأن المستفهَم عنه"[١]، وهو " سؤال توبيخ لأممهم لتقوم الحجة عليهم ويبتدئ حسابهم"[٢]، وليس لطلب الجواب؛ ولذلك لم يقل بماذا، " ولو أريد الجواب لقيل: (بماذا أُجبتم)"[٣].

واستعمل صيغة البناء للمجهول، للعدول عن إسناد الجواب إلى الأقوام، فلم يقل: ماذا أجابوا؟ وفيه "من الإنباء عن كمال تحقير شأنهم، وشدة الغيظ والسخط عليهم"[٤]، فالله تعالى يعلم صنيعهم، إلا أنّ الحساب يبدأ بإثبات أفعالهم المنكرة مع أنبيائهم، فجاء سؤال الرسل تمهيدًا لسؤالهم، وفيه التفات من الغيبة (الرسل) إلى الخطاب (أُجبتم)، لأنّهم " بعد الجمع صاروا حضورًا فخوطبوا خطاب الحاضر"[٥].

وينتقل الخطاب إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ فيجيبون: (قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)، واستخدم الماضي (قَالُواْ) بالرغم من أنّ ذلك لم يقع بعد، لأنّه سيقع يوم القيامة؛ للدلالة على التقرير والتحقق، فالفعل الماضي يدل على الثبوت والتحقق، وهذا السؤال مما لا شك فيه.

والإحالة الضميرية في قوله: (قَالُواْ) إحالة قبلية تعود على الرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث تعمل هذه على ربط مجريات الأحداث، بالإضافة لفعل القول المكرر.

وقولهم: (لَا عِلْمَ لَنَآۖ) لنفي العلم مطلقًا باستخدام لا النافية للجنس، وهم عالمون بما أجابهم به قومهم؛ وذلك تفويض منهم، ولا سيّما مع علمهم بأنّ السؤال سؤال توبيخ، فإنّ تفويض الجواب إلى الله أبلغ في حصول ذلك[٦]، فالسائل هو الله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية، لذلك قالوا: (إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)، مؤكدين ذلك بـ (إنّ) والجملة الاسمية، وضمير الفصل، مع تعريف طرفي الإسناد، وقالوا: (علّام) ولم يقولوا: (عليم)، وهي صيغة مبالغة في اسم الفاعل " ليكافئ (الغيوب) جمع (غيب)، وهنا قابل (علام) (الغيوب) لكثرتها"[٧]، فأرادوا إظهار علم الله المطلق من خلال الوصف بصيغة المبالغة الدال على التكثير، بالإضافة إلى جمع التكسير بصيغة جمع الكثرة.

---

١ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٠.
٢ الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص٥٢.
٣ المصدر السابق نفسه.
٤ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٣٦.
٥ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٤٠.
٦ انظر: الشوكاني، **فتح القدير**، مصدر سابق،ج ٢، ص٩٠.
٧ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٠.

وينتقل الخطاب ليذكر أحد المشاهد التي ستدور في ذلك اليوم، وبدأ المشهد بقوله تعالى: (إِذْ قَالَ ٱللَّهُ)، وهي بدل اشتمال من قوله تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُ)، " فإنّ يوم الجمع مشتمل على زمن هذا الخطاب لعيسى ﷺ، لذلك لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها"[١]، والبدل من وسائل السبك النصيّ، يعمل على ربط الجمل بعضها ببعض، ويحيل إلى الجملة الأصلية مضيفًا دلالات جديدة تتعلق بها، فلم يقل (وإذ قال الله)، باستخدام العطف، لأنّ " ما يُقال لعيسى ﷺ يومئذ تقريع لليهود والنصارى الذين ضلّوا في شأن عيسى ﷺ بين طرفي إفراط بغض، وتفريط حب"[٢]، وليس عطف الأحداث بعضها على بعض، فلكل من العطف والبدل دلالات خاصة، ويوظّف كل منهما لغرض خاص، وهذا من روعة اللغة العربية.

وأظهر اسم الله تعالى في مقام الإضمار، إذ سبق ذكره في الآية السابقة، وذلك " للمبالغة في التهويل وتربية المهابة"[٣]، إذ إعادة ذكر الاسم هنا تلفت النظر إلى تجدد الموقف، وبيان خطر المشهد.

أما خطاب الله تعالى لعيسى ﷺ فهو خطاب التذكير بالنعمة، فقال: (يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ...)، وفي ذلك تخصيص بعد تعميم، فقد شرع الله ﷻ في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل، إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال، فقد ذكر الله ﷻ ابتداءً جَمْع الرسل أجمعين، وسؤالهم عما فعله أقوامهم، ثم خصّ عيسى ﷺ بذكر ما سيدور بينهما من خطاب ومساءلة، " لأنّ طعن سائر الأمم كان مقصورًا على الأنبياء، وطعن هؤلاء الملاعين تعدّى إلى جلال الله وكبريائه؛ حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أنْ يصف الإله به؛ وهو اتّخاذ الزوجة والولد، فلا جَرَم أن يعدد الله ﷻ أنواع نعمه على عيسى ﷺ بحضرة الرّسل واحدة فواحدة، والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مَقَالَتِهِم"[٤]، مبتدئًا بسرد نعم الله عليه وعلى أمّه عليهما السلام، لأنّ كلّ ما حصل للولد من النعم الجليلة حاصل للأمّ على سبيل الضمن والتبع، وكذلك من أجل " الزيادة في تبكيت اليهود، وكمدهم لأنّهم تنقّصوها بأقذع مما تنقّصوه"[٥]، فالأمر في قوله (ٱذْكُرْ) خرج للامتنان، فعيسى ﷺ ليس بناسٍ لنعم الله؛ ويعلل أبو السعود ذلك بقوله: " إظهار أمره ﷺ بتعداد تلك النّعم حسبما بيّنه الله تعالى اعتدادًا بها، وتلذذًا بذكرها على رؤوس الأشهاد؛ لتكون حكاية ذلك

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٠.
[٢] المصدر السابق نفسه.
[٣] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٧.
[٤] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١٣٢.
[٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠١.

ما أنبأ عنه النّظم الكريم؛ توبيخًا ومزجرةً للكفرة المختلفين في شأنه ﷺ إفراطًا وتفريطًا، وإبطالاً لقولهما جميعًا"[١]، وهما اليهود والنصارى.

وأضاف الشوكاني: " لقصد تعريف الأمم بما خصّهما الله به من الكرامة، وميّزهما به من علوّ المقام، أو لتأكيد الحجة، وتبكيت الجاحد بأنّ منزلتهما عند الله هذه المنزلة، وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أنّ ذلك الإنعام كله من عند الله سبحانه"[٢]؛ فهذا التخصيص هنا جاء ردًّا على فريقين؛ هما اليهود والنصارى، فقد أفرط النصارى في حبّه حتى اتخذوه إلها، وفرّط اليهود في بغضه؛ فاتهموا أمّه وحاولوا قتله، وكل من الإفراط والتفريط مذمومٌ عند الله، وفي هذا تحذير للمسلمين من الإفراط والتفريط في الدين وفي كل ما يتعلق به.

وفي الآيات أفرد النّعمة وأراد الجمع، لأنّ المقصود هو جنس النّعمة، فهذه النعم هي آيات من الله تعالى أيّده بها، وهي أعظم من أنْ ينكرها أحد من الناس، وقد وردت في سياق آخر دنيوي، وكان ذلك عندما بشرت الملائكة مريم عليها السلام به، فذُكرت هذه الآيات التي سيكون مؤيدًا بها، وهذه إحالة إلى سابق، إذ وردت قبل ذلك في سياقها الحاصل في الدنيا، وجاءت لتبشر مريم بولادة عيسى ﷺ بقوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞) (آل عمران: ٤٥-٤٦)، .وقال: (وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ۞وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞) (آل عمران: ٤٨-٥١).

وهذا التكرار شكل من أشكال الاتساق المعجميّ؛ يتطلب إعادة عنصر معجميّ، كما يكشف عن نوع من الإحالات الداخلية، إذ كثيرًا ما يحيل النصّ العقليّ على آخر في منظومة الخطاب العقليّ نفسه، وتحيل الألفاظ والتراكيب والجمل على ما يقاربها في الآيات الأخرى، فكل آية منهما لها سياقها الخاص الذي يخدم غرضًا خاصًا، ويجعلنا ننفي وجود التكرار في القرآن.

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٣٧.
[٢] الشوكاني، **فتح القدير**، مصدر سابق، ج ٢، ص٩٠-٩١.

واستُعمل لفظ القول لتكثيف الحدث، وهذا من الدقائق العجيبة في الأسلوب القرآنيّ، حيث تبدو حينًا من قبيل السرد، وحينًا آخر من لبِّ الحوار، ويَتَصَرَّف فيها مُنزِّل القرآن تصرفًا عجيبًا؛ سواء في ذكره أو حذفه[١].

ونلاحظ أنّ سورتي المائدة وآل عمران لم تذكرا قصة ولادته ﷺ، فسورة المائدة جاءت في سياق الآخرة، أما سورة آل عمران ففي سياق الدنيا، وفيها الحوار الذي كان بين جبريل ﷺ وبين مريم عليها السلام حين بشرها بولادته، وسياقها انتقل من التبشير بولادته إلى ذكر معجزاته على لسانه، ولم يكن جمعٌ من الملائكة هم من قام بالتبشير، بل ذكر العام وأراد به الخاص، وهو جبريل ﷺ، والكلمة التي بُشرت بها مريم هي كلمة التكوين، وهي تعلّق القدرة بقوله تعالى: كن.

وعبر عن اسمه من خلال العَلَم، واللّقَب، والوَصْف بالاسم؛ لأنّ لثلاثتها أثرًا في تحقيق المسمّى؛ فأمّا اللقب والعَلم فظاهر، إذ لجميع الأفراد أسماء، وبعضهم اشتُهر بلقب معين، وهذا أمر عام، " أما الوصف المفيد للنسب؛ فلأنّ السامعين تعارفوا ذكر اسم الأب في ذكر الأعلام للتمييز وهو المتعارف، وتذكر الأمّ في النسب إما للجهل بالأب، وإما لأنّ لأمّه مفخرًا عظيمًا"[٢]. فالمسيح لقبٌ له، واسمه عيسى، وقدم اللقب على الاسم؛ لأنّ " المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفًا، رفيع الدرجة مثل الصّدّيق والفاروق، فذكره الله تعالى أولاً بلقبه؛ ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص"[٣].

وقد ورد في سورة مريم كيف تكلم عيسى ﷺ في المهد مع أمه، فقال تعالى: (فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾) (مريم:٢٤-٢٦)، وهذا من كلامه معها، أنطقه الله لها حين وضعته؛ تطيبًا لقلبها، ولإزالة الوحشة عنها من جهة، ولترى صدق ما بشّرها به جبريل ﷺ؛ وأول ذلك تكلمه وهو في المهد.

وكانت النتيجة التي أخبر الله بها بعد ذلك قوله: (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾) (مريم:٣٧)، وهو المشهد الذي ذُكر في سورة المائدة، ابتداء من قوله تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ)، إلى أنْ يحكم بين الخلائق، وهي إحالة قبلية للربط بين الأحداث والمشاهد، والفرق التي انقسمت إليها النصارى ذُكرت في المائدة: الفرقة الأولى هم الذين قالوا إنّ

[١] انظر: الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي**، مصدر سابق، ص٢٢٦.
[٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٤٦.
[٣] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٤.

الله هو المسيح ابن مريم، والفرقة الأخرى هم الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وهاتان الفرقتان كافرتان بنص القرآن، والفرقة الثالثة هي التي تقول إنّ عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، وهؤلاء اضطهدوا ولم يبق منهم أحد في الوقت الحاضر.

وقد أنكر اليهود حادثة ولادة المسيح ونطقه في المهد، ومما يلاحظ في خبر نطقه في المهد أنّ ما جاء في سورة مريم يختلف تمامًا عما جاء في سورة آل عمران، فسورة مريم مكيّة، عالجت قضية العقيدة من خلال قصة ولادة عيسى ﷺ، فأثبت الألوهيّة لله، وأثبت لنفسه الرسالة والأخلاق الكريمة العالية، بينما في سورة آل عمران وهي سورة مدنيّة؛ ذُكرت فيها المعجزات التي أجراها الله على يديه، ثم نصر الله له، وذكرّ بهذه المعجزات في سورة المائدة وهي مدنيّة كذلك، وهذا مناسب لوجود اليهود في المدينة، وهم الذين يرفضون التصديق بلا أدلة ماديّة محسوسة أومرئيّة، وقد انتظمت الآيات في كل سياق بما يناسبه، فجاء الانسجام قويًّا واضحًا بين الآيات، وبين غرض كل سورة، ومكان نزولها، لأنّ ذلك يخدم الدعوة الإسلامية باختلاف الأسلوب، وذلك بمراعاة المتلقّي في كل مرة، فالعرب المشركون في مكة يؤمنون بالله ربًّا؛ لكنهم لا يفردونه بالألوهيّة، فجاءت الآيات لإثبات الألوهيّة لله وحده، ونبوّة المسيح ﷺ، وهذا يعني إمكانيّة وجود أنبياء آخرين، وهو إشارة إلى نبوّة محمد ﷺ.

وهناك اختلاف في مناداة الله ﷻ لعيسى ﷺ، في آل عمران: (يا عيسى)، و في سورة المائدة: (يا عيسى بن مريم): فعيسى ﷺ نودي أربع مرات في المائدة، مرة قال: (عيسى) مجردًا، وفي مرتين: (يا عيسى ابن مريم)، والمرة الأخيرة نودي فيها على لسان الحواريين: (يا عيسى ابن مريم). وفي المرة التي نودي فيها: (يا عيسى) باسمه المجرّد من الله تعالى، أي من الأعلى إلى الأدنى، هذا النوع من التحبب والتقرب، والمناسبة هنا مناسبة توفٍّ، فلا بد أن يرقّق الكلام معه أي أنّه قريب منه، لأنّ هذا معناه القرب من الله ﷻ، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٥٥﴾﴾ (آل عمران:٥٥)، فهذا الموضع لا يحتاج إلى أن يذكر أمّه.

وإذا كان النداء من الأدنى إلى الأعلى، وهو من الحواريين إليه؛ ويكون النداء بالاسم للرسول نوع من قلّة المجاملة وقلّة الاحترام، فنجدهم ينادونه باسمه الكامل للاحترام، واسمه الكامل (عيسى ابن مريم)؛ وقالوا ذلك عندما طلبوا نزول المائدة، قرّروا معرفتهم به وأنّه ابن مريم، وأنّه معجزة، ويعلمون أنّ أمّه ولدته من غير أب، لكنّهم لم يقولوا يا رسول الله، قال بعض

المفسرين[١]: كأن في نفوسهم شك، ولم يكونوا مؤمنين إيمانًا جازمًا قاطعًا وإلا لقالوا يا رسول الله، وترى الباحثة أنّ الله ربما أجراه على لسانهم ليرتبط اسمه باسم أمه، ومن كان له أمّ فلن يكون إلها، وربما كان ذلك بطلب منه لما أجراه الله على يديه من المعجزات الخارقة التي لا يأتيها بشر، فتبقى صورة أمّه مرسومة في أذهانهم عند مخاطبته، فلا يزيدون من منزلته عند الله ﷻ شيئًا؛ كما أنّ قولهم: يا عيسى ابن مريم مناسب لقوله تعالى: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)، لإقرارهم برسالته ومن ثم طلب المعجزة من الله ﷻ وليس منه.

كما وردت: (يا عيسى ابن مريم) في قوله تعالى: (إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ...) (المائدة:١١٠)، وقوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ...) (المائدة:١١٦)، وهذا القول في الآخرة؛ والله يريد أنْ يقيم الحجّة على من قال إنه ابن الله أو إنه إله، وقوله تعالى: (عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ) ذكرت الأم على رؤوس الأشهاد، وصُرّح باسمه الكامل، فهو ليس إلهًا، وليس ابن يوسف النجار كما قال اليهود واتهموا مريم عليها السلام، فكلامه تعالى معه على رؤوس الأشهاد ليس كمثل كلامه بينه تعالى وبين عيسى، وفي الآية الثانية يسأله ليقرر الحقيقة أمام هؤلاء الذين اختلفوا فيه، وغيّروا ما قاله الله ﷻ، فذكر اسمه، وكان لا بد أنْ يذكر اسم أمّه لارتباطهما في هذه النّعمة، فذِكْرُ الأمّ مناسب في هذا السياق.

وحيث ورد **المسيح** في كل السور سواء وحده، أو **المسيح عيسى ابن مريم**، أو **المسيح ابن مريم**[٢]، لم يكن في سياق ذكر الرسالة، وإيتاء البيّنات أبدًا، ولم ترد في التكليف، وإنّما تأتي في مقام الثناء، أو تصحيح العقيدة، كما في قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ) (آل عمران:٤٥)، وقوله: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا) (النساء:١٥٧)، وقوله: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

---

[١] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٩.
[٢] انظر: السامرائي، **لمسات بيانية**، سورة المائدة، مصدر سابق، شبكة الإنترنت.

قَدِيرٌ) (المائدة:١٧)، وقوله: (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ) (التوبة:٣١). أما عيسى ابن مريم في كل أشكالها؛ فهذا لفظ عام يأتي للتكليف، والنداء، والثناء؛ فهو عام، كما في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ) (مريم:٣٤)، وقوله: (وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ...) (المائدة:٤٦)، وقوله: (إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ...) (المائدة:١١٢)، وقوله: (وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ...) (المائدة:١١٦).وكذلك ابن مريم لم تأتِ مطلقًا بالتكليف، كما في قوله تعالى: (وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ) (المؤمنون:٥٠)، وقوله: (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ) (الزخرف:٥٧).

ولا نجد في القرآن كله (آتَيْنَاهُ البَيِّنَاتِ) إلا مع لفظ **(عيسى)** فقط، كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (الزخرف:٦٣). إذن في التكليف والثناء يأتي بلفظ عيسى، وهي كلمة عامة ، فالمسيح ليس اسمًا ولكنّه لقب، وعيسى اسم؛ أي يسوع، وابن مريم كنيته، واللقب في العربية يأتي للمدح أو الذم، والمسيح معناها المبارك، وفي التكليف جاء باسمه (عيسى) وليس بلقبه ولا كنيته.

وأضاف ابن الأنباري: " وإنّما بدأ بلقبه لأنّ المسيح أشهر من عيسى، لأنّه قلّ أنْ يقع على سَمِيٍّ يشتبه، وعيسى قد يقع على عدد كثير فقدمه لشهرته"[1]. ولم يقع هذا اللقب في سياق تذكير النعمة في الآخرة؛ فقال تعالى: (إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ)؛ فجمع بينهما في ذلك، والمخاطبة بدون ألقاب التشريف، أما في سياق تبشير مريم عليها السلام فذكر له لقب التشريف ، لتعلم أنّ ابنها هذا له شأن ومكانة عند الناس وعند الله.

وينتقل الخطاب إلى جبريل عليه السلام بوحي من ربه مخبرًا عن قدرة الله تعالى، ومن ثم يذكر أمورًا تتعلق به، فقال: (وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ)، فبشرها

[1] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٨٢.

بتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وقيل: إنّ الكتاب تعني الكتابة أي الخط، والحكمة الكلام المحكم الصواب، ثم خص التوراة والإنجيل بالذكر مما تناوله من الكتاب والحكمة؛ " لأنّ المراد بها جنس الكتاب والحكمة"[١]، وأخّر تعليم التوراة عن تعليم الخط والكتابة؛ " لأنّ التوراة كتاب إلهي، وفيه علوم أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة؛ لا يمكنه أنْ يخوض في البحث عن أسرار الكتب الإلهية"[٢]، وأخّر ذكر الإنجيل عن التوراة؛" لأنّ من تعلّم الخط، ثم تعلّم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء؛ فقد عظمت درجته في العلم، فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتابًا آخر، وأوقفه على أسراره؛ فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم، والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحِكَم العلوية والسفلية"[٣].

ثم يخاطب عيسى عليه السلام بني إسرائيل قائلاً: (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾) (آل عمران:٤٩-٥١)، فذكر لهم الآيات والمعجزات التي أيده الله بها، ومعنى جئتكم: أرسلت إليكم من جانب الله، والمقصود بالمجيء " الإخبار بأنّه رسول؛ لا بأنّه جاء بآية "[٤]، وأول الآيات التي ذكرها هو أنّه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، والخلق حقيقته: تقدير شيء بقدر، ويُستعمل مجازًا مشهورًا أو مشتركًا في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء، فهو إبداع شيء وإبرازه للوجود، والخلق هنا مستعمل في حقيقته، أي: أقدّر لكم من الطين كهيئة الطير؛ وليس المراد به خلق الحيوان، بدليل قوله: (فأنفخ فيه)، فهو يعمل على تشكيله فقط[٥]، والكاف في قوله (كهيئة الطير) بمعنى: مثل، أي: شيئًا مقدّرًا مثل هيئة الطير، أي أنه كان يصوّر من الطين صورة كصورة الطير، والضمير فيقوله: (فأنفخ فيه) " عائد على الموصوف المحذوف الذي دلت عليه الكاف"[٦]،أي إنّه يعود لمرجع مُتَصيّد دلّ عليه السياق، وهو الشيء المُخلّق وفي آية المائدة (فتنفخ فيها)، الضمير للكاف

---

[١] الزمخشري، **الكشاف**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣١٢.
[٢] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٧-٤٨.
[٣] المصدر السابق نفسه.
[٤] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٠.
[٥] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٠.
[٦] المصدر السابق، ج٢، ص٢٥١.

في كلمة: (كهيئة)، لأنّها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنّها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء، فالكاف تؤنث بحسب المعنى لدلالتها على الهيئة التي هي مثل هيئة الطير، وتذكر بحسب الظاهر، لذلك جاز أنْ يقع الضمير عنها تارة على وجه التذكير، وأخرى على وجه التأنيث"[١].

وعندما تحدث عن نفسه وما يقع من المعجزات قال: (فأنفخ فيه)، فما زال الكلام على لسانه، أما في المائدة، فكان سياق تعداد النعم، وكان الكلام معه من الله ﷻ، فقال له: (فتنفخ فيها)، وهو خلق لهم بمعنى التكوين أو الصّنع من مواد أوليّة جعلها الله بين أيدينا وليس الإيجاد على غير مثال سابق؛ فهذا يخص الله تعالى فقط، فصنع هيئة الطير من الطين، فصار عندنا هيئة الطير، وعندنا طين، فإذا أراد أن يشير إلى الهيئة؛ قال: أنفخ فيها، يعني في هذه الهيئة، وإذا أراد أن يشير إلى الطين؛ قال: فأنفخ فيه يعني في الطين، فمرة نظر إلى الهيئة ومرة نظر إلى الطين، أما في آل عمران فقد نظر إلى الطين؛ فقال: (فأنفخ فيه) أي: في هذا الطين، فإذا أراد أنْ يقول إنّ النفخ صار في الطين، أي ذكر أصل التكوين الذي هو الطين حتى يذكّرهم أنّ هذا الطين جَعلتُ منه طيرًا وفي قراءة نافع: (فيكون طائرًا) أي يطير أو من الطيور، لأنّه يريد أنْ يكلمهم عن معجزة، والشيء المعجز إذا قدمه تكفي حالة واحدة منه على صدق نبوءته، فلمّا تحدث عن حالة معهم؛ ذكر حالة واحدة وأشار إليها بالمذكر: (فأنفخ فيه)، وفي آية المائدة قال: (فتنفخ فيها) نظر إلى الهيئة وجاء التأنيث؛ لأنّ التأنيث أصلح للتعدد، كما تقول: (فيها) يعني متعددة كأنّ الهيئة صارت أكثر من حالة، فصارت هيئات متعددة، فهي إذن في مجال بيان تعداد نعم الله سبحانه وتعالى؛ فاختار التأنيث لأنّ التأنيث أليق مع جمع غير العاقل، وناسب ذلك لأنّه في موضع تعداد النعم[٢]، وهذا يعني أنّ معجزة تكوين الطائر والنفخ فيه قد حدث عدة مرات.

وفي الإسناد بين (بإذن الله)، و (بإذني) يقول الدكتور حسام النعيمي[٣]: إن التعبير (بإذن الله) في آل عمران كان على لسان عيسى ﷺ في الدنيا، فكان يقول: (بإذن الله)، أما في المائدة، فكان سياق تعداد النعم، وكان الكلام معه من الله ﷻ، فقال له: (بإذني)، وفي الفرق بينهما، يقول الشيخ خالد الجندي[٤]: إنّ الله تعالى يعلم أنّ هناك من سيدّعي ألوهية عيسى ﷺ؛ فقطع عليهم تعالى خط زعم الألوهية، فإذا فَهم أحدهم من آية سورة آل عمران (بإذن الله) أنّ عيسى هو الله كما يقولون افتراء؛ يعود إلى سورة المائدة التي فيها الكلام موجه من الله تعالى إلى عيسى ﷺ، حتى يفهم الناس أنّ الذي يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى هو الله تعالى؛ وليس عيسى، فالقرآن

---

١ الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج١٢، ص١٣٤.

٢ انظر: الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، ص٣٤. الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٣٧٢- ٣٧٤.

٣ السامرائي، **لمسات بيانية** بتصرف، مصدر سابق، شبكة الانترنت.انظر: الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٣٥.

٤ انظر: السامرائي، **لمسات بيانية**، مصدر سابق، شبكة الانترنت.

يدعم بعضه بعضًا، فلم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه؛ بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة؛ ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله، فنرى التعبير متّسقًا متناسقًا مع غيره من التعبيرات؛ كأنه لوحةٌ فنيةٌ واحدةٌ مكتملةٌ ومتكاملةٌ.

وكرر (بإذن الله)؛ " دفعًا لمن يتوهم فيه الألوهية "[١]، فالتكرار هنا جاء لدفع اللبس أنْ تكون الأولى بإذن الله، والثانية بغير إذن الله؛ فأدّى الدلالة المقصودة ودفع اللبس، وهذا الأمر من ضرورات فهم النص القرآنيّ، ومن الملاحظ أنّه جاء في آل عمران (بإذن الله) مرتين، وفي المائدة (بإذني) أربع مرات بعد أربع جمل، " لأنّ هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها فناسب الإسهاب، وهناك موضع إخبار لبني إسرائيل، فناسب الإيجاز"[٢]، فذكر (بإذن الله) بعد الأمور الخارقة الأعظم، وجاءت بعد الحديث عن الخلق، ثم عطف عليها الإبراء، ثم عطف عليها إحياء الموتى، وأتبعها بقوله: (بإذن الله)، وعندما ذكر الإخبار بالمغيبات، وهي إخبارهم بما يأكلوه وما يدخرون في بيوتهم لم يذكر ذلك، لأنّه واضحٌ من السياق أنّ ذلك أيضًا لا يكون إلا بإذن الله، وهي أمور خاصة بالنسبة للناس، وما قبلها من الأمور العامة، ومعنى إخبارهم بأمورهم الخاصة؛ أي إنّه يخبرهم عن أحوالهم التي لا يطّلع عليها أحد سواهم، وربما ذلك كان بعد أنْ نزلت المائدة من السماء ونهاهم عيسى عليه السلام أنْ يدّخروا منها شيئًا.

ثم ذكر المعجزة الثانية وهي إبراء الأكمه والأبرص، والأكمه هو الذي وُلد أعمى، وقيل: هو الممسوح العين، أمّا الأبرص فهو المصاب بداء جلدي يظهر على شكل بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد، وربما عمّته كلّه، وقد تبقى متميزة في أجزاء منه[٣]، وخص بالذّكر الكمه والبرص " لأنهما داءان معضلان، لا يقدر على الإبراء منهما إلا الله "[٤]، بالإضافة إلى ذلك، " فقد اهتمت التوراة بأحكام الأبرص، وأطالت في بيانها، وكررته مرارًا، وقد وصفة الوحي لموسى عليه السلام؛ ليعلّمه الكهنة من بني إسرائيل، ويعلمهم طريقة علاجه، وأحكامه مفصّلة في سفر اللاويين، ولذا كان إعجاز المسيح بإبراء الأبرص أهم المعجزات فائدة عنهم دنيًا ودينًا "[٥]، ولا شك أنّ إعادة البصر لمن ولد أعمى أو ممسوح العين أكبر المعجزات، إذ لم تكن هناك بوادرٌ لإمكانية الرؤية والإبصار عنده، وذلك كله بإذن الله وحده. ثم ذكر إحياء الموتى، فقد ذكر أنه أحيا بعض الموتى، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى بلا شك، كرّرها " تأكيد الكَوْن ذلك واقعًا بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى وإيجاده"[٦].

---

[١] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٤، ص٥٦.
[٢] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٣٤.
[٣] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥١.
[٤] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٨٩.
[٥] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥١.
[٦] الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٩.

وفي آل عمران قال: (وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ) أما في المائدة فقال: (وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ)؛ " أطلق الإخراج وأريد به لازمه وهو الإحياء، لأنّ الميت وضع في القبر لأجل كونه ميتًا، فكان إخراجه من القبر ملزومًا لانعكاس السبب الذي لأجله وضع في القبر"[1]، وأُعيد (إذ) لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعدما صارت رميمًا معجزة باهرة، ونعمة جليلة حقيقية بتذكير وقتها صريحًا[2].

وتكررت (إذ) في سورة المائدة، ولم تذكر في سورة آل عمران، لأنّه في المائدة كان هناك تعداد لنعم الله سبحانه وتعالى عليه، أمّا في آل عمران لم يكن هناك نوع من التعداد للنعم، وإنّما كان نوع من بيان حال عيسى عليه السلام وهو يتكلم، يعني أنّه يقول: أنا أفعل هذا، وأفعل هذا، فلا مجال فيه للتذكير، أمّا في آية المائدة كان الله يذكّره، إذ بدأ بكلمة (اذكر)؛ ثم صارت تقدّر؛ (إذ أيدتك) يعني اذكر إذ أيدتك، (إذ علّمتك) يعني اذكر إذ علّمتك، (إذ تخلق) كذلك؛ فإذ لبيان حال الماضي بخلاف (إذا) التي هي لما يستقبل من الزمان، ولما تتكرر (إذ) كأنه يكرر (واذكر حين كان هذا الأمر)؛ يعني نوع من التوكيد، فهو بيان لنعم الله تعالى، فهو من باب التكرار المحمود، لأنّ فيه بناء أمر قائم بذاته، فكل عبارة تستحق الوقوف عليها لوحدها، فكل نعمة قائمة بذاتها، ولم يقل في السياق (وإذ تبرئ)؛ وإنّما ربطها مع ما قبلها حتى يكون هناك نوع من التباعد، فالقرآن الكريم يلوّن وينوّع في الاستعمال[3].

وأتى بهذه المعجزات مصدّرة بالمضارع الدال على التجدد والحالة الدائمة، سواء في آية آل عمران أو آية المائدة، وبالترتيب نفسه، وبدأ بالخلق الذي هو أعظم إعجازًا، وثنّى بإبراء الأكمه والأبرص، وأتى ثالثًا بإحياء الموتى.

ومعجزة المائدة لم ترد في سورة أخرى سوى سورة المائدة، وهي من نعم الله على بني إسرائيل الذين اتّبعوا عيسى عليه السلام، وجعل كل هذه الآيات داعية إلى الإيمان به، فخطابه موجه لبني إسرائيل المكذبين له، وأخبرهم بأنّ شريعته مصدّقة لشريعة التوراة، إذ كانوا ينكرون النسخ ويرفضونه، وهذا إنْ دلّ على شيءٍ فهو يدلّ على أنّ الشرائع واحدة؛ لأنّ المشرع واحد، وما وجدوا اختلافًا إلا ما بيّنه بعد ذلك بقوله: (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)، فمرد هذا الاختلاف أحبارهم وعلماؤهم الذين غيّروا ما جاء في التوراة وفق أهوائهم، لذا فقد أعاد قوله تعالى: (وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)، " تأكيدًا لقوله الأول: (أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)، وإنّما عطف بالواو؛ لأنّه أريد أنْ يكون من جملة الأخبار المتقدمة، ويحصل التأكيد بمجرد تقدم

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص ١٠٢.
[2] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٣٨.
[3] انظر: النعيمي، حسام، **لمسات بيانية**، شبكة الانترنت.
www.startimes.com/f.aspx?t=٣٤٠٣٦٠٨١

مضمونه، فتكون لهذه الجملة اعتباران يجعلانها بمنزلة جملتين، وليبني عليه التفريع بقوله: (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)"[١]، فنلاحظ هنا كيف أدى العطف وظيفة دلالية كبيرة، فالواو أحالت إلى جملة أخرى سابقة وقامت بتأكيدها، أما الفاء فهي هنا واقعة في جواب الطلب وليست للعطف، حيث وصلت بهم إلى الواجب عليهم بعد سرد المعجزات الخارقة.

ثم تأتي دعوته لقومه مصرّحة بعبوديته لله بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)، والجملة " واقعة موقع التعليل للأمر بالتقوى والطاعة، كشأنها إذا وقعت لمجرد الاهتمام"[٢]؛ لأنّه تعالى وليّهم فهو حقيق بالتقوى، ولكنّه تعالى أرسل رسولاً يجب طاعته، أي طاعة الرسول طاعةٌ لله ﷻ، لذلك قال: (فَٱعْبُدُوهُ) لأنّ الربوبية تقتضي العبادة، وهذا هو الصراط المستقيم الحق الذي دعا إليه جميع الرسل.

وتأتي الألفاظ هنا لتحمل شحنات دلالية، تكشف عن المعنى الذي يقع خلفها لكي تساعد على فهم الأحداث ومسارها، ومغزاها؛ اعتمادا على السياق، " إذ تنطوي الألفاظ على دلالات تتيح لنا الإبانة عن معرفتها وفق ما يقتضيه السياق"[٣]؛ فالخطاب الأخروي في سورة المائدة خلا من تذكير بني إسرائيل بكون هذه آيات معجزات من الله ﷻ، أو كونه مصدقًا لما جاء في التوراة، كما خلا من الأمر بعبادة الله ﷻ، لأنّ السياق الحاصل لا يحتاج لكل هذه الأمور، فهو موقف حساب وسؤال عما حصل من قبل، وليس موقف دعوة إلى الله ﷻ، وذُكِر من خلال هذا الموقف المشهود ما سيُسأل عنه عيسى عليه السلام عن طريق التناص الداخليّ الذي سبق في سورة آل عمران، وأضاف بعد ذلك التذكير بإنجاء الله تعالى له، وكفّ بني إسرائيل عنه، فقال: (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (المائدة: ١١٠)، وقد ورد في آل عمران كيف كفّ الله بني إسرائيل عنه فقال: (إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾) (آل عمران: ٥٥)، وفي هذا حكاية لأمر رفع المسيح عليه السلام إلى السماء، وإخفائه عن أنظار أعدائه.

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢، ص٢٥٣-٢٥٤.
[٢] المصدر السابق، ج ٢، ص٢٥٤.
[٣] ناصف، مصطفى (د. ت). **نظرية المعنى في النقد العربي**، د. ط، ص١٦١، دار الأندلس، بيروت.

وقد أشار السياق إلى هذه الخاتمة بعد سؤال عيسى عليه السلام يوم الحشر، فقال تعالى: (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾) (المائدة: ١١٨-١١٩).

وفي قوله: (فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾) (المائدة:١١٠)، تخلصٌ بديع، حيث تخلص من تقريع المكذبين إلى كرامة المصدقين، واقتصر من دعاوي تكذيبهم إياه على قولهم: (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)؛ لأنّ ذلك الادّعاء قصدوا به التوسل إلى قتله، لأنّ حكم الساحر في شريعة اليهود القتل فالسحر عندهم كفر[1]. ثم ذكر تعالى نعمة أخرى من نعمه على عيسى عليه السلام وهو قوله تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) (المائدة:١١١)، فقوله: (وَإِذْ) عطف على ما قبله من الظروف المفسّرة لوقت النعمة التي أُمر بذكرها؛ وهي مغايرة لها نوعًا، لذلك أُمر بذكرها مرة أخرى، وتفيد (إذ) تعدد النعم واختلافها، فهو ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه، إحداهما معلومة الوقوع للمخاطب دون الأخرى، فيُراد إفادة وقوعها أيضًا له، وهي إيمان الحواريين[2].

ومعنى الإيحاء من الله؛ أمرُه تعالى إيّاهم في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام، وقيل إلهامه تعالى؛ وقد فسر هذا الإيحاء بقوله: (أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي)، أي قائلاً وداعيًا إلى الإيمان بالله إلهًا وربًّا، وبعيسى عليه السلام رسولاً، فهي دعوة إلى الإيمان به إلهًا وربًّا، وبعيسى عليه السلام رسولاً، أخّرها هنا في سياق التذكير بالنعم يوم القيامة، وقدمها على تخليص عيسى في السياق التاريخيّ لرحلته مع بني إسرائيل فقال: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾) (آل عمران:٥٢-٥٣). أي بعد أنْ دعاهم عيسى عليه السلام ورغّبهم، وحذّرهم، وقدّم لهم المعجزات؛ وذكرهم بعذاب الله؛ وجد أنّ من آمن به من قبل هو هو، وأنّ باقي بني إسرائيل كفروا به؛ فقال مستفهمًا لاختبار انتدابهم إلى نصرة دين الله معه، والضمير في قوله: (أنصاري) عائدٌ إلى عيسى عليه السلام؛ أي أنصار دعوته.

---

[1] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٣.
[2] انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج٣، ص٩٦.

وقد ورد مضمون الآية في سياق آخر فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ) (الصف: ١٤).

لكن مقالة عيسى عليه السلام في آل عمران تختلف عن مقالته في الصف، ففي آل عمران كان الاستفهام موجهًا إلى بني إسرائيل الذين أحسّ منهم الكفر بعد أنْ دعاهم إلى الإيمان، أما مقالته في الصف فهي موجهة للحواريين الذين آمنوا طالبًا منهم نصرته، ومن هنا اختلف المغزى والقصد في كلا الموقفين، ففي آل عمران إضافة (أَنصَارُ ٱللَّهِ) إضافة لفظيّة، وأما في الصف فالأظهر أنّ (أَنصَارُ ٱللَّهِ) اعتبرت لقبًا للحواريين، عرّفوا أنفسهم به، وخلعوه على أنفسهم؛ أرادوا الاستدلال به على أنهم أحق الناس بتحقيق معناه، ولذلك تكون إضافة (أَنصَارُ) إلى اسم الجلالة هنا إضافة معنويّة تفيد تعريفًا، أما جملة: (نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ) فهي مشتملة على صيغة قصر على خلاف نظيرتها في سورة آل عمران[١]. فكأن سياق آية الصف جاء تاليًا لسياق آل عمران؛ أي بعد أنْ سأل عيسى عليه السلام بني إسرائيل، ومنهم من آمن به وهم الحواريون، سألهم عمّن سينصر الله معه، فأجابه الحواريون بأنّهم أنصاره إلى الله، سأل هنا الحواريين أنفسهم؛ لحثهم على نصرة الدين ونصرته؛ بعد أنْ أضمر له اليهود المكائد، وأرادوا قتله، فقالوا مقرين قولهم الأول: (نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)؛ فجعلوا أنفسهم محقوقين بهذا النصر، لأنّهم جعلوا أنفسهم لنصر الدين، وعُرفوا بذلك، وحصروا أنفسهم على نصر الدين حصرًا يفيد المبالغة في تخصصهم له؛ كأنّه لا ناصر للدين غيرهم مع قلتهم، وأفاد ذلك التعريض بكفر بقيّة قومهم من بني إسرائيل. وجاء هذا الحصر من خلال تعريف المسند والمسند إليه وكذلك من خلال التعريف بالإضافة، فشبه دعاءهم إلى الدين، وتعليمهم الناس ما يرضاه الله لهم، بسعي ساعين إلى الله لينصروه؛ كما يسعى المستنجد بهم إلى مكان مستنجِده لينصروه[٢].

وفي آل عمران تحكي قصة اتباعهم له، وإعلان إيمانهم وإسلامهم؛ إذ قالوا: (قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝) فأشهدوا عيسى عليه السلام وأشهدوا الله على ذلك؛ فصاروا محقوقين بهذه الصفة، وفي

---

[١] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢٨، ص ٢٠٢.
[٢] انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢٨، ص٢٠١-٢٠٢.

المائدة ذكر الله امتنانه على عيسى بإيمان الحواريين، وما صدر منهم من إشهاد الله ورسوله عيسى ﷺ على إيمانهم؛ فقال: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾)، وقد فصل جملة (قالوا آمنا)؛ " لأنّها جواب ما فيه معنى القول؛ وهو (أوحينا)؛ على طريق الفصل في المحاورة، وهو قول نفسي حصل حين ألقى الله في قلوبهم تصديق عيسى ﷺ، فكأنهم خاطبوه فأجابهم، والخطاب في قولهم: (واشهد) لله تعالى، وإنّما قالوا ذلك بكلام نفسيّ من لغتهم، فحكى الله معناه بما يؤيده"[١].

و(أنْ) في قوله: (أَنْ ءَامِنُواْ بِي) تفسيرية، والجملة التفسيرية نمط من أنماط التكرار الذي يحقق التماسك النصيّ، وتفسر الوحي الذي ألقاه الله في قلوبهم، وخصّ الحواريين تنويهًا بهم؛ حتى كأنّ الوحي بالدعوة لم يكن إلا لأجلهم، لأنّ ذلك حصل لجميع بني إسرائيل فكفر أكثرهم.

وقد " قدم ذكر الإيمان على الإسلام؛ لأنّ الإيمان صفة القلب، والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني أنّهم آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم"[٢] فلا بد من تحمل تبعات هذا الإشهاد من خلال نصر الدين بنصر عيسى ﷺ. وقد أخبر الله في سورة الصف أنّ بني إسرائيل افترقوا فرقتين؛ فرقة آمنت بعيسى وما جاء به، والأخرى كفرت، وذلك لأجل " التوطئة لقوله: (فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ) قال فأيدنا، ولم يقل فأيدناهم، لأنّ التأييد كان لمجموع المؤمنين بعيسى ﷺ، لا كل فرد منهم، إذ قُتل من أتباعه خلق كثير، ومُثّل بهم، وأُلقوا إلى السباع"[٣].

وربما المقصود ببني إسرائيل هنا الحواريون الذين آمنوا، لأنّ ذلك في سياق الحديث عنهم، وكما هو معروف من كتب التفسير؛ فإنّ بعض الحواريين نصره في محنته، وبعضهم تنكر له ولم يوفِ بوعده بالنصر، وربما هذه الفرقة التي وصفت بأنّها كفرت، أي جحدت ما قالته ولم تعمل به ولم تنصر النبي خوفًا من تبعات ذلك، والله أعلم.

وقد قال في آل عمران: (وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)، وفي المائدة: (وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)، وهو من تمام الإجابة على الأمر على سبيل التوكيد، ففي سورة آل عمران يسأل عمن ينصره، أي يسأل عن الأنصار، والنصرة تقتضي الجمع والضم، قال الحواريون: (نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)، كان يمكن أنْ يكتفوا بقول: (نحن) وإنّما أرادوا أنْ يوضحوا ويبينوا، أي: نحن أنصار دين الله، وهذا في بيان

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠٤.
[٢] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٣٦.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٢٨، ص٢٠٣.

وتأكيد (آمنا بالله)، لأنّه سألهم من أنصاري إلى الله؛ فقالوا آمنا بالله الذي تدعونا لنصرة دينه، واشهد بأنّا مسلمون، اشهد علينا أنّنا مطبقون لشرع الله، وتضمّنت الآية تأكيدات عدّة، وهي: (أنصار الله)، (آمنا بالله)، (أنّ) للتوكيد وفيها معنى الضم، والتوكيد في (أنّ) حتى توصل إلى الإدغام الموحي بصورة الجمع، ولم يقل (بأننا)، فهنا حذف وخفّف؛ لأنّ التوكيدات كَثُرت، فخفّف التأكيد، وتوصل عن طريق هذا إلى الإدغام المشعر بهذا الالتصاق بين أنصار الله، والصورة صورة مناصرة؛ يراد لها صفٌّ والتصاق، وفي آية سورة المائدة، الكلام على الإيمان، وهو إلهام الله ﷻ لهذه الصفوة أنْ تؤمن بالله والرسول، فقالوا (آمنا)؛ لأنّ الدعوة كانت للإيمان بالله ورسوله، ولوا قالوا آمنا بالله ورسوله يكون تكرارًا ليس له معنى، وهذه الآية ليس فيها تأكيدات كالآية السابقة فحُوفظ على (إنّ) كاملة حتى يكون فيها التأكيد الأقوى لإسلامهم، ولم يحذف؛ من قبيل زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لأنّه لا توجد مؤكدات وفصلوا حتى يكون آكد، كما أنّ ما جاء في المائدة من كلام الحواريين، فجاء على الأصل، وما جاء في آل عمران تكرار لكلامهم؛ فجاء فيه التخفيف[1].

ثم التفتوا إلى نبيهم الذي آمنوا به فقالوا: (ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)؛ ولم يقولوا: مؤمنون، لأنّ الإيمان لا يظهر، الإيمان في القلب والإسلام تطبيق عملي، وعيسى عليه السلام يحتاج لمن يظهر له علامة الإيمان، وهو التطبيق العملي له المتمثل بالإسلام، فهو يريد أن يظهروا إسلامهم فقالوا مسلمون، لأنّه متضمن لمعنى الإيمان[2].

وأثبت لفظ الجلالة في آل عمران؛ لأنّه تقدم ذكر الله فقط في قوله: (قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ) (آل عمران:٥٢)، وفي المائدة لم يذكره؛ إذ تقدم قوله: (أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى)[3].

ثانيًا: تحليل المشهد الثاني :

من خلال الحديث عن موقف الحواريين تخلّص إلى طلبهم معجزة سماوية، وهو تخلّص بديع يُقدّم الأحداث بانسجام فريد، فيكون الكلام تخلصًا إلى ذكر قصة المائدة بمناسبة حكاية ما دار

---

[1] الكرماني، **البرهان في متشابه القرآن**، مصدر سابق، ص٣٦. الاسكافي، **درة التنزيل**، مصدر سابق، ج١، ص٣٨٤-٣٨٥.

[2] النعيمي، حسام، **لمسات بيانية**، مصدر سابق، شبكة الإنترنت.

[3] انظر: الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٥٧.

بين عيسى عليه السلام وبين الحواريين في قوله تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى)، وهذه القصة حدثت حقيقة في الدنيا، وإنْ كان سياق ذكرها في الآخرة، ولم ترد في مكان آخر، ولذا فقد فصّلت الآيات ما دار حولها من حوار بين الحواريين وبين عيسى عليه السلام، ولا شك أنّ اختيار هذه القصة خاصة لما فيها من الشدائد النابعة من مخالفة الحواريين لما أمرهم به عيسى عليه السلام بخصوص المائدة، وهو مناسب كسؤال لهم ضمن أهوال يوم القيامة التي يلاقيها كل من خالف أمر الله بعد أنْ حذرهم من هذا اليوم، وما سيحصل فيه من العذاب لمن كفر وجحد منهم.

وقد قصّ الله عز وجل خبر المائدة فقال: (إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾) (المائدة: ١١٢-١١٥)؛ فبدأ الحواريون هنا خطاب عيسى عليه السلام لطلب معجزة من السماء، حيث أظهر اسم الحواريين في موقع الإضمار، وقطع الكلام عما قبله، فلم يعطف هذا الخبر على ما سبق، وهذا الخطاب موجه للنبي ﷺ بطريق الالتفات وتلوين الخطاب؛ يخبره بهذا الحدث الضخم الذي يوازي في أهميّة ما فعله اليهود يوم السبت، وفي قصّ هذا الخبر في سياق الاستجواب يوم القيامة زجر للمؤمنين الذين يطلبون المعجزات بعدما رأوا من الآيات.

ومن عجيب المفارقات أنّ الحواريين وهم صفوة بني إسرائيل تجرؤوا على مناداة نبيهم عيسى عليه السلام باسمه، وهم بالنسبة إليه من خيرة بني إسرائيل إذ آمنوا به وصدقوه، فكيف بمن لم يؤمن به، هذا وهم الذين شهدوا على أنفسهم فقالوا: (وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) وفي موضع آخر قالوا: (نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ)، على أنّ ذلك وإنْ كان يدل على قلّة تقديرهم لنبيهم؛ إلا إنّه ينطق بشهادة مفادها أنّ هذا الرسول بشر، وهو ابن مريم عليها السلام، وليس إلها ولا ابن إله، وهم يعرفون ذلك ويقرّون به، ويرى ابن عاشور أنّ خطابهم لعيسى عليه السلام باسمه " للدلالة على أنّ ما سيقولونه أمر فيه اقتراح وكلفة له؛ وكذلك شأن من يخاطب من يتجشم منه كلفة أنْ يطيل خطابه طلبًا لإقبال سمعه إليه ليكون أوعى للمقصود"[1]، وقولهم: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ)

---

[1] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج٧، ص١٠٥.

استفهام، وهو استفهام حقيقي لا مجازي، والمراد منه هو المستفهم عنه وهو إنزال المائدة من السماء[١].

" والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبّب بالسبب إذ هي من أسباب الإيجاد"[٢]، وفيه إشكالٌ وجهه المفسرون على هذه القراءة، وقرأ الكسائي: (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بتاء المخاطب، وبنصب الباء في ربك؛ " وجهوا المعنى توجيهًا آخر، ونسبوا الاستطاعة لعيسى عليه السلام، أي: هل تستطيع أنْ تدعو ربك بهذا الدعاء"[٣]. وفي رواية الطيبيّ عن عائشة قالت: كان الحواريون أعلم بالله ﷻ من أنْ يقولوا هل يستطيع ربك، ولكن قالوا: (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ)؛ فالقراءة الأولى توجب شكّهم في استطاعة الله، والقراءة الثانية توجب شكّهم في استطاعة عيسى عليه السلام، وقد ذكر المفسرون أوجهًا لتخريج القراءة الأولى[٤].

وقيل إنّه ليس بشك، وإنّما هو تلطّف في السؤال وأدب مع الله ﷻ، وليس شكًّا[٥]، وهي طريقة عربية في العرض والدعاء، يقولون للمستطيع للأمر: هل تستطيع كذا، على معنى تطلب العذر له إنْ لم يجبك إلى مطلوبك، وأنّ السائل لا يحب أنْ يكلف المسؤول ما يشق عليه. فكلمة يستطيع لها معنيان في اللغة: الاستطاعة بمعنى القدرة (هل يقدر؟)، والاستطاعة بمعنى الفعل (هل تفعل؟)، فلما قالوا: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) لا يعنون هل يقدر ربك، وإنما هل يفعل ربك إذا دعوته؟ وذلك ليس شكًّا في قدرته تعالى لأنّهم آمنوا به وشهدوا بذلك، وكذلك لوجود قراءة: (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ)؛ أي هل تستطيع أو تقدر أنْ تدعو ربك؟ فليس معناه: هل لديك القدرة ؟ وإنما معناه: هل يفعل ربك إذا دعوته، وهذا من خلال الجمع بين القراءات، وهذا من تمام التناسب والانسجام في النص القرآني، فكما أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا؛ فكذلك القراءات القرآنية تفسر القرآن.

و(يستطيع) هنا مستعار لـ (يستجيب) بجامع التمكن من الحصول على المطلوب في كل منهما أو مجاز مرسل بإطلاق السبب (الاستطاعة) وإرادة المسبب (الاستجابة)[٦].

---

١ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧١
٢ الألوسي، **روح المعاني**، مصدر سابق، ج٧، ص٥٩.
٣ الفارسي، أبو علي (٢٠٠٧) **الحجة في القراءات السبع**، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون)، ط١ ج٣، ص٢٧٣، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤ انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٣٧-١٣٨، الأندلسي، **البحر المحيط** ، مصدر سابق، ج ٤، ص٥٧-٥٨.
٥ انظر:القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ،ج٦، ص٣٦٥.ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠٥.
٦ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٢.

وقالوا: (ربك) ولم يقولوا (ربنا) مع أنّهم آمنوا بالله، فيه فائدتان: الأولى: كأنّما ألقوا الأمر إليه أنّه ربك كما قال بنوا إسرائيل لموسى: (فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ)، أي: هذا الفعل أنت تقوم به، والثانية: نوع من رفعة عيسى عليه السلام لأنّه ربك قبل أنْ يكون ربًّا لنا، فيه إشارة إلى تقديم عيسى عليه السلام"(١).

وفي قوله: (أَن يُنَزِّلَ) آثر المصدر المؤول على الصريح (إنزال)؛ لتعلق الرجاء بالمستقبل الذي يفيده المصدر من (أن) و (ينزل)(٢). وهو ليس للتدرج؛ لأن فعّل تأتي للتدرج، وتأتي للتكثير والتوكيد، فهم يريدون أن يؤكدوا التنزيل، فانظر كيف أنّ القرآن يدقق في اختيار ألفاظه " لوجود الفروق الدقيقة بين دلالتها، ولما يبعثه بعضها في النفس من إيحاءات خاصة؛ فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء، وكل كلمة تحمل إلى القارئ معنىً جديدًا لا تستطيع الوفاء به أختها"(٣).

وقالوا: (عَلَيْنَا) استعملوها للعلو، ثم أكدوا ذلك بكلمة (مِّنَ ٱلسَّمَآءِ) يريدونها من السماء حتى لا يأتيهم عيسى بطعام من الأرض، ولذلك جاء الجواب: (قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ)؛ استعمل اللفظ الذي استعملوه، يريدونها من فوق فاستعملوا علينا؛ ولم يقولوا إلينا، نزل عليك فيه معنى العلو والاستعلاء، ونزل إليك فيه معنى التقريب؛ كأنّما يقربه إليه، ويمكن أنْ يتعاور حرفا الجر، لكل حرف معناه وله صورته؛ وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي احتارت بها عقول الباحثين وأثارت تساؤلاتهم وحركت أذهانهم للبحث عن حقيقة استعمال هذا الحرف أو ذلك، وكل ذلك من مظاهر الاتساق والانسجام بين التركيب والدلالة، وقد اهتم العلماء بالمفردة القرآنية وطريقة صياغتها وتنوع بناها وتعدد دلالاتها باختلاف استعمالها؛ فذكروا أنّ للألفاظ مواضع، قال أبو هلال العسكري: " وحُسْنُ الرصف أنْ توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن من أماكنها"(٤).

والمائدة: تعني فيها طعام، فإذا لم يكن فيها طعام يقال لها خِوان، ولا تكون مائدة من غير طعام(٥)، وهي مشتقة من الفعل ماد يميد، قال ابن الأنباري: " سميت مائدة لأنّها عطيّة؛ من قول العرب: ماد فلانٌ فلانًا يميده ميدًا، إذا أحسن إليه، فالمائدة على هذا القول فاعلة من المَيْد بمعنى مُعْطِيَة، وقال أبو عبيدة: المائدة فاعِلة بمعنى مفعولة مثل: عيشة راضِية، وأصلها مُمِيدَة مِيدَ بها

---

١ النعيمي، حسام، **لمسات بيانية**، مصدر سابق، شبكة الإنترنت.
٢ المطعني، التفسير **البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٢.
٣ بدوي، أحمد (٢٠٠٥). **من بلاغة القرآن**، د.ط، ص٥١، نهضة مصر.
٤ العسكري، **كتاب الصناعتين**، مصدر سابق، ص١٦١.
٥ النعيمي، حسام، **لمسات بيانية**، مصدر سابق، شبكة الإنترنت.

صاحبها، أي أُعطيها وتُفُضِّل عليه بها"[1]، فالمائدة هي: " المُطْعِمَة والمُعْطِيَة الآكلين الطعام، ويسمى الطعام أيضًا مائدة؛ لأنّه يُؤكل على المائدة"[2]، فهو مجاز مرسل بعلاقة المحل، وقيل[3]: "المائدة كل شيء يميد ويبسط؛ مثل: المنديل والثوب، وكان حقه أنْ تكون مادّة الدال مضعفة، فجعلوا إحدى الداليْن ياء فقيل مائدة، والفعل واقع به، فكان ينبغي أنْ تكون ممدودة؛ ولكن خرجت من اللغة مخرج فاعِل، قالوا سر كاتِم وهو مكتوم، وعيشة راضِية وهي مرضية".

وكذلك قولهم: (وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) أي: " علم مشاهدة وعيان بعد ما علمناه على إيمان ويقين"[4]، فأرادوا مشاهدة المعجزة بعد إيمانهم ليزدادوا يقينًا، لذا فطلب المعجزة الجديدة السماويّة بعدما رأوا المعجزات الأرضيّة المؤيدة لعيسى عليه السلام زيادة، وفيه نوع من التجريب، لذا رفض عيسى عليه السلام بقوله: (قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، فالأمر في قوله: (ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ) على جهة النصح والإرشاد؛ لتخويفهم مما يحل بهم بسبب اقتراح الآيات، وقال: (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) لأنّهم أقروا بالإيمان، وأضافوا نصرة الدين، فإذا كانوا كذلك فلا يلزمهم المزيد من المعجزات، فأفاد الشرط معنى التذكير بالإيمان، وأنْ يكونوا على خوف من الله فلا يطالبوا بهذه المعجزة الماديّة.

وفي هذه الموعظة ردّ على المسلمين الذين سألوا الرسول ﷺ، ونزل فيهم قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...) (المائدة:١٠١).

ثم راح الحواريون يعلّلون طلبهم للمائدة بجملة من الأسباب بعد أنْ نُهوا عن ذلك فقالوا: (قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ) (المائدة:١١٣) وفي هذا تصريحٌ بأنّ طلبها ليس لمجرد طلب معجزة؛ بل لمجموع أمورٍ كثيرة، أوّلها الجوع، ثم الوصول إلى اليقين بقدرة الله بعد مشاهدة هذه الآية، وهي تنزل من السماء أمامهم، وبذلك يزداد إيمانهم بنبيهم، وتصديقهم له، عند مشاهدتها، وسيخبرون عنها من لم يَحضر نزولها من بني إسرائيل، فيشهدون بنزولها، كما يشهدون بكمال قدرة الله تعالى، وبنبوة عيسى عليه السلام، ويُلاحظ أنّ كلامهم خلا من أدوات التوكيد؛ وذلك يمثل أبسط درجات الخبر، فجميع ما ذكروه من الأسباب يصرّح بقوة الحاجة لنزولها.

---

[1] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٣٨.
[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج ٦، ص٢٣٧.
[3] المصدر السابق، ج ٦، ص٢٤١.
[4] المصدر السابق نفسه.

وبعد أنْ سمع عيسى عليه السلام مقالتهم؛ توجه إلى ربه ﷻ يدعوه، فقال تعالى: (قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) (المائدة:١١٤)، واشتمل دعاؤه على نداءين، مرة بوصف الألوهيّة الجامعة لجميع الكمالات، ومرة بوصف الربوبيّة المنبئة عن التربية؛ إظهارًا لغاية التضرّع، ومبالغة في الاستدعاء، ولم يجئ في القرآن غيره، وتحته سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه، وتعظيمه له، حيث " بدأ بالسؤال باسم (اللهمّ) الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصوّره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها، وأنّ المقصود من هذا الدعاء، وقضاء هذه الحاجة إنّما هو أنْ يثني على الربّ بذلك، ويمجده به، ويذكر آلاءه، ويكون برهانًا على صدق رسوله، فيحصل بذلك على زيادة الإيمان؛ فأتى بالاسمين، اسم الله الذي يثني عليه به، واسم الرب الذي يُدعى ويُسأل به لما كان المقام مقام الأمرين"(١).

فالنداء الثاني بتقدير حرف نداء، إذ شاع حذف حرف النداء مع (رب)، وحَذَفَ حرف النداء من قوله: (ٱللَّهُمَّ)، وعوّض عنها بالميم المشدّدة، فأصلها (يا الله) (٢)، ففي كليهما حذف لحرف النداء الذي ينبئ عن منزلته من الله ﷻ، وشدة رجائه له، معترفًا بوصف العبودية لله، وملتزمًا بالتكليف القادم منه، ثم جاء بنداء الربوبية، فيا من أنزلت علينا التكليف و يا من تتولى ترتيبنا، نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء(٣)، فجمع بينهما استعطافًا لله ليجيب دعاءه، وهو كنبي مرسل يضع كل صفة في مكانها، فقدم ما فيه العبادة بالتوجه بالدعاء؛ ليكون الجواب من معبود إلى عابد، بينما أخّر الربوبية؛ لأنّها ستكون خاصّة بالله ﷻ كمربٍّ فيكون تحقيقها من ربٍّ إلى مربوب، وهذا الفارق بين عطاء الألوهيّة وعطاء الربوبيّة، فعطاء الألوهيّة تكليف من معبود إلى عابد، والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه، أمّا عطاء الربوبية فهو أنّ الله سبحانه هو المتولي للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب، والربّ هو ربّ للمؤمن وللكافر، ويتولى الربّ تربية الكافر على الرغم من إنكاره للألوهيّة، فكأن عيسى عليه السلام يريد أنْ يجيب الله ﷻ دعاءه إنْ علم أنّ هناك بينهم من يمنع إجابة الدعاء، وهذا من الأمور الداعية إلى الإجابة والقبول، وكذلك

---

١ ابن القيم، **الضوء المنير على التفسير**،مصدر سابق، م٢، ص٤٧٢-٤٧٣.

٢ هذا رأي، وهناك من يرى أنه يجوز الجمع بين (يا) و (اللهم)، ويمثلون له بشاهد من شعر أمية بن أبي الصلت يقول فيه:
إني إذا ما حدثٌ ألمّا دعوتُ يا اللهمّ يا اللهمّا
انظر: ابن يعيش (٢٠٠١). **شرح المفصّل**، (قدّم له ووضع هوامشه: إميل بديع يعقوب)، ط١، ج١، ص٣٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ انظر: الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، مصدر سابق، ج ٦، ص٣٤٦٤.

يذكرهم أنّ الله ربي وربكم؛ حتى يدخلهم معه في الدعاء، وقال أنزل: دعاء بالإنزال من دون توكيد، وقال (علينا) وليس (عليهم) ليكون معهم.

وقد ذكر عيسى عليه السلام الأسباب الداعية إلى طلب المائدة فقال فيها: (تَكُونُ لَنَا عِيدًا)، (وَءَايَةً مِّنكَ) ثم تخلص إلى الغرض الذي طلبه الحواريون وهو قوله: (وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)، إذ قدّم الحواريون ذكر الأكل وأخّروا ذكر الأغراض الدينية والروحانية، بينما قدّم عيسى عليه السلام زاوية القيم والأغراض الدينية ثم زاوية المادة وهي الرزق، فعمم طلب الحوريين بالأكل لأنّ الرزق يشمل الأكل ويشمل غيره، "فجاء بالكلمة العامة التي يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره"[1].

ونلاحظ انسجام الخطاب الموجه من عيسى عليه السلام لربه، فأنزل الله عز وجل في منزلته بمناداته بصفتيه جميعًا؛ بقوله: اللهم، وربنا، " فذكر الحقّ سبحانه وتعالى، وقوله (أَنزِلْ عَلَيْنَا) انتقال من الذات إلى الصفات، وقوله: (تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا) إشارة إلى ابتهاج الروح بالنّعمة؛ من حيث هي صادرة عن المنعم، وقوله: (وَءَايَةً مِّنكَ) إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال، وقوله: (وَٱرْزُقْنَا) إشارة إلى حصّة النفس، وكل ذلك نزول من حضرة الجلال؛ فانظر كيف بدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون"[2]، وعندما ذكر الرزق بقوله: (وَٱرْزُقْنَا) لم يقف عنده؛ بل انتقل من الرزق إلى الرازق، فقال: (وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ)، وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق، ومن غير الله إلى الله، ومن الأخس إلى الأشرف[3]. وأسند العيد إلى المائدة؛ لأنّ شرف اليوم مستعار من شرفها، يقول ابن عاشور: " إسناد الكون عيدًا للمائدة إسناد مجازي، وإنّما العيد اليوم الموافق ليوم نزولها، ولذا قال: (لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا)، أي لأول الأمة النصرانية وآخرها، وهم الذين خُتمت بهم النصرانيّة عند البعثة المحمديّة"[4]، أما قوله: (لِّأَوَّلِنَا)؛ فهو بدل من الضمير في قوله: (لنا) بدل على بعض من كل، وعَطْفُ (وَءَاخِرِنَا) عليه يصير الجميع في قوة البدل المطابق[5].

---

[1] المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٦٥

[2] الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٤٠.

[3] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٤٠.

[4] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٠٨.

[5] المصدر السابق، ج ٧، ص١٠٩.

وأجاب الله ﷻ دعوة عيسى ﷺ فقال: (قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾) (المائدة: ١١٥)، وهذا وعد من الله تعالى إجابة لدعوته ﷺ، كما كان دعاؤه وسؤاله المائدة من الله ﷻ إجابة للحواريين، وذلك للامتنان على عيسى ﷺ، وتكريمه في إنزال المائدة، بإنزالها تلبية لرغبة الحواريين.

وقد استعمل الله ﷻ صيغة التفعيل بقوله: (مُنَزِّلُهَا) " المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه ﷺ بصيغة الإفعال؛ لإظهار كمال اللطف والإحسان"[١]، وجاء الكلام بمؤكدات النزول فقال: (إِنِّي مُنَزِّلُهَا) ؛ على الرغم أنّه كلام الله؛ لأنّه يؤكد أنّها ستنزل: أكد بـ (إنّ)، والجملة الاسمية (مُنزّلها)، ولم يقل: إنّي سأنزلها، ثم جاء الكلام بمؤكدات العذاب للكافر: (فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ)؛ لأنّ جميع العالمين لم يمروا بهذا التجربة، أما هم فهذه معجزة ماديّة ملموسة تذوقوها وأكلوا منها؛ فهو " سيأخذ عليه عهدًا مباشرًا وليس بواسطة عيسى ﷺ، فالخطاب موجه للحواريين[٢]؛ لذا فقد تحول الخطاب إليهم على طريق الالتفات في الخطاب.

وقد فرّع على إجابتهم بقوله: (فَمَن يَكْفُرْ) " تحذير لهم من الوقوع في الكفر بعد الإيمان؛ إعلامًا بأهميّة الإيمان عند الله تعالى، فجعل جزاء إجابته إياهم ألا يعودوا إلى الكفر، فإنْ عادوا عُذّبوا عذابًا أشد من عذاب سائر الكفار؛ لأنهم تعاضد لديهم دليل العقل والحس؛ فلم يبق لهم عذر"[٣]. فهذا مثل ضربه الله للناس لئلا يسألوا هذه الآيات، إذ كفر بعضهم بعد نزول المائدة فمسخوا قردة وخنازير.

ثالثًا: تحليل المشهد الثالث :

ثم يوجه الله ﷻ الخطاب للرسول ﷺ مرة أخرى؛ يخبره أمرًا آخر من حال هذا المشهد، ويأتي السؤال المقصود مما سبق من التذكير بنعم الله والامتنانِ به على عيسى ﷺ، فيخاطبه تعالى في هذا الموقف أمام جميع الناس، وعلى مرأى من جميع الأمم على اختلاف أديانهم، واختلاف قبولهم للإيمان، وعلى مرأى النصارى ومسمعهم، إذ الحوار الذي يدور خاصّ بهم،

---

١ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٤١.
٢ المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧١.
٣ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١١.

ويأتي السؤال المربك لهم، بل وتتبعها الإجابة المحبطة القاضية عليهم باليأس والقنوط، إذ كانوا يرون أنّه لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى، كما كان اليهود يقولون إنّه لن يدخل الجنة إلا من كان من اليهود، ذكر الله تعالى ذلك بقوله: (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴿١١١﴾) (البقرة:١١١)، لذلك فقد وجه السؤال لعيسى عليه السلام بقوله: (وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ)، وبهذا النداء إشارة إلى إبطال ادعاء النصارى ألوهية المسيح وأمه.

وخرج الاستفهام مخرج التوبيخ والتقريع والتبكيت، فقد أقرّ عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية لله عز وجل، وأمر قومه بعبادته عز وجل، ويقول وهبة الزحيلي: " ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع، أو لتعريفه أنّ قومه غيّروا بعده، وادّعوا عليه ما لم يقله"(١).

وفي الاستفهام يبرز إشكال هو: ما هو المستفهم عنه، هل هو لتعيين القائل، أم هو استفهام عن اتخاذ عيسى وأمه إلهين من دون الله، فذهب أبو السعود إلى أنّ محط الإنكار هو اتخاذ النصارى عيسى عليه السلام وأمه إلهين من دون الله، وليس مجرد القول(٢).

ويرى ابن عاشور أنّ تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) يدل على أنّ الاستفهام متوجّه إلى تخصيصه بالخبر دون غيره، وإنّما ألقي الاستفهام أهو الذي قال لهم ذلك(٣).

ويرى الدكتور عبدالعظيم المطعني " أنّ ما ذهب إليه (أبو السعود) لا يجوز، لأنّ الفرق بين رد القول وتردد الاتخاذ كبير، وأنّ الذي دفع (أبو السعود) إلى ذلك رؤيته أنّ محط الإنكار هو اتخاذ النصارى عيسى وأمّه إلهين من دون الله، وليس مجرد القول، وإنْ كان ذلك كذلك فلا يجوز إشراك عيسى عليه السلام معهم فيما صاروا إليه من ضلال"(٤).

وترى الباحثة أن هذا الاستفهام موجه إلى عيسى عليه السلام والمقصود به النصارى، فإن توبيخهم يحصل بما يعقدونه ويعترفون به صريحًا، وهو يجمع بين الاستفهام عن القائل والاستفهام عن المقول، وذلك لن القائل كائنًا من كان لا يجوز أن يدعو إلى الشرك بالله، فيكف سيصدر هذا القول من نبي الله ورسوله، أما الاستفهام عن المقول، فهي عبارة شرك ظاهرة خاصة بعدما قال تعالى:

---

١ الزحيلي، **التفسير المنير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٢٦.
٢ انظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٤٣.
٣ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١٣.
٤ انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٥.

(مِن دُونِ ٱللَّهِۖ)، فهذه الفكرة؛ وهي اتخاذ عيسى وأمه إلهين من دون الله غير مقبولة، إذ ليس لديهما ميّزات الإله، كما يبدو من تسميتها أنهما بشر، والتعبير بالاتخاذ يدل على أنّ الشيء المتَّخذ ليس أهلاً لذلك، وإنما أُلْقِيَ الاستفهام لعيسى ﷺ " تعريضًا بالإرهاب والوعيد بتوجّه عقوبة ذلك إلى من قال هذا القول"[١]؛ فالله تعالى يعلم أنّ عيسى ﷺ لم يقله، ولكن ليظهر كذب من كفر من النصارى باتخاذهم إلهين على اختلاف مذاهبهم في ذلك، حيث أرجأ الله الفصل فيه إلى يوم القيامة، وإنْ كان الردّ على النصارى في الدنيا موجود من خلال الآيات، لكن وقعه أكبر وأعمق في يوم القيامة؛ فهناك مشاعر نفسيّه تظهر من خلال الآيات، تكون في نفس المرسل وتترك أثرها في نفسي المتلقي، فخطاب الله لعيسى ﷺ ولقومه معه بقوله: (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) تحمل مشاعر الغضب، وتترك أثرها في نفس قومه ﷺ، بالوعيد والتهديد من خلال الاستفهام الوارد في الخطاب، وتزيد ذلك التوبيخ والتبكيت من خلال إجابته ﷺ بقوله: (سُبْحَٰنَكَ...).

ويقص علينا القرآن ردّه على ذلك، وهو قوله: (قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ) (المائدة: ١١٦)، وفصلت هذه الجملة عما قبلها لسببين[٢]، الأول: شبه كمال الاتصال؛ بمعنى اعتبار الاستئناف البياني فيها لتنزيلها منزلة جواب عن سؤال فقد نشأ عما قبلها، أو هو المتيقن إذ لم يذكروا غيره، والسب الثاني: كمال الانقطاع؛ لاختلاف طرفي الإسناد في الجملتين، واختلاف لواحق الإسناد، فالمسند إليه في الجملة الأولى هو الله ﷻ، والمسند إليه في الثانية هو عيسى ﷺ، ومتعلقات الإسناد في الأولى اتخاذ غير الله إلهًا من دون الله، ومتعلقات الإسناد في الثانية تنزيه الله عن الشريك والمثيل.

وجوابه ﷺ تنزيهٌ لله عن مضمون تلك المقالة، فقوله: (سُبْحَٰنَكَ) مشتقة من التسبيح، وهو للمبالغة في التنزيه، أي أنزهك تنزيهًا لائقًا بك، فقدم تنزيه الله ﷻ على تنزيه نفسه؛ " لأنّها مقدمة للتبرّي؛ لأنّه إذا كان ينزّه الله عن ذلك؛ فلا جَرَمَ أنّه لا يأمر به أحدًا"[٣]، وبرّأ نفسه بقوله: (مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ)، وعدل عن قوله: لم أقله؛ للمبالغة في التبرئة من ذلك، إذ نفى أنْ يوجد استحقاق له أنْ يقول ذلك القول، وذلك أبلغ، يقول أبو السعود: " وإيثار ليس على الفعل

---

[١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١٣.
[٢] انظر: المطعني، **التفسير البلاغي للاستفهام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٧٦.
[٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١٤.

المنفيّ لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقيّة، وإفادة التوكيد بما في خبره من الباء، فإنّ اسمه ضميره العائد إلى ما وخبره بحق الجار والمجرور"[١]، فنفى أنْ يباح له أنْ يقول ما لا يحق له، فلا يحق له دعوة الناس إلى عبادته، وظر ذلك من خلال العدول عن القول المباشر، والنفي بليس، واقتران الخبر بالباء، وهذا تأكيد في غاية البلاغة، وأدت الأدوات النحوية الكثير من الاتساق والانسجام بين المعنى والتركيب.

وأكد براءته مرة أخرى بقوله: (إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ)، والمراد أنّ نفي علم الله بهذا القول توطئة ووسيلة لنفي صدور القول عنه، لأنّه لو كان قد قاله؛ فإنّ الله يعلمه، لإحاطة علم الله بسائر الموجودات والمعدومات.

ثم استأنف بالمؤكد الرابع، وهو قوله: (إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ)، " جمع فيه عدّة مؤكدات وأسلوب حصر، فضمير الفصل أفاد الحصر، وإنّ وصيغة الحصر وجمع الغيوب تفيد التوكيد، وذلك لأنّ مضمون الكلام حقيقة عظيمة، ومن حقّها التعبير عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها، وليس هذا التوكيد لإزالة الإنكار عند المخاطب، لأنّه الله ﷻ، والله ﷻ يعلم أكثر من عباده، وهو علام الغيوب. وهذا تأكيد للجملتين المتقدمتين، أعني قوله: (إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ) وقوله: (تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ)[٢]، أي إنْ كنتَ مختصًا بعلم الغيب، ولا أعلم الغيب فكيف تكون لي الألوهيّة، فاستعمل لذلك صيغة المبالغة في اسم الفاعل (علاّم) بدلاً من عالم؛ لتكافئ كثرة المعلوم، وهي (الغيوب) التي جَمَعَها من (غَيْب)، وهي المرة الثانية التي جاء فيها بقوله تعالى: (عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ).

ثُم ذكر أنّه أَمَرَهُم بعكس ذلك، فقال كما أمره الله تعالى، فقال: (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ) فصّرح هنا بما قاله، لأنّ الاستفهام كان عن المقال الصادر عنه، وفيه تكرار (ما) مرة على أنّها نافية، والأخرى على أنّها اسم موصول، وهذا من براعة العربية في استعمال اللفظ لعدة معان يجلّيها السياق، بالإضافة إلى الأثر الموسيقيّ الذي يؤثر في القارئ من حيث لا يدري، فالاسم الموصول (ما الثانية) تعود على القول في قوله: (مَا قُلْتُ)، ودلالتهما مترابطة، وتعني نصّية القول المأمور بتبليغه للناس مطابق لما قاله تماما، فلا بد أنّ علماء نحو الجملة درسوا الترابط بين

---

[١] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٤٤.
[٢] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ج١١٢.

عناصر الجملة، بل وتعدَّوْا ذلك إلى دراسة أدوات الربط وأثرها في دلالة النص، وهذا ما فعَله نحو النص بمسمى آخر.

ثم فسّر ما أمره الله به وهو قوله: (أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ)، ففصلت هذه الجملة عن سابقتها، " لما بين الجملتين من كمال الاتصال؛ لأنّ الثانية نزلت من الأولى منزلة بدل الاشتمال، أو مفسرة لجملة الأمر قبلها "[1]، فكلتاهما مكمّلتان لبعضهما، فعدل عن قول: ما أمرتهم إلا ما أمرتني به؛ " وعدل لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معًا "[2]، فقد أمرهم بذلك وهذا الأمر يفيد الوجوب، وكرر ربِّي وربّكم؛ ليدل بذلك على أنّه عَبْد لله كما هم عبيد له، وأنّه لم يأت بأي شيء يمكن أنْ يُفهم على أنّه دعاهم إلى اتخاذه وأمّه إلهين من دون الله ﷻ.

ثم قال مخبرًا عن متابعته لقومه ومعرفته بأحوالهم في حياته: (وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة: ١١٧)، أي لما توفيتني صارت الوفاة حائلاً بيني وبينهم، فلم يكن لي أنْ أنكر عليهم ضلالهم، ولذلك قال: (كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ)، كناية عن أنّه تعالى يعلم أمرهم فيرسل إليهم من يشاء كسنّته تعالى في عباده الضالين، وقد أرسل إليهم محمدًا ﷺ ، وفيه تأكيد باستعمال ضمير الفصل، فنسب لنفسه الشهادة؛ لأنّه لا يرى سوى ظاهر أعمالهم، ووصف الله بأنّه الرقيب الذي يعلم السر والجهر، ثم أضاف: (وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، أي أنّه تعالى هو الشهيد على الكل حين كان عليه السلام بينهم، وحين توفاه الله، فبقوا وحدهم فعلوا ما فعلوا، وظهرت حبكة الحوار هنا، وظهر اختيار الكلمات المناسبة لكل حال في المشهد الذي يبعث الحياة والحركة في القصة، ويجعل الكلمات ذات دلالة؛ تصور ما في النفوس من مشاعر وأحاسيس مضطربة أو منضبطة كما يقتضيها الموقف، فجعل الله خطابه، وردّ نبيّه على السؤال في آية واحدة.

وفي قوله: (وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ) وقوله: (وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أسلوب مقابلة ومشاكلة، أعطت عموم شهادة الله، وإحاطة علمه ﷻ في حال وجود عيسى عليه السلام وفي حال غيابه، فجعله عيسى عليه السلام شاهدا على ما جرى بينهم بأسلوب المدح.

وكان هذا الكلام على هؤلاء الذين اتخذوا عيسى عليه السلام وأمّه إلهين من دون الله ﷻ، فأشركوا بالله ﷻ، ويعرض القرآن ما قاله عيسى عليه السلام في شأنهم، فقال تعالى: (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن

---

[1] المصدر السابق نفسه.
[2] انظر الأندلسي، **البحر المحيط**، مصدر سابق، ج٤، ص٦٤.

تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) (المائدة: ١١٨)، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في هذا المقام، أي: "شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدًا لغيرك؛ فلولا أنّهم عبيد سوء من أبخس العبيد واعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم تعذبهم، ... فإذا عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فليس هذا استعطاف لهم، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، وإنما هو إقرارٌ واعترافٌ وثناءٌ عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب"[1]، وقال ذلك تسليمًا لأمره، واستجارة من عذابه، فمقصود عيسى عليه السلام تفويض الأمور كلها لله تعالى، وعدم الاعتراض على حكمه، أي: إن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل، وعدم غفران الشرك إنما هو بمقتضى الوعيد، وقدّم العذاب على المغفرة، لأنّ السياق سياق وعيد وتهديد لمن يشرك بالله، فالأصل للمشرك أن يعذّب، وفنّ التقديم والتأخير فنٌّ رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير، والذين أوتوا حظًّا من معرفة مواقف الكلام، وليس ادعاءً يدعى أو كلمة تقال، وقد بلغ القرآن في هذا الفن الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في ماكنها المناسب.

وفي قوله: (إِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ) مجاز مرسل، عبر المسبب عن السبب، لأنّ الغفران كما هو معلوم مُتَرتّب على التوبة، وفي قوله: (إِن تُعَذِّبۡهُمۡ) و(إِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ) طباق، وقد صرّح تعالى في مواضع كثيرة في القرآن أنّه لا يغفر ذنب الشرك لمن مات عليه[2]، فقال: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا) (النساء:٤٨)، وبهذا تظهر سعة رحمة الله عز وجل بخلقه؛ لذا فعيسى عليه السلام لا يملك أن يستغفر لهم، وإنّما يطرح الأمر، ويفوضه إلى الله، ولذلك جاءت الفاصلة: (فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ)، ولم تأت: (الغفور الرحيم) على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنّه " قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار، فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة؛ بل الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب عليهم الرب؛ فعدل عن ذكر الصفتين اللتين ينال بهما عطفه ورحمته ومغفرته؛ إلى ذكر العزّة والحكمة المتضمّنين لكمال القدرة وكمال العلم"[3]؛ لأنه لو قال: (فإنك أنت الغفور الرحيم): " لأَوْهَمَ الدعاء بالمغفرة لمن مات

---

[1] ابن القيم، **الضوء المنير على التفسير**، مصدر سابق، م٢، ص٤٧٣-٤٧٣. وانظر: أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٤٥، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ٧، ص١١٤

[2] انظر: الشنقيطي، **أضواء البيان**، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٩-٢٦٠.

[3] ابن القيم، **الضوء المنير على التفسير**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧٤.

على شركه، وذلك مستحيل"[١]، أما العزّة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة، فمن كان عزيزًا فإنّه يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، ولا اعتراض لأحد عليه، فإذا كان عزيزًا متعاليًا ثم حكم بالمغفرة؛ كان الكرم ههنا أتمّ مما إذا كان كونه غفورًا رحيمًا، لأنّ ذلك يوجب المغفرة والرحمة[٢]، فالعزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب والغفران، وهذا التركيب ظاهره شرط، لكنّه خرج مخرج التخيير والتفويض، فمغفرة الله عن كمال قدرة وعلم، وليست عن عجز وانتقام منهم، لأنّ الإنسان قد يغفر للعجز عن الانتقام، أو للجهل بمقدار الإساءة.

وقد أكد ذلك بأربع مؤكدات هي: إنّ، والجملة الاسمية، وضمير الفصل (أنت)، وأسلوب الحصر من خلال ضمير الفصل، وأفاد ذلك الفصل بين الخبر والصفة تعدد الخبر عنه الله تعالى، لذلك لم يقل: (فأنت العزيز الحكيم) وقوله: (فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ) ولم يقل: (فهم عبادك)؛ لتأكيد عبوديتهم لله ﷻ، وبذلك يفعل الله ﷻ بهم ما يشاء، فالإيحاءات التي تبعثها الكلمات القرآنية في مجرى الإحداث " ليست غريبة عن هذه الأحداث، بل هي من صميمها، بل إنّها القوة المحرّكة لها والحياة المتفقة في كيانها، وإن كان لا يُرى لها وجه في الظاهر"[٣].

وتتميز هذه القصة بالإيجاز الذي عمل على " تحريك الحدث، وتصعيده إلى ذروته، وتكثيف الحوار والوصف، والارتقاء به إلى ذروة الدقة التعبيرية، والقدرة الفائقة على التأثير، وتحريك المشاعر الدافقة لدى المتلقي، والقفز فوق الأحداث غير المؤثرة، واقتناص الإشارة المعبرة عما هو مؤثر منها، وتصوير أطراف الحدث من زمان، ومكان، وموضوع، وأشخاص، بأدق صورة معبرة وأخصرها؛ بالكلام الجامع، ومن خلال أساليب البيان المختلفة"[٤].

ثم استأنف تعالى كلامًا ختم به حكاية ما سيقع يوم القيامة، فأشار إلى نتيجة ذلك بقوله: (قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾) (المائدة:١١٩- ١٢٠).

وهذا الخطاب من الله سبحانه وتعالى لجميع الخلائق يخبرهم عن عاقبة كلٍّ منهم، فذكر جزاء الصادقين، وهو الفوز برضا الله ﷻ، ودخول جنة الخُلد إلى الأبد، وأضمر جزاء الفريق الآخر؛ لدلالة السياق عليه، حتى تذهب النفوس في تخيّله كل مذهب، فانظر إلى روعة الحذف في

---

[١] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، مصدر سابق، ج٦، ص٣٧٨.
[٢] انظر: الرازي، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مصدر سابق، ج ١٢، ص١٤٥.
[٣] الخطيب، **القصص القرآني**، مصدر سابق، ص١٦٤.
[٤] الظواهري، **بدائع الإضمار القصصي**، مصدر سابق، ص٧٥.

هذا السياق وما أضفاه من الترهيب والتخويف من سوء المآل، وعبر عن يوم القيامة باسم الإشارة (هذا)، وهو مما يسمى استبدال، وهو من وسائل السبك النحوي، وبه ينقلنا الله ﷻ إلى ذلك الوقت الذي سيُحاسب فيه الخلق أجمعين، كما ينقلنا إلى أهواله العظيمة المشاهد لحظة السؤال، وما بعد ذلك من الجزاء.

وقد جعل كلمة (يوم) نكرة أضافها إلى الجملة الفعلية: (يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ) وعرّفها بها، كأنه يقول إن هذا الأمر قد فرغ منه؛ فغفر الله لمن شاء، وعذّب من شاء، فهو من باب الإسناد إلى السبب، ودخل تحت قوله: (ٱلصَّٰدِقِينَ) كل مؤمن بالله، وفيه إشارة إلى صدق عيسى عليه السلام في هذا الموقف، وما له من شرف عظيم، والصدق المقصود هو صدقهم في الدنيا الذي يؤدي إلى هذا الجزاء في الآخرة، وبين الجزاء بقوله: (لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ) وبين دوام هذا النعيم قوله: (خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا)، كما بيّن الزيادة من الله على أجرهم هذا فقال: (رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ)؛ بنيل رضوانه تعالى، وختم الآية بقوله: (ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) إشارة إلى أنّ ما تقدم على التأبيد، ورضوان الله، غاية الأمر، وبدونه لن يكون دخول الجنة، فأشار إلى حصولهم على ما هو أكبر من دخول الجنة. وقوله: (ذلك) يعود على ما سبق وهو ما يسمى الاستبدال، الذي عمل على إيجاز الكلام، وخلّص من التكرار بغير ضرورة، وهذا مما يزيد من تناسق النص وانسجامه، ولم يسجل القرآن الكريم كل مراحل الحوار التي حصلت تسجيلاً كاملاً، وإنما يذكرمن الموقف الحواري العناصر الحية منه، والمشاهد البارزة فيه؛ مما شأنه أنْ يجلّي الموقف، ويحدد معالمه، ويكشف حقيقته.

وفي الآية عموم، إذ يبين أن كل ما كلّفنا الله به سيسألنا عنه، مما هو مذكورة في هذه السورة أو في غيرها من السور، من صدق الله بها فقد فاز ومن نكث عهده مع الله فقد خسر، وفيه حث للمؤمنين على الصدق، وتحذير من نكث عهودهم مع الله ﷻ، فهذه سورة العقود، فناسب أن يذكر في آخرها جزاء من صدق الله ﷻ، وعاقبة من عصى الله.

ولتحقيق ذلك قال تعالى في نهاية السورة: (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ)، فَقُدِّم المجرور باللام ليفيد القصر، أي لله وحده لا لغيره، ويحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة، ويحتمل أنه مقطوع عن ذلك مخاطب به محمد ﷺ وأمته.

وقدم السموات على الأرض، " لأنّها أشرف وأكبر، وآياتها أدل وأكثر"[١] وقد آثر استخدام (ما) التي تستعمل للعاقل ولغيره على (من) المستعملة للعاقل فقط؛ "على تقدير تناولها للكل؛ مراعاة للأصل، وإشارة إلى تساوي الفريقين في استحالة الربوبية حسَب تساويهما في تحقق المربوبية، وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء؛ تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية، وإهابة بهم بتغليب غيرهم عليهم"[٢]، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إيذانًا بانتهاء الكلام، وما حصل في الخطاب الإلهي القائم يوم القيامة يمكن تسميته بالاستباق الخارجي، من خلال ذكر الحدث وتفصيله قبل مجيء أوانه، ونجد أنّ هذه القصة قد طوت الأزمان والأماكن على نحو لا يؤثر على مجرياتها ولا يشعر بغرابة فيها، بل إنّه خدم القصة، وأبرز مواقفها، وأكثرهذه المواقف تأثيرًا على اختلاف أزمانها وأماكنها، دون أنْ نشعر بتجاوز وغرابة في الانتقال من زمن إلى زمن، أو من مكان لآخر.

وقد جمعت هذه المشاهد في القصة الرائعة بين أساليب الخبر والإنشاء من تعليل، وحكمة، واستفهام، وتعجب، فغلبت عليها قوة التصوير، والإيحاء، والحوار السابق الموجز للغاية، لكنه جمع إلى جانب ذلك عناصر التشويق من جهة، والحضور في المشهد من جهة أخرى.

---

١ البقاعي، **نظم الدرر**، مصدر سابق، ج٢، ص٥٧٧.
٢ أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، مصدر سابق، ج ٢، ص٣٤٦.

الخاتمة

ازدهر نحو النص بظهور المعايير السبعة التي صارت شرطًا في نصيّة النص، وقد عرض تراثنا العربي لهذه المعايير بمصطلحات أخرى، مفصِّلة الكثير من المسائل والأبواب الشائكة في اللغة؛ التي تدخل في صميم نحو النص خاصة فيما يُعرف بعلم المعاني، وكثير من الظواهر التي تعالج في إطار النص كوحدة كبرى كانت محور البحوث النحوية السابقة كالتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والفصل والوصف، وغير ذلك.

وتناولت هذه الدراسة سورة المائدة دراسة نصيّة لسانيّة، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها ما يلي:

١- إن القرآن كلّه كالسورة الواحدة؛ لاتصال بعضه ببعض، فالناظر في آيات القرآن الكريم يجد التلاحم والترابط واضحًا، بل إن كل كلمة منه وضعت في الآية في ترتيبها على نحو ما وضعت فيه لغاية مهمة؛ تؤدي معنى وهدفًا بلا تنافر ولا تشتيت، وهكذا يكون بين الآية نفسها في أولها وآخرها تناسبٌ دقيقٌ من خلال اختيار ألفاظ الفاصلة، ودلالاتها، وإيقاعها الموسيقي الذي يوحي بالمعنى المقصود، وكذلك جعل الآية بجانب الآية والسورة بجانب السورة، فكل آية تكمّل ما قبلها، أو تعلله، أو تفسره، وقد يذكر الشيء في سورة، ثم يجيء جوابه في سورة أخرى، وبذلك نجد ارتباط الكلام في أمر متحد ارتبط أوله بآخره، وبغرضه، وبمضمونه.

٢- تبرز مظاهر الانسجام والالتحام والتناسب بين أسباب النزول والنظم القرآني، فأسباب النزول تكشف العلاقة بين النص والسياق؛ الذي يعطي لكل عنصر أهميته، ويكشف عن هذه العلاقة، ويحدد معنى الآية بناء على الحدث الحاصل، فليست معرفة سبب النزول تأريخ لتلك الحوادث، بل لربط معنى الآية بالدلالة المقصودة التي تتأتى من هذه الحادثة، ومن ثم ينطبق المعنى والحكم على حالات أخرى مشابهة.

٣- جاء علم المناسبة ليدرس علاقات النص في صورتها الأخيرة النهائية، فالقرآن كالسبيكة الواحدة، متناسق الأجزاء ليس فيه خلل أو اضطراب؛ فنلمح كيف ترتبط الآيات بعضها ببعض، وتتسلسل منسجمة دون انقطاع في الموضوع، أو الهدف، أو الغاية، فعلم المناسبة ساعد على إبراز ما في سور القرآن وآياته من تلاحم وتجاذب، فإن بعضها آخذ بأعناق بعض في تأليف محكم متين، متلائم الأجزاء.

٤- اشتملت السورة على دقائق التشريع، ومجادلة أهل الكتاب من يهود ونصارى في أمور العقيدة، لذلك فقد سلكت سبيل الإطناب، والشرح، والإيضاح، وكشفت خبثهم، ودناءتهم،

وعداوتهم لله ورسوله، وكيدهم للإسلام والمسلمين، ودلّلت بأدلة عقليّة لا يجحدها إلا مكابر ببشرية عيسى عليه السلام، كما أثبت صدق نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، وعالجت الاعتقاد البشري العربي الذي كان سائدًا في الجاهلية، ووجهته للاعتقاد بوحدانية الله قولاً وعملاً.

٥- انفردت سورة المائدة بثلاث قصص لم ترد في غيرها من السور، فهناك تناسب وانتقاء للقصة القرآنية مع السورة، وذلك لخضوع القصة القرآنية لغرض ديني يتمثل في الوعظ، والإرشاد، والحكمة، ولأخذ العبر والعظات وغير ذلك، فهو الذي يملي إيرادها بالأسلوب الوارد، وبمشاعر مختلفة، ونجد فيها اقتضابًا وحذفًا لبعض أحداثها التي لا تخدم غرض السورة.

٦- تنوعت أساليب الخطاب في السورة تبعًا لتنوّع المخاطَبين، ومواقف الخطاب، ففيها خطاب يتسم بالشدّة، كما في خطاب أهل الكتاب المناوئين للإسلام والمسلمين، ومنها خطاب يتسم باللين كما في خطاب المسلمين حال توجيههم وإرشادهم، ومنها خطاب التذكير والتأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم، كما نجد الخطاب المباشر والخطاب غير المباشر كل بما يقتضيه السياق؛ كما في خطاب أهل الكتاب.

٧- اشتمل الخطاب الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم على كشف خفايا اليهود، والتحذير من مكرهم، والرد على تحريفهم للشرع، وتغييرهم حكم الله، كما احتوى على الأمر بالحكم بينهم وفق شرع الله في القرآن الكريم.

٨- تضمن الخطاب الرباني للمؤمنين توجيهًا وإرشادًا للقيام بأمور الدين وفق ما أنزله الله تعالى، وكان خطابًا مباشرًا لهم لحثهم على الطاعة والامتثال لأوامر الله تعالى.

٩- اشتمل خطاب النصارى على الرد عليهم بالأدلة العقلية؛ لاعتقادهم بإلهيّة المسيح وأمه عليهما السلام، وإثبات الوحدانية له تعالى.

١٠- كشف الخطاب الرباني لليهود عن حقائقهم، وكُشْف كيدهم ومكرهم للإسلام والمسلمين، وبيّن معدنهم الخبيث مع أنبيائهم، وحذّر المسلمين من موالاتهم.

١١- اتضح أن منطلقات نحو النص الغربي لا يكفي لدراسة النصوص العربية كالقرآن مثلاً، وأن أفضل دراسة يمكن تطبيقها عليه هو ما قام به العرب، إذ نظرتهم في التحليل تقوم على فهم الآيات أولاً، وربطها بسياقها، وتعليل ورودها على الشكل الذي وردت به، وتعليل اختيارها دون غيرها، وأشباه ذلك، فهي دراسة عميقة؛ تهدف إلى الوصول إلى المعنى المقصود بتوظيف مختلف المستويات؛ الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية، والأسلوبية، والدلالية.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد (ت: ٦٣٧هـ) (١٩٨٣م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، (تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة)، ط٢، مطبعة دار الرفاعي، الرياض.
- أحمد، عبد الرزاق حسين (١٩٩٩م)، **المكي والمدني من القرآن الكريم**، ط١، دار ابن عفان.
- الأزهري، أبو منصور، محمد بن أحمد (ت: ٣٧٠هـ)، د.ت، **تهذيب اللغة**، (تحقيق: محمد عوض مرعب)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (ت: ٦٨٦هـ) (١٩٩٨م). **شرح كافية ابن الحاجب**، (تقديم: إميل بديع يعقوب)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني (ت:٤٢٠هـ) (٢٠٠١). **درة التنزيل وغرة التأويل**، (دراسة وتحقيق: محمد مصطفى آيدن)، ط١، معهد البحوث العلمية، مكة المكرّمة.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ) (٢٠٠٩م)، **مفردات ألفاظ القرآن**، (تحقيق: صفوان عدنان داوودي)، ط٤، دار القلم، الدار الشامية.
- الألوسي، شهاب الدين السيد محمود (ت:١٢٧٠هـ) (١٩٩٩)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، د. ط ، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (ت: ٧٤٥هـ) (١٩٩٥م)، **النهر الماد من البحر المحيط**، ط١، (تحقيق: عمر الأسعد)، دار الجيل، بيروت.
- ــــــــــــــ (د.ت)، **البحر المحيط** ، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض)، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت.
- بارت، رولان (١٩٨٨م)، **لذة النص**، (ترجمة: فؤاد صفا، والحسين سحبان)، د.ط، دار توبقال للنشر.
- باشا، محمد (١٩٩٢م). **الكافي**، ط١، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت- لبنان.
- بحيري، سعيد حسن (١٩٩٧م)،**علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات**، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت:١٩٤ هـ) (٢٠٠٤م)، **صحيح البخاري**، د.ط، دار الحديث، القاهرة.

- بدوي، أحمد (٢٠٠٥م). **من بلاغة القرآن**، د.ط، نهضة مصر.
- بسام، قطوس (٢٠٠١م). **سيمياء العنوان**، ط١، وزارة الثقافة، الأردن.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت: ٥١٠هـ) (١٩٩٧م)، **تفسير البغوي " معالم التنزيل"**، (حققه: محمد علي النمر وآخرون)، ط ٤، دار طيبة، الرياض.
- البقاعي، الحافظ برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط (ت:٨٨٥هـ) (١٩٩٥م)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، (خرّج أحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ــــــــــــــــ (١٩٨٧م)، **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، (تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين)، د.ط، دار المعارف، الرياض.
- البقاعي، محمد خير (١٩٩٨م). **نظرية النص: ضمن كتاب دراسات في النص والتناصية**، ط١، مركز الإنماء الحضاري، حلب.
- البيضاوي، محمد بن أبي الحسن (ت ٦٨٥ هـ) (د.ت)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، د.ط، دار صادر، بيروت.
- التهانوي، محمد بن علي (ت: ١١٩١ هـ)، (١٩٧٢م). **كشاف اصطلاحات الفنون**، (تحقيق: لطفي عبد البديع)، د.ط، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- ابن تيمية، شيخ الإسلام، تقي الدين أحمد ابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ) (١٩٨٤م)، **دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية**، (تحقيق: محمد السيد الجليند)، ط٢، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.
- الجابري، سيف راشد (٢٠٠٣م)، **أسماء السور القرآنية (دلالات وإشارات)**، ط٢، د.ن.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت: ٢٥٥ هـ) (١٩٩٨م).**البيان والتبيين**، (تحقيق: عبد السلام هارون)، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت:٤٧١هـ) (١٩٩١م)، **أسرار البلاغة**، (تحقيق: محمود محمد شاكر)، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ــــــــــــــــ (د . ت). **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، (تعليق: محمود محمد شاكر)، د. ط، مكتبة الخانجي، مصر.
- الجزائري، أبو بكر جابر (١٩٩٤م)، **نداءات الرحمن لأهل الإيمان**، ط٢، مكتبة العلوم والحكَم.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت:٣٩٢هـ) (٢٠٠٢م). **الخصائص**، (تحقيق: عبد الحميد هنداوي)، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- الجمل، سليمان بن عمر (ت:١٢٠٤هـ) (د.ت)، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر.
- حسان، تمام (١٩٩٤م). **اللغة العربية معناها ومبناها**، د.ط، دار الثقافة، المغرب.
- الحميري، عبد الواسع (٢٠٠٨م). **الخطاب والنص" المفهوم- العلاقة – السلطة"**، ط١، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- حنفي، عبد الحليم (١٩٨٧م) ، **أسلوب السخرية في القرآن الكريم**، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حوّى، سعيد (١٩٨٥م)، **الأساس في التفسير**، ط١، دار السلام.
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم (ت: ٣٨٨هـ)، د. ت، **بيان إعجاز القرآن**، ضمن (**ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**)، (تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام)، د. ط، دار المعارف، مصر.
- خطابي، محمد (١٩٩١م). **لسانيات النص : مدخل إلى انسجام الخطاب**، ط١، المركز الثقافي العربي.
- الخطيب، عبد الكريم (١٩٦٤م). **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، ط١، مطبعة السنة المحمدية.
- الخلفي، عبد العظيم بن بدوي (٢٠٠٩م)، **إعلام ذوي الأفئدة بأحكام سورة المائدة**، ط١، دار ابن رجب.
- خليل، إبراهيم (٢٠٠٩م)، **في نظرية الأدب وعلم النص**، ط١، الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ودار الاختلاف، الجزائر.
- دراز، محمد عبد الله (١٩٨٥م)، **النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن**، د.ط، دار الثقافة، الدوحة.
- دروزة، محمد عزة (٢٠٠٠م)، **التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول**، ط٢، دار الغرب الإسلامي.
- ـــــــــــــــــــ (د.ت)، **القرآن المجيد**، د.ط، منشورات المكتبة العصرية.
- الدوسري، منيرة محمد ناصر(١٤٢٦ هـ)، **أسماء سور القرآن وفضائلها**، ط١، دار ابن الجوزي.
- بني دومي، خالد (٢٠٠٦م). **دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، ط١، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

- دي بوجراند، روبرت (١٩٩٨م). **النص والخطاب والإجراء**، (ترجمة: تمام حسان)، ط١، عالم الكتاب.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي (ت:٦٠٦هـ) (١٩٩٥م)، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، (قدّم له الشيخ: خليل محي الدين الميْس)، د.ط، دار الفكر.
- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت:٧٠٨هـ) (١٩٩٠م)، **البرهان في ترتيب سور القرآن**، (تحقيق: محمد شعباني)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- الزحيلي، وهبة (٢٠٠٩م)، **التفسير المنير**، ط١٠، دار الفكر، دمشق.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم (١٩٨٨م)، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، د. ط، دار الفكر.
- الزركشي، الإمام بدرَ الدين محمد بن عبد الله (ت:٧٩٤هـ) (١٩٧١م)، **البرهان في علوم القرآن**، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- زقزوق، محمود حمدي وآخرون (د.ت)، **الموسوعة القرآنية المتخصصة**، د. ط د. ن.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت:٥٣٨هـ) (١٩٩٨م)، **الكشاف**، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض)، ط١، مكتبة العبيكان.
- ———— (١٩٨٥م). **أساس البلاغة**، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الزناد، الأزهر (١٩٩٣م). **نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا**، د.ط، المركز الثقافي العربي، بيروت، والدار البيضاء.
- ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (ت: ٦٥١هـ) (١٩٧٤م)، **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، (تحقيق: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي)، د.ط، مطبعة العاني، بغداد.
- السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٦م)، **التعبير القرآني**، ط٤، دار عمار، الأردن.
- ———— ، د. ت، **أسئلة بيانية في القرآن الكريم**، ط١، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، مكتبة التابعين، القاهرة.
- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي (ت:٩٨٢هـ) (١٩٩٩م)، **إرشاد العقل السليم**، (وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف (ت:٧٥٦هـ) (١٩٩١م). **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، (تحقيق: أحمد محمد الخرا ط)، ط ١، دار القلم، دمشق.
- ———————— (١٩٩٦م). **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، (تحقيق: محمد باسل عيون السود)، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت:٩١١هـ) (١٩٨٣م). **أسرار ترتيب القرآن**، (تحقيق: عبد القادر أحمد عطا)، د. ط، دار السلامة، تونس.
- ———————— (١٩٨٣م) ، **تناسق الدرر في تناسب السور**، (تحقيق: عبد الله محمد درويش)، ط١، عالم التراث، دمشق.
- ————————،(١٩٨٨م)، **الإتقان في علوم القرآن**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، د.ط، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- ————————،(١٩٩٤م) **قطف الأزهار**، (تحقيق: أحمد بن محمد الحمادي)، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
- ———————— ، (٢٠٠٠م)، **ترتيب سور القرآن**، (تحقيق: السيد الجميلي)، ط الأخيرة، دار ومكتبة الهلال.
- ———————— ، (٢٠٠٢م)، **لباب النقول في أسباب النزول**، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية.
- ———————— ، (٢٠٠٧م)، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، ط١، مكتبة الرحاب.
- ———————— ، (د. ت)، **علم المناسبات في السور والآيات ويليه: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع**، (تحقيق: محمد بن عمر بن سالم بازمول)، د. ط، المكتبة المكية.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد (ت:٧٩٠هـ) (١٣٤١هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، د.ط، المطبعة السلفية، مصر.
- الشافعي، محمد الأمين بن عبد الله، (٢٠٠١م)، **تفسير حدائق الروح والريحان**، (إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي)، ط١، دار طوق النجاة، بيروت ، لبنان.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان (ت:٢٠٤هـ) (٢٠٠٩م). **الرسالة**، (تحقيق: عبد اللطيف هميم)، ط١، د.ن.

- الشاوش، محمد (٢٠٠١م)، **أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النص**، ط١، تونس، كلية الآداب بمنوبة، المؤسسة العربية للتوزيع.
- شبيل، الحبيب (١٩٩٢ م). **من النص إلى سلطة التأويل**، بحث منشور ضمن كتاب **"صناعة المعنى وتأويل النص "**، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس.
- شحاتة، عبد الله محمود (١٩٨٦م)، **أهداف كل سورة ومقاصدها**، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شرشار،عبد القادر (٢٠٠٦م). **تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص**، ط١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- شيخون، محمود السيد (١٣٩٨هـ) **الإعجاز في نظم القرآن**، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية.
- الشعراوي، محمد متولي (١٩٩٧م)، **تفسير الشعراوي**، د. ط، د.ن.
- الشنقيطي، محمد الأمين (د. ت)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، د. ط، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد.
- الشهرستاني، أبو الفتح تاج الدين محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت:٥٤٨هـ) (١٩٧٥م)، **الملل والنحل**، (تحقيق: محمد سيد كيلاني)، ط٢، الناشر مصطفى البابي الحلبي.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت: ١٢٥٠هـ) (د. ت)، **فتح القدير الجامع بين فَنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، د. ط، دار الأرقم.
- صافي، محمود (١٩٩٥م). **الجدول في إعراب القرآن**، ط٣، دار الرشيد، مطبعة الإيمان.
- صحراوي، إبراهيم (١٩٩٩م). **تحليل الخطاب الأدبي، دراسة تطبيقية**، ط١، دار الآفاق، الجزائر.
- الصعيدي، عبد المتعال، د. ت، **النظم الفني في القرآن**، د.ط، المطبعة النموذجية.ضيف، شوقي (١٩٨٧م)، **التطور والتجديد**، ط٨، دار المعارف.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت:٣١٠هـ) (٢٠٠٠م)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط١، مؤسسة الرسالة.
- طرهوني، محمد بن رزق (د.ت)، **موسوعة فضائل سور وآيات القرآن**، د. ط، دار ابن القيم.
- طعيمة، صابر (١٩٦٩م)، **اليهود في موكب التاريخ**، د.ط، القاهرة.
- الظواهري، كاظم (١٩٩١م). **بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم**، ط١،د. ن.

- العابد، أحمد وآخرون (١٩٨٩م). **المعجم العربي الأساسي " لاروس"**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، ألكسو.
- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر (١٩٩٧م)، **التحرير والتنوير**، الطبعة التونسية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- عبد الباقي، محمود فؤاد (٢٠٠٢م). **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، د.ط، دار الحديث.
- عبد البديع، أشرف (٢٠٠٣م). **الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم**، دار فرحة للنشر، القاهرة.
- عبد الراضي، أحمد (٢٠٠٨م). **نحو النص بين الأصالة والحداثة**، ط١، مكتبة الثقافة الدينية.
- عبد اللطيف، محمد حماسة (٢٠٠١م). **الإبداع الموازي: التحليل النصي للشعر**، دار غريب.
- عبد المجيد، جميل (١٩٩٨م). **البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- العبد، محمد (٢٠٠٥م). **النص والخطاب والاتصال**، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة.
- عبد المطلب، محمد (١٩٩٧م). **البلاغة العربية قراءة أخرى**، ط١، مكتبة لبنان ناشرون.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت:٢٢٤هـ) (١٩٩٥م). **فضائل القرآن ومعالمه وأدابه**، (تحقيق: مروان العطية وآخرون)، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.
- ابن عرفة، أبو محمد بن محمود التونسي المالكي (ت:٨٠٣هـ) (٢٠٠٧م). **تفسير ابن عرفة**، (تحقيق: جلال الأسيوطي)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- عزّام، محمّد (٢٠٠١م). **النَّصُّ الغائب تجلّيات التّناصّ في الشعر العربي**، د. ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق.
- عزيز، صالح ملا (٢٠١٠م). **جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني**، ط١، دار الزمان.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد (ت:٣٩٥هـ) (د.ت)، **الفروق اللغوية**، (ضبطه وحققه : حسام الدين القدسي)، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ــــــــــــ، (١٩٥٢م). **كتاب الصناعتين**، (تحقيق: علي محمد البيجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم)، ط١، دار إحياء الكتب العربي.

- العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر (ت:٨٥٢هـ) (٢٠٠١م)، **فتح الباري**، (تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد)، ط١، د.ن.
- ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب (ت: ٥٤٦ هـ) (٢٠٠١م)، **المحرر الوجيز**، (تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- عفيفي، أحمد (٢٠٠١م)، **نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي**، ط١، مكتب زهراء الشرق، القاهرة.
- العمار، عبد العزيز بن صالح (٢٠٠٧م)، **التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن**، ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
- العموش، خلود (٢٠٠٥م)، **الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق "مثل من سورة البقرة "**، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد.
- أبو عودة، عودة (١٩٨٥م)، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، دراسة دلالية مقارنة**، مصدر سابق، ط١، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.
- عياشي، منذر (١٩٩٠م)، **مقالات في الأسلوبية**، د. ط، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- أبو غزالة، إلهام، و حمد،علي خليل (١٩٩٢م). **مدخل إلى علم النص**، ط١، مطبعة دار الكتاب.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد **بن** فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت:٣٩٥ هـ) (١٩٧٩م). **مقاييس اللغة** ، (تحقيق: عبد السلام هارون)، د. ط، دار الفكر.
- الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد (ت: ٣٧٧هـ) (٢٠٠٧ م) **الحجة في القراءات السبع**، (تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الفرّاهي، نظام الدين (٢٠٠٨م). **تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان**، ط١، الدائرة الحميدية، يو – بي، الهند.
- الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت:١٧٩هـ) (٢٠٠٣م)، **معجم العين**، (ترتيب وتحقيق: عبد الحميد الهنداوي)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- فضل، صلاح، د.ت، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، عالم المعرفة، العدد ١٦٤.
- الفقي، صبحي إبراهيم (٢٠٠٠م). **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية**، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت:٨١٧هـ) (١٩٧٨م). **القاموس المحيط**، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ـــــــــــــــــ ، (١٩٩٦م)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، (تحقيق: محمد علي النجار، وعبد العليم الطحاوي)، ط٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- القاسمي، جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت:١٣٣٢هـ) (١٩٥٧م)، **تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل**، (علّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، د. ن.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم (ت:٦٨٤هـ) (١٩٨٦م). **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، (تقديم: محمد الحبيب ابن الخوجة)، ط٣، دار الغرب الإسلامي.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت:٦٧١هـ) (١٩٩٦م)، **الجامع لأحكام القرآن**، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- القزويني، أبو عبد الله بن زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ) (١٩٩٨م). **الإيضاح في علوم البلاغة**، ط٤، (تحقيق: السيد الجميلي)، دار إحياء العلوم، بيروت.
- قطب، سيد (١٩٨٢)، **التصوير الفني في القرآن** ، ط ٧، ص ٣٤، دار الشروق، بيروت، القاهرة.
- ـــــــــــــ (١٩٨٨م)، **في ظلال القرآن**، ط١٥، دار الشروق.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (ت:٤٦٣هـ) (د.ت). **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، د. ط، دار الجيل، بيروت.
- القيسي، مكي بن أبي طالب (١٩٧٥م)، مشكل إعراب القرآن، ط١، تحقيق: حاتم الضامن، بغداد، سلسلة كتب التراث (٣٨).
- ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت:٧٥١هـ) (١٩٩٧م)، **تهذيب مدارج السالكين**، (تحقيق: عبد المنعم صالح العلي العربي)، ط٣، دار قتيبة للطباعة والنشر.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن عمر(ت: ٧٧٤ هـ) (١٩٩٧م)، **تفسير القرآن العظيم**، (تحقيق: أبو إسحاق الحويني الأثري)، ط١، دار ابن الجوزي.
- كريستيفا، جوليا (١٩٩٧م).**علم النص**، (ترجمة: فريد الزاهي)، ط٢، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.
- لاشين، عبد الفتاح (١٩٨٣م)، **من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة**، د. ط، دار المريخ، الرياض.

- أبو المكارم، علي(٢٠٠٦م).**الظواهر اللغوية في التراث النحوي**، ط١، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت:٢٧٦هـ) (د. ت).**المقتضب**، (تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة)، (د. ط) ،عالم الكتب، بيروت.
- المتوكل، أحمد (١٩٩٥م)، **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية**، د. ط، دار الأمان، الرباط.
- المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله (ت:٧٤٩هـ) (١٩٧٦م). **الجني الداني في حروف المعاني**، (تحقيق: طه محسن)، د.ط، د.ن.
- المراغي، أحمد مصطفى (١٩٤٦م)، **تفسير المراغي**، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- المسدّي، عبد السلام (١٩٨٦م)، **اللسانيات وأسسها المعرفية**، د. ط، الدار التونسية للنشر والتوزيع- تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- ــــــــــــــ ، (١٩٩١م). **قضية البنيوية: دراسة ونماذج**، ط١، وزارة الثقافة، تونس.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت:٢٦١هـ) (٢٠٠٣م)، **صحيح مسلم**، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.
- المطعني، عبد العظيم (١٩٩٩م)، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على، (٧١٤هـ (١٩٥٦م)، **لسان العرب**، د.ط، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
- المهيري، عبد القادر وآخرون (١٩٩٠م)، **أهم المدارس اللسانية**، ط٢، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية ، تونس.
- الميداني، ابن حبنّكة (٢٠٠٠م)، **معارج التفكر ودقائق التدبر**، ط١، دار القلم، دمشق.
- الناخبي، سامح علي ناصر (٢٠٠٩م)، **إتحاف الخلان بفوائد من علوم القرآن**، ط١، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي.
- ناصر، عمارة (٢٠٠٧م). **اللغة والتأويل**، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.
- ناصف، مصطفى (د. ت). **نظرية المعنى في النقد العربي**، د. ط، دارالأندلس، بيروت.

- نحلة، محمود أحمد (١٩٨٨م). **مدخل إلى دراسة الجملة العربية**، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
- نور الدين، صدوق (١٩٨٤م). **حدود النص الأدبي : دراسة في التنظير والإبداع**، د.ط، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- هاتيه، فولفجانج، وفيهفيجر، ديتر (١٩٩٦م). **مدخل إلى علم اللغة النصي**، (ترجمة: فالح بن شبيب العجمي)، د. ط، نشر جامعة الملك سعود، الرياض- المملكة العربية السعودية.
- ابن هشام، أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف (ت:٧٦١هـ) (١٩٨٥م). **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، (تحقيق: مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله)، ط ٦، دار الفكر، دمشق.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت:٤٦٨هـ) (١٩٦٨م)، **أسباب نزول القرآن**، ط١، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
- وهبة، مجدي و المهندس، كامل (د . ت)، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، (د . ط)، مكتبة لبنان، بيروت.
- يعقوب، إميل، وآخرون (١٩٨٧م). **قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية**، ط١، دار العلم للملاين، بيروت، لبنان.
- ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش (ت:٦٤٣هـ) (٢٠٠١م). **شرح المفصّل**، (قدّم له ووضع هوامشه: إميل بديع يعقوب)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
- يقطين، سعيد (١٩٩٣م). **تحليل الخطاب الروائي، الزمن ، السرد ، التبئير**، ط٢، المركز الثقافي العربي.

الرسائل الجامعية:

- بعيطيش، يحيى (٢٠٠٦م)، **نحو نظرية وظيفية للنحو العربي**، رسالة دكتوراة، إشراف: عبد الله بو خلخال، جامعة منتوري وقسنطينة، الجزائر.
- دبور، محمد عبد الإله عبده (١٩٩٦م)، **أسس بناء القصة من القرآن الكريم**، دراسة أدبية ونقدية، رسالة دكتوراة، إشراف: فتحي محمد أبو عيسى، جامعة الأزهر.
- جلال، سليمة (٢٠٠٩م)، **أسماء السور في القرآن الكريم مقاربة لسانية سيميائية**، رسالة ماجستير، إشراف: بلقاسم ليبارير، جامعة الحاج لخضر، باتنة.

الدوريات:

- باري، هرمان (٢٠٠٥م)، **الخطاب**، (ترجمة: محمد أسيداه)، مجلة نوافذ، عدد٣٤، ديسمبر، النادي الأدبي بجدة، السعودية.
- بصل، محمد إسماعيل (١٩٩٤م). **التراكم العلاماتي بين النص المكتوب والنص المنطوق**، مجلة المعرفة، عدد٣٧٠، سوريا، دمشق.
- بو عزة، محمد (٢٠٠٤م)، **من النص إلى العنوان**، مجلة علامات في النقد، جزء٥٣، مجلد١٤، جدة.
- عبد السلام، مصطفى بيومي (٢٠٠٩م)، **سلطة الأبوة، النص والعلاقات النصية عند العرب**، علامات في النقد، جزء٧٠، مجلد ١٨، جدة.
- علي، عبد الوهاب محمد (١٩٧٧م)، **أمالي مصطفى جواد في فن تحقيق النصوص**، مجلة المورد العراقية، المجلد ٧ ، العدد١، بغداد.
- عياشي، منذر (١٩٩٢م)، **النص ممارساته وتجلّياته**، الفكر العربي المعاصر، عدد ٩٦-٩٧، بيروت.
- فرحات، أحمد حسن (١٩٨٧م)، **دراسات في مشكل القرآن؛ تأويل ثلاث آيات متشابهات**، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة الرابعة، العدد الثامن، ، ١٤٠٧هـ، جامعة الكويت.
- مصلوح، سعد (١٩٩١م)، **نحو آجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية**، مجلة فصول، مجلد (١٠)، العددان (١،٢)، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة.
- يقطين، سعيد (٢٠٠٣م)، **من النص إلى النص المترابط**، مجلة عالم الفكر، العدد ٢، مجلد ٣٢، الكويت.

البحوث المنشورة على شبكة الإنترنت:

- داود، فطيمة، **مفهوم الجملة العربية من المنظور الوصفي إلى المنظور الوظيفي**.

www.journals.istanbul.edu.tr/iusarkiyat/article/download/.../١٠٢٣٠١٦٠٢٧

- السامرائي، فاضل، **لمسات بيانية في سورة المائدة**.

www.startimes.com/f.aspx?t=٣٢٩٩٧٢٨٠

- العربي، ربيعة، **الحد بين النص والخطاب.**

www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=٣٠٢٥٨١

- العمر، ناصر بن سليمان، **العهد والميثاق في القرآن الكريم.**

www.almoslim.net/documents/al٣ahd_١.doc

- العمري، عبد الحفيظ أحمد، **مقالات في القصة القرآنية**، إصدارات موقع عيون المعرفة.

knoweyes.blogspot.com/p/blog-page_٢٩.html

- النعيمي، حسام، **لمسات بيانية في سورة المائدة.**

www.startimes.com/f.aspx?t=٣٤٠٣٦٠٨١